سلسلة تفسير القرآن
17

أبو القاسم الزّمخشري

الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل

الجزء السّادس عشر

تدقيق
أسعد جمعة

دار كيرانيس للطّباعة والنّشر والتّوزيع
2024

النّاشر: شركة كيرانيس للطّباعة والنّشر والتّوزيع
العنوان: إقامة الزّيتونة – III/2 – المنار 2 – تونس – الجمهوريّة التّونسيّة
الهاتف: 71886914 216+
الفاكس: 71886872 216+
العنوان الالكتروني: JomaaAssaad@yahoo.fr
معرّف النّاشر: 02-9938
عدد الطّبعة: الأولى
ت د م ك: 978-9938-02-070-6

© جميع الحقوق محفوظة لشركة كيرانيس للطّباعة والنّشر والتّوزيع

أبو القاسم الزّمخشري

الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل

الجزء السّادس عشر

سورة الشورى

سورة الشورى

مَكِّيَّةٌ [إِلَّا الْآيَاتِ 23 و 24 و 25 و 27 فَمَدَنِيَّةٌ]
وَآيَاتُهَا 53
[نَزَلَتْ بَعْدَ سُورَةِ فُصِّلَتْ]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حم عسق كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الأَرْضِ أَلا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[1]

قَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَابْنُ مَسْعُودٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا– "حم سق".

﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ﴾[2]، أَيْ: مِثْلُ ذَلِكَ الْوَحْيِ، أَوْ مِثْلُ ذَلِكَ الْكِتَابِ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الرُّسُلِ.

﴿مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ﴾[3]، يَعْنِي أَنَّ مَا تَضَمَّنَتْهُ هَذِهِ السُّورَةُ مِنَ الْمَعَانِي قَدْ أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْكَ مِثْلَهُ في غَيْرِهَا مِنَ السُّوَرِ، وَأَوْحَاهُ مِنْ قَبْلِكَ إِلَى رُسُلِهِ، عَلَى مَعْنَى: أَنَّ اللَّهَ –تَعَالَى– كَرَّرَ هَذِهِ الْمَعَانِيَ في الْقُرْآنِ في جَمِيعِ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ، لِمَا فيها مِنَ التَّنْبِيهِ الْبَلِيغِ وَاللُّطْفِ

---

[1] سورة الشُّورَى، الآية .

[2] سورة الشُّورَى، الآية .

[3] سورة الشُّورَى، الآية .

الْعَظِيمِ لِعِبَادِهِ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخَرِينَ، وَلَمْ يَقُلْ: أُوحِيَ إِلَيْكَ، وَلَكِنْ عَلَى لَفْظِ الْمُضَارِعِ، لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّ إِيحَاءً مِثْلَهُ عَادَتُهُ. وَقُرِئَ (يُوحَى إِلَيْكَ) عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا رَافِعُ اسْمِ اللَّهِ عَلَى هَذِهِ الْقِرَاءَةِ؟

قُلْتُ: مَا دَلَّ عَلَيْهِ يُوحِي، كَأَنَّ قَائِلًا قَالَ: مَنِ الْمُوحَى؟ فَقِيلَ: اللَّهُ، كَقِرَاءَةِ السُّلَمِيِّ: ﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ﴾[1] عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ وَرَفْعِ شُرَكَائِهِمْ، عَلَى مَعْنَى: زَيَّنَهُ لَهُمْ شُرَكَاؤُهُمْ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا رَافِعُهُ فِيمَنْ قَرَأَ نُوحِي بِالنُّونِ؟

قُلْتُ: يَرْتَفِعُ بِالِابْتِدَاءِ. وَالْعَزِيزُ وَمَا بَعْدَهُ: أَخْبَارٌ، أَوِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ: صِفَتَانِ، وَالظَّرْفُ خَبَرٌ. قُرِئَ: (تَكَادُ) بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ. وَيَنْفَطِرْنَ، وَيَتَفَطَّرْنَ.

وَرَوَى يُونُسُ عَنْ أَبِي عَمْرٍو قِرَاءَةً غَرِيبَةً (تَتَفَطَّرْنَ) بِتَاءَيْنِ مَعَ النُّونِ، وَنَظِيرُهَا حَرْفٌ نَادِرٌ.

رُوِيَ فِي نَوَادِرِ ابْنِ الْأَعْرَابِيِّ: الْإِبِلُ تَشْمُمْنَ، وَمَعْنَاهُ: يَكَدْنَ يَنْفَطِرْنَ مِنْ عُلُوِّ شَأْنِ اللَّهِ وَعَظَمَتِهِ، يَدُلُّ عَلَيْهِ مَجِيئُهُ بَعْدَ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ. وَقِيلَ: مِنْ دُعَائِهِمْ لَهُ وَلَدًا، كَقَوْلِهِ – تَعَالَى–: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾[2] .

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ قَالَ: ﴿مِنْ فَوْقِهِنَّ﴾[3]؟

قُلْتُ: لِأَنَّ أَعْظَمَ الْآيَاتِ وَأَدُلَّهَا عَلَى الْجَلَالِ وَالْعَظَمَةِ: فَوْقَ السَّمَاوَاتِ، وَهِيَ: الْعَرْشُ، وَالْكُرْسِيُّ، وَصُفُوفُ الْمَلَائِكَةِ الْمُرْتَجَّةِ بِالتَّسْبِيحِ وَالتَّقْدِيسِ حَوْلَ الْعَرْشِ، وَمَا لَا يَعْلَمُ كُنْهَهُ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى مِنْ آثَارِ مَلَكُوتِهِ الْعُظْمَى، فَلِذَلِكَ قَالَ: ﴿يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ﴾[4]، أَيْ يَبْتَدِئُ الِانْفِطَارُ مِنْ جِهَتِهِنَّ الْفَوْقَانِيَّةِ. أَوْ: لِأَنَّ كَلِمَةَ الْكُفْرِ جَاءَتْ مِنَ الَّذِينَ تَحْتَ السَّمَاوَاتِ، فَكَانَ الْقِيَاسُ أَنْ يُقَالَ: يَنْفَطِرْنَ مِنْ تَحْتِهِنَّ مِنَ الْجِهَةِ الَّتِي جَاءَتْ مِنْهَا الْكَلِمَةُ، وَلَكِنَّهُ بُولِغَ فِي ذَلِكَ، فَجَعَلَتْ مُؤَخَّرَةً فِي جِهَةِ الْفَوْقِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: يَكَدْنَ يَنْفَطِرْنَ مِنَ الْجِهَةِ الَّتِي فَوْقَهُنَّ دَعِ الْجِهَةَ الَّتِي تَحْتَهُنَّ.

---

[1] سورة الْأَنْعَامُ، الآية 137.

[2] سورة مَرْيَمُ، الآية 90.

[3] سورة الشُّورَى، الآية .

[4] سورة الشُّورَى، الآية .

وَنَظِيرُهُ فِي الْمُبَالَغَةِ قَوْلُهُ –عَزَّ وَعَلَا–: ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ﴾[1]، فَجَعَلَ الْحَمِيمَ مُؤَثِّرًا فِي أَجْزَائِهِمُ الْبَاطِنَةِ. وَقِيلَ: مِنْ فَوْقِهِنَّ: مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِينَ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ صَحَّ أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِمَنْ فِي الْأَرْضِ وَفِيهِمُ الْكُفَّارُ أَعْدَاءُ اللَّهِ؟ وَقَدْ قَالَ اللَّهُ –تَعَالَى–: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ﴾[2]، فَكَيْفَ يَكُونُونَ لَاعِنِينَ مُسْتَغْفِرِينَ لَهُمْ؟

قُلْتُ: قَوْلُهُ: ﴿لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾[3] يَدُلُّ عَلَى جِنْسِ أَهْلِ الْأَرْضِ، وَهَذِهِ الْجِنْسِيَّةُ قَائِمَةٌ فِي كُلِّهِمْ وَفِي بَعْضِهِمْ، فيجُوزُ أَنْ يُرَادَ بِهِ هَذَا وَهَذَا.

وَقَدْ دَلَّ الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ الْمَلَائِكَةَ لَا يَسْتَغْفِرُونَ إِلَّا لِأَوْلِيَاءِ اللَّهِ وَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ، فَمَا أَرَادَ اللَّهُ إِلَّا إِيَّاهُمْ.

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ –تَعَالَى– فِي سُورَةِ الْمُؤْمِنِ: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾[4] وَحِكَايَتُهُ عَنْهُمْ، ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾[5]، كَيْفَ وَصَفُوا الْمُسْتَغْفَرَ لَهُمْ بِمَا يَسْتَوْجِبُ بِهِ الِاسْتِغْفَارِ، فَمَا تَرَكُوا لِلَّذِينَ لَمْ يَتُوبُوا مِنَ الْمُصَدِّقِينَ طَمَعًا فِي اسْتِغْفَارِهِمْ؟ فَكَيْفَ لِلْكَفَرَةِ؟!

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَقْصِدُوا بِالِاسْتِغْفَارِ: طَلَبَ الْحِلْمِ وَالْغُفْرَانِ فِي قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا﴾[6] إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[7]، وَقَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾[8]، وَالْمُرَادُ: الْحِلْمُ عَنْهُمْ، وَأَنْ لَا يُعَالِجَهُمْ بِالِانْتِقَامِ، فيكُونُ عَامًّا.

---

1 سورة الْحَجُّ، الآيتان 19–20.
2 سورة الْبَقَرَةُ، الآية 161.
3 سورة الشُّورَى، الآية .
4 سورة غَافِرٌ، الآية 7.
5 سورة غَافِرٌ، الآية 77.
6 سورة فَاطِرٌ، الآية 41.
7 سورة الْإِسْرَاءُ، الآية 44.
8 سورة الرَّعْدُ، الآية 66.

فَإِنْ قُلْتَ: قَدْ فَسَّرْتَ قَوْلَهُ –تَعَالَى–: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ﴾[1] بِتَفْسِيرَيْنِ، فَمَا وَجْهُ طِبَاقِ مَا بَعْدَهُ لَهُمَا؟

قُلْتُ: أَمَّا عَلَى أَحَدِهِمَا، فَكَأَنَّهُ قِيلَ: تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَنْفَطِرْنَ هَيْبَةً مِنْ جَلَالِهِ وَاحْتِشَامًا مِنْ كِبْرِيَائِهِ، وَالْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ هُمْ مِلْءُ السَّبْعِ الطِّبَاقِ وَحَافُّونَ حَوْلَ الْعَرْشِ صُفُوفًا بَعْدَ صُفُوفٍ يُدَاوِمُونَ –خُضُوعًا لِعَظَمَتِهِ– عَلَى عِبَادَتِهِ وَتَسْبِيحِهِ وَتَحْمِيدِهِ، وَيَسْتَغْفِرْنَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ خَوْفًا عَلَيْهِمْ مِنْ سَطَوَاتِهِ.

وَأَمَّا عَلَى الثَّانِي: فَكَأَنَّهُ قِيلَ: يَكَدْنَ يَنْفَطِرْنَ مِنْ إِقْدَامِ أَهْلِ الشِّرْكِ عَلَى تِلْكَ الْكَلِمَةِ الشَّنْعَاءِ، وَالْمَلَائِكَةُ يُوَحِّدُونَ اللَّهَ وَيُنَزِّهُونَهُ عَمَّا لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ مِنَ الصِّفَاتِ الَّتِي يُضِيفُهَا إِلَيْهِ الْجَاهِلُونَ بِهِ، حَامِدِينَ لَهُ عَلَى مَا أَوْلَاهُمْ مِنْ أَلْطَافِهِ الَّتِي عَلِمَ أَنَّهُمْ عِنْدَهَا يَسْتَعْصِمُونَ، مُخْتَارِينَ غَيْرَ مُلْجِئِينَ، وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمُؤْمِنِي أَهْلِ الْأَرْضِ الَّذِينَ تَبَرَّءُوا مِنْ تِلْكَ الْكَلِمَةِ وَمِنْ أَهْلِهَا، أَوْ يَطْلُبُونَ إِلَى رَبِّهِمْ أَنْ يَحْلُمَ عَنْ أَهْلِ الْأَرْضِ وَلَا يُعَاجِلَهُمْ بِالْعِقَابِ مَعَ وُجُودِ ذَلِكَ فِيهِمْ، لَمَّا عَرَفُوا فِي ذَلِكَ مِنَ الْمَصَالِحِ، وَحِرْصًا عَلَى نَجَاةِ الْخَلْقِ، وَطَمَعًا فِي تَوْبَةِ الْكُفَّارِ وَالْفُسَّاقِ مِنْهُمْ.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾[2]

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾[3]: جَعَلُوا لَهُ شُرَكَاءَ وَأَنْدَادًا.

﴿اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾[4] رَقِيبٌ عَلَى أَحْوَالِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ لَا يَفُوتُهُ مِنْهَا شَيْءٌ، وَهُوَ مُحَاسِبُهُمْ عَلَيْهَا وَمُعَاقِبُهُمْ وَلَا رَقِيبَ عَلَيْهِمْ إِلَّا هُوَ وَحْدَهُ.

﴿وَمَا أَنْتَ﴾[5] يَا مُحَمَّدُ بِمُوَكَّلٍ بِهِمْ وَلَا مُفَوَّضَ إِلَيْكَ أَمْرَهُمْ، وَلَا قَسْرَهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ. إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ فَحَسْبُ.

---

1 سورة الشُّورَى، الآية .

2 سورة الشُّورَى، الآية .

3 سورة الشُّورَى، الآية .

4 سورة الشُّورَى، الآية .

5 سورة الشُّورَى، الآية .

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾[1]

وَمِثْلُ ذَلِكَ ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾[2]، وَذَلِكَ إِشَارَةٌ إِلَى مَعْنَى الْآيَةِ قَبْلَهَا: مِنْ أَنَّ اللَّهَ – تَعَالَى– هُوَ الرَّقِيبُ عَلَيْهِمْ، وَمَا أَنْتَ بِرَقِيبٍ عَلَيْهِمْ، وَلَكِنْ نَذِيرٌ لَهُمْ، لِأَنَّ هَذَا الْمَعْنَى كَرَّرَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ فِي مَوَاضِعَ جَمَّةٍ، وَالْكَافُ مَفْعُولٌ بِهِ لَأَوْحَيْنَا.

وَ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾[3] حَالٌ مِنَ الْمَفْعُولِ بِهِ، أَيْ أَوْحَيْنَاهُ إِلَيْكَ وَهُوَ قُرْآنٌ عَرَبِيٌّ بَيِّنٌ، لَا لَبْسَ فِيهِ عَلَيْكَ، لِتَفْهَمَ مَا يُقَالُ لَكَ، وَلَا تَتَجَاوَزُ حَدَّ الْإِنْذَارِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ إِشَارَةً إِلَى مَصْدَرِ ﴿أَوْحَيْنَا﴾[4]، أَيْ: وَمِثْلُ ذَلِكَ الْإِيحَاءِ الْبَيِّنِ الْمُفْهِمِ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا بِلِسَانِكَ.

﴿لِتُنْذِرَ﴾[5] يُقَالُ: أَنْذَرْتُهُ كَذَا وَأَنْذَرْتُهُ بِكَذَا. وَقَدْ عَدَّى الْأَوَّلَ، أَعْنِي: لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى، إِلَى الْمَفْعُولِ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي، وَهُوَ قَوْلُهُ: وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ إِلَى الْمَفْعُولِ الثَّانِي.

﴿ أُمَّ الْقُرَى﴾:[6] أَهْلُ أُمِّ الْقُرَى كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾[7].

﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾[8]: مِنَ الْعَرَبِ.

وَقُرِئَ (لِيُنْذِرَ) بِالْيَاءِ وَالْفِعْلُ لِلْقُرْآنِ.

---

1 سورة الشُّورَى، الآية .

2 سورة الشُّورَى، الآية .

3 سورة الشُّورَى، الآية .

4 سورة الشُّورَى، الآية .

5 سورة الشُّورَى، الآية .

6 سورة الشُّورَى، الآية .

7 سورة يُوسُف، الآية 82.

8 سورة الشُّورَى، الآية .

﴿يَوْمَ الْجَمْعِ﴾[1]: يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لِأَنَّ الْخَلَائِقَ تُجْمَعُ فيهِ. قَالَ اللَّهُ –تَعَالَى–: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾[2].

وَقِيلَ: يَجْمَعُ بَيْنَ الْأَرْوَاحِ وَالْأَجْسَادِ. وَقِيلَ: يَجْمَعُ بَيْنَ كُلِّ عَامِلٍ وَعَمَلِهِ.

وَ﴿لا رَيْبَ فِيهِ﴾[3]: اعْتِرَاضٌ لَا مَحَلَّ لَهُ.

قُرِئَ (فَرِيقٌ) وَفَرِيقَ، بِالرَّفْعِ وَالنَّصْبِ، فَالرَّفْعُ عَلَى: مِنْهُمْ فَرِيقٌ، وَمِنْهُمْ فَرِيقٌ. وَالضَّمِيرُ لِلْمَجْمُوعِينَ، لِأَنَّ الْمَعْنَى: يَوْمَ جَمْعِ الْخَلَائِقِ. وَالنَّصْبُ عَلَى الْحَالِ مِنْهُمْ، أَيْ: مُتَفَرِّقِينَ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾[4].

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ يَكُونُونَ مَجْمُوعِينَ مُتَفَرِّقِينَ فِي حَالَةٍ وَاحِدَةٍ؟

قُلْتُ: هُمْ مَجْمُوعُونَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مَعَ افْتِرَاقِهِمْ فِي دَارَيِ الْبُؤْسِ وَالنَّعِيمِ، كَمَا يَجْتَمِعُ النَّاسُ يَوْمُ الْجُمْعَةِ مُتَفَرِّقِينَ فِي مَسْجِدَيْنِ.

وَإِنْ أُرِيدَ بِالْجَمْعِ: جَمْعُهُمْ فِي الْمَوْقِفِ، فَالتَّفَرُّقُ عَلَى مَعْنَى مُشَارَفَتِهِمْ لِلتَّفَرُّقِ.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾[5]

﴿لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾[6]، أَيْ: مُؤْمِنِينَ كُلُّهُمْ عَلَى الْقَسْرِ وَالْإِكْرَاهِ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾[7]، وَقَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾[8].

---

1 سورة الشُّورَى، الآية .

2 سورة التَّغَابُنُ، الآية 99.

3 سورة الشُّورَى، الآية .

4 سورة الرُّومُ، الآية 144.

5 سورة الشُّورَى، الآية .

6 سورة الشُّورَ، الآية .

7 سورة السَّجْدَةُ، الآية 13.

8 سورة يُونُسُ، الآية 99.

وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ الْمَعْنَى هُوَ الْإِلْجَاءُ إِلَى الْإِيمَانِ: قَوْلُهُ: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[1].

وَقَوْلُهُ -تَعَالَى-: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ﴾[2] بِإِدْخَالِ هَمْزَةِ الْإِنْكَارِ عَلَى الْمُكْرَهِ دُونَ فِعْلِهِ. دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ اللَّهَ وَحْدَهُ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى هَذَا الْإِكْرَاهِ دُونَ غَيْرِهِ.

وَالْمَعْنَى: وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَشِيئَةَ قُدْرَةٍ لَقَسَرَهُمْ جَمِيعًا عَلَى الْإِيمَانِ، وَلَكِنَّهُ شَاءَ مَشِيئَةَ حِكْمَةٍ، فَكَلَّفَهُمْ وَبَنَى أَمْرَهُمْ عَلَى مَا يَخْتَارُونَ، لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ فِي رَحْمَتِهِ، وَهُمُ الْمُرَادُونَ بِمَنْ يَشَاءُ.

أَلَا تَرَى إِلَى وَضْعِهِمْ فِي مُقَابَلَةِ الظَّالِمِينَ وَيَتْرُكُ الظَّالِمِينَ بِغَيْرِ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ فِي عَذَابِهِ؟!

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[3]

مَعْنَى الْهَمْزَةِ فِي "أَمْ" الْإِنْكَارُ، ﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾[4] هُوَ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يَتَوَلَّى وَحْدَهُ وَيَعْتَقِدَ أَنَّهُ الْمَوْلَى وَالسَّيِّدُ، فَالْفَاءُ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾[5]، جَوَابُ شَرْطٍ مُقَدَّرٍ، كَأَنَّهُ قِيلَ بَعْدَ إِنْكَارِ كُلِّ وَلِيٍّ سِوَاهُ: إِنْ أَرَادُوا وَلِيًّا بِحَقٍّ، فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ بِالْحَقِّ، لَا وَلِيَّ سِوَاهُ.

﴿وَهُوَ يُحْيِي﴾[6] أَيْ: وَمِنْ شَأْنِ هَذَا الْوَلِيِّ أَنَّهُ يُحْيِي ﴿الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[7]، فَهُوَ الْحَقِيقُ بِأَنْ يَتَّخِذَ وَلِيًّا دُونَ مَنْ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ.

---

[1] سورة يُونُسُ، الآية 99.
[2] سورة الشُّورَى، الآية .
[3] سورة الشُّورَى، الآية .
[4] سورة الشُّورَى، الآية .
[5] سورة الشُّورَى، الآية .
[6] سورة الشُّورَى، الآية .
[7] سورة الشُّورَى، الآية .

﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[1]

﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ﴾[2] حِكَايَةُ قَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– لِلْمُؤْمِنِينَ، أَيْ: مَا خَالَفَكُمْ فِيهِ الْكُفَّارُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ، فَاخْتَلَفْتُمْ أَنْتُمْ وَهُمْ فِيهِ مِنْ أَمْرٍ مِنْ أُمُورِ الدِّينِ، فَحُكْمُ ذَلِكَ الْمُخْتَلَفِ فِيهِ مُفَوَّضٌ إِلَى اللَّهِ –تَعَالَى–، وَهُوَ إِثَابَةُ الْمُحِقِّينَ فِيهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَمُعَاقَبَةُ الْمُبْطِلِينَ.

﴿ذَلِكُمْ﴾[3]الْحَاكِمُ بَيْنَكُمْ هُوَ ﴿اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾[4] فِي رَدِّ كَيْدِ أَعْدَاءِ الدِّينِ، ﴿وَإِلَيْهِ﴾[5] أَرْجِعُ فِي كِفَايَةِ شَرِّهِمْ.

وَقِيلَ: وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ وَتَنَازَعْتُمْ مِنْ شَيْءٍ مِنَ الْخُصُومَاتِ فَتَحَاكَمُوا فِيهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، وَلَا تُؤْثِرُوا عَلَى حُكُومَتِهِ حُكُومَةَ غَيْرِهِ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾[6].

وَقِيلَ: وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ تَأْوِيلِ آيَةٍ وَاشْتُبِهَ عَلَيْكُمْ، فَارْجِعُوا فِي بَيَانِهِ إِلَى الْمُحْكَمِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَالظَّاهِرِ مِنْ سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–.

وَقِيلَ: وَمَا وَقَعَ بَيْنَكُمُ الْخِلَافُ فِيهِ مِنَ الْعُلُومِ الَّتِي لَا تَتَّصِلُ بِتَكْلِيفِكُمْ وَلَا طَرِيقَ لَكُمْ إِلَى عِلْمِهِ، فَقُولُوا: اللَّهُ أَعْلَمُ، كَمَعْرِفَةِ الرُّوحِ.

قَالَ اللَّهُ –تَعَالَى–: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾[7].

فَإِنْ قُلْتَ: هَلْ يَجُوزُ حَمْلُهُ عَلَى اخْتِلَافِ الْمُجْتَهِدِينَ فِي أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ؟

قُلْتُ: لَا، لِأَنَّ الِاجْتِهَادَ لَا يَجُوزُ بِحَضْرَةِ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–.

---

1 سورة الشُّورَى، الآية .

2 سورة الشُّورَى، الآية .

3 سورة الشُّورَى، الآية .

4 سورة الشُّورَى، الآية .

5 سورة الشُّورَى، الآية .

6 سورة النِّسَاءُ، الآية 59.

7 سورة الْإِسْرَاءُ، الآية 85.

﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[1]

﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ﴾[2] قُرِئَ بِالرَّفْعِ وَالْجَرِّ، فَالرَّفْعُ عَلَى أَنَّهُ أَحَدُ أَخْبَارِ ذَلِكُمْ، أَوْ خَبَرُ مُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ، وَالْجَرُّ عَلَى: فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ.

وَ﴿ذَلِكُمْ﴾[3] إِلَى ﴿أُنِيبُ﴾[4]: اعْتِرَاضٌ بَيْنَ الصِّفَةِ وَالْمَوْصُوفِ.

﴿جَعَلَ لَكُمْ﴾[5]: خَلَقَ لَكُمْ.

﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾[6]: مِنْ جِنْسِكُمْ مِنَ النَّاسِ.

﴿أَزْوَاجًا وَمِنَ الأَنْعَامِ﴾[7]، أَيْ: خَلَقَ مِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا.

وَمَعْنَاهُ: وَخَلَقَ لِلْأَنْعَامِ أَيْضًا مِنْ أَنْفُسِهَا أَزْوَاجًا ﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾[8] يُكْثِرُكُمْ، يُقَالُ: ذَرَأَ اللَّهُ الْخَلْقَ: بَثَّهُمْ وَكَثَّرَهُمْ. وَالذَّرُّ، وَالذَّرْوُ، وَالذَّرْءُ: أَخَوَاتٌ.

﴿فِيهِ﴾[9] فِي هَذَا التَّدْبِيرِ، وَهُوَ أَنْ جَعَلَ لِلنَّاسِ وَالْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا، حَتَّى كَانَ بَيْنَ ذُكُورِهِمْ وَإِنَاثِهِمُ التَّوَالُدُ وَالتَّنَاسُلُ.

وَالضَّمِيرُ فِي ﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾[10] يَرْجِعُ إِلَى الْمُخَاطَبِينَ وَالْأَنْعَامِ، مُغَلِّبًا فِيهِ الْمُخَاطَبُونَ الْعُقَلَاءُ عَلَى الْغَيْبِ مِمَّا لَا يَعْقِلُ، وَهِيَ مِنَ الْأَحْكَامِ ذَاتِ الْعِلَّتَيْنِ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى يَذْرَؤُكُمْ فِي هَذَا التَّدْبِيرِ؟ وَهَلَّا قِيلَ: يَذْرَؤُكُمْ بِهِ؟

قُلْتُ: جَعَلَ هَذَا التَّدْبِيرَ كَالْمَنْبَعِ وَالْمَعْدِنِ لِلْبَثِّ وَالتَّكْثِيرِ.

---

1 سورة الشُّورَى، الآية .
2 سورة الشُّورَى، الآية .
3 سورة الشُّورَى، الآية .
4 سورة الشُّورَى، الآية .
5 سورة الشُّورَى، الآية .
6 سورة الشُّورَى، الآية .
7 سورة الشُّورَى، الآية .
8 سورة الشُّورَى، الآية .
9 سورة الشُّورَى، الآية .
10 سورة الشُّورَى، الآية .

أَلَا تَرَاكَ تَقُولُ: لِلْحَيَوَانِ فِي خَلْقِ الْأَزْوَاجِ تَكْثِيرٌ، كَمَا قَالَ –تَعَالَى–: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾[1]؟!

قَالُوا: مِثْلُكَ لَا يَبْخَلُ، فَنَفَوُا الْبُخْلَ عَنْ مِثْلِهِ، وَهُمْ يُرِيدُونَ نَفيهُ عَنْ ذَاتِهِ، قَصَدُوا الْمُبَالَغَةَ فِي ذَلِكَ فَسَلَكُوا بِهِ طَرِيقَ الْكِنَايَةِ، لِأَنَّهُمْ إِذَا نَفَوْهُ عَمَّنْ يَسُدُّ مَسَدَّهُ، وَعَمَّنْ هُوَ عَلَى أَخَصِّ أَوْصَافِهِ، فَقَدْ نَفَوْهُ عَنْهُ.

وَنَظِيرُهُ قَوْلُكَ لِلْعَرَبِيِّ: الْعَرَبُ لَا تَخْفِرُ الذِّمَمَ، كَانَ أَبْلَغُ مِنْ قَوْلِكَ: أَنْتَ لَا تَخْفِرُ. وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: قَدْ أَيْفَعَتْ لِدَاتُهُ وَبَلَغَتْ أَتْرَابُهُ، يُرِيدُونَ: إِيفَاعَهُ وَبُلُوغَهُ.

وَفِي حَدِيثِ رُقَيْقَةَ بِنْتِ صَيْفِي فِي سُقْيَا عَبْدِ الْمُطَّلِبِ: "أَلَا وَفِيهِمُ الطَّيِّبُ الطَّاهِرُ لِذَاتِهِ"، وَالْقَصْدُ إِلَى طَهَارَتِهِ وَطِيبِهِ.

فَإِذَا عَلِمَ أَنَّهُ مِنْ بَابِ الْكِنَايَةِ لَمْ يَقَعْ فَرْقٌ بَيْنَ قَوْلِهِ: لَيْسَ كَاللَّهِ شَيْءٌ، وَبَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[2] إِلَّا مَا تُعْطِيهِ الْكِنَايَةُ مِنْ فَائِدَتِهَا، وَكَأَنَّهُمَا عِبَارَتَانِ مُعْتَقِبَتَانِ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ: وَهُوَ نَفي الْمُمَاثَلَةِ عَنْ ذَاتِهِ، وَنَحْوُهُ قَوْلُهُ –عَزَّ وَجَلَّ–: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[3]، فَإِنَّ مَعْنَاهُ: بَلْ هُوَ جَوَادٌ مِنْ غَيْرِ تَصَوُّرِ يَدٍ وَلَا بَسْطٍ لَهَا، لِأَنَّهَا وَقَعَتْ عِبَارَةً عَنِ الْجُودِ لَا يَقْصِدُونَ شَيْئًا آخَرَ، حَتَّى إِنَّهُمُ اسْتَعْمَلُوهَا فِيمَنْ لَا يَدَ لَهُ، فَكَذَلِكَ اسْتَعْمَلَ هَذَا فِيمَنْ لَهُ مِثْلُ وَمَنْ لَا مِثْلَ لَهُ، وَلَكَ أَنْ تَزْعُمَ أَنَّ كَلِمَةَ التَّشْبِيهِ كُرِّرَتْ لِلتَّأْكِيدِ، كَمَا كَرَّرَهَا مَنْ قَالَ :

وَصَالِيَاتٍ كَكَمَا يُؤْثَفِيـــــــــنَ

وَمَنْ قَالَ:

فَأَصْبَحْتُ مِثْلَ كَعَصْفٍ مَأْكُــولِ

﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[4]

---

[1] سورة الْبَقَرَةُ، الآية 179.

[2] سورة الشُّورَى، الآية .

[3] سورة الْمَائِدَةُ، الآية 64.

[4] سورة الشُّورَى، الآية .

وَقُرِئَ: (وَيُقَدِّرُ) ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[1]، فَإِذَا عَلِمَ أَنَّ الْغِنَى خَيْرٌ لِلْعَبْدِ أَغْنَاهُ، وَإِلَّا أَفْقَرَهُ.

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾[2]

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ﴾[3] دِينِ نُوحٍ وَمُحَمَّدٍ وَمِنْ بَيْنِهِمَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، ثُمَّ فَسَّرَ الْمَشْرُوعَ الَّذِي اشْتَرَكَ هَؤُلَاءِ الْأَعْلَامُ مِنْ رُسُلِهِ فيهِ بِقَوْلِهِ: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[4].

وَالْمُرَادُ: إِقَامَةُ دِينِ الْإِسْلَامِ الَّذِي هُوَ تَوْحِيدُ اللَّهِ وَطَاعَتُهُ، وَالْإِيمَانُ بِرُسُلِهِ وَكُتُبِهِ، وَبِيَوْمِ الْجَزَاءِ، وَسَائِرُ مَا يَكُونُ الرَّجُلُ بِإِقَامَتِهِ مُسْلِمًا، وَلَمْ تِرِدِ الشَّرَائِعُ الَّتِي هِيَ مَصَالِحُ الْأُمَمِ عَلَى حَسَبِ أَحْوَالِهَا، فَإِنَّهَا مُخْتَلِفَةٌ مُتَفَاوِتَةٌ. قَالَ اللَّهُ –تَعَالَى–: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[5].

وَمَحَلُّ ﴿أَنْ أَقِيمُوا﴾[6] إِمَّا نُصِبَ بَدَلٌ مِنْ مَفْعُولِ شَرَعَ وَالْمَعْطُوفِينِ عَلَيْهِ، وَإِمَّا رُفِعَ عَلَى الِاسْتِئْنَافِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: وَمَا ذَلِكَ الْمَشْرُوعُ؟ فَقِيلَ: هُوَ إِقَامَةُ الدِّينِ، وَنَحْوُهُ قَوْلُهُ – تَعَالَى–: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾[7].

﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ﴾[8]: عَظُمَ عَلَيْهِمْ وَشُقَّ عَلَيْهِمْ.

﴿مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾[9]: مِنْ إِقَامَةِ دِينِ اللَّهِ وَالتَّوْحِيدِ.

---

1 سورة الشُّورَى، الآية .
2 سورة الشُّورَى، الآية .
3 سورة الشُّورَى، الآية .
4 سورة الشُّورَى، الآية .
5 سورة الْمَائِدَةُ، الآية 48.
6 سورة الشُّورَى، الآية .
7 سورة الْأَنْبِيَاءُ، الآية 92.
8 سورة الشُّورَى ، الآية .
9 سورة الشُّورَى، الآية .

﴿ يَجْتَبِي إِلَيْهِ﴾:[1] يَجْتَلِبُ إِلَيْهِ وَيَجْمَعُ –وَالضَّمِيرُ لِلدِّينِ بِالتَّوْفِيقِ وَالتَّسْدِيدِ–.

﴿مَنْ يَشَاءُ﴾[2]: مَنْ يَنْفَعُ فِيهِمْ تَوْفِيقُهُ وَيَجْرِي عَلَيْهِمْ لُطْفًا.

﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾[3]

﴿وَمَا تَفَرَّقُوا﴾[4]، يَعْنِي أَهْلَ الْكِتَابِ بَعْدَ أَنْبِيَائِهِمْ.

﴿إِلاَّ مِنْ بَعْدِ﴾[5] أَنْ عَلِمُوا أَنَّ الْفِرْقَةَ ضَلَالٌ وَفَسَادٌ، وَأَمْرٌ مُتَوَعَّدٌ عَلَيْهِ عَلَى أَلْسِنَةِ الْأَنْبِيَاءِ.

﴿ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾[6]، وَهِيَ عِدَّةُ التَّأْخِيرِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾[7] حِينَ افْتَرَقُوا لِعَظْمِ مَا اقْتَرَفُوا.

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾[8]، وَهُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ الَّذِينَ كَانُوا فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–.

﴿لَفِي شَكٍّ﴾[9] مِنْ كِتَابِهِمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَقَّ الْإِيمَانِ.

وَقِيلَ: كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً مُؤْمِنِينَ بَعْدَ أَنْ أَهْلَكَ اللَّهُ أَهْلَ الْأَرْضِ أَجْمَعِينَ بِالطُّوفَانِ.

فَلَمَّا مَاتَ الْآبَاءُ اخْتَلَفَ الْأَبْنَاءُ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَذَلِكَ حِينَ بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهِمُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَجَاءَهُمُ الْعِلْمُ.

---

1 سورة الشُّورَى، الآية .

2 سورة الشُّورَى، الآية .

3 سورة الشُّورَى، الآية .

4 سورة الشُّورَى، الآية .

5 سورة الشُّورَى، الآية .

6 سورة الشُّورَى، الآية .

7 سورة الشُّورَى، الآية .

8 سورة الشُّورَى، الآية 14.

9 سورة ، الآية .

وَإِنَّمَا اخْتَلَفُوا لِلْبَغْيِ بَيْنَهُمْ.

وَقِيلَ: وَمَا تَفَرَّقَ أَهْلُ الْكِتَابِ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بِمَبْعَثِ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾[1].

وَإِنَّ الَّذِينَ ﴿أَوْرِثُوا﴾[2] الْكِتَابَ مَنْ بَعْدِهِمْ هُمُ الْمُشْرِكُونَ أُورِثُوا الْقُرْآنَ مِنْ بَعْدِ مَا أُورِثَ أَهْلُ الْكِتَابِ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ.

وَقُرِئَ: (وُرِّثُوا) وَ (وَرِثُوا).

﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾[3]

﴿فَلِذَلِكَ﴾[4]: فَلِأَجْلِ التَّفَرُّقِ وَلِمَا حَدَثَ بِسَبَبِهِ مِنْ تَشَعُّبِ الْكُفْرِ شُعَبًا، ﴿فَادْعُ﴾[5] إِلَى الِاتِّفَاقِ وَالِائْتِلَافِ عَلَى الْمِلَّةِ الْحَنِيفِيَّةِ الْقَدِيمَةِ.

﴿وَاسْتَقِمْ﴾[6] عَلَيْهَا وَعَلَى الدَّعْوَةِ إِلَيْهَا كَمَا أَمَرَكَ اللَّهُ.

﴿وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾[7] الْمُخْتَلِفَةَ الْبَاطِلَةَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ، أَيْ: كِتَابٍ صَحَّ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَهُ، يَعْنِي الْإِيمَانَ بِجَمِيعِ الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ، لِأَنَّ الْمُتَفَرِّقِينَ آمَنُوا بِبَعْضٍ وَكَفَرُوا بِبَعْضٍ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾[8] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾[9].

---

[1] سورة الْبَيِّنَةُ، الآية 44.

[2] سورة الشُّورَى، الآية .

[3] سورة الشُّورَى، الآية .

[4] سورة الشُّورَى، الآية .

[5] سورة الشُّورَى، الآية .

[6] سورة الشُّورَى، الآية .

[7] سورة الشُّورَى، الآية .

[8] سورة النِّسَاءُ، الآية 150.

[9] سورة النِّسَاءُ، الآية 151.

﴿لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾[1] فِي الْحُكْمِ إِذَا تَخَاصَمْتُمْ فَتَحَاكَمْتُمْ إِلَيَّ.

﴿لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾[2]، أَيْ لَا خُصُومَةَ، لِأَنَّ الْحَقَّ قَدْ ظَهَرَ وَصِرْتُمْ مَحْجُوبِينَ بِهِ فَلَا حَاجَةَ إِلَى الْمُحَاجَّةِ.

وَمَعْنَاهُ: لَا إِيرَادَ حُجَّةٍ بَيْنَنَا، لِأَنَّ الْمُتَحَاجِّينَ: يُورِدُ هَذَا حَجَّتَهُ وَهَذَا حَجَّتَهُ.

﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾[3] يَوْمَ الْقِيَامَةِ فيفْصِلُ بَيْنَنَا وَيَنْتَقِمُ لَنَا مِنْكُمْ، وَهَذِهِ مُحَاجَزَةٌ وَمُتَارَكَةٌ بَعْدَ ظُهُورِ الْحَقِّ وَقِيَامِ الْحُجَّةِ وَالْإِلْزَامِ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ حُوجِزُوا وَقَدْ فَعَلَ بِهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ مَا فَعَلَ مِنَ الْقَتْلِ وَتَخْرِيبِ الْبُيُوتِ وَقَطْعِ النَّخِيلِ وَالْإِجْلَاءِ؟

قُلْتُ: الْمُرَادُ مُحَاجَزَتِهِمْ فِي مَوَاقِفِ الْمُقَاوَلَةِ لَا الْمُقَاتَلَةِ.

﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾[4]

﴿يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ﴾[5] يُخَاصِمُونَ فِي دِينِهِ ﴿مِنْ بَعْدِ﴾[6] مَا اسْتَجَابَ لَهُ النَّاسُ وَدَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ، لِيَرُدُّوهُمْ إِلَى دِينِ الْجَاهِلِيَّةِ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾[7]، كَانَ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى يَقُولُونَ لِلْمُؤْمِنِينَ: كِتَابُنَا قَبْلَ كِتَابِكُمْ، وَنَبِيُّنَا قَبْلَ نَبِيِّكُمْ، وَنَحْنُ خَيْرٌ مِنْكُمْ وَأَوْلَى بِالْحَقِّ. وَقِيلَ: مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجَابَ اللَّهُ لِرَسُولِهِ وَنَصَرَهُ يَوْمَ بَدْرٍ وَأَظْهَرَ دِينَ الْإِسْلَامِ.

﴿دَاحِضَةٌ﴾[8] بَاطِلَةٌ زَالَّةٌ.

---

1 سورة الشُّورَى، الآية .

2 سورة الشُّورَى، الآية .

3 سورة الشُّورَى، الآية .

4 سورة الشُّورَى، الآية .

5 سورة الشُّورَى، الآية .

6 سورة الشُّورَى، الآية .

7 سورة الْبَقَرَةُ، الآية 109.

8 سورة الشُّورَى، الآية .

﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ﴾[1]

﴿أَنْزَلَ الْكِتَابَ﴾[2]، أَيْ: جِنْسَ الْكِتَابِ.

﴿وَالْمِيزَانَ﴾[3]: وَالْعَدْلَ وَالتَّسْوِيَةَ.

وَمَعْنَى إِنْزَالُ الْعَدْلِ: أَنَّهُ أَنْزَلَهُ فِي كُتُبِهِ الْمُنَزَّلَةِ. وَقِيلَ: الَّذِي يُوزَنُ بِهِ.

﴿بِالْحَقِّ﴾[4]: مُلْتَبِسًا بِالْحَقِّ، مُقْتَرِنًا بِهِ، بَعِيدًا مِنَ الْبَاطِلِ، أَوْ بِالْغَرَضِ الصَّحِيحِ كَمَا اقْتَضَتْهُ الْحِكْمَةُ، أَوْ بِالْوَاجِبِ مِنَ التَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

﴿السَّاعَةَ﴾[5] فِي تَأْوِيلِ الْبَعْثِ، فَلِذَلِكَ قِيلَ: ﴿قَرِيبٌ﴾[6] أَوْ لَعَلَّ مَجِيءَ السَّاعَةِ قَرِيبٌ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ يُوَفِّقُ ذِكْرَ اقْتِرَابِ السَّاعَةِ مَعَ إِنْزَالِ الْكِتَابِ وَالْمِيزَانِ؟

قُلْتُ: لِأَنَّ السَّاعَةَ يَوْمَ الْحِسَابِ وَوَضْعَ الْمَوَازِينِ لِلْقِسْطِ، فَكَأَنَّهُ قِيلَ: أَمْرُكُمُ اللَّهُ بِالْعَدْلِ وَالتَّسْوِيَةِ وَالْعَمَلِ بِالشَّرَائِعِ قَبْلَ أَنْ يُفَاجِئَكُمُ الْيَوْمَ الَّذِي يُحَاسِبُكُمْ فِيهِ وَيَزِنَ أَعْمَالَكُمْ، وَيُوَفِّي لِمَنْ أَوْفَى وَيُطَفِّفُ لِمَنْ طَفَّفَ.

الْمُمَارَاةُ: الْمُلَاجَّةُ، لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَمْرِي مَا عِنْدَ صَاحِبِهِ.

﴿لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ﴾[7] مِنَ الْحَقِّ، لِأَنَّ قِيَامَ السَّاعَةِ غَيْرُ مُسْتَبْعَدٍ مِنْ قُدْرَةِ اللَّهِ، وَلِدَلَالَةِ الْكِتَابِ الْمُعْجِزِ عَلَى أَنَّهَا آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا، وَلِشَهَادَةِ الْعُقُولِ عَلَى أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ دَارِ الْجَزَاءِ .

---

1 سورة الشُّورَى، الآية .
2 سورة الشُّورَى، الآية .
3 سورة الشُّورَى، الآية .
4 سورة الشُّورَى، الآية .
5 سورة الشُّورَى، الآية .
6 سورة الشُّورَى، الآية .
7 سورة الشُّورَى، الآية .

﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾[1]

﴿لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾[2]: بِرٌّ بَلِيغُ الْبِرِّ بِهِمْ، قَدْ تَوَصَّلَ بِرُّهُ إِلَى جَمِيعِهِمْ، وَتَوَصَّلَ مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ إِلَى حَيْثُ لَا يَبْلُغُهُ، وَهُمْ أَحَدٌ مِنْ كُلِّيَّاتِهِ وَجُزْئِيَّاتِهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾[3] بَعْدَ تَوَصُّلِ بِرِّهِ إِلَى جَمِيعِهِمْ؟

قُلْتُ: كُلُّهُمْ مَبْرُورُونَ لَا يَخْلُو أَحَدٌ مِنْ بِرِّهِ، إِلَّا أَنَّ الْبِرَّ أَصْنَافٌ، وَلَهُ أَوْصَافٌ. وَالْقِسْمَةُ بَيْنَ الْعِبَادِ تَتَفَاوَتُ عَلَى حَسَبِ تَفَاوُتِ قَضَايَا الْحِكْمَةِ وَالتَّدْبِيرِ، فيطِيرُ لِبَعْضِ الْعِبَادِ صِنْفٌ مِنَ الْبِرِّ لَمْ يَطِرْ مِثْلُهُ لِآخَرَ، وَيُصِيبُ هَذَا حَظٌّ لَهُ وَصْفٌ لَيْسَ ذَلِكَ الْوَصْفَ لِحَظِّ صَاحِبِهِ، فَمِنْ قَسَمَ لَهُ مِنْهُمْ مَا لَا يَقْسِمُ لِلْآخَرِ فَقَدْ رَزَقَهُ، وَهُوَ الَّذِي أَرَادَ بِقَوْلِهِ – تَعَالَى–: ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾[4]، كَمَا يُرْزَقُ أَحَدُ الْأَخَوَيْنِ وَلَدًا دُونَ الْآخَرِ، عَلَى أَنَّهُ أَصَابَهُ بِنِعْمَةٍ أُخْرَى لَمْ يُرْزَقْهَا صَاحِبُ الْوَلَدِ.

﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ﴾[5]: الْبَاهِرُ الْقُدْرَةِ، الْغَالِبُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ.

﴿الْعَزِيزُ﴾[6]: الْمَنِيعُ الَّذِي لَا يُغْلَبُ.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مَنْ نَصِيبٍ﴾[7]

سَمَّى مَا يَعْمَلُهُ الْعَامِلُ مِمَّا يَبْغِي بِهِ الْفَائِدَةَ وَالزُّكَاءَ حَرْثًا عَلَى الْمَجَازِ.

---

1 سورة الشُّورَى، الآية .

2 سورة الشُّورَى، الآية .

3 سورة الشُّورَى، الآية .

4 سورة الْبَقَرَةُ، الآية 212.

5 سورة الشُّورَى، الآية .

6 سورة الشُّورَى، الآية .

7 سورة الشُّورَى، الآية .

وَفَرْقٌ بَيْنَ عَمَلِي الْعَامِلِينَ: بِأَنَّ مَنْ عَمِلَ لِلْآخِرَةِ وُفِّقَ في عَمَلِهِ وَضُوعِفَتْ حَسَنَاتُهُ، وَمَنْ كَانَ عَمَلُهُ لِلدُّنْيَا أَعْطَى شَيْئًا مِنْهَا لَا مَا يُرِيدُهُ وَيَبْتَغِيهِ.

وَهُوَ رِزْقُهُ الَّذِي قُسِمَ لَهُ وَفَرَغَ مِنْهُ وَمَا لَهُ نَصِيبٌ قَطُّ في الْآخِرَةِ، وَلَمْ يَذْكُرْ في مَعْنَى عَامِلِ الْآخِرَةِ وَلَهُ في الدُّنْيَا نَصِيبٌ، عَلَى أَنَّ رِزْقَهُ الْمَقْسُومَ لَهُ وَاصِلٌ إِلَيْهِ لَا مَحَالَةَ، لِلِاسْتِهَانَةِ بِذَلِكَ إِلَى جَنْبِ مَا هُوَ بِصَدَدِهِ مِنْ زَكَاءِ عَمَلِهِ وَفَوْزِهِ في الْمَآبِ.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1]

مَعْنَى الْهَمْزَةِ في ﴿أَمْ﴾[2] التَّقْرِيرُ وَالتَّقْرِيعُ. وَشُرَكَاؤُهُمْ: شَيَاطِينُهُمُ الَّذِينَ زَيَّنُوا لَهُمُ الشِّرْكَ وَإِنْكَارَ الْبَعْثِ وَالْعَمَلَ لِلدُّنْيَا، لِأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ غَيْرَهَا، وَهُوَ الدِّينُ الَّذِي شَرَعَتْ لَهُمُ الشَّيَاطِينُ، وَتَعَالَى اللَّهُ عَنِ الْإِذْنِ فيهِ وَالْأَمْرِ بِهِ.

وَقِيلَ: شُرَكَاؤُهُمْ أَوْثَانُهُمْ، وَإِنَّمَا أُضِيفَتْ إِلَيْهِمْ لِأَنَّهُمْ مُتَّخِذُوهَا شُرَكَاءَ لِلَّهِ، فَتَارَةً تُضَافُ إِلَيْهِمْ لِهَذِهِ الْمُلَابَسَةِ. وَتَارَةً إِلَى اللَّهِ، وَلَمَّا كَانَتْ سَبَبًا لِضَلَالَتِهِمْ وَافْتِتَانِهِمْ: جُعِلَتْ شَارِعَةً لِدِينِ الْكُفْرِ، كَمَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ –صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ–: ﴿إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ﴾[3].

﴿وَلَوْلا كَلِمَةُ الْفَصْلِ﴾[4]، أَيِ: الْقَضَاءِ السَّابِقِ بِتَأْجِيلِ الْجَزَاءِ، أَوْ: وَلَوْلَا الْعُدَّةُ بِأَنَّ الْفَصْلَ يَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾[5]، أَيْ: بَيْنَ الْكَافِرِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ، أَوْ بَيْنَ الْمُشْرِكِينَ وَشُرَكَائِهِمْ.

وَقَرَأَ مُسْلِمُ بْنُ جُنْدُبٍ: (وَأَنَّ الظَّالِمِينَ) بِالْفَتْحِ عَطْفًا لَهُ عَلَى كَلِمَةِ الْفَصْلِ، يَعْنِي: وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ وَتَقْدِيرُ تَعْذِيبِ الظَّالِمِينَ في الْآخِرَةِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ في الدُّنْيَا.

---

[1] سورة الشُّورَى، الآية .

[2] سورة الشُّورَى، الآية .

[3] سورة إِبْرَاهِيمُ، الآية 36.

[4] سورة الشُّورَى، الآية .

[5] سورة الشُّورَى، الآية .

﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾[1]

﴿تَرَى الظَّالِمِينَ﴾[2] في الْآخِرَةِ.

﴿مُشْفِقِينَ﴾[3]: خَائِفِينَ خَوْفًا شَدِيدًا أَرَقَّ قُلُوبَهُمْ.

﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾[4]: مِنَ السَّيِّئَاتِ.

﴿وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾[5]، يُرِيدُ: وَوَبَالُهُ وَاقِعٌ بِهِمْ وَوَاصِلٌ إِلَيْهِمْ لَا بُدَّ لَهُمْ مِنْهُ، أَشْفَقُوا أَوْ لَمْ يُشْفِقُوا. كَأَنَّ رَوْضَةَ جَنَّةِ الْمُؤْمِنِ أَطْيَبُ بُقْعَةً فيها وَأَنْزَهُهَا.

﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾[6] مَنْصُوبٌ بِالظَّرْفِ لَا بِـ ﴿يَشَاءُونَ﴾[7].

قُرِئَ: (يُبَشِّرُ) مِنْ بَشَّرَهُ، وَيُبَشِّرُ مِنْ أَبْشَرَهُ، وَيُبَشِّرُ، مِنْ بَشَّرَهُ.

وَالْأَصْلُ: ذَلِكَ الثَّوَابُ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ، فَحَذَفَ الْجَارَّ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ﴾[8]، ثُمَّ حَذَفَ الرَّاجِعَ إِلَى الْمَوْصُولِ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولا﴾[9] أَوْ ذَلِكَ التَّبْشِيرُ الَّذِي يُبَشِّرُهُ اللَّهُ عِبَادَهُ.

رُوِيَ أَنَّهُ اجْتَمَعَ الْمُشْرِكُونَ فِي مَجْمَعٍ لَهُمْ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَتُرُونَ مُحَمَّدًا يَسْأَلُ عَلَى مَا يَتَعَاطَاهُ أَجْرًا؟

---

[1] سورة الشُّورَى، الآية .

[2] سورة الشُّورَى، الآية .

[3] سورة الشُّورَى، الآية .

[4] سورة الشُّورَى، الآية .

[5] سورة الشُّورَى، الآية .

[6] سورة الشُّورَى، الآية .

[7] سورة الشُّورَى، الآية .

[8] سورة الْأَعْرَافُ، الآية 15.

[9] سورة الْفُرْقَانُ، الآية 41.

فَنَزَلَتِ الْآيَةُ: ﴿إِلاّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾[1]، يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ اسْتِثْنَاءً مُتَّصِلًا، أَيْ: لَا أَسْأَلُكُمْ أَجْرًا إِلَّا هَذَا، وَهُوَ أَنَّ تَوَدُّوا أَهْلَ قَرَابَتِي، وَلَمْ يَكُنْ هَذَا أَجْرًا فِي الْحَقِيقَةِ، لِأَنَّ قَرَابَتَهُ قَرَابَتُهُمْ، فَكَانَتْ صِلَتُهُمْ لَازِمَةً لَهُمْ فِي الْمُرُوءَةِ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُنْقَطِعًا، أَيْ: لَا أَسْأَلُكُمْ أَجْرًا قَطُّ، وَلَكِنَّنِي أَسْأَلُكُمْ أَنْ تَوَدُّوا قَرَابَتِي الَّذِينَ هُمْ قَرَابَتُكُمْ وَلَا تُؤْذُوهُمْ.

فَإِنْ قُلْتَ: هَلَّا قِيلَ: إِلَّا مَوَدَّةَ الْقُرْبَى، أَوْ إِلَّا الْمَوَدَّةَ لِلْقُرْبَى؟ وَمَا مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿إِلاّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾[2]؟

قُلْتُ: جَعَلُوا مَكَانًا لِلْمَوَدَّةِ وَمَقَرًّا لَهَا، كَقَوْلِكَ: لِي فِي آلِ فُلَانٍ مَوَدَّةٌ، وَلِي فِيهِمْ هَوًى وَحُبٌّ شَدِيدٌ، تُرِيدُ: أَحَبَّهُمْ وَهُمْ مَكَانُ حُبِّي وَمَحَلُّهُ، وَلَيْسَتْ ﴿فِي﴾[3] بِصِلَةٍ لِلْمَوَدَّةِ، كَاللَّامِ إِذَا قُلْتَ: إِلَّا الْمَوَدَّةَ لِلْقُرْبَى. إِنَّمَا هِيَ مُتَعَلِّقَةٌ بِمَحْذُوفٍ تَعَلَّقَ الظَّرْفُ بِهِ فِي قَوْلِكَ: الْمَالُ فِي الْكِيسِ.

وَتَقْدِيرُهُ: إِلَّا الْمَوَدَّةَ ثَابِتَةٌ فِي الْقُرْبَى وَمُتَمَكِّنَةٌ فِيهَا. وَالْقُرْبَى: مَصْدَرٌ كَالزُّلْفَى وَالْبُشْرَى، بِمَعْنَى: قَرَابَةً. وَالْمُرَادُ فِي أَهْلِ الْقُرْبَى.

وَرُوِيَ أَنَّهَا لَمَّا نَزَلَتْ قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ قَرَابَتُكَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ وَجَبَتْ عَلَيْنَا مَوَدَّتُهُمْ؟ قَالَ: "عَلِيٌّ وَفَاطِمَةُ وَابْنَاهُمَا".

وَيَدُلُّ عَلَيْهِ: مَا رُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: شَكَوْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– حَسَدَ النَّاسِ لِي. فَقَالَ: "أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ رَابِعَ أَرْبَعَةٍ: أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ أَنَا وَأَنْتَ وَالْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ، وَأَزْوَاجُنَا عَنْ أَيْمَانِنَا وَشَمَائِلِنَا، وَذُرِّيَّتِنَا خَلْفَ أَزْوَاجِنَا".

وَعَنِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "حُرِّمَتِ الْجَنَّةُ عَلَى مَنْ ظَلَمَ أَهْلَ بَيْتِي وَآذَانِي فِي عِتْرَتِي، وَمَنِ اصْطَنَعَ صَنِيعَةً إِلَى أَحَدٍ مِنْ وَلَدِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَلَمْ يُجَازِهِ عَلَيْهَا فَأَنَا أُجَازِيهِ عَلَيْهَا غَدًا إِذَا لَقِيَنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ".

وَرُوِيَ: أَنَّ الْأَنْصَارَ قَالُوا: فَعَلْنَا وَفَعَلْنَا، كَأَنَّهُمُ افْتَخَرُوا، فَقَالَ عَبَّاسٌ أَوِ ابْنُ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا–: لَنَا الْفَضْلُ عَلَيْكُمْ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، فَأَتَاهُمْ فِي مَجَالِسِهِمْ، فَقَالَ: "يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، أَلَمْ تَكُونُوا أَذِلَّةً فَأَعَزَّكُمُ اللَّهُ بِي"؟ قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: "أَلَمْ تَكُونُوا ضُلَّالًا فَهَدَاكُمُ اللَّهُ بِي"؟ قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ.

---

[1] سورة الشُّورَى، الآية .

[2] سورة الشُّورَى، الآية 23.

[3] سورة الشُّورَى، الآية .

قَالَ: "أَفَلَا تُجِيبُونَنِي"؟ قَالُوا: مَا نَقُولُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: "أَلَّا تَقُولُونَ: أَلَمْ يُخْرِجْكَ قَوْمُكَ فَآوَيْنَاكَ؟ أَوْ لَمْ يُكَذِّبُوكَ فَصَدَّقْنَاكَ؟ أَوَلَمْ يَخْذُلُوكَ فَنَصَرْنَاكَ؟" قَالَ: فَمَا زَالَ يَقُولُ حَتَّى جَثَوْا عَلَى الرُّكَبِ وَقَالُوا: أَمْوَالُنَا وَمَا فِي أَيْدِينَا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ. فَنَزَلَتِ الْآيَةُ.

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "مَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ مَاتَ شَهِيدًا، أَلَا وَمَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ مَاتَ مَغْفُورًا لَهُ، أَلَا وَمَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ مَاتَ تَائِبًا، أَلَا وَمَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ مَاتَ مُؤْمِنًا مُسْتَكْمِلَ الْإِيمَانِ، أَلَا وَمَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ بَشَّرَهُ مَلَكُ الْمَوْتِ بِالْجَنَّةِ، ثُمَّ مُنْكَرٌ وَنَكِيرٌ، أَلَا وَمَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ يُزَفُّ إِلَى الْجَنَّةِ كَمَا تُزَفُّ الْعَرُوسُ إِلَى بَيْتِ زَوْجِهَا، أَلَا وَمَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ فُتِحَ لَهُ فِي قَبْرِهِ بَابَانِ إِلَى الْجَنَّةِ، أَلَا وَمَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ جَعَلَ اللَّهُ قَبْرَهُ مَزَارَ مَلَائِكَةِ الرَّحْمَةِ، أَلَا وَمَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ مَاتَ عَلَى السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، أَلَا وَمَنْ مَاتَ عَلَى بُغْضِ آلِ مُحَمَّدٍ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ: آيِسٌ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، أَلَا وَمَنْ مَاتَ عَلَى بُغْضِ آلِ مُحَمَّدٍ مَاتَ كَافِرًا، أَلَا وَمَنْ مَاتَ عَلَى بُغْضِ آلِ مُحَمَّدٍ لَمْ يَشُمَّ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ".

وَقِيلَ: لَمْ يَكُنْ بَطْنٌ مِنْ بُطُونِ قُرَيْشٍ إِلَّا وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَبَيْنَهُمْ قُرْبَى، فَلَمَّا كَذَّبُوهُ وَأَبَوْا أَنْ يُبَايِعُوهُ نَزَلَتْ.

وَالْمَعْنَى: إِلَّا أَنْ تَوَدُّونِي فِي الْقُرْبَى، أَيْ: فِي حَقِّ الْقُرْبَى أَوْ مِنْ أَجْلِهَا، كَمَا تَقُولُ: الْحُبُّ فِي اللَّهِ وَالْبُغْضُ فِي اللَّهِ، بِمَعْنَى: فِي حَقِّهِ وَمِنْ أَجْلِهِ، يَعْنِي: أَنَّكُمْ قَوْمِي وَأَحَقُّ مَنْ أَجَابَنِي وَأَطَاعَنِي، فَإِذَا قَدْ أَبَيْتُمْ ذَلِكَ فَاحْفَظُوا حَقَّ الْقُرْبَى وَلَا تُؤْذُونِي وَلَا تُهَيِّجُوا عَلَيَّ. وَقِيلَ :أَتَتِ الْأَنْصَارُ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– بِمَالٍ جَمَعُوهُ وَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ هَدَانَا اللَّهُ بِكَ وَأَنْتَ ابْنُ أُخْتِنَا وَتَعْرُوكَ نَوَائِبُ وَحُقُوقٌ وَمَالُكَ سِعَةٌ، فَاسْتَعِنْ بِهَذَا عَلَى مَا يَنُوبُكَ، فَنَزَلَتْ، وَرَدَّهُ.

وَقِيلَ: ﴿الْقُرْبَى﴾[1]: التَّقَرُّبُ إِلَى اللَّهِ –تَعَالَى–، أَيْ: إِلَّا أَنْ تُحِبُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ فِي تَقَرُّبِكُمْ إِلَيْهِ بِالطَّاعَةِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ.

وَقُرِئَ: (إِلَّا مَوَدَّةً فِي الْقُرْبَى).

---

[1] سورة الشُّورَى، الآية .

﴿وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً﴾[1] عَنِ السُّدِّيِّ أَنَّهَا الْمَوَدَّةُ في آلِ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، نَزَلَتْ في أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– وَمَوَدَّتِهِ فيهِمْ.

وَالظَّاهِرُ: الْعُمُومُ في أَيِّ حَسَنَةٍ كَانَتْ، إِلَّا أَنَّهَا لَمَّا ذُكِرَتْ عَقِيْبَ ذِكْرِ الْمَوَدَّةِ في الْقُرْبَى: دَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهَا تَنَاوَلَتِ الْمَوَدَّةَ تَنَاوُلًا أَوَّلِيًّا، كَأَنَّ سَائِرَ الْحَسَنَاتِ لَهَا تَوَابِعُ.

وَقُرِئَ (يَزِدْ) أَيْ: يَزِدِ اللَّهُ. وَزِيَادَةُ حُسْنِهَا مِنْ جِهَةِ اللَّهِ مُضَاعَفَتُهَا، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾[2].

وَقُرِئَ: (حُسْنَى) وَهِيَ مَصْدَرٌ كَالْبُشْرَى، الشَّكُورُ في صِفَةِ اللَّهِ مَجَازٌ لِلِاعْتِدَادِ بِالطَّاعَةِ، وَتُوَفِيهِ ثَوَابَهَا، وَالتَّفَضُّلُ عَلَى الْمُثَابِ.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[3]

﴿أَمْ﴾[4] مُنْقَطِعَةٌ. وَمَعْنَى الْهَمْزَةُ فيهِ التَّوْبِيخُ، كَأَنَّهُ قِيلَ: أَيَتَمَالَكُونَ أَنْ يَنْسُبُوا مِثْلَهُ إِلَى الِافْتِرَاءِ، ثُمَّ إِلَى الِافْتِرَاءِ عَلَى اللَّهِ الَّذِي هُوَ أَعْظَمُ الْفَرَى وَأَفْحَشُهَا.

﴿فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾[5]، فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَجْعَلْكَ مِنَ الْمَخْتُومِ عَلَى قُلُوبِهِمْ، حَتَّى تَفْتَرِيَ عَلَيْهِ الْكَذِبَ، فَإِنَّهُ لَا يَجْتَرِئُ عَلَى افْتِرَاءِ الْكَذِبِ عَلَى اللَّهِ إِلَّا مَنْ كَانَ في مِثْلِ حَالِهِمْ.

وَهَذَا الْأُسْلُوبُ مُؤَدَّاهُ اسْتِبْعَادُ الِافْتِرَاءِ مِنْ مِثْلِهِ، وَأَنَّهُ في الْبُعْدِ مِثْلُ الشِّرْكِ بِاللَّهِ وَالدُّخُولِ في جُمْلَةِ الْمَخْتُومِ عَلَى قُلُوبِهِمْ.

وَمِثَالُ هَذَا: أَنْ يُخَوَّنَ بَعْضُ الْأُمَنَاءِ فيقُولُ: لَعَلَّ اللَّهَ خَذَلَنِي، لَعَلَّ اللَّهَ أَعْمَى قَلْبِي، وَهُوَ لَا يُرِيدُ إِثْبَاتَ الْخُذْلَانِ وَعَمَى الْقَلْبِ.

---

1 سورة الشُّورَى، الآية .

2 سورة الْبَقَرَةُ، الآية 245.

3 سورة الشُّورَى، الآية .

4 سورة الشُّورَى، الآية .

5 سورة الشُّورَى، الآية .

وَإِنَّمَا يُرِيدُ اسْتِبْعَادَ أَنْ يُخَوَّنَ مِثْلُهُ، وَالتَّنْبِيهُ عَلَى أَنَّهُ رُكِّبَ مِنْ تَخْوِينِهِ أَمْرٌ عَظِيمٌ، ثُمَّ قَالَ: وَمِنْ عَادَةِ اللَّهِ أَنْ يَمْحُوَ الْبَاطِلَ وَيُثْبِتَ الْحَقَّ.

﴿بِكَلِمَاتِهِ﴾[1] بِوَحْيِهِ أَوْ بِقَضَائِهِ كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ﴾[2]، يَعْنِي: لَوْ كَانَ مُفْتَرِيًا كَمَا تَزْعُمُونَ لَكَشَفَ اللَّهُ افْتِرَاءَهُ وَمَحَقَهُ وَقَذَفَ بِالْحَقِّ عَلَى بَاطِلِهِ فَدَمَغَهُ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ عِدَّةً لِرَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– بِأَنَّهُ يَمْحُو الْبَاطِلَ الَّذِي هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْبُهْتِ وَالتَّكْذِيبِ، وَيُثْبِتَ الْحَقَّ الَّذِي أَنْتَ عَلَيْهِ بِالْقُرْآنِ وَبِقَضَائِهِ الَّذِي لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ نُصْرَتِكَ عَلَيْهِمْ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا فِي صَدْرِكَ وَصُدُورِهِمْ، فيجْرِي الْأَمْرُ عَلَى حَسَبِ ذَلِكَ.

وَعَنْ قَتَادَةَ ﴿يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾[3]: يُنْسِكَ الْقُرْآنُ وَيَقْطَعُ عَنْكَ الْوَحْيَ، يَعْنِي: لَوِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَفَعَلَ بِهِ ذَلِكَ، وَقِيلَ: ﴿يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾[4]: يَرْبُطُ عَلَيْهِ بِالصَّبْرِ، حَتَّى لَا يَشُقَّ عَلَيْكَ أَذَاهُمْ.

فَإِنْ قُلْتَ: إِنْ كَانَ قَوْلُهُ: ﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾[5] كَلَامًا مُبْتَدَأً غَيْرَ مَعْطُوفٍ عَلَى يَخْتِمُ، فَمَا بَالُ الْوَاوِ سَاقِطَةً فِي الْخَطِّ؟

قُلْتُ: كَمَا سَقَطَتْ فِي قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَيَدْعُ الإِنْسَانُ بِالشَّرِّ﴾[6]، وَقَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾[7] عَلَى أَنَّهَا مُثْبَتَةٌ عَلَى فِي بَعْضِ الْمَصَاحِفِ.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾[8]

---

1 سورة الشُّورَى، الآية .

2 سورة الْأَنْبِيَاءُ، الآية 188.

3 سورة الشُّورَى، الآية .

4 سورة الشُّورَى، الآية .

5 سورة الشُّورَى، الآية .

6 سورة]الْإِسْرَاءُ، الآية 11.

7 سورة الْعَلَقُ، الآية 188.

8 سورة الشُّورَى، الآية .

يُقَالُ: قَبِلْتُ مِنْهُ الشَّيْءَ، وَقَبِلْتُهُ عَنْهُ.

فَمَعْنَى قَبِلْتُهُ مِنْهُ: أَخَذْتُهُ مِنْهُ وَجَعَلْتُهُ مَبْدَأَ قَبُولِي وَمَنْشَأَهُ.

وَمَعْنَى: قَبِلْتُهُ عَنْهُ: عَزَلْتُهُ عَنْهُ وَأَبَنْتُهُ عَنْهُ.

وَالتَّوْبَةُ: أَنْ يَرْجِعَ عَنِ الْقَبِيحِ وَالْإِخْلَالِ بِالْوَاجِبِ بِالنَّدَمِ عَلَيْهِمَا وَالْعَزْمِ عَلَى أَنْ لَا يُعَاوِدَ، لِأَنَّ الْمَرْجُوعَ عَنْهُ قَبِيحٌ وَإِخْلَالٌ بِالْوَاجِبِ. وَإِنْ كَانَ فِيهِ لِعَبْدٍ حَقٌّ: لَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنَ التَّقَصِّي عَلَى طَرِيقِهِ.

وَرَوَى جَابِرٌ أَنْ أَعْرَابِيًّا دَخَلَ مَسْجِدَ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ، وَكَبَّرَ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ صَلَاتِهِ قَالَ لَهُ عَلِيٌّ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: يَا هَذَا، إِنَّ سُرْعَةَ اللِّسَانِ بِالِاسْتِغْفَارِ تَوْبَةُ الْكَذَّابِينَ، وَتَوْبَتُكَ تَحْتَاجُ إِلَى التَّوْبَةِ. فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَمَا التَّوْبَةُ؟ قَالَ: اسْمٌ يَقَعُ عَلَى سِتَّةِ مَعَانٍ: عَلَى الْمَاضِي مِنَ الذُّنُوبِ النَّدَامَةُ، وَلِتَضْيِيعِ الْفَرَائِضِ الْإِعَادَةُ، وَرَدُّ الْمَظَالِمِ، وَإِذَابَةُ النَّفْسِ فِي الطَّاعَةِ كَمَا رَبَّيْتَهَا فِي الْمَعْصِيَةِ، وَإِذَاقَةُ النَّفْسِ مَرَارَةَ الطَّاعَةِ كَمَا أَذَقْتَهَا حَلَاوَةَ الْمَعْصِيَةِ، وَالْبُكَاءَ بَدَلَ كُلِّ ضَحِكٍ ضَحِكْتَهُ.

﴿وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾[1] عَنِ الْكَبَائِرِ إِذَا تِيبَ عَنْهَا، وَعَنِ الصَّغَائِرِ إِذَا اجْتُنِبَتِ الْكَبَائِرُ.

﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾[2]، قُرِئَ بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ، أَيْ: يَعْلَمُهُ فيثيبُ عَلَى حَسَنَاتِهِ، وَيُعَاقِبُ عَلَى سَيِّئَاتِهِ.

﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾[3]

---

1 سورة الشُّورَى، الآية .

2 سورة الشُّورَى، الآية .

3 سورة الشُّورَى، الآية .

﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[1]، أَيْ يَسْتَجِيبُ لَهُمْ، فَحَذَفَ اللَّامَ كَمَا حَذَفَ فِي قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ﴾[2]، أَيْ يُثِيبُهُمْ عَلَى طَاعَتِهِمْ وَيَزِيدُهُمْ عَلَى الثَّوَابِ تَفَضُّلًا، أَوْ إِذَا دَعَوْهُ اسْتَجَابَ دُعَاءَهُمْ وَأَعْطَاهُمْ مَا طَلَبُوا زَادَهُمْ عَلَى مَطْلُوبِهِمْ.

وَقِيلَ: الِاسْتِجَابَةُ: فِعْلُهُمْ، أَيْ يَسْتَجِيبُونَ لَهُ بِالطَّاعَةِ إِذَا دَعَاهُمْ إِلَيْهَا.

﴿وَيَزِيدُهُمْ﴾[3] هُوَ ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾[4] عَلَى ثَوَابِهِمْ.

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ: هَذَا مِنْ فِعْلِهِمْ: يُجِيبُونَهُ إِذَا دَعَاهُمْ.

وَعَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَدْهَمَ أَنَّهُ قِيلَ لَهُ: مَا بَالُنَا نَدْعُو فَلَا نُجَابُ؟ قَالَ: لِأَنَّهُ دَعَاكُمْ فَلَمْ تُجِيبُوهُ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلامِ﴾[5]، ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[6].

﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾[7]

﴿لَبَغَوْا﴾[8] مِنَ الْبَغْيِ وَهُوَ الظُّلْمُ، أَيْ: لَبَغَى هَذَا عَلَى ذَاكَ، وَذَاكَ عَلَى هَذَا، لِأَنَّ الْغِنَى مَبْطَرَةٌ مَأْشَرَةٌ، وَكَفَى بِحَالِ قَارُونَ عِبْرَةً.

وَمِنْهُ قَوْلُهُ –عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ–:

أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي زَهْرَةُ الدُّنْيَا وَكَثْرَتُهَـــا

وَلِبَعْضِ الْعَرَبِ:

وَقَدْ جَعَلَ الْوَسْمِيَّ يَنْبُتُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ بَنِي رُومَانَ نَبْعًا وَشَوْحَطَا

---

1 سورة الشُّورَى، الآية .

2 سورة الْمُطَفِّفِينَ، الآية 3.

3 سورة الشُّورَى، الآية .

4 سورة الشُّورَى، الآية .

5 سورة يُونُسُ، الآية 25.

6 سورة الشُّورَى، الآية .

7 سورة الشُّورَى، الآية .

8 سورة الشُّورَى، الآية .

يَعْنِي: أَنَّهُمْ أَحْيَوْا فَحَدَّثُوا أَنْفُسَهُمْ بِالْبَغْيِ وَالتَّفَانُنِ، أَوْ مِنَ الْبَغْيِ وَهُوَ الْبَذَخُ وَالْكِبْرُ، أَيْ: لِتَكْبُرُوا فِي الْأَرْضِ، وَفَعَلُوا مَا يَتْبَعُ الْكِبَرَ مِنَ الْغُلُوِّ فيها وَالْفَسَادِ. وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الصِّفَةِ تَمَنَّوْا سَعَةَ الرِّزْقِ وَالْغِنَى.

قَالَ خَبَّابُ ابْنُ الْأَرَتِّ: فِينَا نَزَلَتْ، وَذَلِكَ أَنَّا نَظَرْنَا إِلَى أَمْوَالِ بَنِي قُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرِ وَبَنِي قَيْنُقَاعَ فَتَمَنَّيْنَاهَا "بِقَدَرٍ" بِتَقْدِيرٍ. يُقَالُ قَدْرَهُ قَدْرًا وَقَدَرًا.

﴿خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾[1] يَعْرِفُ مَا يَؤُولُ إِلَيْهِ أَحْوَالُهُمْ، فيقَدِّرُ لَهُمْ مَا هُوَ أَصْلَحُ لَهُمْ وَأَقْرَبُ إِلَى جَمْعِ شَمْلِهِمْ، فيفْقِرُ وَيُغْنِي، وَيَمْنَعُ وَيُعْطِي، وَيَقْبِضُ وَيَبْسُطُ كَمَا تُوجِبُهُ الْحِكْمَةُ الرَّبَّانِيَّةُ. وَلَوْ أَغْنَاهُمْ جَمِيعًا لَبَغَوْا، وَلَوْ أَفْقَرَهُمْ لَهَلَكُوا.

فَإِنْ قُلْتَ: قَدْ نَرَى النَّاسَ يَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَمِنْهُمْ مَبْسُوطٌ لَهُمْ، وَمِنْهُمْ مَقْبُوضٌ عَنْهُمْ، فَإِنْ كَانَ الْمَبْسُوطُ لِمَ يَبْغُونَ، فَلِمَ بَسَطَ لَهُمْ، وَإِنْ كَانَ الْمَقْبُوضُ عَنْهُمْ يَبْغُونَ فَقَدْ يَكُونُ الْبَغْيُ بِدُونِ الْبَسْطِ، فَلِمَ شَرَطَهُ؟

قُلْتُ: لَا شُبْهَةَ فِي أَنَّ الْبَغْيَ مَعَ الْفَقْرِ أَقَلُّ وَمَعَ الْبَسْطِ أَكْثَرُ وَأَغْلَبُ، وَكِلَاهُمَا سَبَبٌ ظَاهِرٌ لِلْإِقْدَامِ عَلَى الْبَغْيِ وَالْإِحْجَامِ عَنْهُ، فَلَوْ عَمَّ الْبَسْطُ لَغَلَبَ الْبَغْيُ حَتَّى يَنْقَلِبَ الْأَمْرُ إِلَى عَكْسِ مَا عَلَيْهِ الْآنَ.

﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾[2]

قُرِئَ: (قَنَطُو) بِفَتْحِ النُّونِ وَكَسْرِهَا.

﴿وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾[3]، أَيْ: بَرَكَاتُ الْغَيْثِ وَمَنَافِعُهُ وَمَا يَحْصُلُ بِهِ مِنَ الْخَصْبِ.

وَعَنْ عُمَرَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– أَنَّهُ قِيلَ لَهُ: اشْتَدَّ الْقَحْطُ وَقَنَطَ النَّاسُ فَقَالَ: مُطِرُوا إِذَا أَرَادَ هَذِهِ الْآيَةَ.

وَيَجُوزُ أَنْ يُرِيدَ رَحْمَتَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ، كَأَنَّهُ قَالَ: يُنْزِلُ الرَّحْمَةَ الَّتِي هِيَ الْغَيْثُ، وَيَنْشُرُ غَيْرَهَا مِنْ رَحْمَتِهِ الْوَاسِعَةِ.

---

[1] سورة الشُّورَى، الآية .

[2] سورة الشُّورَى، الآية .

[3] سورة الشُّورَى، الآية .

﴿الْوَلِيُّ﴾[1] الَّذِي يَتَوَلَّى عِبَادَهُ بِإِحْسَانِهِ.

﴿الْحَمِيدِ﴾[2] الْمَحْمُودُ عَلَى ذَلِكَ يَحْمَدُهُ أَهْلُ طَاعَتِهِ.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾[3]

﴿وَمَا بَثَّ﴾[4] يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَرْفُوعًا وَمَجْرُورًا يُحْمَلُ عَلَى الْمُضَافِ إِلَيْهِ أَوِ الْمُضَافِ.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ جَازَ ﴿فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾[5] وَالدَّوَابُّ فِي الْأَرْضِ وَحْدَهَا؟

قُلْتُ: يَجُوزُ أَنْ يُنْسَبَ الشَّيْءُ إِلَى جَمِيعِ الْمَذْكُورِ وَإِنْ كَانَ مُلْتَبِسًا بِبُعْضِهِ، كَمَا يُقَالُ :بَنُو تَمِيمٍ فِيهِمْ شَاعِرٌ مُجِيدٌ أَوْ شُجَاعٌ بَطَلٌ، وَإِنَّمَا هُوَ فِي فَخْذٍ مِنْ أَفْخَاذِهِمْ أَوْ فَصِيلَةٍ مِنْ فَصَائِلِهِمْ، وَبَنُو فُلَانٍ فَعَلُوا كَذَا، وَإِنَّمَا فَعَلُوا نُوَيْسَ مِنْهُمْ. وَمِنْهُ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾[6]، وَإِنَّمَا يَخْرُجُ مِنَ الْمِلْحِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ لِلْمَلَائِكَةِ –عَلَيْهِمُ السَّلَامُ– مَشْيٌ مَعَ الطَّيَرَانِ. فيوصَفُوا بِالدَّبِيبِ، كَمَا يُوصَفُ بِهِ الْأَنَاسِيُّ. وَلَا يَبْعُدُ أَنْ يَخْلُقَ فِي السَّمَاوَاتِ حَيَوَانًا يَمْشِي فيها مَشْيَ الْأَنَاسِيِّ عَلَى الْأَرْضِ، سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ مَا نَعْلَمُ وَمَا لَا نَعْلَمُ مِنْ أَصْنَافِ الْخَلْقِ.

﴿إِذَا﴾[7] وَمِنْهُ يَدْخُلُ عَلَى الْمُضَارِعِ كَمَا يَدْخُلُ عَلَى الْمَاضِي قَالَ اللَّهُ –تَعَالَى–: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾[8]، وَمِنْهُ ﴿إِذَا يَشَاءُ﴾[9].

وَقَالَ الشَّاعِرُ:

---

1 سورة الشُّورَى، الآية .

2 سورة الشُّورَى، الآية .

3 سورة الشُّورَى، الآية .

4 سورة الشُّورَى، الآية .

5 سورة الشُّورَى، الآية .

6 سورة الرَّحْمَنُ، الآية 22.

7 سورة الشُّورَى، الآية .

8 سورة اللَّيْلُ، الآية 1.

9 سورة الشُّورَى، الآية .

وَإِذَا مَا أَشَاءُ أَبْعَثُ مِنْهَا آخِرَ اللَّيْلِ نَاشِطًا مَذْعُورَا

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾[1]

في مَصَاحِفِ أَهْلِ الْعِرَاقِ ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ﴾[2] بِإِثْبَاتِ الْفَاءِ عَلَى تَضْمِينِ "مَا" مَعْنَى الشَّرْطِ.

وَفِي مَصَاحِفِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ (بِمَا كَسَبَتْ) بِغَيْرِ فَاءٍ، عَلَى أَنَّ "مَا" مُبْتَدَأَةٌ، وَبِمَا كَسَبَتْ: خَبَرُهَا مِنْ غَيْرِ تَضْمِينِ مَعْنَى الشَّرْطِ. وَالْآيَةُ مَخْصُوصَةٌ بِالْمُجْرِمِينَ وَلَا يَمْتَنِعُ أَنْ يَسْتَوْفِيَ اللَّهُ بَعْضَ عِقَابِ الْمُجْرِمِ وَيَعْفُو عَنْ بَعْضٍ. فَأَمَّا مَنْ لَا جَرَمَ لَهُ كَالْأَنْبِيَاءِ وَالْأَطْفَالِ وَالْمَجَانِينِ، فَهَؤُلَاءِ إِذَا أَصَابَهُمْ شَيْءٌ مِنْ أَلَمٍ أَوْ غَيْرِهِ فَلِلْعِوَضِ الْمُوَفى وَالْمَصْلَحَةِ.

وَعَنِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "مَا مِنَ اخْتِلَاجِ عِرْقٍ وَلَا خَدْشِ عُودٍ وَلَا نَكْبَةِ حَجَرٍ إِلَّا بِذَنْبٍ، وَلِمَا يَعْفُو اللَّهُ عَنْهُ أَكْثَرُ".

وَعَنْ بَعْضِهِمْ: مَنْ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ مَا وَصَلَ إِلَيْهِ مِنَ الْفِتَنِ وَالْمَصَائِبِ بِاكْتِسَابِهِ. وَأَنَّ مَا عَفَا عَنْهُ مَوْلَاهُ أَكْثَرُ: كَانَ قَلِيلَ النَّظَرِ فِي إِحْسَانِ رَبِّهِ إِلَيْهِ.

وَعَنْ آخَرَ: الْعَبْدُ مُلَازِمٌ لِلْجِنَايَاتِ فِي كُلِّ أَوَانٍ، وَجِنَايَاتُهُ فِي طَاعَاتِهِ أَكْثَرُ مِنْ جِنَايَاتِهِ فِي مَعَاصِيهِ، لِأَنَّ جِنَايَةَ الْمَعْصِيَةِ مِنْ وَجْهٍ وَجِنَايَةَ الطَّاعَةِ مِنْ وُجُوهٍ، وَاللَّهُ يُطَهِّرُ عَبْدَهُ مِنْ جِنَايَاتِهِ بِأَنْوَاعٍ مِنَ الْمَصَائِبِ، لِيُخَفِّفَ عَنْهُ أَثْقَالَهُ فِي الْقِيَامَةِ، وَلَوْلَا عَفْوُهُ وَرَحْمَتُهُ لَهَلَكَ فِي أَوَّلِ خُطْوَةٍ.

وَعَنْ عَلِيٍّ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– وَقَدْ رَفَعَهُ: "مِنْ عُفِيَ عَنْهُ فِي الدُّنْيَا عُفِيَ عَنْهُ فِي الْآخِرَةِ وَمَنْ عُوقِبَ فِي الدُّنْيَا لَمْ تُثْنِ عَلَيْهِ الْعُقُوبَةُ فِي الْآخِرَةِ"، وَعَنْهُ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: هَذِهِ أَرْجَى آيَةٍ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي الْقُرْآنِ.

﴿بِمُعْجِزِينَ﴾[3]: بِفَائِتِينَ مَا قُضِيَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْمَصَائِبِ.

---

[1] سورة الشُّورَى، الآية .

[2] سورة الشُّورَى، الآية .

[3] سورة الشُّورَى، الآية .

﴿مِنْ وَلِيٍّ﴾[1] مِنْ مُتَوَلٍّ بِالرَّحْمَةِ.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنْ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾[2]

﴿الْجَوَارِ﴾[3]: السُّفُنُ. وَقُرِئَ (الْجِوَارِ) "كَالْأَعْلَامِ" كَالْجِبَالِ.

قَالَتِ الْخَنْسَاءُ:

كَأَنَّهُ عَلَمٌ في رَأْسِهِ نَـــــــــــــــارُ

وَقُرِئَ: (الرِّيَاحُ فيظْلِلْنَ) بِفَتْحِ اللَّامِ وَكَسْرِهَا، مِنْ ظَلَّ وَيَظَلُّ، نَحْوُ: ضَلَّ يَضِلُّ وَيَضَلُّ

﴿رَوَاكِدَ﴾[4] ثَوَابِتَ لَا تَجْرِي.

﴿عَلَى ظَهْرِهِ﴾[5] عَلَى ظَهْرِ الْبَحْرِ.

﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾[6] عَلَى بَلَاءِ اللَّهِ.

﴿شَكُورٍ﴾[7] لِنَعْمَائِهِ، وَهُمَا صِفَتَا الْمُؤْمِنِ الْمُخْلِصِ، فَجَعَلَهُمَا كِنَايَةً عَنْهُ، وَهُوَ الَّذِي وَكَّلَ هِمَّتَهُ بِالنَّظَرِ في آيَاتِ اللَّهِ، فَهُوَ يَسْتَمْلِي مِنْهَا الْعِبَرَ.

﴿يُوبِقْهُنَّ﴾[8]: يُهْلِكُهُنَّ.

وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ إِنْ يَشَأْ يَبْتَلِي الْمُسَافِرِينَ في الْبَحْرِ بِإِحْدَى بَلِيَّتَيْنِ: إِمَّا أَنْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فيرْكُدُ الْجَوَارِي عَلَى مَتْنِ الْبَحْرِ وَيَمْنَعُهُنَّ مِنَ الْجَرْيِ، وَإِمَّا أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ عَاصِفَةً فيهْلِكُهُنَّ إِغْرَاقًا بِسَبَبِ مَا كَسَبُوا مِنَ الذُّنُوبِ.

---

1 سورة الشُّورَى، الآية .
2 سورة الشُّورَى، الآية .
3 سورة الشُّورَى، الآية .
4 سورة الشُّورَى، الآية .
5 سورة الشُّورَى، الآية .
6 سورة الشُّورَى، الآية .
7 سورة الشُّورَى، الآية .
8 سورة الشُّورَى، الآية .

﴿وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾[1] مِنْهَا.

فَإِنْ قُلْتَ: عَلَامَ عَطَفَ يُوبِقْهُنَّ؟

قُلْتُ: عَلَى يَسْكُنُ، لِأَنَّ الْمَعْنَى: إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فيرْكُدْنَ، أَوْ يَعْصِفُهَا، فيغْرَقْنَ بِعَصْفِهَا.

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا مَعْنَى إِدْخَالُ الْعَفْوِ في حُكْمِ الْإِيبَاقِ حَيْثُ جَزَمَ جَزْمَهُ؟

قُلْتُ: مَعْنَاهُ: أَوْ إِنْ يَشَأْ يُهْلِكْ نَاسًا وَيُنْجِ نَاسًا عَلَى طَرِيقِ الْعَفْوِ عَنْهُمْ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَنْ قَرَأَ: (وَيَعْفُو)؟

قُلْتُ: قَدِ اسْتَأْنَفَ الْكَلَامَ.

﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ﴾[2]

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا وُجُوهُ الْقِرَاآتِ الثَّلَاثِ في ﴿وَيَعْلَمَ﴾[3]؟

قُلْتُ: أَمَّا الْجَزْمُ، فَعَلَى ظَاهِرِ الْعَطْفِ؛ وَأَمَّا الرَّفْعُ، فَعَلَى الِاسْتِئْنَافِ؛ وَأَمَّا النَّصْبُ، فَلِلْعَطْفِ عَلَى تَعْلِيلٍ مَحْذُوفٍ تَقْدِيرُهُ: لِيَنْتَقِمَ مِنْهُمْ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ؛ وَنَحْوُهُ في الْعَطْفِ عَلَى التَّعْلِيلِ الْمَحْذُوفِ غَيْرُ عَزِيزٍ في الْقُرْآنِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ﴾[4]، وَقَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾[5].

وَأَمَّا قَوْلُ الزَّجَّاجِ: النَّصْبُ عَلَى إِضْمَارِ أَنْ، لِأَنَّ قَبْلَهَا جَزَاءٌ، تَقُولُ: مَا تَصْنَعُ أَصْنَعُ مِثْلَهُ وَأُكْرِمُكَ وَإِنْ شِئْتَ وَأُكْرِمُكَ، عَلَى تَأْوِيلِ: وَأَنَا أُكْرِمُكَ. وَإِنْ شِئْتَ وَأَكْرَمْكَ جَزْمًا، فَفِيهِ نَظَرٌ لِمَا أَوْرَدَهُ سِيبَوَيْهِ في كِتَابِهِ.

قَالَ: وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْبَ بِالْفَاءِ وَالْوَاوِ في قَوْلِهِ: إِنْ تَأْتِنِي آتِكَ وَأُعْطِيكَ: ضَعِيفٌ، وَهُوَ نَحْوٌ مِنْ قَوْلِهِ:

---

1 سورة الشُّورَى، الآية .

2 سورة الشُّورَى، الآية .

3 سورة الشُّورَى، الآية .

4 سورة مَرْيَمَ، الآية 21.

5 سورة الْجَاثِيَةُ، الآية 22.

وَأَلْحَقَ بِالْحِجَازِ فَأَسْتَرِيحَـــــــــــــا

فَهَذَا يَجُوزُ، وَلَيْسَ بِحَدِّ الْكَلَامِ وَلَا وَجْهِهِ، إِلَّا أَنَّهُ فِي الْجَزَاءِ صَارَ أَقْوَى قَلِيلًا، لِأَنَّهُ لَيْسَ بِوَاجِبٍ أَنَّهُ يَفْعَلُ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِنَ الْأَوَّلِ فِعْلٌ، فَلَمَّا ضَارَعَ الَّذِي لَا يُوجِبُهُ كَالِاسْتِفْهَامِ وَنَحْوِهِ: أَجَازُوا فِيهِ هَذَا عَلَى ضَعْفِهِ، ا هـ.

وَلَا يَجُوزُ أَنْ تُحْمَلَ الْقِرَاءَةُ الْمُسْتَفِيضَةُ عَلَى وَجْهٍ ضَعِيفٍ لَيْسَ بِحَدِّ الْكَلَامِ وَلَا وَجْهِهِ، وَلَوْ كَانَتْ مِنْ هَذَا الْبَابِ لَمَا أَخْلَى سِيبَوَيْهِ مِنْهَا كِتَابَهُ، وَقَدْ ذَكَرَ نَظَائِرَهَا مِنَ الْآيَاتِ الْمُشْكَلَةِ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَكَيْفَ يَصِحُّ الْمَعْنَى عَلَى جَزْمِ "وَيَعْلَمْ"؟

قُلْتُ: كَأَنَّهُ قَالَ: أَوَ إِنْ يَشَأْ يَجْمَعُ بَيْنَ ثَلَاثَةِ أُمُورٍ: هَلَاكُ قَوْمٍ وَنَجَاةُ قَوْمٍ وَتَحْذِيرُ آخَرِينَ.

﴿مِنْ مَحِيصٍ﴾[1]: مِنْ مَحِيدٍ عَنْ عِقَابِهِ.

﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[2]

"مَا" الْأَوْلَى ضَمَّنَتْ مَعْنَى الشَّرْطِ، فَجَاءَتِ الْفَاءُ فِي جَوَابِهَا بِخِلَافِ الثَّانِيَةِ.

عَنْ عَلِيٍّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: اجْتَمَعَ لِأَبِي بَكْرٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- مَالٌ، فَتَصَدَّقَ بِهِ كُلَّهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْخَيْرِ، فَلَامَهُ الْمُسْلِمُونَ وَخَطَّأَهُ الْكَافِرُونَ، فَنَزَلَتْ.

﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾[3]

﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ﴾[4] عَطْفٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا، وَكَذَلِكَ مَا بَعْدَهُ.

---

1 سورة الشُّورَى، الآية .

2 سورة الشُّورَى، الآية .

3 سورة الشُّورَى، الآية .

4 سورة الشُّورَى، الآية .

وَمَعْنَى: ﴿كَبَائِرَ الإِثْمِ﴾[1] الْكَبَائِرُ مِنْ هَذَا الْجِنْسِ. وَقُرِئَ (كَبِيرُ الْإِثْمِ) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ–: كَبِيرُ الْإِثْمِ هُوَ الشِّرْكُ .

﴿هُمْ يَغْفِرُونَ﴾[2]، أَيْ: هُمُ الْأَخِصَّاءُ بِالْغُفْرَانِ فِي حَالِ الْغَضَبِ، لَا يَغُولُ الْغَضَبُ أَحْلَامَهُمْ كَمَا يَغُولُ حُلُومَ النَّاسِ، وَالْمَجِيءُ بِهِمْ وَإِيقَاعُهُ مُبْتَدَأً، وَإِسْنَادُ ﴿يَغْفِرُونَ﴾[3] إِلَيْهِ لِهَذِهِ الْفَائِدَةِ، وَمِثْلُهُ: ﴿هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾[4].

﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾[5]

﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾[6] نَزَلَتْ فِي الْأَنْصَارِ: دَعَاهُمُ اللَّهُ –عَزَّ وَجَلَّ– لِلْإِيمَانِ بِهِ وَطَاعَتِهِ، فَاسْتَجَابُوا لَهُ بِأَنْ آمَنُوا بِهِ وَأَطَاعُوهُ.

﴿وَأَقَامُوا الصَّلاةَ﴾[7]: وَأَتَمُّوا الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ.

وَكَانُوا قَبْلَ الْإِسْلَامِ وَقَبْلَ مَقْدَمِ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– الْمَدِينَةَ: إِذَا كَانَ بِهِمْ أَمْرٌ اجْتَمَعُوا وَتَشَاوَرُوا، فَأَثْنَى اللَّهُ عَلَيْهِمْ، أَيْ: لَا يَنْفَرِدُونَ بِرَأْيٍ حَتَّى يَجْتَمِعُوا عَلَيْهِ.

وَعَنِ الْحَسَنِ: "مَا تَشَاوَرَ قَوْمٌ إِلَّا هُدُوا لِأَرْشَدِ أَمْرِهِمْ" وَالشُّورَى: مَصْدَرٌ كَالْفُتْيَا، بِمَعْنَى التَّشَاوُرِ.

وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾[8]، أَيْ: ذُو شُورَى، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُمْ: تَرَكَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– الْخِلَافَةَ شُورَى.

---

1 سورة الشُّورَى، الآية .
2 سورة الشُّورَى، الآية .
3 سورة الشُّورَى، الآية .
4 سورة الشُّورَى، الآية 39.
5 سورة الشُّورَى، الآية .
6 سورة الشُّورَى، الآية .
7 سورة الشُّورَى، الآية .
8 سورة النِّسَاءُ، الآية 78.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾[1]

هُوَ أَنْ يَقْتَصِرُوا فِي الِانْتِصَارِ عَلَى مَا جَعَلَهُ اللَّهُ لَهُمْ وَلَا يَعْتَدُوا.

وَعَنِ النَّخْعِيِّ أَنَّهُ كَانَ إِذَا قَرَأَهَا قَالَ: كَانُوا يَكْرَهُونَ أَنْ يُذِلُّوا أَنْفُسَهُمْ فيجْتَرِئُ عَلَيْهِمُ الْفُسَّاقُ.

فَإِنْ قُلْتَ: أَهُمْ مَحْمُودُونَ عَلَى الِانْتِصَارِ؟

قُلْتُ: نَعَمْ، لِأَنَّ مَنْ أَخَذَ حَقَّهُ غَيْرَ مُتَعَدٍّ حَدَّ اللَّهِ وَمَا أَمَرَ بِهِ فَلَمْ يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنْ كَانَ وَلِيَّ دَمٍ أَوْرَدَ عَلَى سَفِيهٍ، مُحَامَاةً عَلَى عِرْضِهِ وَرَدْعًا لَهُ، فَهُوَ مُطِيعٌ. وَكُلُّ مُطِيعٍ مَحْمُودٌ.

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾[2]

كِلْتَا الْفِعْلَتَيْنِ الْأُولَى وَجَزَاؤُهَا سَيِّئَةٌ، لِأَنَّهَا تَسُوءُ مَنْ تَنْزِلُ بِهِ.

قَالَ اللَّهُ –تَعَالَى–: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾[3]، يُرِيدُ: مَا يَسُوءُهُمْ مِنَ الْمَصَائِبِ وَالْبَلَايَا.

وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ يَجِبُ إِذَا قُوبِلَتِ الْإِسَاءَةُ أَنْ تُقَابَلَ بِمِثْلِهَا مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ، فَإِذَا قَالَ: أَخْزَاكَ اللَّهُ قَالَ: أَخْزَاكَ اللَّهُ.

﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ﴾[4] بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَصْمِهِ بِالْعَفْوِ وَالْإِغْضَاءِ. كَمَا قَالَ –تَعَالَى–: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[5]، ﴿فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾[6] عِدَةٌ مُبْهَمَةٌ لَا يُقَاسُ أَمْرُهَا فِي الْعِظَمِ.

---

1 سورة الشُّورَى، الآية .

2 سورة الشُّورَى، الآية .

3 سورة الشُّورَى، الآية .

4 سورة الشُّورَى، الآية .

5 سورة الشُّورَى، الآية .

6 سورة فُصِّلَتْ، الآية 34.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾[1] دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الِانْتِصَارَ لَا يَكَادُ يُؤْمَنُ فِيهِ تَجَاوُزُ السَّيِّئَةِ وَالِاعْتِدَاءِ خُصُوصًا فِي حَالِ الْحَرْدِ وَالْتِهَابِ الْحَمِيَّةِ، فَرُبَّمَا كَانَ الْمَجَازِيُّ مِنَ الظَّالِمِينَ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ.

وَعَنِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "وَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ نَادَى مُنَادٍ: مَنْ كَانَ لَهُ عَلَى اللَّهِ أَجْرٌ فَلْيَقُمْ. قَالَ: فيقُومُ خَلْقٌ، فيقَالُ لَهُمْ: مَا أَجْرُكُمْ عَلَى اللَّهِ؟ فيقُولُونَ: نَحْنُ الَّذِينَ عَفَوْنَا عَمَّنْ ظَلَمَنَا، فيقَالُ لَهُمُ: ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِإِذْنِ اللَّهِ".

﴿وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[2]

﴿بَعْدَ ظُلْمِهِ﴾[3] مِنْ إِضَافَةِ الْمَصْدَرِ إِلَى الْمَفْعُولِ، وَتُفَسِّرُهُ قِرَاءَةُ مَنْ قَرَأَ: (بَعْدَ مَا ظَلَمَ).

﴿فَأُولَئِكَ﴾[4] إِشَارَةٌ إِلَى مَعْنَى ﴿مِنْ﴾[5] دُونِ لَفْظِهِ.

﴿مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾[6] لِلْمُعَاقِبِ وَلَا لِلْعَاتِبِ وَالْعَائِبِ.

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ﴾[7]: يَبْتَدِئُونَ بِالظُّلْمِ.

﴿وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ﴾[8]: يَتَكَبَّرُونَ فيها وَيَعْلُونَ وَيُفْسِدُونَ.

﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾[9]

---

1 سورة الشُّورَى، الآية .
2 سورة الشُّورَى، الآية .
3 سورة الشُّورَى، الآية .
4 سورة الشُّورَى، الآية .
5 سورة الشُّورَى، الآية .
6 سورة الشُّورَى، الآية .
7 سورة الشُّورَى، الآية .
8 سورة الشُّورَى، الآية .
9 سورة الشُّورَى، الآية .

﴿وَلَمَنْ صَبَرَ﴾[1] عَلَى الظُّلْمِ وَالْأَذَى، ﴿وَغَفَرَ﴾[2] وَلَمْ يَنْتَصِرْ، وَفَوَّضَ أَمْرَهُ إِلَى اللَّهِ.

﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾[3] مِنْهُ ﴿لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾[4] وَحَذَفَ الرَّاجِعَ، لِأَنَّهُ مَفْهُومٌ، كَمَا حَذَفَ مِنْ قَوْلِهِمُ: السَّمْنُ مَنَوَانُ بِدِرْهَمٍ.

وَيُحْكَى أَنَّ رَجُلًا سَبَّ رَجُلًا فِي مَجْلِسِ الْحَسَنِ -رَحِمَهُ اللَّهُ-، فَكَانَ الْمَسْبُوبُ يَكْظِمُ، وَيَعْرَقُ فِيمْسَحُ الْعَرَقَ، ثُمَّ قَامَ فَتَلَا هَذِهِ الْآيَةَ، فَقَالَ الْحَسَنُ: عَقْلُهَا وَاللَّهِ وَفَهْمُهَا إِذْ ضَيَّعَهَا الْجَاهِلُونَ.

وَقَالُوا: الْعَفْوُ مَنْدُوبٌ إِلَيْهِ، ثُمَّ الْأَمْرُ قَدْ يَنْعَكِسُ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ، فيرْجِعُ تَرْكُ الْعَفْوِ مَنْدُوبًا إِلَيْهِ، وَذَلِكَ إِذَا احْتِيجَ إِلَى كَفِّ زِيَادَةِ الْبَغْيِ، وَقَطْعِ مَادَّةِ الْأَذَى.

وَعَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ وَهُوَ: أَنَّ زَيْنَبَ أَسْمَعَتْ عَائِشَةَ بِحَضْرَتِهِ، وَكَانَ يَنْهَاهَا فَلَا تَنْتَهِي، فَقَالَ لِعَائِشَةَ: "دُونَكِ فَانْتَصِرِي".

﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ﴾[5]

﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ﴾[6]: وَمَنْ يَخْذُلْهُ اللَّهُ.

﴿فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ﴾[7]: فَلَيْسَ لَهُ مِنْ نَاصِرٍ يَتَوَلَّاهُ مِنْ بَعْدِ خُذْلَانِهِ.

﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي

---

1 سورة الشُّورَى، الآية .
2 سورة الشُّورَى، الآية .
3 سورة الشُّورَى، الآية .
4 سورة الشُّورَى، الآية .
5 سورة الشُّورَى، الآية .
6 سورة الشُّورَى، الآية .
7 سورة الشُّورَى، الآية .

عَذَابٍ مُقِيمٍ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾[1]

﴿خَاشِعِينَ﴾[2]: مُتَضَائِلِينَ مُتَقَاصِرِينَ مِمَّا يَلْحَقُهُمْ ﴿مِنَ الذُّلِّ﴾[3]، وَقَدْ يُعَلِّقُ ﴿مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ﴾[4]، وَيُوقِفُ عَلَى ﴿خَاشِعِينَ﴾[5].

﴿يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾[6]، أَيْ يَبْتَدِئُ نَظَرَهُمْ مِنْ تَحْرِيكٍ لِأَجْفَانِهِمْ ضَعِيفٌ خَفِي بِمُسَارَقَةٍ، كَمَا تَرَى الْمَصْبُورَ يَنْظُرُ إِلَى السَّيْفِ.

وَهَكَذَا نَظَرَ النَّاظِرُ إِلَى الْمَكَارِهِ: لَا يَقْدِرُ أَنْ يَفْتَحَ أَجْفَانَهُ عَلَيْهَا وَيَمْلَأَ عَيْنَيْهِ مِنْهَا، كَمَا يَفْعَلُ فِي نَظَرِهِ إِلَى الْمُحَابِّ.

وَقِيلَ: يُحْشَرُونَ عُمْيًا، فَلَا يَنْظُرُونَ إِلَّا بِقُلُوبِهِمْ. وَذَلِكَ نَظَرٌ مِنْ طَرْفٍ خَفِي. وَفِيهِ تَعَسُّفٌ "يَوْمُ" إِمَّا أَنْ يَتَعَلَّقَ بِخَسِرُوا، وَيَكُونُ قَوْلُ الْمُؤْمِنِينَ وَاقِعًا فِي الدُّنْيَا، وَإِمَّا أَنْ يَتَعَلَّقَ بِقَالَ، أَيْ: يَقُولُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا رَأَوْهُمْ عَلَى تِلْكَ الصِّفَةِ.

﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾[7]

﴿مِنَ اللَّهِ﴾[8]: ﴿مِنْ﴾[9] صِلَةٌ ﴿لَا مَرَدَّ﴾[10]، أَيْ: لَا يُرِدْهُ اللَّهُ بَعْدَمَا حَكَمَ بِهِ، أَوْ مِنْ صِلَةِ يَأْتِي، أَيْ: مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ مِنَ اللَّهِ يَوْمٌ لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى رَدِّهِ.

---

1 سورة الشُّورَى، الآية .
2 سورة الشُّورَى ، الآية .
3 سورة الشُّورَى، الآية .
4 سورة الشُّورَى، الآية .
5 سورة الشُّورَى، الآية .
6 سورة الشُّورَى، الآية .
7 سورة الشُّورَى، الآية .
8 سورة الشُّورَى، الآية .
9 سورة الشُّورَى، الآية .
10 سورة الشُّورَى، الآية .

وَالنَّكِيرُ: الْإِنْكَارُ، أَيْ: مَا لَكُمَ مِنْ مُخَلِّصٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَا تَقْدِرُونَ أَنْ تُنْكِرُوا شَيْئًا مِمَّا اقْتَرَفْتُمُوهُ وَدُوِّنَ فِي صَحَائِفِ أَعْمَالِكُمْ.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلا الْبَلاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾[1]

أَرَادَ بِالْإِنْسَانِ الْجَمْعَ لَا الْوَاحِدَ، لِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾[2]، وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْمُجْرِمِينَ، لِأَنَّ إِصَابَةَ السَّيِّئَةِ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِنَّمَا تَسْتَقِيمُ فِيهِمْ.

وَالرَّحْمَةُ: النِّعْمَةُ مِنَ الصِّحَّةِ وَالْغِنَى وَالْأَمْنِ.

وَالسَّيِّئَةُ: الْبَلَاءُ مِنَ الْمَرَضِ وَالْفَقْرِ وَالْمَخَاوِفِ.

وَالْكَفُورُ: الْبَلِيغُ الْكُفْرَانِ، وَلَمْ يَقُلْ: فَإِنَّهُ كَفُورٌ، لِيُسَجِّلَ عَلَى أَنَّ هَذَا الْجِنْسَ مَوْسُومٌ بِكُفْرَانِ النِّعَمِ، كَمَا قَالَ: ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[3]، ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾[4]، وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ يَذْكُرُ الْبَلَاءَ وَيَنْسَى النِّعَمَ وَيَغْمِطُهَا.

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾[5]

لَمَّا ذَكَرَ إِذَاقَةَ الْإِنْسَانِ الرَّحْمَةَ وَإِصَابَتَهُ بِضِدِّهَا: أَتْبَعَ ذَلِكَ أَنَّ لَهُ الْمُلْكَ وَأَنَّهُ يُقَسِّمُ النِّعْمَةَ وَالْبَلَاءَ كَيْفَ أَرَادَ، وَيَهَبُ لِعِبَادِهِ مِنَ الْأَوْلَادِ مَا تَقْتَضِيهِ مَشِيئَتُهُ، فيخُصُّ بَعْضًا بِالْأَنَاثِ وَبَعْضًا بِالذُّكُورِ، وَبَعْضًا بِالصِّنْفَيْنِ جَمِيعًا، وَيُعَقِّمُ آخَرِينَ فَلَا يَهَبُ لَهُمْ وَلَدًا قَطُّ.

---

1 سورة الشُّورَى، الآية .

2 سورة الشُّورَى، الآية .

3 سورة إِبْرَاهِيمُ، الآية 34.

4 سورة الْعَادِيَّاتُ، الآية 66.

5 سورة الشُّورَى، الآية .

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ قَدَّمَ الْإِنَاثَ أَوَّلًا عَلَى الذُّكُورِ مَعَ تَقَدُّمِهِمْ عَلَيْهِنَّ، ثُمَّ رَجَعَ فَقَدَّمَهُمْ، وَلِمَ عَرَفَ الذُّكُورُ بَعْدَ مَا نَكَّرَ الْإِنَاثَ؟

قُلْتُ: لِأَنَّهُ ذَكَرَ الْبَلَاءَ فِي آخِرِ الْآيَةِ الْأُوْلَى وَكُفْرَانَ الْإِنْسَانِ بِنِسْيَانِهِ الرَّحْمَةَ السَّابِقَةَ عِنْدَهُ، ثُمَّ عَقَبَهُ بِذِكْرِ مُلْكِهِ وَمَشِيئَتِهِ وَذَكَرَ قِسْمَةَ الْأَوْلَادِ، فَقَدَّمَ الْإِنَاثَ، لِأَنَّ سِيَاقَ الْكَلَامِ أَنَّهُ فَاعِلٌ مَا يَشَاؤُهُ لَا مَا يَشَاؤُهُ الْإِنْسَانُ، فَكَانَ ذِكْرُ الْإِنَاثِ اللَّاتِي مِنْ جُمْلَةِ مَا لَا يَشَاؤُهُ الْإِنْسَانُ أَهَمُّ وَالْأَهَمُّ وَاجِبُ التَّقْدِيمِ، وَلِيَلِي الْجِنْسَ الَّذِي كَانَتِ الْعَرَبُ تُعِدُّهُ بَلَاءً ذَكَرَ الْبَلَاءَ، وَأَخَّرَ الذُّكُورَ فَلَمَّا أَخَّرَهُمْ لِذَلِكَ تَدَارَكَ تَأْخِيرَهُمْ –وَهُمْ أَحِقَّاءُ بِالتَّقْدِيمِ– بِتَعْرِيفِهِمْ، لِأَنَّ التَّعْرِيفَ تَنْوِيهٌ وَتَشْهِيرٌ، كَأَنَّهُ قَالَ: وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الْفُرْسَانَ الْأَعْلَامَ الْمَذْكُورِينَ الَّذِينَ لَا يُخْفَوْنَ عَلَيْكُمْ، ثُمَّ أَعْطَى بَعْدَ ذَلِكَ كِلَا الْجِنْسَيْنِ حَقَّهُ مِنَ التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ، وَعَرَفَ أَنَّ تَقْدِيمَهُنَّ لَمْ يَكُنْ لِتَقَدُّمِهِنَّ، وَلَكِنْ لِمُقْتَضٍ آخَرَ، فَقَالَ: ﴿ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا﴾[1]، كَمَا قَالَ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾[2]، ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى﴾[3].

وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي الْأَنْبِيَاءِ –صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَسَلَامُهُ–، حَيْثُ وُهِبَ لِشُعَيْبٍ وَلُوطٌ إِنَاثًا، وَلِإِبْرَاهِيمَ ذُكُورًا، وَلِمُحَمَّدٍ ذُكُورًا وَإِنَاثًا، وَجُعِلَ يَحْيَى وَعِيسَى عَقِيمَيْنِ.

﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ﴾[4] بِمَصَالِحِ الْعِبَادِ، "قَدِيرٌ" عَلَى تَكْوِينِ مَا يُصْلِحُهُمْ.

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[5]

---

1 سورة الشُّورَى، الآية .

2 سورة الْحُجُرَاتُ، الآية 13.

3 سورة الْقِيَامَةُ، الآية 39.

4 سورة الشُّورَى، الآية .

5 سورة الشُّورَى، الآية .

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾[1]: وَمَا صَحَّ لِأَحَدٍ مِنَ الْبَشَرِ ﴿أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ﴾[2] عَلَى ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ:

– إِمَّا عَلَى طَرِيقِ الْوَحْيِ، وَهُوَ الْإِلْهَامُ وَالْقَذْفُ فِي الْقَلْبِ أَوِ الْمَنَامِ، كَمَا أَوْحَى إِلَى أُمِّ مُوسَى وَإِلَى إِبْرَاهِيمَ –عَلَيْهِ السَّلَامُ– فِي ذَبْحِ وَلَدِهِ.

وَعَنْ مُجَاهِدٍ: أَوْحَى اللَّهُ الزَّبُورَ إِلَى دَاوُدَ –عَلَيْهِ السَّلَامُ– فِي صَدْرِهِ.

قَالَ عُبَيْدُ بْنُ الْأَبْرَصِ:

وَأَوْحَى إِلَيَّ اللَّهُ أَنْ قَدْ تَأَمَّرُوا بِإِبْلِ أَبِي أَوْفى فَقُمْتُ عَلَى رِجْلِ

أَيْ: أَلْهَمَنِي وَقَذَفَ فِي قَلْبِي.

– وَإِمَّا عَلَى أَنْ يُسْمِعَهُ كَلَامَهُ الَّذِي يَخْلُقُهُ فِي بَعْضِ الْأَجْرَامِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يُبْصِرَ السَّامِعُ مَنْ يُكَلِّمُهُ، لِأَنَّهُ فِي ذَاتِهِ غَيْرُ مَرْئِيٍّ.

وَقَوْلُهُ: ﴿مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾[3] مِثْلُ أَيْ: كَمَا يُكَلِّمُ الْمَلِكُ الْمُحْتَجِبُ بَعْضَ خَوَاصِّهِ وَهُوَ مِنْ وَرَاءِ الْحِجَابِ، فيسْمَعُ صَوْتَهُ وَلَا يَرَى شَخْصَهُ، وَذَلِكَ كَمَا كَلَّمَ مُوسَى وَيُكَلِّمُ الْمَلَائِكَةَ.

– وَإِمَّا عَلَى أَنْ يُرْسِلَ إِلَيْهِ رَسُولًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ، فيوحَى الْمَلِكُ إِلَيْهِ كَمَا كَلَّمَ الْأَنْبِيَاءَ غَيْرَ مُوسَى.

وَقِيلَ: وَحْيًا كَمَا أَوْحَى إِلَى الرُّسُلِ بِوَاسِطَةِ الْمَلَائِكَةِ.

﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولا﴾[4]، أَيْ: نَبِيًّا كَمَا كَلَّمَ أُمَمَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ.

وَ﴿وَحْيًا﴾[5]، وَ(أَنْ يُرْسِلَ): مَصْدَرَانِ وَاقِعَانِ مَوْقِعَ الْحَالِ، لِأَنَّ (أَنْ يُرْسِلَ)، فِي مَعْنَى إِرْسَالًا.

وَ﴿مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾[6]: ظَرْفٌ وَاقِعٌ مَوْقِعَ الْحَالِ أَيْضًا، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾[7].

---

1 سورة الشُّورَى، الآية .

2 سورة الشُّورَى، الآية .

3 سورة الشُّورَى، الآية .

4 سورة الشُّورَى، الآية .

5 سورة الشُّورَى، الآية .

6 سورة الشُّورَى، الآية .

7 سورة آلُ عِمْرَانَ، الآية 191.

وَالتَّقْدِيرُ: وَمَا صَحَّ أَنْ يُكَلِّمَ أَحَدًا إِلَّا مُوحِيًا، أَوْ مُسْمِعًا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، أَوْ مُرْسَلًا.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ: ﴿وَحْيًا﴾[1]، مَوْضُوعًا مَوْضِعَ: كَلَامًا، لِأَنَّ الْوَحْيَ كَلَامٌ خَفِي فِي سُرْعَةٍ، كَمَا تَقُولُ: لَا أُكَلِّمُهُ إِلَّا جَهْرًا وَإِلَّا خُفَاتًا، لِأَنَّ الْجَهْرَ وَالْخُفَاتَ ضَرْبَانِ مِنَ الْكَلَامِ، قُلْتُ لِفُلَانٍ كَذَا، وَإِنَّمَا قَالَهُ وَكِيلُكَ أَوْ رَسُولُكَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾[2]، مَعْنَاهُ: أَوْ إِسْمَاعًا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ.

وَمَنْ جَعَلَ ﴿وَحْيًا﴾[3] فِي مَعْنَى: أَنْ يُوحِيَ، وَعَطَفَ ﴿يُرْسِلُ﴾[4] عَلَيْهِ، عَلَى مَعْنَى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلا وَحْيًا﴾[5]، أَيْ: إِلَّا بِأَنْ يُوحِيَ، أَوْ بِأَنْ يُرْسِلَ، فَعَلَيْهِ أَنْ يُقَدِّرَ قَوْلَهُ: ﴿أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾[6] تَقْدِيرًا يُطَابِقُهُمَا عَلَيْهِ، نَحْوُ: أَوْ أَنْ يَسْمَعَ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ.

وَقُرِئَ: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولا فَيُوحِيَ﴾[7] بِالرَّفْعِ، عَلَى: أَوْ هُوَ يُرْسِلُ، أَوْ بِمَعْنَى مُرْسَلًا عَطْفًا عَلَى "وَحْيًا" فِي مَعْنَى مُوحِيًا.

وَرُوِيَ أَنَّ الْيَهُودَ قَالَتْ لِلنَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَلَا تُكَلِّمَ اللَّهَ وَتَنْظُرُ إِلَيْهِ إِنْ كُنْتَ نَبِيًّا كَمَا كَلَّمَهُ مُوسَى وَنَظَرَ إِلَيْهِ، فَإِنَّا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْعَلَ ذَلِكَ، فَقَالَ: لَمْ يَنْظُرْ مُوسَى إِلَى اللَّهِ، فَنَزَلَتْ.

وَعَنْ عَائِشَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-: مَنْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفِرْيَةَ، ثُمَّ قَالَتْ: أَوَ لَمْ تَسْمَعُوا رَبَّكُمْ يَقُولُ: فَتَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿إِنَّهُ عَلِيٌّ﴾[8] عَنْ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ، ﴿حَكِيمٌ﴾[9] يَجْرِي أَفْعَالَهُ عَلَى مُوجِبِ الْحِكْمَةِ، فيكَلِّمُ تَارَةً بِوَاسِطَةٍ، وَأُخْرَى بِغَيْرِ وَاسِطَةٍ: إِمَّا إِلْهَامًا، وَإِمَّا خِطَابًا.

---

1 سورة الشُّورَى، الآية .
2 سورة الشُّورَى، الآية .
3 سورة الشُّورَى، الآية .
4 سورة الشُّورَى، الآية .
5 سورة الشُّورَى، الآية .
6 سورة الشُّورَى، الآية .
7 سورة الشُّورَى، الآية .
8 سورة الشُّورَى، الآية .
9 سورة الشُّورَى، الآية .

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مِنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ﴾[1]

﴿رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾[2] يُرِيدُ: مَا أُوحِيَ إِلَيْهِ، لِأَنَّ الْخَلْقَ يَحْيُونَ بِهِ فِي دِينِهِمْ كَمَا يَحْيَى الْجَسَدُ بِالرُّوحِ.

فَإِنْ قُلْتَ: قَدْ عَلِمَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: مَا كَانَ يَدْرِي مَا الْقُرْآنُ قَبْلَ نُزُولِهِ عَلَيْهِ، فَمَا مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَلا الإِيمَانُ﴾[3]، وَالْأَنْبِيَاءُ لَا يَجُوزُ عَلَيْهِمْ إِذَا عَقَلُوا وَتَمَكَّنُوا مِنَ النَّظَرِ وَالِاسْتِدْلَالِ أَنْ يُخْطِئَهُمُ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَتَوْحِيدِهِ، وَيَجِبَ أَنْ يَكُونُوا مَعْصُومِينَ مِنَ ارْتِكَابِ الْكَبَائِرِ وَمِنَ الصَّغَائِرِ الَّتِي فِيهَا تَنْفِيرٌ قَبْلَ الْمَبْعَثِ وَبَعْدَهُ، فَكَيْفَ لَا يَعْصِمُونَ مِنَ الْكُفْرِ؟

قُلْتُ: الْإِيمَانُ اسْمٌ يَتَنَاوَلُ أَشْيَاءَ: بَعْضُهَا الطَّرِيقُ إِلَيْهِ الْعَقْلُ، وَبَعْضُهَا الطَّرِيقُ إِلَيْهِ السَّمْعُ، فَعَنَى بِهِ مَا الطَّرِيقُ إِلَيْهِ السَّمْعُ دُونَ الْعَقْلِ، وَذَاكَ مَا كَانَ لَهُ فِيهِ عِلْمٌ حَتَّى كَسَبَهُ بِالْوَحْيِ.

أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَدْ فَسَّرَ الْإِيمَانَ فِي قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾[4] بِالصَّلَاةِ، لِأَنَّهَا بَعْضُ مَا يَتَنَاوَلُهُ الْإِيمَانُ؟

﴿مَنْ نَشَاءُ مَنْ عِبَادِنَا﴾[5]: مَنْ لَهُ لُطْفٌ وَمَنْ لَا لُطْفَ لَهُ، فَلَا هِدَايَةَ تُجْدِي عَلَيْهِ.

﴿صِرَاطِ اللَّهِ﴾[6] بَدَلٌ.

وَقُرِئَ (لِتُهْدَى) أَيْ: يَهْدِيكَ اللَّهُ.

وَقُرِئَ (لِتَدْعُوَ).

---

1 سورة الشُّورَى، الآية .

2 سورة الشُّورَى، الآية .

3 سورة الشُّورَى، الآية .

4 سورة الْبَقَرَةُ، الآية 143.

5 سورة الشُّورَى، الآية .

6 سورة الشُّورَى، الآية .

عَنْ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "مَنْ قَرَأَ ﴿حم عسق﴾[1] كَانَ مِمَّنْ تُصَلِّي عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ وَيَسْتَغْفِرُونَ لَهُ وَيَسْتَرْحِمُونَ لَهُ".

[1] سورة الشُّورَى، الآية .

سُورَةُ الزُّخْرُفِ

سُورَةُ الزُّخْرُفِ

مَكِّيَّةٌ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: إِلَّا قَوْلَهُ:
﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مَنْ قَبْلِكَ مَنْ رُسُلِنَا﴾[1]،
وَهِيَ تِسْعٌ وَثَمَانُونَ آيَةً
[نَزَلَتْ بَعْدَ الشُّورَى]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حم وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[2]

أَقْسَمَ بِالْكِتَابِ الْمُبِينِ، وَهُوَ الْقُرْآنُ، وَجَعَلَ قَوْلَهُ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾[3] جَوَابًا لِلْقَسَمِ وَهُوَ مِنَ الْأَيْمَانِ الْحَسَنَةِ الْبَدِيعَةِ، لِتَنَاسُبِ الْقَسَمِ وَالْمُقْسَمِ عَلَيْهِ، وَكَوْنِهِمَا مِنْ وَادٍ وَاحِدٍ.

وَنَظِيرُهُ قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ:

وَثَنَايَاكِ إِنَّهَا إِغْرِيـــــــــضُ

"الْمُبِينُ": الْبَيِّنُ لِلَّذِينِ أُنْزِلَ عَلَيْهِمْ، لِأَنَّهُ بِلُغَتِهِمْ وَأَسَالِيبِهِمْ.

وَقِيلَ: الْوَاضِعُ لِلْمُتَدَبِّرِينَ.

---

[1] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

[2] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

[3] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

وَقِيلَ: "الْمُبِينُ" الَّذِي أَبَانَ طُرُقَ الْهُدَى مِنْ طُرُقِ الضَّلَالَةِ، وَأَبَانَ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْأُمَّةُ فِي أَبْوَابِ الدِّيَانَةِ.

﴿جَعَلْنَاهُ﴾[1] بِمَعْنَى صَيَّرْنَاهُ مُعَدًّى إِلَى مَفْعُولَيْنِ، أَوْ بِمَعْنَى خَلَقْنَاهُ مُعَدًّى إِلَى وَاحِدٍ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾[2].

وَ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾[3] حَالٌ.

وَ"لَعَلَّ": مُسْتَعَارٌ لِمَعْنَى الْإِرَادَةِ، لِتُلَاحِظَ مَعْنَاهَا وَمَعْنَى التَّرَجِّي، أَيْ: خَلَقْنَاهُ عَرَبِيًّا غَيْرَ عَجَمِيٍّ: إِرَادَةَ أَنْ تَعْقِلَهُ الْعَرَبُ، وَلِئَلَّا يَقُولُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ.

وَقُرِئَ: (أُمِّ الْكِتَابِ) بِالْكَسْرِ وَهُوَ اللَّوْحُ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾[4] سُمِّيَ بِأُمِّ الْكِتَابِ، لِأَنَّهُ الْأَصْلُ الَّذِي أَثْبَتَتْ فِيهِ الْكُتُبُ، مِنْهُ تَنْقُلُ وَتَنْتَسِخُ. عَلَى رَفِيعِ الشَّأْنِ فِي الْكُتُبِ، لِكَوْنِهِ مُعْجِزًا مِنْ بَيْنِهَا.

﴿حَكِيمٌ﴾[5] ذُو حِكْمَةٍ بَالِغَةٍ، أَيْ: مَنْزِلَتُهُ عِنْدَنَا مَنْزِلَةُ كِتَابٍ هُمَا صِفَتَاهُ، وَهُوَ مُثْبَتٌ فِي أُمِّ الْكِتَابِ هَكَذَا.

﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ﴾[6]

﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا﴾[7] بِمَعْنَى: أَفَنُنْحِي عَنْكُمُ الذِّكْرَ وَنَذُودُهُ عَنْكُمْ عَلَى سَبِيلِ الْمَجَازِ، مِنْ قَوْلِهِمْ: ضَرَبَ الْغَرَائِبَ عَنِ الْحَوْضِ.

وَمِنْهُ قَوْلُ الْحَجَّاجِ: وَلَأَضْرِبَنَّكُمْ ضَرْبَ غَرَائِبِ الْإِبِلِ.

وَقَالَ طَرَفَةُ:

---

[1] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

[2] سورة الْأَنْعَامُ، الآية 1.

[3] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

[4] سورة الْبُرُوجُ، الآيتان 21–22.

[5] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

[6] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

[7] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

اضْرِبْ عَنْكَ الْهُمُومَ طَارِقَهَا ضَرْبَكَ بِالسَّيْفِ قَوْنَسَ الْفَرَسِ

وَالْفَاءُ لِلْعَطْفِ عَلَى مَحْذُوفٍ، تَقْدِيرُهُ: أَنُهْمِلُكُمْ فَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ، إِنْكَارًا لِأَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ عَلَى خِلَافِ مَا قُدِّمَ عَلَى إِنْزَالِهِ الْكِتَابُ. وَخَلَقَهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا، لِيَعْقِلُوهُ وَيَعْمَلُوا بِمُوَاجِبِهِ. وَصَفْحًا عَلَى وَجْهَيْنِ. إِمَّا مَصْدَرٌ مِنْ صَفَحَ عَنْهُ: إِذَا أَعْرَضَ، مُنْتَصِبٌ عَلَى أَنَّهُ مَفْعُولٌ لَهُ، عَلَى مَعْنَى: أَفَنَعْزِلُ عَنْكُمْ إِنْزَالَ الْقُرْآنِ وَإِلْزَامَ الْحُجَّةِ بِهِ إِعْرَاضًا عَنْكُمْ. وَإِمَّا بِمَعْنَى الْجَانِبِ مِنْ قَوْلِهِمْ: نَظَرَ إِلَيْهِ بِصَفْحِ وَجْهِهِ وَصَفَحَ وَجْهَهُ، عَلَى مَعْنَى: أَفَنُنْحِيهُ عَنْكُمْ جَانِبًا، فَينْتَصِبُ عَلَى الظَّرْفِ كَمَا تَقُولُ: ضَعْهُ جَانِبًا، وَامْشِ جَانِبًا.

وَتُعَضِّدُهُ قِرَاءَةُ مَنْ قَرَأَ (صُفْحًا) بِالضَّمِّ. وَفِي هَذِهِ الْقِرَاءَةِ وَجْهٌ آخَرُ: وَهُوَ أَنْ يَكُونَ تَخْفِيفُ صَفْحٍ جَمْعُ صَفُوحٍ، وَيَنْتَصِبُ عَلَى الْحَالِ، أَيْ: صَافِحِينَ مُعْرِضِينَ.

(إِنْ كُنْتُمْ) أَيْ: لِأَنْ كُنْتُمْ. وَقُرِئَ: (إِنْ كُنْتُمْ) وَ (إِذْ كُنْتُمْ).

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ اسْتَقَامَ مَعْنَى إِنِ الشَّرْطِيَّةِ، وَقَدْ كَانُوا مُسْرِفِينَ عَلَى الْبَتِّ؟

قُلْتُ: هُوَ مِنَ الشَّرْطِ الَّذِي ذَكَرْتَ أَنَّهُ يَصْدُرُ عَنِ الْمُدِلِّ بِصِحَّةِ الْأَمْرِ، الْمُتَحَقِّقِ لِثُبُوتِهِ، كَمَا يَقُولُ الْأَجِيرُ: إِنْ كُنْتُ عَمِلْتُ لَكَ فَوَفِّنِي حَقِّي، وَهُوَ عَالِمٌ بِذَلِكَ، وَلَكِنَّهُ يُخَيِّلُ فِي كَلَامِهِ أَنَّ تَفْرِيطَكَ فِي الْخُرُوجِ عَنِ الْحَقِّ: فِعْلُ مَنْ لَهُ شَكٌّ فِي الِاسْتِحْقَاقِ، مَعَ وُضُوحِهِ اسْتِجْهَالًا لَهُ.

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾[1]

﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ﴾[2] حِكَايَةُ حَالٍ مَاضِيَةٍ مُسْتَمِرَّةٍ، أَيْ: كَانُوا عَلَى ذَلِكَ. وَهَذِهِ تَسْلِيَةٌ لِرَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– عَنِ اسْتِهْزَاءِ قَوْمِهِ.

الضَّمِيرُ فِي ﴿أَشَدَّ مِنْهُمْ﴾[3] لِلْقَوْمِ الْمُسْرِفِينَ، لِأَنَّهُ صَرَفَ الْخِطَابَ عَنْهُمْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– يُخْبِرُهُ عَنْهُمْ.

---

[1] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

[2] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

[3] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

﴿وَمَضَى مَثَلُ الأَوَّلِينَ﴾[1]، أَيْ: سَلَفَ في الْقُرْآنِ في غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْهُ ذِكْرَ قِصَّتِهِمْ وَحَالِهِمُ الْعَجِيبَةِ الَّتِي حَقُّهَا أَنْ تَسِيرَ مَسِيرَ الْمَثَلِ، وَهَذَا وَعْدٌ لِرَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَوَعِيدٌ لَهُمْ.

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾

فَإِنْ قُلْتَ: قَوْلُهُ: ﴿لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾[2] وَمَا سَرَدَ مِنَ الْأَوْصَافِ عَقِيبَهُ إِنْ كَانَ مِنْ قَوْلِهِمْ، فَمَا تَصْنَعُ بِقَوْلِهِ: ﴿فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾[3]؟ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْلِ اللَّهِ، فَمَا وَجْهُهُ؟

قُلْتُ: هُوَ مِنْ قَوْلِ اللَّهِ لَا مِنْ قَوْلِهِمْ.

وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾[4] الَّذِي مِنْ صِفَتِهِ كَيْتُ وَكَيْتُ، لِيَنْسُبَنَّ خَلْقَهَا إِلَى الَّذِي هَذِهِ أَوْصَافُهُ وَلِيُسْنِدْنَهُ إِلَيْهِ.

﴿بِقَدَرٍ﴾[5] بِمِقْدَارٍ يُسْلِمُ مَعَهُ الْبِلَادُ وَالْعِبَادُ، وَلَمْ يَكُنْ طُوفَانًا.

﴿وَالَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾[6]

---

1 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

2 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

3 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

4 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

5 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

6 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

وَ﴿الْأَزْوَاجَ﴾[1]: الْأَصْنَافُ.

﴿مَا تَرْكَبُونَ﴾[2]، أَيْ تَرْكَبُونَهُ.

فَإِنْ قُلْتَ: يُقَالُ: رَكِبُوا الْأَنْعَامَ وَرَكِبُوا في الْفُلْكِ. وَقَدْ ذَكَرَ الْجِنْسَيْنِ، فَكَيْفَ قَالَ مَا تَرْكَبُونَهُ؟

قُلْتُ: غَلَبَ الْمُتَعَدِّي بِغَيْرِ وَاسِطَةٍ، لِقُوَّتِهِ عَلَى الْمُتَعَدِّي بِوَاسِطَةٍ، فَقِيلَ: تَرْكَبُونَهُ.

﴿عَلَى ظُهُورِهِ﴾[3] عَلَى ظُهُورِ مَا تَرْكَبُونَهُ وَهُوَ الْفُلْكُ وَالْأَنْعَامُ. وَمَعْنَى ذِكْرِ النِّعْمَةِ اللَّهُ عَلَيْهِمْ: أَنْ يَذْكُرُوهَا في قُلُوبِهِمْ مُعْتَرِفِينَ بِهَا مُسْتَعْظِمِينَ لَهَا، ثُمَّ يَحْمَدُوا عَلَيْهَا بِأَلْسِنَتِهِمْ، وَهُوَ مَا يُرْوَى عَنِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: أَنَّهُ كَانَ إِذَا وَضَعَ رِجْلَهُ في الرِّكَابِ قَالَ: "بِسْمِ اللَّهِ"، فَإِذَا اسْتَوَى عَلَى الدَّابَّةِ قَالَ: "الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ، سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا. .. إِلَى قَوْلِهِ لَمُنْقَلِبُونَ" وَكَبَّرَ ثَلَاثًا وَهَلَّلَ ثَلَاثًا. وَقَالُوا: إِذَا رَكِبَ في السَّفِينَةِ قَالَ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[4].

وَعَنِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا– أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا يَرْكَبُ دَابَّةً فَقَالَ: سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا. فَقَالَ: أَبِهَذَا أُمِرْتُمْ؟ فَقَالَ: وَبِمَ أُمِرْنَا؟ قَالَ: أَنْ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ، كَانَ قَدْ أَغْفَلَ التَّحْمِيدَ فَنَبَّهَهُ عَلَيْهِ.

وَهَذَا مِنْ حُسْنِ مُرَاعَاتِهِمْ لِآدَابِ اللَّهِ وَمُحَافَظَتِهِمْ عَلَى دَقِيقِهَا وَجَلِيلِهَا. جَعَلَنَا اللَّهُ مِنَ الْمُقْتَدِينَ بِهِمْ، وَالسَّائِرِينَ بِسِيرَتِهِمْ، فَمَا أَحْسَنَ بِالْعَاقِلِ النَّظَرَ في لَطَائِفِ الصِّنَاعَاتِ، فَكَيْفَ بِالنَّظَرِ في لَطَائِفِ الدِّيَانَاتِ؟

﴿مُقْرِنِينَ﴾[5]: مُطِيقِينَ. يُقَالُ: أَقْرَنَ الشَّيْءَ، إِذَا أَطَاقَهُ.

قَالَ ابْنُ هَرِمَةَ:

وَأَقْرَنْتُ مَا حَمَّلَتْنِي وَلَقَلَّمَا يُطَاقُ احْتِمَالُ الصَّدِّ يَا دَعْدُ وَالْهَجْرُ

وَحَقِيقَةُ "أُقْرِنُهُ": وَجَدَهُ قَرِينَتَهُ وَمَا يُقْرَنُ بِهِ، لِأَنَّ الصَّعْبَ لَا يَكُونُ قَرِينَةً لِلضَّعِيفِ. أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِمْ في الضَّعِيفِ: لَا يُقْرَنُ بِهِ الصَّعْبَةُ.

---

[1] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

[2] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

[3] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

[4] سورة هُودٌ، الآية 41.

[5] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

وَقُرِئَ (مُقْرِنِينَ) وَالْمَعْنَى وَاحِدٌ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ اتَّصَلَ بِذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾[1]؟

قُلْتُ: كَمْ مِنْ رَاكِبٍ دَابَّةً عَثَرَتْ بِهِ أَوْ شَمَّسَتْ أَوْ تَقَحَّمَتْ أَوْ طَاحَ مِنْ ظَهْرِهَا فَهَلَكَ، وَكَمْ مِنْ رَاكِبِينَ فِي سَفِينَةٍ انْكَسَرَتْ بِهِمْ فَغَرِقُوا، فَلَمَّا كَانَ الرُّكُوبُ مُبَاشَرَةً أَمْرٌ مُخْطِرٌ، وَاتِّصَالًا بِسَبَبٍ مِنْ أَسْبَابِ التَّلَفِ: كَانَ مِنْ حَقِّ الرَّاكِبِ وَقَدِ اتَّصَلَ بِسَبَبٍ مِنْ أَسْبَابِ التَّلَفِ أَنْ لَا يَنْسَى عِنْدَ اتِّصَالِهِ بِهِ يَوْمَهُ، وَأَنَّهُ هَالِكٌ لَا مَحَالَةَ فَمُنْقَلِبٌ إِلَى اللَّهِ غَيْرُ مُنْفَلِتٍ مِنْ قَضَائِهِ، وَلَا يَدَعُ ذِكْرَ ذَلِكَ بِقَلْبِهِ وَلِسَانِهِ حَتَّى يَكُونَ مُسْتَعِدًّا لِلِقَاءِ اللَّهِ بِإِصْلَاحِهِ مِنْ نَفْسِهِ، وَالْحَذَرِ مِنْ أَنْ يَكُونَ رُكُوبُهُ ذَلِكَ مِنْ أَسْبَابِ مَوْتِهِ فِي عِلْمِ اللَّهِ، وَهُوَ غَافِلٌ عَنْهُ، وَيَسْتَعِيذُ بِاللَّهِ مِنْ مَقَامِ مَنْ يَقُولُ لِقُرَنَائِهِ: تَعَالَوْا نَتَنَزَّهُ عَلَى الْخَيْلِ أَوْ فِي بَعْضِ الزَّوَارِقِ، فَيَرْكَبُونَ حَامِلِينَ مَعَ أَنْفُسِهِمْ أَوَانِي الْخَمْرِ وَالْمَعَازِفِ، فَلَا يَزَالُونَ يَسْقُونَ حَتَّى تَمِيلَ طَلَاهُمْ وَهُمْ عَلَى ظُهُورِ الدَّوَابِّ، أَوْ فِي بُطُونِ السُّفُنِ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ، لَا يَذْكُرُونَ إِلَّا الشَّيْطَانَ، وَلَا يَمْتَثِلُونَ إِلَّا أَوَامِرَهُ.

وَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ بَعْضَ السَّلَاطِينِ رَكِبَ وَهُوَ يَشْرَبُ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ بَيْنَهُمَا مَسِيرَةُ شَهْرٍ، فَلَمْ يَصِحَّ إِلَّا بَعْدَمَا اطْمَأَنَّتْ بِهِ الدَّارُ، فَلَمْ يُشْعِرْهُ بِمَسِيرِهِ وَلَا أُحِسَّ بِهِ، فَكَمْ بَيْنَ فِعْلِ أُولَئِكَ الرَّاكِبِينَ وَبَيْنَ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ بِهِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ. وَقِيلَ: يَذْكُرُونَ عِنْدَ الرُّكُوبِ رُكُوبَ الْجِنَازَةِ.

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾[2]

---

[1] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

[2] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾[1] مُتَّصِلٌ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ﴾[2]، أَيْ: وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ عَنْ خَالِقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَيَعْتَرِفُنَّ بِهِ، وَقَدْ جَعَلُوا لَهُ مَعَ ذَلِكَ الِاعْتِرَافِ مِنْ عِبَادِهِ جُزْآ فَوَصَفُوهُ بِصِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ.

وَمَعْنَى: ﴿مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾[3] أَنْ قَالُوا: الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللَّهِ، فَجَعَلُوهُمْ جُزْآ لَهُ وَبَعْضًا مِنْهُ، كَمَا يَكُونُ الْوَلَدُ بِضْعَةٌ مِنْ وَالِدِهِ وَجُزْآ لَهُ.

وَمِنْ بِدَعِ التَّفَاسِيرِ: تَفْسِيرُ الْجُزْءِ بِالْإِنَاثِ، وَادِّعَاءُ أَنَّ الْجُزْءَ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ: اسْمٌ لِلْإِنَاثِ، وَمَا هُوَ إِلَّا كَذِبٌ عَلَى الْعَرَبِ، وَوَضْعٌ مُسْتَحْدَثٌ مَنْحُولٌ، وَلَمْ يُقْنِعْهُمْ ذَلِكَ حَتَّى اشْتَقُّوا مِنْهُ: أَجْزَأَتِ الْمَرْأَةُ، ثُمَّ صَنَعُوا بَيْتًا وَبَيْتًا:

إِنْ أَجْزَأَتْ حُرَّةٌ يَوْمًا فَلا عَجَـــــــــــبُ

مِنَ الْبَسِيطِ:

زُوِّجْتُهَا مِنْ بَنَاتِ الْأَوْسِ مُجْزِئَـــــــــــةً

وَقُرِئَ: (جُزُؤُوا) بِضَمَّتَيْنِ.

﴿لَكَفُورٌ﴾[4] لِجُحُودٍ لِلنِّعْمَةِ ظَاهِرٌ جُحُودُهُ، لِأَنَّ نِسْبَةَ الْوَلَدِ إِلَيْهِ كُفْرٌ، وَالْكُفْرُ أَصْلُ الْكُفْرَانِ كُلِّهِ.

﴿أَمِ اتَّخَذَ﴾[5] بَلِ اتَّخَذَ، وَالْهَمْزَةُ لِلْإِنْكَارِ: تَجْهِيلًا لَهُمْ وَتَعْجِيبًا مِنْ شَأْنِهِمْ، حَيْثُ لَمْ يَرْضَوْا بِأَنْ جَعَلُوا لِلَّهِ مِنْ عِبَادِهِ جُزْآ، حَتَّى جَعَلُوا ذَلِكَ الْجُزْءَ شَرَّ الْجُزْأَيْنِ: وَهُوَ الْإِنَاثُ دُونَ الذُّكُورِ، عَلَى أَنَّهُمْ أَنْفَرُ خَلْقِ اللَّهِ عَنِ الْإِنَاثِ وَأَمْقَتُهُمْ لَهُنَّ، وَلَقَدْ بَلَغَ بِهِمُ الْمَقْتُ إِلَى أَنْ وَأَدُوهُنَّ، كَأَنَّهُ قِيلَ: هَبُوا أَنَّ إِضَافَةَ اتِّخَاذِ الْوَلَدِ إِلَيْهِ جَائِزَةٌ فَرْضًا وَتَمْثِيلًا، أَمَا تَسْتَحْيُونَ مِنَ الشَّطَطِ فِي الْقِسْمَةِ؟ وَمَنِ ادِّعَائِكُمْ أَنَّهُ آثَرَكُمْ عَلَى نَفْسِهِ بِخَيْرِ الْجُزْأَيْنِ وَأَغْلَاهُمَا وَتَرَكَ

---

[1] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

[2] سورة الزُّخْرُفُ، الآية 9.

[3] سورة الزُّخْرُفِ ، الآية .

[4] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

[5] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

لَهُ شَرَّهُمَا وَأَدْنَاهُمَا؟ وَتَنْكِيرُ ﴿بَنَاتٍ﴾[1] وَتَعْرِيفُ ﴿الْبَنِينَ﴾[2] وَتَقْدِيمُهُنَّ فِي الذِّكْرِ عَلَيْهِمْ لَمَّا ذُكِرَتْ فِي قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾[3].

﴿بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلا﴾[4] بِالْجِنْسِ الَّذِي جَعَلَهُ لَهُ مَثَلًا، أَيْ: شَبَهًا، لِأَنَّهُ إِذَا جَعَلَ الْمَلَائِكَةَ جُزْآ لِلَّهِ وَبَعْضًا مِنْهُ فَقَدْ جَعَلَهُ مَنْ جِنْسِهِ وَمُمَاثِّلًا لَهُ، لِأَنَّ الْوَلَدَ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْ جِنْسِ الْوَالِدِ، يَعْنِي: أَنَّهُمْ نَسَبُوا إِلَيْهِ هَذَا الْجِنْسَ. وَمِنْ حَالِهِمْ أَنَّ أَحَدَهُمْ إِذَا قِيلَ لَهُ: قَدْ وُلِدَتْ لَكَ بِنْتٌ اغْتَمَّ وَارْبَدَّ وَجْهُهُ غَيْظًا وَتَأَسُّفًا وَهُوَ مَمْلُوءٌ مِنَ الْكَرْبِ.

وَعَنْ بَعْضِ الْعَرَبِ: أَنَّ امْرَأَتَهُ وَضَعَتْ أُنْثَى، فَهَجَرَ الْبَيْتَ الَّذِي فِيهِ الْمَرْأَةُ، فَقَالَتْ:

مَا لِأَبِي حَمْزَةَ لا يَأْتِينَـــا يَظَلُّ فِي الْبَيْتِ الَّذِي يَلِينَا
غَضْبَانُ أَنْ لَا نَلِدَ الْبَنِينَا لَيْسَ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا مَاشِينَا
وَإِنَّمَا نَأْخُذُ مَا أُعْطِينَـــــــا

وَالظَّلُولُ بِمَعْنَى الصَّيْرُورَةِ، كَمَا يُسْتَعْمَلُ أَكْثَرُ الْأَفْعَالِ النَّاقِصَةِ بِمَعْنَاهَا.

وَقُرِئَ (مُسْوَدٌّ وَمُسْوَادٌّ).

عَلَى أَنَّ فِي ﴿ظَلَّ﴾[5] ضَمِيرُ الْمُبَشِّرِ.

﴿وَوَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾[6] جُمْلَةٌ وَاقِعَةٌ مَوْقِعَ الْخَبَرِ، ثُمَّ قَالَ: أَوَ يُجْعَلُ لِلرَّحْمَنِ مِنَ الْوَلَدِ مِنْ هَذِهِ الصِّفَةِ الْمَذْمُومَةِ صِفَتُهُ.

وَهُوَ أَنَّهُ ﴿يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ﴾[7]، أَيْ: يَتَرَبَّى فِي الزِّينَةِ وَالنِّعْمَةِ، وَهُوَ إِذَا احْتَاجَ إِلَى مُجَاثَاةِ الْخُصُومِ وَمُجَارَاةِ الرِّجَالِ، كَانَ غَيْرَ مُبِينٍ، لَيْسَ عِنْدَهُ بَيَانٌ، وَلَا يَأْتِي بِبُرْهَانٍ يَحْتَجُّ بِهِ مَنْ يُخَاصِمُهُ، وَذَلِكَ لِضَعْفِ عُقُولِ النِّسَاءِ وَنُقْصَانِهِنَّ عَنْ فِطْرَةِ الرِّجَالِ، يُقَالُ: قَلَّمَا تَكَلَّمَتِ امْرَأَةٌ فَأَرَادَتْ أَنْ تَتَكَلَّمَ بِحُجَّتِهَا إِلَّا تَكَلَّمَتْ بِالْحُجَّةِ عَلَيْهَا.

وَفِيهِ: أَنَّهُ جَعَلَ النَّشْءَ فِي الزِّينَةِ وَالنُّعُومَةُ مِنَ الْمَعَايِبِ وَالْمَذَامِّ، وَأَنَّهُ مِنْ صِفَةِ رَبَّاتِ الْحِجَالِ، فَعَلَى الرَّجُلِ أَنْ يَجْتَنِبَ ذَلِكَ وَيَأْنَفَ مِنْهُ، وَيَرْبَأَ بِنَفْسِهِ عَنْهُ، وَيَعِيشَ، كَمَا

---

1 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .
2 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .
3 سورة الشُّورَى، الآية 49.
4 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .
5 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .
6 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .
7 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

قَالَ عُمَرُ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: "اخْشَوْشَنُوا وَاخْشَوْشَبُوا وَتَمَعْدَدُوا". وَإِنْ أَرَادَ أَنْ يُزَيِّنَ نَفْسَهُ زَيَّنَهَا مِنْ بَاطِنٍ بِلِبَاسِ التَّقْوَى.

وَقُرِئَ: (يُنَشَّأُ)، وَ (يُنْشَأُ)، وَ(يُنَاشَأُ).

وَنَظِيرُ الْمُنَاشَأَةِ بِمَعْنَى الْإِنْشَاءِ: الْمُغَالَاةُ بِمَعْنَى الْإِغْلَاءِ.

﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾[1]

قَدْ جَمَعُوا فِي كَفْرَةٍ ثَلَاثَ كُفْرَاتٍ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ نَسَبُوا إِلَى اللَّهِ الْوَلَدَ، وَنَسَبُوا إِلَيْهِ أَخَسَّ النَّوْعَيْنِ، وَجَعَلُوهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ هُمْ أَكْرَمُ عِبَادِ اللَّهِ عَلَى اللَّهِ، فَاسْتَخَفُّوا بِهِمْ وَاحْتَقَرُوهُمْ. وَقُرِئَ: (عِبَادُ الرَّحْمَنِ) وَعَبِيدُ الرَّحْمَنِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ، وَهُوَ مَثَلٌ لِزُلْفَاهُمْ وَاخْتِصَاصُهُمْ. وَإِنَاثًا، وَأُنُثًا: جَمْعُ الْجَمْعِ.

وَمَعْنَى جَعَلُوا: سَمَّوْا وَقَالُوا: إِنَّهُمْ إِنَاثٌ.

وَقُرِئَ: (أَشْهَدُوا) وَ(أَأَشْهَدُوا)، بِهَمْزَتَيْنِ مَفْتُوحَةٍ وَمَضْمُومَةٍ. وَ(آأَشْهَدُوا) بِأَلْفٍ بَيْنَهُمَا، وَهَذَا تَهَكُّمٌ بِهِمْ، بِمَعْنَى أَنَّهُمْ يَقُولُونَ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَسْتَنِدَ قَوْلُهُمْ إِلَى عِلْمٍ، فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَضْطَرَّهُمْ إِلَى عِلْمِ ذَلِكَ، وَلَا تَطَرَّقُوا إِلَيْهِ بِاسْتِدْلَالٍ، وَلَا أَحَاطُوا بِهِ عَنْ خَبَرٍ يُوجِبُ الْعِلْمَ، فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ يُشَاهِدُوا خَلْقَهُمْ، فَأَخْبَرُوا عَنْ هَذِهِ الْمُشَاهَدَةِ

﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ﴾[2] الَّتِي شَهِدُوا بِهَا عَلَى الْمَلَائِكَةِ مِنْ أُنُوثَتِهِمْ.

﴿وَيُسْئَلُونَ﴾[3] وَهَذَا وَعِيدٌ.

وَقُرِئَ: (سَيَكْتُبُ) وَ(سَنَكْتُبُ): بِالْيَاءِ وَالنُّونِ. وَشَهَادَتُهُمْ، وَشَهَادَاتُهُمْ.

وَيُسَاءَلُونَ عَلَى: يُفَاعِلُونَ.

---

[1] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

[2] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

[3] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاّ يَخْرُصُونَ﴾[1]

﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾[2] هُمَا كَفَّرَتَانِ أَيْضًا مَضْمُومَتَانِ إِلَى الْكُفْرَاتِ الثَّلَاثِ، وَهُمَا: عِبَادَتُهُمُ الْمَلَائِكَةَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَزَعْمُهُمْ أَنَّ عِبَادَتَهُمْ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ، كَمَا يَقُولُ إِخْوَانُهُمُ الْمُجْبَرَةَ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا أَنْكَرْتَ عَلَى مَنْ يَقُولُ: قَالُوا ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ الِاسْتِهْزَاءِ، وَلَوْ قَالُوهُ جَادِّينَ لَكَانُوا مُؤْمِنِينَ؟

قُلْتُ: لَا دَلِيلَ عَلَى أَنَّهُمْ قَالُوهُ مُسْتَهْزِئِينَ، وَادِّعَاءُ مَا لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ بَاطِلٌ، عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ حَكَى عَنْهُ ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ الذَّمِّ وَالشَّهَادَةِ بِالْكُفْرِ: أَنَّهُمْ جَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْآ، وَأَنَّهُ اتَّخَذَ بَنَاتٍ وَأَصْفَاهُمْ بِالْبَنِينِ، وَأَنَّهُمْ جَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الْمُكَرَّمِينَ إِنَاثًا. وَأَنَّهُمْ عَبَدُوهُمْ وَقَالُوا: لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ، فَلَوْ كَانُوا نَاطِقِينَ بِهَا عَلَى طَرِيقِ الْهَزْءِ: لَكَانَ النُّطْقُ بِالْمَحْكِيَّاتِ –قَبْلَ هَذَا الْمُحْكَى الَّذِي هُوَ إِيمَانٌ عِنْدَهُ لَوَجَدُوا فِي النُّطْقِ بِهِ– مَدْحًا لَهُمْ، مِنْ قِبَلِ أَنَّهَا كَلِمَاتُ كُفْرٍ نَطَقُوا بِهَا عَلَى طَرِيقِ الْهُزْءِ، فَبَقِيَ أَنْ يَكُونُوا جَادِّينَ، وَتَشْتَرِكُ كُلُّهَا فِي أَنَّهَا كَلِمَاتُ كُفْرٍ.

فَإِنْ قَالُوا: نَجْعَلُ هَذَا الْأَخِيرَ وَحْدَهُ مَقُولًا عَلَى وَجْهِ الْهُزْءِ دُونَ مَا قَبْلَهُ، فَمَا بِهِمْ إِلَّا تَعْوِيجُ كِتَابِ اللَّهِ الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ، لِتَسْوِيَةِ مَذْهَبِهِمُ الْبَاطِلِ.

وَلَوْ كَانَتْ هَذِهِ كَلِمَةُ حَقٍّ نَطَقُوا بِهَا هُزْآ لَمْ يَكُنْ لِقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلا يَخْرُصُونَ﴾[3] مَعْنًى، لِأَنَّ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ عَلَى طَرِيقِ الْهُزْءِ: كَانَ الْوَاجِبُ أَنْ يُنْكِرَ عَلَيْهِ اسْتِهْزَاؤُهُ وَلَا يُكَذِّبَ ، لِأَنَّهُ لَا يَجُوزُ تَكْذِيبُ النَّاطِقِ بِالْحَقِّ جَادًّا كَانَ أَوْ هَازِئًا.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا قَوْلُكَ فِيمَنْ يُفَسِّرُ مَا لَهُمْ –بِقَوْلِهِمْ: إِنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللَّهِ– مَنْ عَلِمَ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ فِي ذَلِكَ الْقَوْلِ لَا فِي تَعْلِيقِ عِبَادَتِهِمْ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ؟

قُلْتُ: تَمَحُّلٌ مُبْطِلٌ وَتَحْرِيفٌ مُكَابِرٌ.

---

[1] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

[2] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

[3] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

وَنَحْوُهُ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾[1].

﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾[2]

الضَّمِيرُ في ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾[3] لِلْقُرْآنِ أَوِ الرَّسُولِ. وَالْمَعْنَى: أَنَّهُمْ أَلْصَقُوا عِبَادَةَ غَيْرِ اللَّهِ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ: قَوْلًا قَالُوهُ غَيْرَ مُسْتَنِدٍ إِلَى عِلْمٍ، ثُمَّ قَالَ: أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا قَبْلَ هَذَا الْكِتَابِ نَسَبْنَا فيهِ الْكُفْرَ وَالْقَبَائِحَ إِلَيْنَا، فَحَصَلَ لَهُمْ عِلْمٌ بِذَلِكَ مِنْ جِهَةِ الْوَحْيِ، فَاسْتَمْسَكُوا بِذَلِكَ الْكِتَابِ وَاحْتَجُّوا بِهِ. بَلْ لَا حُجَّةَ لَهُمْ يَسْتَمْسِكُونَ بِهَا إِلَّا قَوْلُهُمْ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾[4] عَلَى دِينٍ.

وَقُرِئَ: (عَلَى إِمَّةٍ) بِالْكَسْرِ، وَكِلْتَاهُمَا مِنَ الْأُمِّ وَهُوَ الْقَصْدُ، فَالْأُمَّةُ: الطَّرِيقَةُ الَّتِي تَؤُمُّ، أَيْ: تَقْصِدُ، كَالرِّحْلَةِ لِلْمَرْحُولَةِ إِلَيْهِ. وَالْأُمَّةُ: الْخَالَةُ الَّتِي يَكُونُ عَلَيْهَا الْآمُّ وَهُوَ الْقَاصِدُ.

وَقِيلَ: عَلَى نِعْمَةٍ وَحَالَةٍ حَسَنَةٍ.

﴿عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾[5] خَبَرُ ﴿إِنَّ﴾[6]. أَوِ الظَّرْفُ صِلَةٌ لَمُهْتَدُونَ.

﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾[7]

---

1 سورة الْأَنْعَامُ، الآية 148.

2 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

3 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

4 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

5 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

6 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

7 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

﴿مُتْرَفُوهَا﴾[1] الَّذِينَ أَتْرَفَتْهُمُ النِّعْمَةُ، أَيْ أَبْطَرَتْهُمْ، فَلَا يُحِبُّونَ إِلَّا الشَّهَوَاتِ وَالْمَلَاهِي، وَيُعَافَوْنَ مَشَاقَّ الدِّينِ وَتَكَالِيفَهُ.

﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[2]

قُرِئَ: (قُلْ) وَقَالَ: وَجِئْتُكُمْ، وَجِئْنَاكُمْ، يَعْنِي: أَتُتْبِعُونَ آبَاءَكُمْ وَلَوْ جِئْتُكُمْ بِدِينٍ أَهْدَى مِنْ دِينِ آبَائِكُمْ؟ قَالُوا: إِنَّا ثَابِتُونَ عَلَى دِينِ آبَائِنَا لَا نَنْفَكُّ عَنْهُ، وَإِنْ جِئْتَنَا بِمَا هُوَ أَهْدَى وَأَهْدَى.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[3]

قُرِئَ: (بَرَاءُ) بِفَتْحِ الْبَاءِ وَضَمِّهَا. وَبَرِيءٌ، فَبَرِيءٌ وَبِرَاءُ، نَحْوُ كَرِيمٌ وَكِرَامٌ، وَبَرَاءٌ: مَصْدَرٌ كَظَمَاءٌ، وَلِذَلِكَ اسْتَوَى فِيهِ الْوَاحِدُ وَالِاثْنَانِ وَالْجَمَاعَةُ، وَالْمُذَكَّرُ وَالْمُؤَنَّثُ. يُقَالُ: نَحْنُ الْبَرَاءُ مِنْكَ، وَالْخَلَاءُ مِنْكَ.

﴿الَّذِي فَطَرَنِي﴾[4] فِيهِ غَيْرُ وَجْهٍ: أَنْ يَكُونَ مَنْصُوبًا عَلَى أَنَّهُ اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ، كَأَنَّهُ قَالَ: لَكِنَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ، وَأَنْ يَكُونَ مَجْرُورًا بَدَلًا مِنَ الْمَجْرُورِ بِمَنْ، كَأَنَّهُ قَالَ: إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا مِنَ الَّذِي فَطَرَنِي.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ تَجْعَلُهُ بَدَلًا وَلَيْسَ مِنْ جِنْسِ مَا يَعْبُدُونَ مِنْ وَجْهَيْنِ:

– أَحَدُهُمَا: أَنَّ ذَاتَ اللَّهِ مُخَالِفَةٌ لِجَمِيعِ الذَّوَاتِ، فَكَانَتْ مُخَالِفَةً لِذَوَاتِ مَا يَعْبُدُونَ.

– وَالثَّانِي: أَنَّ اللَّهَ –تَعَالَى– غَيْرُ مَعْبُودٍ بَيْنَهُمْ وَالْأَوْثَانَ مَعْبُودَةٌ؟

---

[1] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

[2] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

[3] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

[4] سورة الزُّخْرُفِ ، الآية .

قُلْتُ: قَالُوا: كَانُوا يَعْبُدُونَ اللَّهَ مَعَ أَوْثَانِهِمْ، وَأَنْ تَكُونَ ﴿إِلَّا﴾[1] صِفَةً بِمَعْنَى غَيْرِ، عَلَى أَنَّ "مَا" في (مَا تَعْبُدُونَ) مَوْصُوفَةٌ.

تَقْدِيرُهُ: إِنَّنِي بَرَاءٌ مِنْ آلِهَةٍ تَعْبُدُونَهَا غَيْرَ الَّذِي فَطَرَنِي، فَهُوَ نَظِيرُ قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[2].

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿سَيَهْدِينِ﴾[3] عَلَى التَّسْوِيفِ؟

قُلْتُ: قَالَ مَرَّةً: ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾[4]، وَمَرَّةً: ﴿فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾[5]، فَاجْمَعْ بَيْنَهُمَا وَقَدِّرْ، كَأَنَّهُ قَالَ: فَهُوَ يَهْدِينِ وَسَيَهْدِينِ، فيدُلَّانِ عَلَى اسْتِمْرَارِ الْهِدَايَةِ في الْحَالِ وَالِاسْتِقْبَالِ.

﴿وَجَعَلَهَا﴾[6] وَجَعَلَ إِبْرَاهِيمُ صَلَوَاتِ اللَّهِ عَلَيْهِ كَلِمَةَ التَّوْحِيدِ الَّتِي تَكَلَّمَ بِهَا، وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلا الَّذِي فَطَرَنِي كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾[7] في ذُرِّيَّتِهِ، فَلَا يَزَالُ فيهِمْ مَنْ يُوَحِّدُ اللَّهَ وَيَدْعُو إِلَى تَوْحِيدِهِ، لَعَلَّ مَنْ أَشْرَكَ مِنْهُمْ يَرْجِعُ بِدُعَاءِ مَنْ وَحَّدَ مِنْهُمْ.

وَنَحْوُهُ: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ﴾[8]، وَقِيلَ: وَجَعَلَهَا اللَّهُ.

وَقُرِئَ: (كَلِمَةَ) عَلَى التَّخْفِيفِ وَفى عَقِبِهِ كَذَلِكَ، وَفى عَاقِبِهِ، أَيْ: فيمَنْ عَقَبَهُ، أَيْ: خَلَفَهُ.

﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ﴾[9]

---

[1] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

[2] سورة الْأَنْبِيَاءُ، الآية 22.

[3] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

[4] سورة الشُّعَرَاءُ، الآية 78.

[5] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

[6] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

[7] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

[8] سورة الْبَقَرَةُ، الآية 132.

[9] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلاءِ﴾[1]، يَعْنِي: أَهْلُ مَكَّةَ، وَهُمْ مِنْ عَقِبِ إِبْرَاهِيمَ بِالْمَدِّ فِي الْعُمْرِ وَالنِّعْمَةِ، فَاغْتَرُّوا بِالْمُهْلَةِ، وَشُغِلُوا بِالتَّنَعُّمِ وَاتِّبَاعِ الشَّهَوَاتِ وَطَاعَةِ الشَّيْطَانِ عَنْ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ.

﴿حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾[2]، وَهُوَ الْقُرْآنُ.

﴿وَرَسُولٌ مُبِينٌ﴾[3]: الرِّسَالَةُ وَاضِحُهَا بِمَا مَعَهُ مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَةِ، فَكَذَّبُوا بِهِ وَسُمُّوهُ سَاحِرًا وَمَا جَاءَ بِهِ سِحْرًا وَلَمْ يُوجَدْ مِنْهُمْ مَا رَجَاهُ إِبْرَاهِيمُ

.وَقُرِئَ: (بَلْ مُتِّعْنَا).

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا وَجْهُ قِرَاءَةِ مَنْ قَرَأَ: (مَتَّعْتُ) بِفَتْحِ التَّاءِ؟

قُلْتُ: كَأَنَّ اللَّهَ –تَعَالَى– اعْتَرَضَ عَلَى ذَاتِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[4]، فَقَالَ: بَلْ مَتَّعْتُهُمْ بِمَا مَتَّعْتُهُمْ بِهِ مِنْ طُولِ الْعُمْرِ وَالسِّعَةِ فِي الرِّزْقِ، حَتَّى شَغَلَهُمْ ذَلِكَ عَنْ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ. وَأَرَادَ بِذَلِكَ الْإِطْنَابَ فِي تَعْبِيرِهِمْ، لِأَنَّهُ إِذَا مَتَّعَهُمْ بِزِيَادَةِ النِّعَمِ وَجَبَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَجْعَلُوا ذَلِكَ سَبَبًا فِي زِيَادَةِ الشُّكْرِ وَالثَّبَاتِ عَلَى التَّوْحِيدِ وَالْإِيمَانِ، لَا أَنْ يُشْرِكُوا بِهِ وَيَجْعَلُوا لَهُ أَنْدَادًا، فَمِثَالُهُ أَنْ يَشْكُوَ الرَّجُلُ إِسَاءَةَ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهِ، ثُمَّ يَقْبَلُ عَلَى نَفْسِهِ فيقُولُ: أَنْتَ السَّبَبُ فِي ذَلِكَ بِمَعْرُوفِكَ وَإِحْسَانِكَ، وَغَرَضُهُ بِهَا الْكَلَامُ تَوْبِيخُ الْمُسِيءِ لَا تَقْبِيحُ فِعْلِهِ.

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[5]

فَإِنْ قُلْتَ: قَدْ جَعَلَ مَجِيءَ الْحَقِّ وَالرَّسُولِ غَايَةَ التَّمْتِيعِ، ثُمَّ أَرْدَفَهُ قَوْلَهُ: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ﴾[6]، فَمَا طَرِيقُهُ هَذَا النَّظْمُ وَمُؤَدَّاهُ؟

---

1 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

2 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

3 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

4 سورة الزُّخْرُفُ، الآية 28.

5 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

6 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

قُلْتُ: الْمُرَادُ بِالتَّمْتِيعِ مَا هُوَ سَبَبٌ لَهُ، وَهُوَ اشْتِغَالُهُمْ بِالِاسْتِمْتَاعِ عَنِ التَّوْحِيدِ وَمُقْتَضَيَاتِهِ، فَقَالَ: بَلِ اشْتَغَلُوا عَنِ التَّوْحِيدِ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ، فَخُيِّلَ بِهَذِهِ الْغَايَةِ أَنَّهُمْ تَنَبَّهُوا عِنْدَهَا عَنْ غَفْلَتِهِمْ لِاقْتِضَائِهَا التَّنَبُّهَ.

ثُمَّ ابْتَدَأَ قِصَّتَهُمْ عِنْدَ مَجِيءِ الْحَقِّ، فَقَالَ: وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ جَاءُوا بِمَا هُوَ شَرٌّ مِنْ غَفْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا: وَهُوَ أَنْ ضَمُّوا إِلَى شِرْكِهِمْ مُعَانَدَةَ الْحَقِّ، وَمُكَابَرَةَ الرَّسُولِ، وَمُعَادَاتِهِ، وَالِاسْتِخْفَافَ بِكِتَابِ اللَّهِ وَشَرَائِعِهِ، وَالْإِصْرَارَ عَلَى أَفْعَالِ الْكَفَرَةِ وَالِاحْتِكَامِ عَلَى حِكْمَةِ اللَّهِ فِي تَخَيُّرِ مُحَمَّدٍ مِنْ أَهْلِ زَمَانِهِ بِقَوْلِهِمْ: ﴿لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[1]، وَهِيَ الْغَايَةُ فِي تَشْوِيهِ صُورَةِ أَمْرِهِمْ.

قُرِئَ: (عَلَى رَجْلٍ) بِسُكُونِ الْجِيمِ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ: مِنْ إِحْدَى الْقَرْيَتَيْنِ، كَقَوْلِهِ – تَعَالَى –: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾[2]، أَيْ: مِنْ أَحَدِهِمَا. وَالْقَرْيَتَانِ: مَكَّةُ وَالطَّائِفُ.

وَقِيلَ: مِنْ رَجُلَيِ الْقَرْيَتَيْنِ، وَهُمَا :الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ الْمَخْزُومِيُّ وَحَبِيبُ بْنُ عَمْرِو بْنِ عُمَيْرٍ الثَّقَفِي، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَعَنْ مُجَاهِدٍ: عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ وَكِنَانَةُ بْنُ عَبْدِ يَالَّيْل، وَعَنْ قَتَادَةَ: الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةَ وَعُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ الثَّقَفي، وَكَانَ الْوَلِيدُ يَقُولُ: لَوْ كَانَ حَقًّا مَا يَقُولُ مُحَمَّدٌ لَنَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَيَّ أَوْ عَلَى أَبِي مَسْعُودٍ الثَّقَفي، وَأَبُو مَسْعُودٍ: كُنْيَةُ عُرْوَةَ بْنِ مَسْعُودٍ مَا زَالُوا يُنْكِرُونَ أَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا، فَلَمَّا عَلِمُوا بِتَكْرِيرِ اللَّهِ الْحُجَجَ أَنَّ الرُّسُلَ لَمْ يَكُونُوا إِلَّا رِجَالًا مِنْ أَهْلِ الْقُرَى، جَاءُوا بِالْإِنْكَارِ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ، وَهُوَ تَحَكُّمُهُمْ أَنْ يَكُونَ أَحَدَ هَذَيْنِ، وَقَوْلُهُمْ: هَذَا الْقُرْآنُ ذُكِرَ لَهُ عَلَى وَجْهِ الِاسْتِهَانَةِ بِهِ، وَأَرَادُوا بِعِظَمِ الرَّجُلِ: رِيَاسَتُهُ وَتَقَدُّمُهُ فِي الدُّنْيَا، وَعَزَبَ عَنْ عُقُولِهِمْ أَنَّ الْعَظِيمَ مَنْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا.

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾[3]

---

[1] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

[2] سورة الرَّحْمَنُ، الآية 22.

[3] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾[1] هَذِهِ الْهَمْزَةُ لِلْإِنْكَارِ الْمُسْتَقِلِّ بِالتَّجْهِيلِ وَالتَّعْجِيبِ مِنَ اعْتِرَاضِهِمْ وَتَحَكُّمِهِمْ، وَأَنْ يَكُونُوا هُمُ الْمُدَبِّرِينَ لِأَمْرِ النُّبُوَّةِ وَالتَّخَيُّرِ لَهَا مَنْ يَصْلُحُ لَهَا وَيَقُومُ بِهَا، وَالْمُتَوَلِّينَ لِقِسْمَةِ رَحْمَةِ اللَّهِ الَّتِي لَا يَتَوَلَّاهَا إِلَّا هُوَ بِبَاهِرِ قُدْرَتِهِ وَبَالِغِ حِكْمَتِهِ، ثُمَّ ضَرَبَ لَهُمْ مَثَلًا فَأَعْلَمَ أَنَّهُمْ عَاجِزُونَ عَنْ تَدْبِيرِ خُوَيْصَةِ أَمْرِهِمْ وَمَا يُصْلِحُهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ، وَأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَعَلَا هُوَ الَّذِي قَسَّمَ بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ وَقَدَّرَهَا وَدَبَّرَ أَحْوَالَهُمْ تَدْبِيرَ الْعَالِمِ بِهَا، فَلَمْ يُسَوِّ بَيْنَهُمْ، وَلَكِنْ فَاوَتَ بَيْنَهُمْ فِي أَسْبَابِ الْعَيْشِ، وَغَايَرَ بَيْنَ مَنَازِلِهِمْ فَجَعَلَ مِنْهُمْ أَقْوِيَاءَ وَضُعَفَاءَ وَأَغْنِيَاءَ وَمَحَاوِيجَ وَمَوَالِيَ وَخَدَمًا، لِيَصْرِفَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فِي حَوَائِجِهِمْ وَيَسْتَخْدِمُونَ فِي مِهَنِهِمْ وَيَتَسَخَّرُونَ فِي أَشْغَالِهِمْ، حَتَّى يَتَعَايَشُوا وَيَتَرَافَدُوا وَيَصِلُوا إِلَى مَنَافِعِهِمْ وَيَحْصُلُوا عَلَى مَرَافِقِهِمْ، وَلَوْ وَكَلَهُمْ إِلَى أَنْفُسِهِمْ وَوَلَّاهُمْ تَدْبِيرَ أَمْرِهِمْ، لَضَاعُوا وَهَلَكُوا.

وَإِذَا كَانُوا فِي تَدْبِيرِ أَمْرِ الْمَعِيشَةِ الدَّنِيَّةِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ، فَمَا ظَنُّكَ بِهِمْ فِي تَدْبِيرِ أُمُورِ الدِّينِ الَّذِي هُوَ رَحْمَةُ اللَّهِ الْكُبْرَى وَرَأْفَتُهُ الْعُظْمَى؟ وَهُوَ الطَّرِيقُ إِلَى حِيَازَةِ حُظُوظِ الْآخِرَةِ، وَبِالسِّلْمِ إِلَى حُلُولِ دَارِ السَّلَامِ؟

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ﴾[2]، يُرِيدُ: وَهَذِهِ الرَّحْمَةُ وَهِيَ دِينُ اللَّهِ وَمَا يَتْبَعُهُ مِنَ الْفَوْزِ فِي الْمَآبِ: خَيْرُ مَا يَجْمَعُ هَؤُلَاءِ مِنْ حُطَامِ الدُّنْيَا.

فَإِنْ قُلْتَ: مَعِيشَتُهُمْ مَا يَعِيشُونَ بِهِ مِنَ الْمَنَافِعِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعِيشُ بِالْحَلَالِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعِيشُ بِالْحَرَامِ، فَإِذَنْ قَدْ قَسَّمَ اللَّهُ -تَعَالَى- الْحَرَامَ كَمَا قَسَّمَ الْحَلَالَ.

قُلْتُ: اللَّهُ -تَعَالَى- قَسَّمَ لِكُلِّ عَبْدٍ مَعِيشَتَهُ وَهِيَ مَطَاعِمُهُ وَمَشَارِبُهُ وَمَا يُصْلِحُهُ مِنَ الْمَنَافِعِ وَأَذِنَ لَهُ فِي تَنَاوُلِهَا، وَلَكِنْ شَرَطَ عَلَيْهِ وَكَلَّفَهُ أَنْ يَسْلُكَ فِي تَنَاوُلِهَا الطَّرِيقَ الَّتِي شَرَعَهَا، فَإِذَا سَلَكَهَا فَقَدْ تَنَاوَلَ قِسْمَتَهُ مِنَ الْمَعِيشَةِ حَلَالًا، وَسَمَّاهَا رِزْقَ اللَّهِ، وَإِذَا لَمْ يَسْلُكْهَا تَنَاوُلَهَا حَرَامًا، وَلَيْسَ لَهُ أَنْ يُسَمِّيَهَا رِزْقَ اللَّهِ، فَاللَّهُ -تَعَالَى- قَاسِمُ الْمَعَايِشِ وَالْمَنَافِعِ، وَلَكِنَّ الْعِبَادَ هُمُ الَّذِينَ يُكْسِبُونَهَا صِفَةَ الْحُرْمَةِ بِسُوءِ تَنَاوُلِهِمْ، وَهُوَ عُدُولُهُمْ فِيهِ عَمَّا شَرَعَهُ اللَّهُ إِلَى مَا لَمْ يَشْرَعْهُ.

---

[1] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

[2] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

﴿وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1]

﴿لِبُيُوتِهِمْ﴾[2] بَدَلُ اشْتِمَالٍ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿لِمَنْ يَكْفُرُ﴾[3]، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَا بِمَنْزِلَةِ اللَّامَيْنِ فِي قَوْلِكَ: وَهَبْتُ لَهُ ثَوْبًا لِقَمِيصِهِ. وَقُرِئَ: (سَقْفًا) بِفَتْحِ السِّينِ وَسُكُونِ الْقَافِ. وَبِضَمِّهَا وَسُكُونِ الْقَافِ وَبِضَمِّهَا: جَمْعُ سَقْفٍ، كَرَهْنٍ وَرُهُنْ وَرِهَنٍ.

وَعَنِ الْفَرَّاءِ: جَمْعُ سَقِيفَةٍ وَسُقُفًا بِفَتْحَتَيْنِ، كَأَنَّهُ لُغَةٌ فِي سَقْفٍ وَسُقُوفٍ، وَمَعَارِجَ وَمَعَارِيجَ. وَالْمَعَارِجُ: جَمْعُ مُعَرِّجٍ، أَوِ اسْمُ جَمْعٍ لِمِعْرَاجٍ: وَهِيَ الْمَصَاعِدُ إِلَى الْعَلَالِي.

﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾[4]، أَيْ: عَلَى الْمَعَارِجِ، يَظْهَرُونَ السُّطُوحَ يَعْلُونَهَا، فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ.

وَسُرُرًا، بِفَتْحِ الرَّاءِ لِاسْتِثْقَالِ الضَّمَّتَيْنِ مَعَ حَرْفِي التَّضْعِيفِ.

﴿لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ﴾[5]: اللَّامُ هِيَ الْفَارِقَةُ بَيْنَ إِنِ الْمُخَفِّفَةِ وَالنَّافِيَةِ. وَقُرِئَ بِكَسْرِ اللَّامِ، أَيْ: لِلَّذِي هُوَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ، كَقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿مَثَلا مَا بَعُوضَةً﴾[6].

وَلَمَّا بِالتَّشْدِيدِ بِمَعْنَى إِلَّا، وَإِنْ نَافِيَةٌ. وَقُرِئَ: (إِلَّا) وَقُرِئَ: وَمَا كَلُّ ذَلِكَ إِلَّا. لَمَّا قَالَ: ﴿خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾[7]، فَقَلَّلَ أَمْرَ الدُّنْيَا وَصَغَّرَهَا: أَرْدَفَهُ مَا يُقَرِّرُ قِلَّةَ الدُّنْيَا عِنْدَهُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾[8]، أَيْ: وَلَوْلَا كَرَاهَةُ أَنْ يَجْتَمِعُوا عَلَى الْكُفْرِ وَيُطَبِّقُوا عَلَيْهِ، لَجَعَلْنَا لِحَقَارَةِ زَهْرَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا عِنْدَنَا لِلْكُفَّارِ سُقُوفًا وَمَصَاعِدَ وَأَبْوَابًا وَسُرُرًا كُلُّهَا مِنْ فِضَّةٍ وَزُخْرُفٍ، وَجَعَلْنَا لَهُمْ زُخْرُفًا، أَيْ: زِينَةً مِنْ كُلِّ شَيْءٍ. وَالزُّخْرُفُ: الزِّينَةُ وَالذَّهَبُ.

---

1 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

2 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

3 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

4 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

5 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

6 سورة الْبَقَرَةُ، الآية 26.

7 سورة الزُّخْرُفُ، الآية 32.

8 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْأَصْلُ: سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَزُخْرُفٍ، يَعْنِي: بَعْضُهَا مِنْ فِضَّةٍ وَبَعْضُهَا مِنْ ذَهَبٍ، فَنَصَبَ عَطْفًا عَلَى مَحَلِّ ﴿مِنْ فِضَّةٍ﴾[1]، وَفِي مَعْنَاهُ قَوْلُ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "لَوْ وُزِنَتِ الدُّنْيَا عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى الْكَافِرَ مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ".

فَإِنْ قُلْتَ: فَحِينَ لَمْ يُوَسِّعْ عَلَى الْكَافِرِينَ لِلْفِتْنَةِ الَّتِي كَانَ يُؤَدِّي إِلَيْهَا التَّوْسِعَةُ عَلَيْهِمْ مِنْ إِطْبَاقِ النَّاسِ عَلَى الْكُفْرِ لِحُبِّهِمُ الدُّنْيَا وَتَهَالُكِهِمْ عَلَيْهَا، فَهَلَّا وَسِعَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ لِيُطَبَّقَ النَّاسُ عَلَى الْإِسْلَامِ؟

قُلْتُ: التَّوْسِعَةُ عَلَيْهِمْ مُفْسِدَةٌ أَيْضًا لِمَا تُؤَدِّي إِلَيْهِ مِنَ الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ لِأَجْلِ الدُّنْيَا، وَالدُّخُولِ فِي الدِّينِ لِأَجْلِ الدُّنْيَا مِنْ دِينِ الْمُنَافِقِينَ، فَكَانَتِ الْحِكْمَةُ فِيمَا دَبَّرَ، حَيْثُ جَعَلَ فِي الْفَرِيقَيْنِ أَغْنِيَاءَ وَفُقَرَاءَ، وَغَلَبَ الْفَقْرُ عَلَى الْغِنَى.

﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾[2]

قُرِئَ: (وَمَنْ يَعْشُ) بِضَمِّ الشِّينِ وَفَتْحِهَا. وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا أَنَّهُ إِذَا حَصَلَتِ الْآفَةُ فِي بَصَرِهِ قِيلَ: عَشِيَ. وَإِذَا نَظَرَ نَظَرَ الْعَشِيِّ وَلَا آفَةَ بِهِ، قِيلَ عَشَا.

وَنَظِيرُهُ: عَرَجَ، لِمَنْ بِهِ الْآفَةُ. وَعَرَّجَ، لِمَنْ مَشَى مِشْيَةَ الْعُرْجَانِ مِنْ غَيْرِ عَرَجٍ.

قَالَ الْحُطَيْئَةُ:

مَتَى تَأْتِهِ تَعْشُو إِلَى ضَوْءِ نَـــــــارِهِ

أَيْ: تَنْظُرُ إِلَيْهَا نَظَرَ الْعَشِيِّ لَمَّا يَضْعُفُ بَصَرُكَ مِنْ عِظَمِ الْوَقُودِ وَاتِّسَاعِ الضَّوْءِ.

وَهُوَ بَيِّنٌ فِي قَوْلِ حَاتِمٍ:

أَعْشُو إِذَا مَا جَارَتِي بَرَزَتْ حَتَّى يُوَارِيَ جَارَتِي الْخُدْرُ

وَقُرِئَ: (يَعْشُوا) عَلَى أَنَّ مَنْ مَوْصُولَةٌ غَيْرُ مُضَمَّنَةٍ مَعْنَى الشَّرْطِ. وَحَقُّ هَذَا الْقَارِئِ أَنْ يَرْفَعَ نَقِيضَ.

---

[1] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

[2] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

وَمَعْنَى الْقِرَاءَةِ بِالْفَتْحِ: وَمَنْ يُعْمَ ﴿عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾[1]، وَهُوَ الْقُرْآنُ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾[2].

وَأَمَّا الْقِرَاءَةُ بِالضَّمِّ فَمَعْنَاهَا: وَمَنْ يَتَعَامَ عَنْ ذِكْرِهِ، أَيْ: يَعْرِفُ أَنَّهُ الْحَقُّ وَهُوَ يَتَجَاهَلُ وَيَتَغَابَى، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾[3].

﴿نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا﴾[4]: نَخْذُلُهُ وَنَخِلُّ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الشَّيَاطِينِ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ﴾[5]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[6].

وَقُرِئَ: (يُقَيِّضُ)، أَيْ: يُقَيِّضُ لَهُ الرَّحْمَنُ وَيُقَيِّضُ لَهُ الشَّيْطَانُ.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ جَمَعَ ضَمِيرَ مَنْ وَضَمِيرَ الشَّيْطَانِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ﴾[7]؟

قُلْتُ: لِأَنَّ "مَنْ" مُبْهَمٌ فِي جِنْسِ الْعَاشِي، وَقَدْ قَيَّضَ لَهُ شَيْطَانٌ مُبْهَمٌ فِي جِنْسِهِ، فَلَمَّا جَازَ أَنْ يَتَنَاوَلَا لِإِبْهَامِهِمَا غَيْرَ وَاحِدَيْنِ: جَازَ أَنْ يَرْجِعَ الضَّمِيرُ إِلَيْهِمَا مَجْمُوعًا.

﴿حَتَّى إِذَا جَاءَنَا﴾[8] الْعَاشِي.

وَقُرِئَ: (جَآآنَا) عَلَى أَنَّ الْفِعْلَ لَهُ وَلِشَيْطَانِهِ.

﴿قَالَ﴾[9] لِشَيْطَانِهِ: ﴿يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾[10]، يُرِيدُ: الْمَشْرِقَ وَالْمَغْرِبَ، فَغَلَبَ كَمَا قِيلَ: الْعُمْرَانُ وَالْقُمْرَانُ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا بُعْدُ الْمَشْرِقَيْنِ؟

قُلْتُ: تَبَاعُدُهُمَا، وَالْأَصْلُ: بَعْدَ الْمَشْرِقِ مِنَ الْمَغْرِبِ، وَالْمَغْرِبِ مِنَ الْمَشْرِقِ. فَلَمَّا غَلَبَ وَجَمَعَ الْمُفْتَرَقَيْنِ بِالتَّثْنِيَةِ: أَضَافَ الْبُعْدَ إِلَيْهِمَا.

---

1 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

2 سورة الْبَقَرَةُ، الآية 188.

3 سورة النَّمْلُ، الآية 14.

4 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

5 سورة فُصِّلَتْ، الآية 25.

6 سورة مَرْيَمُ، الآية 83.

7 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

8 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

9 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

10 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

﴿أَنَّكُمْ﴾[1] في مَحَلِّ الرَّفْعِ عَلَى الْفَاعِلِيَّةِ، يَعْنِي: وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ كَوْنُكُمْ مُشْتَرِكِينَ في الْعَذَابِ كَمَا يَنْفَعُ الْوَاقِعِينَ في الْأَمْرِ الصَّعْبِ اشْتِرَاكُهُمْ فيهِ، لِتُعَاوِنِهُمْ في تَحَمُّلِ أَعْبَائِهِ وَتَقْسِمُهُمْ لِشِدَّتِهِ وَعَنَائِهِ، وَذَلِكَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ بِهِ مِنَ الْعَذَابِ مَا لَا تَبْلُغُهُ طَاقَتُهُ، وَلَكَ أَنْ تَجْعَلَ الْفِعْلَ لِلتَّمَنِّي في قَوْلِهِ: ﴿يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾[2] عَلَى مَعْنَى: وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ مَا أَنْتُمْ فيهِ مَنْ تَمَنَّى مُبَاعَدَةَ الْقَرِينِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾[3] تَعْلِيلٌ، أَيْ: لَنْ يَنْفَعَكُمْ تَمَنِّيكُمْ، لِأَنَّ حَقَّكُمْ أَنْ تَشْتَرِكُوا أَنْتُمْ وَقُرَنَاؤُكُمْ في الْعَذَابِ كَمَا كُنْتُمْ مُشْتَرِكُونَ في سَبَبِهِ، وَهُوَ الْكُفْرُ. وَتُقَوِّيهِ قِرَاءَةُ مَنْ قَرَأَ: (إِنَّكُمْ) بِالْكَسْرِ.

وَقِيلَ: إِذَا رَأَى الْمَمْنُوَّ بِشِدَّةٍ مَنْ مَنَّى بِمِثْلِهَا: رَوَّحَهُ ذَلِكَ وَنَفَّسَ بَعْضَ كُرَبِهِ، وَهُوَ التَّأَسِّي الَّذِي ذَكَرَتْهُ الْخَنْسَاءُ:

أُعَزِّي النَّفْسَ عَنْهُ بِالتَّأَسِّـــــــــــي

فَهَؤُلَاءِ لَا يُؤَسِّيهِمُ اشْتِرَاكُهُمْ وَلَا يُرَوِّحُهُمْ، لِعِظَمِ مَا هُمْ فيهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿إِذْ ظَلَمْتُمْ﴾[4]؟

قُلْتُ: مَعْنَاهُ: إِذْ صَحَّ ظُلْمُكُمْ وَتَبَيَّنَ وَلَمْ يَبْقَ لَكُمْ وَلَا لِأَحَدٍ شُبْهَةٌ في أَنَّكُمْ كُنْتُمْ ظَالِمِينَ، وَذَلِكَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ. وَإِذْ: بَدَلٌ مِنَ الْيَوْمِ.

وَنَظِيرُهُ:

إِذَا مَا انْتَسَبْنَا لَمْ تَلِدْنِي لَئِيمَـــــــــةٌ

أَيْ: تَبَيَّنَ أَنِّي وَلَدُ كَرِيمَةٍ.

﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ
وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[5]

---

[1] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

[2] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

[3] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

[4] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

[5] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

كَانَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– يَجِدُّ وَيَجْتَهِدُ وَيَكِدُّ رُوحُهُ في دُعَاءِ قَوْمِهِ، وَهُمْ لَا يَزِيدُونَ عَلَى دُعَائِهِ إِلَّا تَصْمِيمًا عَلَى الْكُفْرِ وَتَمَادِيًا في الْغَيِّ، فَأَنْكَرَ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ: ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾[1]: إِنْكَارَ تَعْجِيبٍ مِنْ أَنْ يَكُونَ هُوَ الَّذِي يَقْدِرُ عَلَى هِدَايَتِهِمْ، وَأَرَادَ أَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ مِنْهُمْ إِلَّا هُوَ وَحْدَهُ عَلَى سَبِيلِ الْإِلْجَاءِ وَالْقَسْرِ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾[2].

﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[3]

"مَا" في قَوْلِهِ: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾[4] بِمَنْزِلَةِ لَامِ الْقَسَمِ: في أَنَّهَا إِذَا دَخَلَتْ دَخَلَتْ مَعَهَا النُّونُ الْمُؤَكِّدَةُ.

وَالْمَعْنَى: فَإِنْ قَبَّضْنَاكَ قَبْلَ أَنْ نَنْصُرَكَ عَلَيْهِمْ وَنَشْفِي صُدُورَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ، ﴿فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ﴾[5] أَشَدَّ الِانْتِقَامِ في الْآخِرَةِ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾[6]؛ وَإِنْ أَرَدْنَا أَنْ نُنْجِزَ في حَيَاتِكَ مَا وَعَدْنَاهُمْ مِنَ الْعَذَابِ النَّازِلِ بِهِمْ وَهُوَ يَوْمُ بَدْرٍ، فَهُمْ تَحْتَ مِلْكَتِنَا وَقُدْرَتِنَا لَا يَفُوتُونَنَا، وَصْفُهُمْ بِشِدَّةِ الشَّكِيمَةِ في الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ ثُمَّ أَتْبَعَهُ شِدَّةُ الْوَعِيدِ بِعَذَابِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَقُرِئَ: (نُرِينَكَ) بِالنُّونِ الْخَفِيفَةِ.

وَقُرِئَ: (بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ) عَلَى الْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ، وَهُوَ اللَّهُ –عَزَّ وَجَلَّ–، وَالْمَعْنَى: وَسَوَاءٌ عَجَّلْنَا لَكَ الظَّفَرَ وَالْغَلَبَةَ أَوْ أَخَّرْنَا إِلَى الْيَوْمِ الْآخِرِ.

فَكُنْ مُسْتَمْسِكًا بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَبِالْعَمَلِ بِهِ، فَإِنَّهُ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ الَّذِي لَا يَحِيدُ عَنْهُ إِلَّا ضَالٌّ شَقِيٌّ، وَزِدْ كُلَّ يَوْمٍ صَلَابَةً في الْمُحَامَاةِ عَلَى دِينِ اللَّهِ، وَلَا يُخْرِجُكَ الضَّجَرُ

---

1 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

2 سورة فَاطِرُ، الآية 22.

3 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

4 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

5 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

6 سورة غَافِرُ، الآية 77.

بِأَمْرِهِمْ إِلَى شَيْءٍ مِنَ اللِّينِ وَالرَّخَاوَةِ فِي أَمْرِكَ، وَلَكِنْ كَمَا يَفْعَلُ الثَّابِتُ الَّذِي لَا يُنَشِّطُهُ تَعْجِيلُ ظَفَرٍ، وَلَا يُثَبِّطُهُ تَأْخِيرُهُ.

﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مَنْ قَبْلِكَ مَنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مَنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾[1]

﴿وَإِنَّهُ﴾[2]: وَإِنَّ الَّذِي أَوْحَى إِلَيْكَ، ﴿لَذِكْرٌ﴾[3]: لَشَرَفٌ ﴿لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾[4] وَ لِ ﴿سَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾[5] عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَعَنْ قِيَامِكُمْ بِحَقِّهِ، وَعَنْ تَعْظِيمِكُمْ لَهُ، وَشُكْرِكُمْ عَلَى أَنْ رُزِقْتُمُوهُ وَخُصِّصْتُمْ بِهِ مِنْ بَيْنِ الْعَالَمِينَ، لَيْسَ الْمُرَادُ بِسُؤَالِ الرُّسُلِ حَقِيقَةَ السُّؤَالِ لِإِحَالَتِهِ، وَلَكِنَّهُ مَجَازٌ عَنِ النَّظَرِ فِي أَدْيَانِهِمْ وَالْفَحْصِ عَنْ مِلَلِهِمْ، هَلْ جَاءَتْ عِبَادَةُ الْأَوْثَانِ قَطُّ فِي مِلَّةٍ مِنْ مِلَلِ الْأَنْبِيَاءِ؟ وَكَفَاهُ نَظَرًا وَفَحْصًا: نَظَرُهُ فِي كِتَابِ اللَّهِ الْمُعْجِزِ الْمُصَدِّقِ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ، وَإِخْبَارِ اللَّهِ فِيهِ بِأَنَّهُمْ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا.

وَهَذِهِ الْآيَةُ فِي نَفْسِهَا كَافِيَةٌ لَا حَاجَةَ إِلَى غَيْرِهَا، وَالسُّؤَالُ الْوَاقِعُ مَجَازًا عَنِ النَّظَرِ، حَيْثُ لَا يَصِحُّ السُّؤَالُ عَلَى الْحَقِيقَةِ: كَثِيرٌ مِنْهُ مُسَاءَلَةُ الشُّعَرَاءِ الدِّيَارَ وَالرُّسُومَ وَالْأَطْلَالَ.

وَقَوْلُ مَنْ قَالَ: سَلِ الْأَرْضَ: مَنْ شَقَّ أَنْهَارَكِ وَغَرَسَ أَشْجَارَكِ وَجَنَى ثِمَارَكِ؟ فَإِنَّهَا لَمْ تُجِبْكَ حَوَارًا أَجَابَتْكَ اعْتِبَارًا.

وَقِيلَ: إِنَّ النَّبِيَّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– جَمَعَ لَهُ الْأَنْبِيَاءَ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ فَأَمَّهُمْ. وَقِيلَ لَهُ: سَلْهُمْ، فَلَمْ يُشَكِّكْ وَلَمْ يَسْأَلْ.

وَقِيلَ: مَعْنَاهُ سَلْ أُمَمَ مَنْ أَرْسَلْنَا وَهُمْ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ: التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ.

وَعَنِ الْفَرَّاءِ: هُمْ إِنَّمَا يُخْبِرُونَهُ عَنْ كُتُبِ الرُّسُلِ، فَإِذَا سَأَلَهُمْ فَكَأَنَّهُ سَأَلَ الْأَنْبِيَاءَ.

---

1 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

2 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

3 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

4 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

5 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ﴾[1]

مَا أَجَابُوهُ بِهِ عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[2] مَحْذُوفٌ، دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا﴾[3]، وَهُوَ مُطَالَبَتُهُمْ إِيَّاهُ بِإِحْضَارِ الْبَيِّنَةِ عَلَى دَعْوَاهُ وَإِبْرَازِ الْآيَةِ.

﴿إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ﴾[4]، أَيْ يَسْخَرُونَ مِنْهَا وَيَهْزَءُونَ بِهَا وَيُسَمُّونَهَا سِحْرًا. وَإِذَا لِلْمُفَاجَأَةِ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ جَازَ أَنْ يُجَابَ لَمَّا بِإِذَا الْمُفَاجَأَةِ؟

قُلْتُ: لِأَنَّ فِعْلَ الْمُفَاجَأَةِ مَعَهَا مُقَدَّرٌ، وَهُوَ عَامِلُ النَّصْبِ فِي مَحَلِّهَا، كَأَنَّهُ قِيلَ: فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا فَاجَئُوا وَقْتَ ضَحِكِهِمْ.

﴿وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[5]

فَإِنْ قُلْتَ: إِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ جُمْلَةِ التِّسْعِ فَمَا أُخْتُهَا الَّتِي فُضِّلَتْ عَلَيْهَا فِي الْكِبَرِ مِنْ بَقِيَّةِ الْآيَاتِ؟

قُلْتُ: أُخْتُهَا الَّتِي هِيَ آيَةٌ مِثْلُهَا. وَهَذِهِ صِفَةُ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا فَكَانَ الْمَعْنَى عَلَى أَنَّهَا أَكْبَرُ مِنْ بَقِيَّةِ الْآيَاتِ عَلَى سَبِيلِ التَّفْصِيلِ وَالِاسْتِقْرَاءِ وَاحِدَةً بَعْدَ وَاحِدَةٍ، كَمَا تَقُولُ: هُوَ أَفْضَلُ رَجُلٍ رَأَيْتُهُ. تُرِيدُ: تَفْضِيلُهُ عَلَى أُمَّةِ الرِّجَالِ الَّذِينَ رَأَيْتُهُمْ إِذَا قَرَوْتَهُمْ رَجُلًا رَجُلًا.

فَإِنْ قُلْتَ: هُوَ كَلَامٌ مُتَنَاقِضٌ، لِأَنَّ مَعْنَاهُ: مَا مِنْ آيَةٍ مِنَ التِّسْعِ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا، فَتَكُونُ وَاحِدَةً مِنْهَا فَاضِلَةً وَمَفْضُولَةً فِي حَالَةٍ وَاحِدَةٍ.

---

[1] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

[2] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

[3] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

[4] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

[5] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

قُلْتُ: الْغَرَضُ بِهَذَا الْكَلَامِ أَنَّهُنَّ مَوْصُوفَاتٌ بِالْكِبَرِ، لَا يَكَدْنَ يَتَفَاوَتْنَ فِيهِ، وَكَذَلِكَ الْعَادَةُ فِي الْأَشْيَاءِ الَّتِي تَتَلَاقَى فِي الْفَضْلِ وَتَتَفَاوَتُ مَنَازِلُهَا فِيهِ التَّفَاوُتَ الْيَسِيرَ الَّتِي تَخْتَلِفُ آرَاءُ النَّاسِ فِي تَفْضِيلِهَا، فَيُفَضِّلُ بَعْضُهُمْ هَذَا وَبَعْضُهُمْ ذَاكَ، فَعَلَى ذَلِكَ بَنَى النَّاسُ كَلَامَهُمْ، فَقَالُوا: رَأَيْتُ رِجَالًا بَعْضُهُمْ أَفْضَلُ مِنْ بَعْضٍ، وَرُبَّمَا اخْتَلَفَتْ آرَاءُ الرَّجُلِ الْوَاحِدِ فِيهَا، فَتَارَةً يُفَضِّلُ هَذَا وَتَارَةً يُفَضِّلُ ذَاكَ.

وَمِنْهُ بَيْتُ الْحَمَاسَةِ:

مَنْ تَلْقَ مِنْهُمْ تَقُلْ لَاقَيْتُ سَيِّدَهُمْ مِثْلُ النُّجُومِ الَّتِي يَسْرِي بِهَا السَّارِي

وَقَدْ فَاضَلَتِ الْأَنْمَارِيَّةُ بَيْنَ الْكَمَلَةِ مِنْ بَنِيهَا، ثُمَّ قَالَتْ: لَمَّا أَبْصَرْتُ مَرَاتِبَهُمْ مُتَدَانِيَةً قَلِيلَةَ التَّفَاوُتِ. تَكِلَتْهُمْ إِنْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَيُّهُمْ أَفْضَلُ، وَهُمْ كَالْحَلْقَةِ الْمُفَرَّغَةِ لَا يَدْرِي أَيْنَ طَرَفَاهَا.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾:[1] إِرَادَةَ أَنْ يَرْجِعُوا عَنِ الْكُفْرِ إِلَى الْإِيمَانِ.

فَإِنْ قُلْتَ: لَوْ أَرَادَ رُجُوعَهُمْ لَكَانَ.

قُلْتُ: إِرَادَتُهُ فِعْلَ غَيْرِهِ لَيْسَ إِلَّا أَنْ يَأْمُرَهُ بِهِ وَيَطْلُبَ مِنْهُ إِيجَادَهُ، فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ الْقَسْرِ وُجِدَ، وَإِلَّا دَارَ بَيْنَ أَنْ يُوجَدَ وَبَيْنَ أَنْ لَا يُوجَدَ عَلَى حَسَبِ اخْتِيَارِ الْمُكَلَّفِ، وَإِنَّمَا لَمْ يَكُنِ الرُّجُوعُ، لِأَنَّ الْإِرَادَةَ لَمْ تَكُنْ قَسْرًا وَلَمْ يَخْتَارُوهُ.

وَالْمُرَادُ بِالْعَذَابِ: السُّنُونُ، وَالطُّوفَانُ، وَالْجَرَادُ، وَغَيْرُ ذَلِكَ.

﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾[2]

وَقُرِئَ: (يَا أَيُّهُ السَّاحِرُ) بِضَمِّ الْهَاءِ، وَقَدْ سَبَقَ وَجْهُهُ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ سَمَّوْهُ بِالسَّاحِرِ مَعَ قَوْلِهِمْ: ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾[3]؟

---

[1] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

[2] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

[3] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

قُلْتُ: قَوْلُهُمْ: ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾[1]: وَعْدٌ مَنوِيٌّ إِخْلَافُهُ، وَعَهْدٌ مَعْزُومٌ عَلَى نَكْثِهِ، مُعَلَّقٌ بِشَرْطِ أَنْ يَدْعُوَ لَهُمْ وَيَنْكَشِفَ عَنْهُمُ الْعَذَابُ.

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾[2]، فَمَا كَانَتْ تَسْمِيَتُهُمْ إِيَّاهُ بِالسَّاحِرِ بِمُنَافِيةٍ لِقَوْلِهِمْ: ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾[3]؟

وَقِيلَ: كَانُوا يَقُولُونَ لِلْعَالِمِ الْمَاهِرِ سَاحِرٌ لِاسْتِعْظَامِهِمْ عِلْمَ السِّحْرِ ﴿بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾[4] بِعَهْدِهِ عِنْدَكَ: مِنْ أَنَّ دَعْوَتَكَ مُسْتَجَابَةٌ، أَوْ بِعَهْدِهِ عِنْدَكَ، وَهُوَ النُّبُوَّةُ، أَوْ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ فَوَفيتَ بِهِ وَهُوَ الْإِيمَانُ وَالطَّاعَةُ، أَوْ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ مِنْ كَشْفِ الْعَذَابِ عَمَّنِ اهْتَدَى.

﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾[5]

﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ﴾[6] جَعَلَهُمْ مَحِلًّا لِنِدَائِهِ وَمَوْقِعًا لَهُ.

وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ أَمَرَ بِالنِّدَاءِ في مَجَامِعِهِمْ وَأَمَاكِنِهِمْ مَنْ نَادَى فيها بِذَلِكَ، فَأَسْنَدَ النِّدَاءَ إِلَيْهِ، كَقَوْلِكَ: قَطَعَ الْأَمِيرُ اللِّصَّ، إِذَا أَمَرَ بِقَطْعِهِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ عِنْدَهُ عُظَمَاءُ الْقِبْطِ، فيرْفَعُ صَوْتَهُ بِذَلِكَ فيمَا بَيْنَهُمْ، ثُمَّ يَنْشُرُ عَنْهُ في جُمُوعِ الْقِبْطِ، فَكَأَنَّهُ نُودِيَ بِهِ بَيْنَهُمْ، فَقَالَ: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ﴾[7]، يَعْنِي: أَنْهَارَ النِّيلِ وَمُعْظَمُهَا أَرْبَعَةٌ: نَهْرُ الْمَلِكِ، وَنَهْرُ طُولُونَ، وَنَهْرُ دِمْيَاطٍ، وَنَهْرُ تُنَيْسٍ. قِيلَ: كَانَتْ تَجْرِي تَحْتَ قَصْرِهِ. وَقِيلَ: تَحْتَ سَرِيرِهِ لِارْتِفَاعِهِ. وَقِيلَ: بَيْنَ يَدِي في جِنَانِي وَبَسَاتِينِي.

---

1 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .
2 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .
3 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .
4 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .
5 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .
6 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .
7 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ الْوَاوُ عَاطِفَةً لِلْأَنْهَارِ عَلَى مُلْكِ مِصْرَ.

وَتَجْرِي: نُصِبَ عَلَى الْحَالِ مِنْهَا، وَأَنْ تَكُونَ الْوَاوُ لِلْحَالِ، وَاسْمُ الْإِشَارَةِ مُبْتَدَأٌ، وَالْأَنْهَارُ صِفَةٌ لِاسْمِ الْإِشَارَةِ، وَتَجْرِي خَبَرٌ لِلْمُبْتَدَأِ.

وَلَيْتَ شِعْرِي، كَيْفَ ارْتَقَتْ إِلَى دَعْوَةِ الرُّبُوبِيَّةِ هِمَّةُ مَنْ تَعَظَّمَ بِمُلْكِ مِصْرَ، وَعَجِبَ النَّاسُ مِنْ مَدَى عَظَمَتِهِ، وَأَمَرَ فَنُودِيَ بِهَا فِي أَسْوَاقِ مِصْرَ وَأَزِقَّتِهَا، لِئَلَّا تَخْفى تِلْكَ الْأُبَّهَةُ وَالْجَلَالَةُ عَلَى صَغِيرٍ وَلَا كَبِيرٍ وَحَتَّى يَتَرَبَّعَ فِي صُدُورِ الدَّهْمَاءِ مِقْدَارُ عِزَّتِهِ وَمَلَكُوتُهُ؟!

وَعَنِ الرَّشِيدِ: أَنَّهُ لَمَّا قَرَأَهَا قَالَ: لِأُوَلِيَنَّهَا أَخَسَّ عَبِيدِي، فَوَلَّاهَا الْخَصِيبَ، وَكَانَ عَلَى وُضُوئِهِ.

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ أَنَّهُ وَلِيَهَا، فَخَرَجَ إِلَيْهَا، فَلَمَّا شَارَفَهَا وَوَقَعَ عَلَيْهَا بَصَرُهُ قَالَ: أَهِيَ الْقَرْيَةُ الَّتِي افْتَخَرَ بِهَا فِرْعَوْنُ حَتَّى قَالَ: أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ، وَاللَّهِ لَهِيَ أَقَلُّ عِنْدِي مِنْ أَنْ أَدْخُلَهَا، فَثَنَى عِنَانَهُ.

﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ﴾[1] أَمْ هَذِهِ مُتَّصِلَةٌ، لِأَنَّ الْمَعْنَى: أَفَلَا تُبْصِرُونَ أَمْ تُبْصِرُونَ، إِلَّا أَنَّهُ وَضَعَ قَوْلَهُ: ﴿أَنَا خَيْرٌ﴾[2] مَوْضِعَ: تُبْصِرُونَ، لِأَنَّهُمْ إِذَا قَالُوا لَهُ: أَنْتَ خَيْرٌ، فَهُمْ عِنْدَهُ بُصَرَاءُ، وَهَذَا مِنْ إِنْزَالِ السَّبَبِ مَنْزِلَةَ الْمُسَبَّبِ.

وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ مُنْقَطِعَةً عَلَى: بَلْ أَأَنَا خَيْرٌ، وَالْهَمْزَةُ لِلتَّقْرِيرِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ قَدَّمَ تَعْدِيدَ أَسْبَابِ الْفَضْلِ وَالتَّقَدُّمِ عَلَيْهِمْ مِنْ مُلْكِ مِصْرَ وَجَرْيِ الْأَنْهَارِ تَحْتَهُ، وَنَادَى بِذَلِكَ وَمَلَأَ بِهِ مَسَامِعَهُمْ، ثُمَّ قَالَ: أَنَا خَيْرٌ كَأَنَّهُ يَقُولُ: أَثَبَتَ عِنْدَكُمْ وَاسْتَقَرَّ أَنِّي أَنَا خَيْرٌ.

وَهَذِهِ حَالِي ﴿مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾[3]، أَيْ ضَعِيفٌ حَقِيرٌ.

وَقُرِئَ: (أَمَا أَنَا خَيْرٌ).

﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾[4] الْكَلَامُ لِمَا بِهِ مِنَ الرُّتَّةِ يُرِيدُ: أَنَّهُ لَيْسَ مَعَهُ مِنَ الْعَدَدِ وَآلَاتِ الْمُلْكِ وَالسِّيَاسَةِ مَا يَعْتَضِدُ بِهِ، وَهُوَ فِي نَفْسِهِ مُخِلٌّ بِمَا يَنْعَتُ بِهِ الرِّجَالُ مِنَ اللَّسْنِ وَالْفَصَاحَةِ، وَكَانَتِ الْأَنْبِيَاءُ كُلُّهُمْ أَبْيِنَاءُ بُلَغَاءُ.

---

[1] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

[2] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

[3] سورة الزُّخْرُفِ ، الآية .

[4] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

وَأَرَادَ بِإِلْقَاءِ الْأَسْوِرَةِ عَلَيْهِ: إِلْقَاءِ مَقَالِيدِ الْمُلْكِ إِلَيْهِ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَرَادُوا تَسْوِيدَ الرَّجُلِ سَوَّرُوهُ بِسِوَارٍ وَطَوَّقُوهُ بِطَوْقٍ مِنْ ذَهَبٍ.

﴿مُقْتَرِنِينَ﴾:[1] إِمَّا مُقْتَرِنِينَ بِهِ مِنْ قَوْلِكَ: قَرَنْتُهُ فَاقْتَرَنَ بِهِ، وَإِمَّا مِنِ: اقْتَرَنُوا، بِمَعْنَى تَقَارَنُوا: لَمَّا وَصَفَ نَفْسَهُ بِالْمُلْكِ وَالْعِزَّةِ وَوَازَنَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مُوسَى –صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ–، فَوَصَفَهُ بِالضَّعْفِ وَقِلَّةِ الْأَعْضَادِ اعْتَرَضَ، فَقَالَ: هَلَّا إِنْ كَانَ صَادِقًا مَلَكَهُ رَبُّهُ وَسَوَّدَهُ وَسَوَّرَهُ، وَجَعَلَ الْمَلَائِكَةَ أَعْضَادَهُ وَأَنْصَارَهُ.

وَقُرِئَ: (أَسَاوِرَ) جَمْعُ أَسْوِرَةٍ وَ(أَسَاوِيرُ) جَمْعُ أَسْوَارٍ وَهُوَ السُّوَارُ، وَ(أَسَاوِرَةٌ) عَلَى تَعْوِيضِ التَّاءِ مِنْ يَاءِ أَسَاوِيرَ.

وَقُرِئَ: (أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ) وَأَسَاوِرُ، عَلَى الْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ، وَهُوَ اللَّهُ –عَزَّ وَجَلَّ–:

﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾[2]

﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ﴾[3] فَاسْتَفَزَّهُمْ.

وَحَقِيقَتُهُ: حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ يُخِفُّوا لَهُ وَلِمَا أَرَادَ مِنْهُمْ، وَكَذَلِكَ: اسْتَفَزَّ، مِنْ قَوْلِهِمْ لِلْخَفِيفِ: فَزٌّ.

﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ﴾[4]

﴿آسَفُونَا﴾[5] مَنْقُولٌ مِنْ أَسِفَ أَسَفًا إِذَا اشْتَدَّ غَضَبُهُ. وَمِنْهُ الْحَدِيثُ فِي مَوْتِ الْفَجْأَةِ: "رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِ وَأَخْذَةُ أَسَفٍ لِلْكَافِرِ".

---

1 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

2 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

3 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

4 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

5 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

وَمَعْنَاهُ: أَنَّهُمْ أَفْرَطُوا فِي الْمَعَاصِي وَعَدُّوا طَوْرَهُمْ، فَاسْتَوْجَبُوا أَنْ نُعَجِّلَ لَهُمْ عَذَابَنَا وَانْتِقَامَنَا، وَأَنْ لَا نَحْلُمَ عَنْهُمْ.

وَقُرِئَ: (سَلَفًا) جَمْعُ سَالِفٍ، كَخَادِمٍ وَخَدَمٍ. وَسُلُفًا بِضَمَّتَيْنِ- جَمْعُ سَلِيفٍ، أَيْ: فَرِيقٌ قَدْ سَلَفَ. وَسَلَفًا: جَمْعُ سُلْفَةٍ، أَيْ: ثُلَّةٌ قَدْ سَلَفَتْ.

وَمَعْنَاهُ: فَجَعَلْنَاهُمْ قُدْوَةً لِلْآخَرِينَ مِنَ الْكُفَّارِ، يَقْتَدُونَ بِهِمْ فِي اسْتِحْقَاقِ مِثْلِ عِقَابِهِمْ وَنُزُولِهِ بِهِمْ، لِإِتْيَانِهِمْ بِمِثْلِ أَفْعَالِهِمْ، وَحَدِيثًا عَجِيبَ الشَّأْنِ سَائِرًا مَسِيرَ الْمَثَلِ، يُحَدِّثُونَ بِهِ وَيُقَالُ لَهُمْ: مَثَلُكُمْ مَثَلُ قَوْمِ فِرْعَوْنَ.

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[1]

لَمَّا قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عَلَى قُرَيْشٍ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾[2]، امْتَعَضُوا مِنْ ذَلِكَ امْتِعَاضًا شَدِيدًا، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزَّبَعْرِيِّ: يَا مُحَمَّدُ، أَخَاصَّةٌ لَنَا وَلِآلِهَتِنَا أَمْ لِجَمِيعِ الْأُمَمِ؟ فَقَالَ -عَلَيْهِ السَّلَامُ-: هُوَ لَكُمْ وَلِآلِهَتِكُمْ وَلِجَمِيعِ الْأُمَمِ، فَقَالَ: خَصِمْتُكَ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ، أَلَسْتَ تَزْعُمُ أَنَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ نَبِيٌّ وَتُثْنِي عَلَيْهِ خَيْرًا وَعَلَى أُمِّهِ، وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ النَّصَارَى يَعْبُدُونَهُمَا. وَعُزَيْرٌ يُعْبَدُ. وَالْمَلَائِكَةُ يُعْبَدُونَ، فَإِنْ كَانَ هَؤُلَاءِ فِي النَّارِ فَقَدْ رَضِينَا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ وَآلِهَتَنَا مَعَهُمْ، فَفَرِحُوا وَضَحِكُوا، وَسَكَتَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَأَنْزَلَ اللَّهُ -تَعَالَى-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى﴾[3]، وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ.

وَالْمَعْنَى: وَلَمَّا ضَرَبَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزَّبَعْرَى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ مَثَلًا، وَجَادَلَ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بِعِبَادَةِ النَّصَارَى إِيَّاهُ.

---

[1] سورة الزُّخْرُف، الآية .

[2] سورة الْأَنْبِيَاء، الآية 98.

[3] سورة الْأَنْبِيَاء، الآية 101.

﴿إِذَا قَوْمُكَ﴾[1] قُرَيْشٌ مِنْ هَذَا الْمَثَلِ، ﴿يَصِدُّونَ﴾[2] تَرْتَفِعُ لَهُمْ جَلَبَةٌ وَضَجِيجٌ فَرَحًا وَجَزَلًا وَضَحِكًا بِمَا سَمِعُوا مِنْهُ مِنْ إِسْكَاتِ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– بِجَدَلِهِ، كَمَا يَرْتَفِعُ لَغَطُ الْقَوْمِ وَلَجَبُهُمْ إِذَا تَعَيَّوْا بِحُجَّةٍ ثُمَّ فُتِحَتْ عَلَيْهِمْ.

وَأَمَّا مَنْ قَرَأَ: (يَصُدُّونَ) بِالضَّمِّ– فَمِنَ الصُّدُودِ، أَيْ: مِنْ أَجْلِ هَذَا الْمَثَلِ يَصُدُّونَ عَنِ الْحَقِّ وَيُعْرِضُونَ عَنْهُ. وَقِيلَ: مِنَ الصَّدِيدِ، وَهُوَ الْجَلَبَةُ، وَأَنَّهُمَا لُغَتَانِ نَحْوُ: يَعْكُفُ وَيَعْكِفُ وَنَظَائِرُ لَهُمَا.

﴿وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾[3] يَعْنُونَ أَنَّ آلِهَتَنَا عِنْدَكَ لَيْسَتْ بِخَيْرٍ مِنْ عِيسَى، وَإِذَا كَانَ عِيسَى مِنْ حَصَبِ النَّارِ كَانَ أَمْرُ آلِهَتِنَا هَيِّنًا.

﴿مَا ضَرَبُوهُ﴾[4]، أَيْ مَا ضَرَبُوا هَذَا الْمَثَلَ، ﴿لَكَ إِلا جَدَلا﴾[5] إِلَّا لِأَجْلِ الْجَدَلِ وَالْغَلَبَةِ فِي الْقَوْلِ، لَا لِطَلَبِ الْمَيْزِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ.

﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾[6]: لَدَّ شِدَادُ الْخُصُومَةِ دَأْبُهُمُ اللَّجَاجُ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿قَوْمًا لُدًّا﴾[7].

وَذَلِكَ أَنَّ قَوْلَهُ –تَعَالَى–: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾[8] مَا أُرِيدَ بِهِ إِلَّا الْأَصْنَامُ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ –عَلَيْهِ السَّلَامُ–: "هُوَ لَكُمْ وَلِآلِهَتِكُمْ وَلِجَمِيعِ الْأُمَمِ" إِنَّمَا قَصَدَ بِهِ الْأَصْنَامَ، وَمُحَالٌ أَنْ يَقْصِدَ بِهِ الْأَنْبِيَاءَ وَالْمَلَائِكَةَ، إِلَّا أَنَّ ابْنَ الزَّبَعْرَى بِخَبِّهِ وَخِدَاعِهِ وَخُبْثِ دُخْلَتِهِ لَمَّا رَأَى كَلَامَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ مُحْتَمَلًا لَفْظُهُ وَجْهَ الْعُمُومِ، مَعَ عِلْمِهِ بِأَنَّ الْمُرَادَ بِهِ أَصْنَامُهُمْ لَا غَيْرَ، وَجَدَ لِلْحِيلَةِ مَسَاغًا، فَصَرَفَ مَعْنَاهُ إِلَى الشُّمُولِ وَالْإِحَاطَةِ بِكُلِّ مَعْبُودٍ غَيْرِ اللَّهِ، عَلَى طَرِيقَةِ الْمَحْكِ وَالْجِدَالِ وَحُبِّ الْمُغَالَبَةِ وَالْمُكَابَرَةِ، وَتَوَقَّحُ فِي ذَلِكَ، فَتُوَقِّرُ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– حَتَّى أَجَابَ عَنْهُ رَبُّهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا

---

[1] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

[2] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

[3] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

[4] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

[5] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

[6] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

[7] سورة مَرْيَمُ، الآية 97.

[8] سورة الْأَنْبِيَاءُ، الآية 98.

الْحُسْنَى﴾[1]، فَدَلَّ بِهِ عَلَى أَنَّ الْآيَةَ خَاصَّةً مِنَ الْأَصْنَامِ، عَلَى أَنَّ الظَّاهِرَ قَوْلُهُ: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾[2] لِغَيْرِ الْعُقَلَاءِ.

وَقِيلَ: لَمَّا سَمِعُوا قَوْلَهُ -تَعَالَى-: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾[3]]آلُ عِمْرَانَ: 599] قَالُوا: نَحْنُ أَهْدَى مِنَ النَّصَارَى، لِأَنَّهُمْ عَبَدُوا آدَامِيًّا، وَنَحْنُ نَعْبُدُ الْمَلَائِكَةَ، فَنَزَلَتْ.

وَقَوْلُهُ: ﴿أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾[4] عَلَى هَذَا الْقَوْلِ: تَفْضِيلٌ لِآلِهَتِهِمْ عَلَى عِيسَى، لِأَنَّ الْمُرَادَ بِهِمُ الْمَلَائِكَةُ وَمَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا. مَعْنَاهُ: وَمَا قَالُوا هَذَا الْقَوْلَ، يَعْنِي: آلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ. إِلَّا لِلْجِدَالِ، وَقُرِئَ: (أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ) بِإِثْبَاتِ هَمْزَةِ الِاسْتِفْهَامِ وَبِإِسْقَاطِهَا، لِدَلَالَةِ أَمِ الْعَدِيلَةِ عَلَيْهَا. وَفِي حِرَفِ ابْنِ مَسْعُودٍ: خَيْرٌ أَمْ هَذَا.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ﴿جَدَلًا﴾[5] حَالًا، أَيْ: جَدْلَيْنِ.

وَقِيلَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ﴾[6]، قَالُوا: مَا يُرِيدُ مُحَمَّدٌ بِهَذَا إِلَّا أَنْ نَعْبُدَهُ وَأَنَّهُ يَسْتَأْهِلُ أَنْ يُعْبَدَ وَإِنْ كَانَ بَشَرًا، كَمَا عَبَدَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحَ وَهُوَ بَشَرٌ.

وَمَعْنَى ﴿يَصِدُّونَ﴾[7]: يَضِجُّونَ وَيَضْجَرُونَ.

وَالضَّمِيرُ فِي ﴿أَمْ هُوَ﴾[8] لِمُحَمَّدٍ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَغَرَضُهُمْ بِالْمُوَازَنَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ آلِهَتِهِمْ: السُّخْرِيَةُ بِهِ وَالِاسْتِهْزَاءُ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَقُولُوا -لِمَا أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ قَوْلُهُمْ: الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللَّهِ وَعَبَدُوهُمْ- مَا قُلْنَا بِدَعًا مِنَ الْقَوْلِ، وَلَمَا فَعَلْنَا نُكْرًا مِنَ الْفِعْلِ، فَإِنَّ النَّصَارَى جَعَلُوا الْمَسِيحَ ابْنَ اللَّهِ وَعَبَدُوهُ، وَنَحْنُ أَشَفُّ مِنْهُمْ قَوْلًا وَفِعْلًا، فَإِنَّا نَسَبْنَا إِلَيْهِ الْمَلَائِكَةَ وَهُمْ نَسَبُوا إِلَيْهِ الْأَنَاسِيَّ، فَقِيلَ لَهُمْ: مَذْهَبُ النَّصَارَى شِرْكٌ بِاللَّهِ، وَمَذْهَبُكُمْ شِرْكٌ مِثْلُهُ، وَمَا تَنَصُّلُكُمْ مِمَّا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِمَا أَوْرَدْتُمُوهُ

---

1 سورة الْأَنْبِيَاءُ، الآية 101.

2 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

3 سورة آلُ عِمْرَانَ، الآية 59.

4 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

5 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

6 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

7 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

8 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

إِلَّا قِيَاسٌ بَاطِلٌ بِبَاطِلٍ، وَمَا عِيسَى ﴿إِلاَّ عَبْدٌ﴾[1] كَسَائِرِ الْعَبِيدِ ﴿أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾[2] حَيْثُ جَعَلْنَاهُ آيَةً: بِأَنْ خَلَقْنَاهُ مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ، كَمَا خَلَقَنَا آدَمَ وَشَرَّفْنَا بِالنُّبُوَّةِ وَصَيَّرْنَاهُ عِبْرَةً عَجِيبَةً كَالْمَثَلِ السَّائِرِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً
فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾[3]

﴿وَلَوْ نَشَاءُ﴾[4] لِقُدْرَتِنَا عَلَى عَجَائِبِ الْأُمُورِ وَبَدَائِعِ الْفِطَرِ ﴿لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ﴾[5]: لَوَلَدْنَا مِنْكُمْ يَا رِجَالُ، ﴿مَلَائِكَةً﴾[6] يَخْلُفُونَكُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا يَخْلُفُكُمْ أَوْلَادُكُمْ، كَمَا وَلَدْنَا عِيسَى مِنْ أُنْثَى مِنْ غَيْرِ فَحْلٍ، لِتَعْرِفُوا تَمَيُّزَنَا بِالْقُدْرَةِ الْبَاهِرَةِ، وَلِتَعْلَمُوا أَنَّ الْمَلَائِكَةَ أَجْسَامٌ لَا تَتَوَلَّدُ إِلَّا مِنْ أَجْسَامٍ، وَذَاتُ الْقَدِيمِ مُتَعَالِيَةٌ عَنْ ذَلِكَ.

﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ
هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾[7]

"وَأَنَّهُ" وَإِنَّ عِيسَى –عَلَيْهِ السَّلَامُ– ﴿لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ﴾[8]، أَيْ شَرْطٌ مِنْ أَشْرَاطِهَا تُعْلَمُ بِهِ، فَسَمَّى الشَّرْطَ عِلْمًا لِحُصُولِ الْعِلْمِ بِهِ. وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَعَلَمٌ، وَهُوَ الْعَلَّامَةُ. وَقُرِئَ: (لِلْعِلْمِ) وَقَرَأَ أُبَيٌّ: لَذِكْرٌ، عَلَى تَسْمِيَةِ مَا يُذْكَرُ بِهِ ذِكْرًا، كَمَا سُمِّيَ مَا يُعْلَمُ بِهِ عِلْمًا.

---

1 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .
2 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .
3 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .
4 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .
5 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .
6 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .
7 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .
8 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

وَفِي الْحَدِيثِ: "أَنَّ عِيسَى -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- يَنْزِلُ عَلَى ثَنِيَّةٍ بِالْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ: يُقَالُ لَهَا أَفِيقِ وَعَلَيْهِ مُمَصَّرَتَانِ، وَشَعْرُ رَأْسِهِ دَهِينٌ، وَبِيَدِهِ حَرْبَةٌ، وَبِهَا يُقْتَلُ الدَّجَّالُ، فيأْتِي بَيْتَ الْمَقْدِسِ وَالنَّاسُ في صَلَاةِ الصُّبْحِ وَالْإِمَامُ يَؤُمُّ بِهِمْ، فيتَأَخَّرُ الْإِمَامُ فيقَدِّمُهُ عِيسَى وَيُصَلِّي خَلْفَهُ عَلَى شَرِيعَةِ مُحَمَّدٍ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، ثُمَّ يَقْتُلُ الْخَنَازِيرَ وَيَكْسِرُ الصَّلِيبَ، وَيُخَرِّبُ الْبِيَعَ وَالْكَنَائِسَ، وَيَقْتُلُ النَّصَارَى إِلَّا مَنْ آمَنَ بِهِ".

وَعَنِ الْحَسَنِ: أَنَّ الضَّمِيرَ لِلْقُرْآنِ، وَأَنَّ الْقُرْآنَ بِهِ تُعْلَمُ السَّاعَةُ، لِأَنَّ فيهِ الْإِعْلَانَ بِهَا.

﴿فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾[1] مِنَ الْمِرْيَةِ وَهِيَ الشَّكُّ، ﴿وَاتَّبِعُونِ﴾[2]: وَاتَّبِعُوا هُدَايَ وَشَرْعِي، أَوْ رَسُولِي.

وَقِيلَ: هَذَا أَمْرٌ لِرَسُولِ اللَّهِ أَنْ يَقُولَهُ: ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾[3]، أَيْ هَذَا الَّذِي أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ، أَوْ هَذَا الْقُرْآنُ إِنْ جُعِلَ الضَّمِيرُ في ﴿وَإِنَّهُ﴾[4] لِلْقُرْآنِ.

﴿وَلا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾[5]

﴿عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾[6]: قَدْ بَانَتْ عَدَاوَتُهُ لَكُمْ، إِذْ أَخْرَجَ أَبَاكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ، وَنَزَعَ عَنْهُ لِبَاسَ النُّورِ.

﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ

---

1 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .
2 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .
3 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .
4 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .
5 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .
6 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

مُسْتَقِيمٌ فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾[1]

﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾[2]: الْمُعْجِزَاتِ. أَوْ بِآيَاتِ الْإِنْجِيلِ وَالشَّرَائِعِ الْبَيِّنَاتِ الْوَاضِحَاتِ.

﴿بِالْحِكْمَةِ﴾[3]، يَعْنِي الْإِنْجِيلَ وَالشَّرَائِعَ.

فَإِنْ قُلْتَ: هَلَّا بَيَّنَ لَهُمْ كُلَّ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلَكِنَّ بَعْضَهُ؟

قُلْتُ: كَانُوا يَخْتَلِفُونَ فِي الدِّيَانَاتِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِالتَّكْلِيفِ وَفِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِمَّا لَمْ يَتَعَبَّدُوا بِمَعْرِفَتِهِ وَالسُّؤَالُ عَنْهُ، وَإِنَّمَا بُعِثَ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِمَّا يَعْنِيهِمْ مِنْ أَمْرِ دِينِهِمْ.

﴿الْأَحْزَابُ﴾[4]: الْفِرَقُ الْمُتَحَزِّبَةُ بَعْدَ عِيسَى، وَقِيلَ: الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى.

﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾[5]: وَعِيدٌ لِلْأَحْزَابِ.

فَإِنْ قُلْتَ: ﴿مِنْ بَيْنِهِمْ﴾[6] إِلَى مَنْ يَرْجِعُ الضَّمِيرُ فِيهِ؟

قُلْتُ: إِلَى الَّذِينَ خَاطَبَهُمْ عِيسَى فِي قَوْلِهِ: ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ﴾[7]، وَهُمْ قَوْمُهُ الْمَبْعُوثُ إِلَيْهِمْ.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلا الْمُتَّقِينَ يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ

---

1 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .
2 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .
3 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .
4 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .
5 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .
6 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .
7 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾[1]

﴿أَنْ تَأْتِيَهُمْ﴾[2] بَدَلٌ مِنَ السَّاعَةِ. وَالْمَعْنَى: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا إِتْيَانَ السَّاعَةِ؟

فَإِنْ قُلْتَ: أَمَا أَدَّى قَوْلُهُ: ﴿بَغْتَةً﴾[3] مُؤَدَّى قَوْلِهِ: ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾[4]، فيسْتَغْنِيَ عَنْهُ؟

قُلْتُ: لَا، لِأَنَّ مَعْنَى قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾[5]: وَهُمْ غَافِلُونَ لِاشْتِغَالِهِمْ بِأُمُورِ دُنْيَاهُمْ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾[6]؛ وَيَجُوزُ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ فَطِنُونَ.

﴿يَوْمَئِذٍ﴾[7] مَنْصُوبٌ بِعَدُوٌّ، أَيْ: تَنْقَطِعُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ كُلُّ خُلَّةٍ بَيْنَ الْمُتَخَالِينَ فِي غَيْرِ ذَاتِ اللَّهِ، وَتَنْقَلِبُ عَدَاوَةً وَمَقْتًا، إِلَّا خُلَّةُ الْمُتَصَادِقِينَ فِي اللَّهِ، فَإِنَّهَا الْخُلَّةُ الْبَاقِيَةُ الْمُزْدَادَةُ قُوَّةً إِذَا رَأَوْا ثَوَابَ التَّحَابِّ فِي اللَّهِ –تَعَالَى– وَالتَّبَاغُضِ فِي اللَّهِ.

وَقِيلَ: ﴿إِلا الْمُتَّقِينَ﴾[8]: إِلَّا الْمُجْتَنِبِينَ أَخِلَّاءَ السُّوءِ.

وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي أُبَيِّ بْنِ خَلَفٍ، وَعُقْبَةُ ابْنُ أَبِي مُعَيْطٍ.

"يَا عِبَادِي" حِكَايَةً لِمَا يُنَادَى بِهِ الْمُتَّقُونَ الْمُتَحَابُّونَ فِي اللَّهِ يَوْمَئِذٍ.

وَ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾[9] مَنْصُوبُ الْمَحَلِّ صِفَةٌ لِعِبَادِي، لِأَنَّهُ مُنَادَى مُضَافٌ، أَيِ: الَّذِينَ صَدَقُوا ﴿بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾[10] مُخْلِصِينَ وُجُوهَهُمْ لَنَا، جَاعِلِينَ أَنْفُسَهُمْ سَالِمَةً لِطَاعَتِنَا.

---

1 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .
2 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .
3 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .
4 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .
5 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .
6 سورة يس، الآية 49.
7 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .
8 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .
9 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .
10 سورة الزُّخْرُفِ ، الآية .

وَقِيلَ: إِذَا بَعَثَ اللَّهُ النَّاسَ فَزِعَ كُلُّ أَحَدٍ، فينَادِي مُنَادٍ، يَا عِبَادِي فيرْجُوهَا النَّاسُ كُلُّهُمْ، ثُمَّ يَتْبَعُهَا الَّذِينَ آمَنُوا فييْأَسُ النَّاسُ مِنْهَا غَيْرَ الْمُسْلِمِينَ.

وَقُرِئَ: (يَا عِبَادِ) "تُحْبَرُونَ" تُسَرُّونَ سُرُورًا يَظْهَرُ حَبَارُهُ –أَيْ: أَثَرُهُ– عَلَى وُجُوهِكُمْ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾[1]، وَقَالَ الزَّجَّاجُ: تُكْرَمُونَ إِكْرَامًا يُبَالَغُ فيهِ.

وَالْحَبَرَةُ: الْمُبَالَغَةُ فيمَا وُصِفَ بِجَمِيلٍ. وَالْكُوبُ: الْكُوزُ لَا عُرْوَةَ لَهُ.

﴿وفيها﴾[2] الضَّمِيرُ لِلْجَنَّةِ .وَقُرِئَ: (تَشْتَهِي) وَ(تَشْتَهِيه). وَهَذَا حَصْرٌ لِأَنْوَاعِ النِّعَمِ، لِأَنَّهَا إِمَّا مُشْتَهَاةٌ فِي الْقُلُوبِ، وَإِمَّا مُسْتَلَذَّةٌ فِي الْعُيُونِ.

"وَتِلْكَ" إِشَارَةٌ إِلَى الْجَنَّةِ الْمَذْكُورَةِ. وَهِيَ مُبْتَدَأٌ، وَ"الْجَنَّةُ" خَبَرٌ.

وَ﴿الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا﴾[3] صِفَةُ الْجَنَّةِ، أَوِ الْجَنَّةُ صِفَةٌ لِلْمُبْتَدَأِ الَّذِي هُوَ اسْمُ الْإِشَارَةِ. وَالَّتِي أُورِثْتُمُوهَا: خَبَرُ الْمُبْتَدَأِ. أَوِ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا: صِفَةٌ، وَ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[4] الْخَبَرُ، وَالْبَاءُ تَتَعَلَّقُ بِمَحْذُوفٍ كَمَا فِي الظُّرُوفِ الَّتِي تَقَعُ أَخْبَار. وَفِي الْوَجْهِ الْأَوَّلِ تَتَعَلَّقُ بأورثتموها. وَشُبِّهَتْ فِي بَقَائِهَا عَلَى أَهْلِهَا بِالْمِيرَاثِ الْبَاقِي عَلَى الْوَرَثَةِ. وَقُرِئَ: (وَرِّثْتُمُوهَا).

﴿مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾[5] مِنْ لِلتَّبْعِيضِ، أَيْ: لَا تَأْكُلُونَ إِلَّا بَعْضَهَا، وَأَعْقَابُهَا بَاقِيَةٌ فِي شَجَرِهَا، فَهِيَ مُزَيَّنَةٌ بِالثِّمَارِ أَبَدًا مُوَقَّرَةٌ بِهَا، لَا تَرَى شَجَرَةً عُرْيَانَةً مِنْ ثَمَرِهَا كَمَا فِي الدُّنْيَا.

وَعَنِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "لَا يَنْزِعُ رَجُلٌ فِي الْجَنَّةِ مِنْ ثَمَرِهَا إِلَّا نَبَتَ مَكَانَهَا مِثْلَاهَا".

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾[6]

---

[1] سورة الْمُطَفِّفِينَ، الآية 24.

[2] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

[3] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

[4] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

[5] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

[6] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

﴿لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾[1]: لَا يُخَفَّفُ وَلَا يَنْقُصُ، مِنْ قَوْلِهِمْ: فَتَرَتْ عَنْهُ الْحُمَّى إِذَا سَكَنَتْ عَنْهُ قَلِيلًا وَنَقَصَ حَرُّهَا.

وَالْمُبْلِسُ: الْيَائِسُ السَّاكِتُ سُكُوتَ يَأْسٍ مِنْ فَرَجٍ.

وَعَنِ الضَّحَّاكِ: يُجْعَلُ الْمُجْرِمُ فِي تَابُوتٍ فِي نَارٍ ثُمَّ يُرْدَمُ عَلَيْهِ فيبْقَى فيهِ خَالِدًا: لَا يَرَى وَلَا يُرَى.

﴿هُمُ﴾[2] فَصْلٌ عِنْدَ الْبَصْرِيِّينَ، عِمَادٌ عِنْدَ الْكُوفِيينَ. وَقُرِئَ: (وَهُمْ فيها) أَيْ: فِي النَّارِ، وَقَرَأَ عَلِيٌّ وَابْنُ مَسْعُودٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا–: (يَا مَالِ) بِحَذْفِ الْكَافِ لِلتَّرْخِيمِ، كَقَوْلِ الْقَائِلِ:

وَالْحَقُّ يَا مَالِ غَيْرُ مَا تَصِـــــــــفُ

وَقِيلَ لِابْنِ عَبَّاسٍ: إِنَّ ابْنَ مَسْعُودٍ قَرَأَ (وَنَادَوْا يَا مَالِ)، فَقَالَ: مَا أَشْغَلُ أَهْلَ النَّارِ عَنِ التَّرْخِيمِ وَعَنْ بَعْضِهِمْ: حَسَنُ التَّرْخِيمِ أَنَّهُمْ يَقْتَطِعُونَ بَعْضَ الِاسْمِ لِضَعْفِهِمْ وَعِظَمِ مَا هُمْ فيهِ. وَقَرَأَ أَبُو السِّرَارِ الْغَنَوِيُّ: (يَا مَالُ) بِالرَّفْعِ كَمَا يُقَالُ: يَا حَارُ ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾[3] مِنْ قَضَى عَلَيْهِ إِذَا أَمَاتَهُ، ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾[4]. وَالْمَعْنَى: سَلْ رَبَّكَ أَنْ يَقْضِيَ عَلَيْنَا.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ قَالَ: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ﴾[5] بَعْدَ مَا وَصَفَهُمْ بِالْإِبْلَاسِ؟

قُلْتُ: تِلْكَ أَزْمِنَةٌ مُتَطَاوِلَةٌ وَأَحْقَابٌ مُمْتَدَّةٌ، فَتَخْتَلِفُ بِهِمُ الْأَحْوَالُ فيسْكُتُونَ أَوْقَاتًا لِغَلَبَةِ الْيَأْسِ عَلَيْهِمْ، وَعِلْمِهِمْ أَنَّهُ لَا فَرَجَ لَهُمْ، وَيَعُوثُونَ أَوْقَاتًا لِشِدَّةِ مَا بِهِمْ.

﴿مَاكِثُونَ﴾[6]: لَابِثُونَ، وَفيهِ اسْتِهْزَاءٌ. وَالْمُرَادُ: خَالِدُونَ.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا–: إِنَّمَا يُجِيبُهُمْ بَعْدَ أَلْفِ سَنَةٍ. وَعَنِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "يَلْقَى عَلَى أَهْلِ النَّارِ الْجُوعَ حَتَّى يَعْدِلَ مَا هُمْ فيهِ مِنَ الْعَذَابِ، فيقُولُونَ: ادْعُوَا مَالِكًا، فيدْعُونَ يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ".

---

[1] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

[2] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

[3] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

[4] سورة الْقَصَصُ، الآية 15.

[5] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

[6] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

﴿لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ﴾[1] كَلَامُ اللَّهِ –عَزَّ وَجَلَّ–: بِدَلِيلِ قِرَاءَةِ مَنْ قَرَأَ: (لَقَدْ جِئْتُكُمْ) وَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ فِي قَالَ ضَمِيرُ اللَّهِ –عَزَّ وَجَلَّ–. لَمَّا سَأَلُوا مَالِكًا أَنْ يَسْأَلَ اللَّهَ تَعَالَى الْقَضَاءَ عَلَيْهِمْ: أَجَابَهُمُ اللَّهُ بِذَلِكَ.

﴿كَارِهُونَ﴾[2] لَا تَقْبَلُونَهُ وَتَنْفِرُونَ مِنْهُ وَتَشْمَئِزُّونَ مِنْهُ، لِأَنَّ مَعَ الْبَاطِلِ الدَّعَةَ، وَمَعَ الْحَقِّ التَّعَبَ.

﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾[3]

﴿أَمْ﴾[4] أَبْرَمَ مُشْرِكُو مَكَّةَ ﴿أَمْرًا﴾[5] مِنْ كَيْدِهِمْ وَمَكْرِهِمْ بِرَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: ﴿فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾[6] كَيْدَنَا كَمَا أَبْرَمُوا كَيْدَهُمْ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾[7]؟ وَكَانُوا يَتَنَادَوْنَ فيتَنَاجَوْنَ فِي أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا الْمُرَادُ بِالسِّرِّ وَالنَّجْوَى؟

قُلْتُ: السِّرُّ مَا حَدَّثَ بِهِ الرَّجُلُ نَفْسَهُ أَوْ غَيْرَهُ فِي مَكَانٍ خَالٍ. وَالنَّجْوَى: مَا تَكَلَّمُوا بِهِ فيمَا بَيْنَهُمْ.

﴿بَلَى﴾[8] نَسْمَعُهُمَا وَنَطَّلِعُ عَلَيْهِمَا.

﴿وَرُسُلُنَا﴾[9] يُرِيدُ الْحَفَظَةَ عِنْدَهُمْ ﴿يَكْتُبُونَ﴾[10] ذَلِكَ.

---

1 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

2 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

3 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

4 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

5 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

6 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

7 سورة الطُّورُ، الآية 42.

8 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

9 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

10 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

وَعَنْ يَحْيَى بْنِ مُعَاذٍ الرَّازِيِّ: مَنْ سَتَرَ مِنَ النَّاسِ ذُنُوبَهُ وَأَبْدَاهَا لِلَّذِي لَا يَخْفى عَلَيْهِ شَيْءٌ في السَّمَاوَاتِ فَقَدْ جَعَلَهُ أَهْوَنَ النَّاظِرِينَ إِلَيْهِ، وَهُوَ مِنْ عَلَامَاتِ النِّفَاقِ.

﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[1]

﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ﴾[2]: وَصَحَّ ذَلِكَ وَثَبَتَ بِبُرْهَانٍ صَحِيحٍ تُورِدُونَهُ وَحُجَّةٍ وَاضِحَةٍ تُدْلُونَ بِهَا.

﴿فَأَنَا أَوَّلُ﴾[3] مَنْ يَعْظُمُ ذَلِكَ الْوَلَدَ وَأَسْبَقُكُمْ إِلَى طَاعَتِهِ وَالِانْقِيَادِ لَهُ كَمَا يُعَظِّمُ الرَّجُلُ وَلَدَ الْمَلِكِ لِتَعْظِيمِ أَبِيهِ، وَهَذَا كَلَامٌ وَارِدٌ عَلَى سَبِيلِ الْفَرْضِ وَالتَّمْثِيلِ لِغَرَضٍ، وَهُوَ الْمُبَالَغَةُ في نَفى الْوَلَدِ وَالْإِطْنَابِ فيهِ، وَأَنْ لَا يَتْرُكَ النَّاطِقُ بِهِ شُبْهَةً إِلَّا مُضْمَحِلَّةً مَعَ التَّرْجَمَةِ عَنْ نَفْسِهِ بِثَبَاتِ الْقَدَمِ في بَابِ التَّوْحِيدِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ عَلَّقَ الْعِبَادَةَ بِكَيْنُونَةِ الْوَلَدِ، وَهِيَ مَحَالٌ في نَفْسِهَا، فَكَانَ الْمُعَلَّقُ بِهَا مُحَالًا مِثْلَهَا، فَهُوَ في صُورَةِ إِثْبَاتِ الْكَيْنُونَةِ وَالْعِبَادَةِ، وَفى مَعْنَى نَفيهِمَا عَلَى أَبْلَغِ الْوُجُوهِ وَأَقْوَاهَا.

وَنَظِيرُهُ أَنْ يَقُولَ الْعَدْلِيُّ لِلْمُجْبَرِ، إِنْ كَانَ اللَّهُ -تَعَالَى- خَالِقًا لِلْكُفْرِ في الْقُلُوبِ وَمُعَذِّبًا عَلَيْهِ عَذَابًا سَرْمَدًا، فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يَقُولُ: هُوَ شَيْطَانٌ وَلَيْسَ بِإِلَهٍ، فَمَعْنَى هَذَا الْكَلَامِ وَمَا وَضَعَ لَهُ أُسْلُوبُهُ وَنَظْمُهُ نَفى أَنْ يَكُونَ اللَّهُ تَعَالَى خَالِقًا لِلْكُفْرِ، وَتَنْزِيهُهُ عَنْ ذَلِكَ وَتَقْدِيسُهُ، وَلَكِنْ عَلَى طَرِيقِ الْمُبَالَغَةِ فيهِ مِنَ الْوَجْهِ الَّذِي ذَكَرْنَا، مَعَ الدَّلَالَةِ عَلَى سَمَاجَةِ الْمَذْهَبِ وَضَلَالَةِ الذَّاهِبِ إِلَيْهِ، وَالشَّهَادَةِ الْقَاطِعَةِ بِإِحَالَتِهِ وَالْإِفْصَاحِ عَنْ نَفْسِهِ بِالْبَرَاءَةِ مِنْهُ، وَغَايَةِ النِّفَارِ وَالِاشْمِئْزَازِ مِنِ ارْتِكَابِهِ.

وَنَحْوُ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ قَوْلُ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ- لِلْحَجَّاجِ حِينَ قَالَ لَهُ: أَمَا وَاللَّهِ لَأُبْدِلَنَّكَ بِالدُّنْيَا نَارًا تَلَظَّى، لَوْ عَرَفْتَ أَنَّ ذَلِكَ إِلَيْكَ مَا عَبَدْتُ إِلَهًا غَيْرَكَ.

وَقَدْ تَمَحَّلَ النَّاسُ بِمَا أَخْرَجُوهُ بِهِ مِنْ هَذَا الْأُسْلُوبِ الشَّرِيفِ الْمَلِيءِ بِالنُّكَتِ وَالْفَوَائِدِ الْمُسْتَقِلِّ بِإِثْبَاتِ التَّوْحِيدِ عَلَى أَبْلَغِ وُجُوهِهِ، فَقِيلَ: إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ في

---

[1] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

[2] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

[3] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

زَعْمِكُمْ، فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ الْمُوَحِّدِينَ لِلَّهِ، الْمُكَذِّبِينَ قَوْلَكُمْ بِإِضَافَةِ الْوَلَدِ إِلَيْهِ. وَقِيلَ: إِنْ كَانَ لَلرَّحْمَن وَلَدٌ في زَعْمِكُمْ فَأَنَا أَوَّلُ الْآنِفِينَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ مِنْ عَبْدٍ يُعْبُدُ: إِذَا اشْتَدَّ أَنَفُهُ فَهُوَ عَبْدٌ وَعَابِدٌ.

وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ: (الْعَبْدَيْنِ).

وَقِيلَ: هِيَ إِنِ النَّافِيةُ، أَيْ: مَا كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ، فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ قَالَ بِذَلِكَ وَعَبَدَ وَوَحَّدَ.

وَرُوِيَ: أَنَّ النَّضِرَ بْنَ عَبْدِ الدَّارِ بْنِ قُصَيٍّ قَالَ: إِنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللَّهِ فَنَزَلَتْ، فَقَالَ النَّضِرُ: أَلَا تَرَوْنَ أَنَّهُ قَدْ صَدَقَنِي. فَقَالَ لَهُ الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةَ: مَا صَدَقَكَ وَلَكِنْ قَالَ: مَا كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْمُوَحِّدِينَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ :أَنْ لَا وَلَدَ لَهُ.

وَقُرِئَ: (وُلْدٌ) بِضَمِّ الْوَاوِ. ثُمَّ نَزَّهَ ذَاتَهُ مَوْصُوفَةً بِرُبُوبِيَّتِهِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْعَرْشِ عَنِ اتِّخَاذِ الْوَلَدِ، لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّهُ مِنْ صِفَةِ الْأَجْسَامِ. وَلَوْ كَانَ جِسْمًا لَمْ يَقْدِرْ عَلَى خَلْقِ هَذَا الْعَالَمِ وَتَدْبِيرِ أَمْرِهِ.

﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾[1]

﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا﴾[2] في بَاطِلِهِمْ، "وَيَلْعَبُواْ" في دُنْيَاهُمْ، ﴿حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ﴾[3].

وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ مَا يَقُولُونَهُ مِنْ بَابِ الْجَهْلِ وَالْخَوْضِ وَاللَّعِبِ، وَإِعْلَامٍ لِرَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أَنَّهُمْ مِنَ الْمَطْبُوعِ عَلَى قُلُوبِهِمُ الَّذِينَ لَا يَرْجِعُونَ الْبَتَّةَ، وَإِنْ زُكِّبَ في دَعْوَتِهِمْ كُلُّ صَعْبٍ وَذَلُولٍ، وَخُذْلَانٍ لَهُمْ وَتَخْلِيَةٍ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الشَّيْطَانِ، كَقَوْلِهِ –تَبَارَكَ وَتَعَالَى–: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾[4]، وَإِبْعَادٌ بِالشَّقَاءِ في الْعَاقِبَةِ.

---

1 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

2 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

3 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

4 سورة فُصِّلَتْ، الآية 40.

﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[1]

ضَمِنَ اسْمُهُ تَعَالَى مَعْنَى وَصْفٍ، فَلِذَلِكَ عَلَّقَ بِهِ الظَّرْفَ في قَوْلِهِ: ﴿فِي السَّمَاءِ وَفِي الْأَرْضِ﴾[2]، كَمَا تَقُولُ: هُوَ حَاتِمٌ في طَيِّ، حَاتِمٌ في تَغَلُّبٍ، عَلَى تَضْمِينِ مَعْنَى الْجَوَادِ الَّذِي شَهَّرَ بِهِ، كَأَنَّكَ قُلْتَ: هُوَ جَوَادٌ في طَيِّ جَوَادٍ في تَغَلُّبٍ.

وَقُرِئَ: (وَهُوَ الَّذِي في السَّمَاءِ اللَّهُ وَفى الْأَرْضِ اللَّهُ)، وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾[3]، كَأَنَّهُ ضَمِنَ مَعْنَى الْمَعْبُودِ أَوِ الْمَالِكِ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ وَالرَّاجِعُ إِلَى الْمَوْصُولِ مَحْذُوفٌ لِطُولِ الْكَلَامِ، كَقَوْلِهِمْ: مَا أَنَا بِالَّذِي قَائِلٌ لَكَ شَيْئًا، وَزَادَهُ طُولًا أَنَّ الْمَعْطُوفَ دَاخِلٌ في حِينِ الصِّلَةِ.

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ ﴿فِي السَّمَاءِ﴾[4] صِلَةُ الَّذِي وَإِلَهٌ خَبَرُ مُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ، عَلَى أَنَّ الْجُمْلَةَ بَيَانٌ لِلصِّلَةِ. وَأَنَّ كَوْنَهُ في السَّمَاءِ عَلَى سَبِيلِ الْإِلَهِيَّةِ وَالرُّبُوبِيَّةِ، لَا عَلَى مَعْنَى الِاسْتِقْرَارِ. وَفِيهِ نَفى الْآلِهَةِ الَّتِي كَانَتْ تُعْبَدُ في الْأَرْضِ.

﴿تَرْجِعُونَ﴾[5] قُرِئَ بِضَمِّ التَّاءِ وَفَتْحِهَا. وَ(يَرْجِعُونَ) بِيَاءٍ مَضْمُومَةٍ.

وَقُرِئَ: (تُحْشَرُونَ) بِالتَّاءِ.

﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾[6]

---

1 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

2 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

3 سورة الْأَنْعَامُ، الآية 33.

4 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

5 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

6 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

وَلَا يَمْلِكُ آلِهَتُهُمُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مَنْ دُونِ اللَّهِ الشَّفَاعَةَ، كَمَا زَعَمُوا أَنَّهُمْ شُفَعَاؤُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ، وَلَكِنَّ مَنْ ﴿شَهِدَ بِالْحَقِّ﴾[1]، وَهُوَ تَوْحِيدُ اللَّهِ، وَهُوَ يَعْلَمُ مَا يَشْهَدُ بِهِ عَنْ بَصِيرَةٍ وَإِيقَانٍ وَإِخْلَاصٍ: هُوَ الَّذِي يَمْلِكُ الشَّفَاعَةَ، وَهُوَ اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُتَّصِلًا، لِأَنَّ فِي جُمْلَةِ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ: الْمَلَائِكَةُ، وَقُرِئَ: (تَدْعُونَ) بِالتَّاءِ وَتَدَّعُونَ بِالتَّاءِ وَتَشْدِيدِ الدَّالِ.

﴿وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾[2]

﴿وَقِيلِهِ﴾[3] قُرِئَ بِالْحَرَكَاتِ الثَّلَاثِ، وَذُكِرَ فِي النَّصْبِ عَنِ الْأَخْفَشِ أَنَّهُ حَمَلَهُ عَلَى: أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَقِيلِهِ، وَعَنْهُ: وَقَالَ قِيلِهِ. وَعَطَفَ الزَّجَّاجُ عَلَى مَحَلِّ السَّاعَةِ، كَمَا تَقُولُ: عَجِبْتُ مِنْ ضَرْبِ زَيْدٍ وَعَمْرًا، وَحُمِلَ الْجَرُّ عَلَى لَفْظِ السَّاعَةِ، وَالرَّفْعُ عَلَى الِابْتِدَاءِ، وَالْخَبَرُ مَا بَعْدَهُ: وَجَوَّزَ عَطْفَهُ عَلَى عِلْمِ السَّاعَةِ عَلَى تَقْدِيرِ حَذْفِ الْمُضَافِ. مَعْنَاهُ: عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَعِلْمُ قِيلِهِ.

وَالَّذِي قَالُوهُ لَيْسَ بِقَوِيٍّ فِي الْمَعْنَى مَعَ وُقُوعِ الْفَصْلِ بَيْنَ الْمَعْطُوفِ وَالْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ بِمَا لَا يَحْسُنُ اعْتِرَاضًا، وَمَعَ تَنَافُرِ النَّظْمِ. وَأَقْوَى مِنْ ذَلِكَ وَأَوْجَهُ: أَنْ يَكُونَ الْجَرُّ وَالنَّصْبُ عَلَى إِضْمَارِ حَرْفِ الْقَسَمِ وَحَذْفِهِ، وَالرَّفْعُ عَلَى قَوْلِهِمْ: أَيْمَنُ اللَّهِ، وَأَمَانَةُ اللَّهِ، وَيَمِينُ اللَّهِ، وَلَعَمْرُكَ.

وَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[4] جَوَابَ الْقَسَمِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: وَأَقْسَمَ بِقِيلِهِ يَا رَبِّ، أَوْ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ قَسَمِي إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ.

﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ﴾[5]: فَأَعْرِضْ عَنْ دَعْوَتِهِمْ يَائِسًا عَنْ إِيمَانِهِمْ، وَوَدِّعْهُمْ وَتَارِكْهُمْ.

---

1 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

2 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

3 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

4 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

5 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

﴿وَقُلْ﴾[1] لَهُمْ ﴿سَلَامٌ﴾[2]، أَيْ تَسَلُّمٌ مِنْكُمْ وَمُتَارَكَةٌ.

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾[3] وَعِيدٌ مِنَ اللَّهِ لَهُمْ وَتَسْلِيَةٌ لِرَسُولِهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–.

وَالضَّمِيرُ في ﴿وَقِيلِهِ﴾[4] لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَإِقْسَامُ اللَّهِ بِقِيلِهِ رَفْعٌ مِنْهُ وَتَعْظِيمٌ لِدُعَائِهِ وَالْتِجَائِهِ إِلَيْهِ .

عَنِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الزُّخْرُفِ كَانَ مِمَّنْ يُقَالُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَا عِبَادِي لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ، ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ".

---

[1] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

[2] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

[3] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

[4] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

سُورَةُ الدُّخَانِ

سورة الدخان

مَكِّيَّةٌ، إِلَّا قَوْلَهُ: ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلا﴾[1] الْآيَةُ
وَهِيَ سَبْعٌ وَخَمْسُونَ آيَةً، وَقِيلَ تِسْعٌ وَخَمْسُونَ
[نَزَلَتْ بَعْدَ سُورَةِ الزُّخْرُفِ]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حم وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾[2]

الْوَاوُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَالْكِتَابِ﴾[3] وَاوُ الْقَسَمِ، إِنْ جُعِلَتْ حم تَعْدِيدًا لِلْحُرُوفِ أَوِ اسْمًا لِلسُّورَةِ، مَرْفُوعًا عَلَى خَبَرِ الِابْتِدَاءِ الْمَحْذُوفِ، وَوَاوُ الْعَطْفِ إِنْ كَانَتْ حم مُقْسَمًا بِهَا.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾[4] جَوَابُ الْقَسَمِ، وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ لِلْقُرْآنِ. وَاللَّيْلَةُ الْمُبَارَكَةُ: لَيْلَةُ الْقَدْرِ.

وَقِيلَ: لَيْلَةُ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ، وَلَهَا أَرْبَعَةُ أَسْمَاءٍ: اللَّيْلَةُ الْمُبَارَكَةُ، وَلَيْلَةُ الْبَرَاءَةِ، وَلَيْلَةُ الصَّكِّ، وَلَيْلَةُ الرَّحْمَةِ، وَقِيلَ: بَيْنَهَا وَبَيْنَ لَيْلَةِ الْقَدْرِ أَرْبَعُونَ لَيْلَةً.

---

[1] سورة الدُّخَانِ، الآية .
[2] سورة الدُّخَانِ، الآية .
[3] سورة الدُّخَانِ، الآية .
[4] سورة الدُّخَانِ، الآية .

وَقِيلَ فِي تَسْمِيَتِهَا: لَيْلَةَ الْبَرَاءَةِ وَالصَّكِّ: أَنَّ الْبُنْدَارَ إِذَا اسْتَوْفى الْخَرَاجَ مِنْ أَهْلِهِ كَتَبَ لَهُمُ الْبَرَاءَةَ، كَذَلِكَ اللَّهُ –عَزَّ وَجَلَّ– يَكْتُبُ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الْبَرَاءَةَ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ.

وَقِيلَ: هِيَ مُخْتَصَّةٌ بِخَمْسِ خِصَالٍ: تَفْرِيقُ كُلِّ أَمْرٍ حَكِيمٍ وَفَضِيلَةِ الْعِبَادَةِ فيها، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "مَنْ صَلَّى فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ مِائَةَ رَكْعَةٍ أَرْسَلَ اللَّهُ إِلَيْهِ مِائَةَ مَلَكٍ: ثَلَاثُونَ يُبَشِّرُونَهُ بِالْجَنَّةِ، وَثَلَاثُونَ يُؤَمِّنُونَهُ مِنْ عَذَابِ النَّارِ، وَثَلَاثُونَ يَدْفَعُونَ عَنْهُ آفَاتِ الدُّنْيَا، وَعَشْرَةٌ يَدْفَعُونَ عَنْهُ مَكَايِدَ الشَّيْطَانِ".

وَنُزُولُ الرَّحْمَةِ قَالَ –عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ–: "إِنَّ اللَّهَ يَرْحَمُ أُمَّتِي فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ بِعَدَدِ شَعْرِ أَغْنَامِ بَنِي كَلْبٍ "وَحُصُولُ الْمَغْفِرَةِ: قَالَ –عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ–: "إِنَّ اللَّهَ –تَعَالَى– يَغْفِرُ لِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ إِلَّا لِكَاهِنٍ أَوْ سَاحِرٍ أَوْ مُشَاحِنٍ أَوْ مُدْمِنِ خَمْرًا أَوْ عَاقٍّ لِلْوَالِدَيْنِ، أَوْ مُصِرٍّ عَلَى الزِّنَا "وَمَا أَعْطَى فيها رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– مِنْ تَمَامِ الشَّفَاعَةِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ سَأَلَ لَيْلَةَ الثَّالِثَ عَشَرَ مِنْ شَعْبَانَ فِي أُمَّتِهِ. فَأَعْطَى الثُّلُثَ مِنْهَا، ثُمَّ سَأَلَ لَيْلَةَ الرَّابِعَ عَشَرَ فَأُعْطِي الثُّلُثَيْنِ، ثُمَّ سَأَلَ لَيْلَةَ الْخَامِسَ عَشَرَ فَأُعْطِي الْجَمِيعَ، إِلَّا مَنْ شَرَدَ عَنِ اللَّهِ شِرَادَ الْبَعِيرِ.

وَمِنْ عَادَةِ اللَّهِ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ: أَنْ يَزِيدَ فيها مَاءُ زَمْزَمَ زِيَادَةً ظَاهِرَةً.

وَالْقَوْلُ الْأَكْثَرُ أَنَّ الْمُرَادَ بِاللَّيْلَةِ الْمُبَارَكَةِ: لَيْلَةُ الْقَدْرِ، لِقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[1]، وَلِمُطَابَقَةِ قَوْلِهِ: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾[2] لِقَوْلِهِ: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾[3]، وَقَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾[4]، وَلَيْلَةُ الْقَدْرِ فِي أَكْثَرِ الْأَقَاوِيلِ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى إِنْزَالِ الْقُرْآنِ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ؟

قُلْتُ: قَالُوا أَنْزَلَ جُمْلَةً وَاحِدَةً مِنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، وَأَمَرَ السَّفْرَةَ الْكِرَامَ بِانْتِسَاخِهِ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ، وَكَانَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُنْزِلُهُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– نُجُومًا نُجُومًا.

---

[1] سورة الْقَدْرُ، الآية 1.

[2]

[3] سورة الْقَدْرُ، الآية 44.

[4] سورة الْبَقَرَةُ، الآية 185.

فَإِنْ قُلْتَ: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ فيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾[1] مَا مَوْقِعُ هَاتَيْنِ الْجُمْلَتَيْنِ؟

قُلْتُ: هُمَا جُمْلَتَانِ مُسْتَأْنَفَتَانِ مَلْفُوفَتَانِ. فُسِّرَ بِهِمَا جَوَابُ الْقَسَمِ الَّذِي هُوَ قَوْلُهُ -تَعَالَى-: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾[2]، كَأَنَّهُ قِيلَ: أَنْزَلْنَا، لِأَنَّ مِنْ شَأْنِنَا الْإِنْذَارَ وَالتَّحْذِيرَ مِنَ الْعِقَابِ، وَكَانَ إِنْزَالُنَا أَيْ: أَنَّهُ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ خُصُوصًا، لِأَنَّ إِنْزَالَ الْقُرْآنِ مِنَ الْأُمُورِ الْحَكِيمَةِ، وَهَذِهِ اللَّيْلَةُ مَفْرِقُ كُلِّ أَمْرٍ حَكِيمٍ.

وَالْمُبَارَكَةُ: الْكَثِيرُ الْخَيْرِ لِمَا يُتِيحُ اللَّهُ فيها مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي يَتَعَلَّقُ بِهَا مَنَافِعُ الْعِبَادِ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ، وَلَوْ لَمْ يُوجَدْ فيها إِلَّا إِنْزَالُ الْقُرْآنِ وَحْدَهُ لَكَفى بِهِ بِرْكَةً.

وَمَعْنَى ﴿يُفْرَقُ﴾[3] يُفَصَّلُ وَيَكْتُبُ كُلَّ أَمْرٍ حَكِيمٍ مِنْ أَرْزَاقِ الْعِبَادِ وَآجَالِهِمْ، وَجَمِيعِ أُمُورِهِمْ مِنْهَا إِلَى الْأُخْرَى الْقَابِلَةِ.

وَقِيلَ: يَبْدَأُ فِي اسْتِنْسَاخِ ذَلِكَ مِنَ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ فِي لَيْلَةِ الْبَرَاءَةِ، وَيَقَعُ الْفَرَاغُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ، فَتُدْفَعُ نُسْخَةُ الْأَرْزَاقِ إِلَى مِيكَائِيلَ، وَنُسْخَةُ الْحُرُوبِ إِلَى جِبْرِيلَ، وَكَذَلِكَ الزَّلَازِلُ وَالصَّوَاعِقُ وَالْخَسْفُ، وَنُسْخَةُ الْأَعْمَالِ إِلَى إِسْمَاعِيلَ صَاحِبِ سَمَاءِ الدُّنْيَا، وَهُوَ مَلِكٌ عَظِيمٌ، وَنُسْخَةُ الْمَصَائِبِ إِلَى مَلَكِ الْمَوْتِ .وَعَنْ بَعْضِهِمْ: يُعْطَى كُلُّ عَامِلٍ بَرَكَاتِ أَعْمَالِهِ، فيلْقَى عَلَى أَلْسِنَةِ الْخَلْقِ مَدْحُهُ، وَعَلَى قُلُوبِهِمْ هَيْبَتُهُ. وَقُرِئَ: (يُفَرَّقُ) بِالتَّشْدِيدِ.

وَ﴿يُفْرَقُ﴾[4] كُلٌّ عَلَى بِنَائِهِ لِلْفَاعِلِ وَنُصِبَ كُلَّ، وَالْفَارِقُ: اللَّهُ -عَزَّ وَجَلَّ-، وَقَرَأَ زَيْدُ بْنُ عَلِيٍّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- (نُفَرِّقُ) بِالنُّونِ، كُلَّ أَمْرٍ حَكِيمٍ: كُلُّ شَأْنٍ ذِي حِكْمَةٍ، أَيْ: مَفْعُولٌ عَلَى مَا تَقْتَضِيهِ الْحِكْمَةُ، وَهُوَ مِنَ الْإِسْنَادِ الْمَجَازِيِّ، لِأَنَّ الْحَكِيمَ صِفَةُ صَاحِبِ الْأَمْرِ عَلَى الْحَقِيقَةِ، وَوَصْفُ الْأَمْرِ بِهِ مَجَازٌ ﴿أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا﴾[5] نُصِبَ عَلَى الِاخْتِصَاصِ. جُعِلَ كُلُّ أَمْرٍ جَزْلًا فَخْمًا بِأَنَّ وَصْفَهُ بِالْحَكِيمِ، ثُمَّ زَادَهُ جَزَالَةً وَكَسَبَهُ فَخَامَةً بِأَنْ قَالَ: أَعْنِي بِهَذَا الْأَمْرِ أَمْرًا حَاصِلًا مِنْ عِنْدِنَا، كَائِنًا مِنْ لَدُنَّا، وَكَمَا اقْتَضَاهُ عِلْمُنَا وَتَدْبِيرُنَا.

وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ بِهِ الْأَمْرُ الَّذِي هُوَ ضِدُّ النَّهْيِ، ثُمَّ إِمَّا أَنْ يُوضَعَ مَوْضِعَ فُرْقَانًا الَّذِي هُوَ مَصْدَرٌ يُفَرَّقُ، لِأَنَّ مَعْنَى الْأَمْرِ وَالْفُرْقَانِ وَاحِدٌ، مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ إِذَا حَكَمَ بِالشَّيْءِ وَكَتَبَهُ فَقَدْ

---

[1] سورة الدُّخَانِ، الآية .

[2] سورة الدُّخَانُ، الآية 33.

[3] سورة الدُّخَانِ، الآية .

[4] سورة الدُّخَانِ، الآية .

[5] سورة الدُّخَانِ، الآية .

أَمَرَ بِهِ وَأَوْجَبَهُ، أَوْ يَكُونُ حَالًا مِنْ أَحَدِ الضَّمِيرَيْنِ فِي أَنْزَلْنَاهُ: إِمَّا مِنْ ضَمِيرِ الْفَاعِلِ، أَيْ: أَنْزَلْنَاهُ آمِرِينَ أَمْرًا. أَوْ مِنْ ضَمِيرِ الْمَفْعُولِ أَيْ: أَنْزَلْنَاهُ فِي حَالِ كَوْنِهِ أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا بِمَا يَجِبُ أَنْ يَفْعَلَ.

فَإِنْ قُلْتَ: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾[1] بِمَ يَتَعَلَّقُ؟

قُلْتُ: يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ بَدَلًا مِنْ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾[2] وَ﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾[3] مَفْعُولًا لَهُ، عَلَى مَعْنَى: إِنَّا أَنْزَلْنَا الْقُرْآنَ، لِأَنَّ مِنْ شَأْنِنَا إِرْسَالَ الرُّسُلِ بِالْكُتُبِ إِلَى عِبَادِنَا لِأَجْلِ الرَّحْمَةِ عَلَيْهِمْ، وَأَنْ يَكُونَ تَعْلِيلًا لِيُفَرَّقَ، أَوْ لِقَوْلِهِ: ﴿أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا﴾[4]، وَرَحْمَةً: مَفْعُولًا بِهِ، وَقَدْ وَصَفَ الرَّحْمَةَ بِالْإِرْسَالِ كَمَا وَصَفَهَا بِهِ فِي قَوْلِهِ –تَعَالَى– : ﴿وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾[5]، أَيْ يَفْصِلُ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ كُلَّ أَمْرٍ، أَوْ تَصْدُرُ الْأَوَامِرُ مِنْ عِنْدِنَا، لِأَنَّ مِنْ عَادَتِنَا أَنْ نُرْسِلَ رَحْمَتَنَا.

وَفَصْلُ كُلِّ أَمْرٍ مِنْ قِسْمَةِ الْأَرْزَاقِ وَغَيْرِهَا مِنْ بَابِ الرَّحْمَةِ، وَكَذَلِكَ الْأَوَامِرُ الصَّادِرَةُ مِنْ جِهَتِهِ عَزَّ وَعُلَا، لِأَنَّ الْغَرَضَ فِي تَكْلِيفِ الْعِبَادِ تَعْرِيضُهُمْ لِلْمَنَافِعِ.

وَالْأَصْلُ: إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِيهِمْ رَحْمَةً مِنَّا، فَوُضِعَ الظَّاهِرُ مَوْضِعَ الضَّمِيرِ إِيذَانًا بِأَنَّ الرُّبُوبِيَّةَ تَقْتَضِي الرَّحْمَةَ عَلَى الْمَرْبُوبِينَ، وَفِي قِرَاءَةِ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ: (أَمْرٌ مِنْ عِنْدِنَا) عَلَى: هُوَ أَمْرٌ وَهِيَ تَنْصُرُ انْتِصَابَهُ عَلَى الِاخْتِصَاصِ.

وَقَرَأَ الْحَسَنُ: (رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّكَ)، عَلَى: تِلْكَ رَحْمَةٌ، وَهِيَ تَنْصُرُ انْتِصَابَهَا بِأَنَّهَا مَفْعُولٌ لَهُ.

﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[6] وَمَا بَعْدَهُ تَحْقِيقٌ لِرُبُوبِيَّتِهِ، وَأَنَّهَا لَا تَحِقُّ إِلَّا لِمَنْ هَذِهِ أَوْصَافُهُ. وَقُرِئَ: (رَبُّ السَّمَاوَاتِ. .. رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمْ) بِالْجَرِّ بَدَلًا مِنْ رَبِّكَ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى الشَّرْطِ الَّذِي هُوَ قَوْلُهُ: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾[7]؟

---

[1] سورة الدُّخَانِ، الآية .

[2] سورة الدُّخَانِ، الآية .

[3] سورة الدُّخَانِ، الآية .

[4] سورة الدُّخَانِ، الآية .

[5] سورة فَاطِرُ، الآية 22.

[6] سورة الدُّخَانِ، الآية .

[7] سورة الدُّخَانِ، الآية .

قُلْتُ: كَانُوا يُقِرُّونَ بِأَنَّ لِلسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبًّا وَخَالِقًا، فَقِيلَ لَهُمْ: إِنَّ إِرْسَالَ الرُّسُلِ وَإِنْزَالَ الْكُتُبِ رَحْمَةٌ مِنَ الرَّبِّ، ثُمَّ قِيلَ: إِنَّ هَذَا الرَّبَّ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ الَّذِي أَنْتُمْ مُقِرُّونَ بِهِ وَمُعْتَرِفُونَ بِأَنَّهُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كَانَ إِقْرَارُكُمْ عَنْ عِلْمٍ وَإِيقَانٍ، كَمَا تَقُولُ: إِنَّ هَذَا إِنْعَامُ زَيْدٍ الَّذِي تَسَامَعَ النَّاسُ بِكَرَمِهِ وَاشْتُهِرَ إِسْخَاؤُهُ، إِنْ بَلَغَكَ حَدِيثُهُ وَحُدِّثْتَ بِقِصَّتِهِ.

﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾[1]

ثُمَّ رَدَّ أَنْ يَكُونُوا مُوقِنِينَ بِقَوْلِهِ: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾[2]، وَأَنَّ إِقْرَارَهُمْ غَيْرُ صَادِرٍ عَنْ عِلْمٍ وَتَيَقُّنٍ، وَلَا عَنْ جِدٍّ وَحَقِيقَةٍ: بَلْ قَوْلُ مَخْلُوطٍ بِهُزْءٍ وَلَعِبٍ.

﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ﴾[3] مَفْعُولٌ بِهِ مُرْتَقَبٌ. يُقَالُ: رَقَبْتُهُ وَارْتَقَبْتُهُ. نَحْوُ: نَظَرْتُهُ وَانْتَظَرْتُهُ. وَاخْتُلِفَ فِي الدُّخَانِ، فَعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، وَبِهِ أَخَذَ الْحَسَنُ: أَنَّهُ دُخَانٌ يَأْتِي مِنَ السَّمَاءِ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ يَدْخُلُ فِي أَسْمَاعِ الْكَفَرَةِ، حَتَّى يَكُونَ رَأْسُ الْوَاحِدِ مِنْهُمْ كَالرَّأْسِ الْحَنِيذِ، وَيَعْتَرِي الْمُؤْمِنَ مِنْهُ كَهَيْئَةِ الزُّكَامِ، وَتَكُونُ الْأَرْضُ كُلُّهَا كَبَيْتٍ أُوقِدَ فِيهِ لَيْسَ فِيهِ خَصَاصٌ،

وَعَنْ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: أَوَّلُ الْآيَاتِ: الدُّخَانُ، وَالدَّجَّالُ، وَنُزُولُ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، وَنَارٌ تَخْرُجُ مِنْ قَعْرِ عَدَنٍ أَبْيَنَ تَسُوقُ النَّاسَ إِلَى الْمَحْشَرِ" قَالَ حُذَيْفَةُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الدُّخَانُ؟ فَتَلَا رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الْآيَةَ، وَقَالَ: "يَمْلَأُ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ يَمْكُثُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا وَلَيْلَةً، أَمَّا الْمُؤْمِنُ فيصِيبُهُ كَهَيْئَةِ الزُّكْمَةِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَهُوَ كَالسَّكْرَانِ يَخْرُجُ مِنْ مِنْخَرَيْهِ وَأُذُنَيْهِ وَدُبُرِهِ".

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: خَمْسٌ قَدْ مَضَتِ :الرُّومُ، وَالدُّخَانُ، وَالْقَمَرُ، وَالْبَطْشَةُ، وَاللِّزَامُ.

---

[1] سورة الدُّخَانِ، الآية .

[2] سورة الدُّخَانِ، الآية .

[3] سورة الدُّخَانِ، الآية .

وَيُرْوَى أَنَّهُ قِيلَ لِابْنِ مَسْعُودٍ: إِنَّ قَاصًّا عِنْدَ أَبْوَابِ كِنْدَةَ يَقُولُ: إِنَّهُ دُخَانٌ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ فيأْخُذُ بِأَنْفَاسِ الْخَلْقِ، فَقَالَ: مَنْ عَلِمَ عِلْمًا فَلْيَقُلْ بِهِ، وَمَنْ لَمْ يَعْلَمْ فَلْيَقُلِ: اللَّهُ أَعْلَمُ، فَإِنَّ مِنْ عِلْمِ الرَّجُلِ أَنْ يَقُولَ لِشَيْءٍ لَا يَعْلَمُهُ: اللَّهُ أَعْلَمُ، ثُمَّ قَالَ: أَلَا وَسَأُحَدِّثُكُمْ أَنَّ قُرَيْشًا لَمَّا اسْتَعْصَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– دَعَا عَلَيْهِمْ فَقَالَ: "اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرٍ، وَاجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ "فَأَصَابَهُمُ الْجَهْدُ حَتَّى أَكَلُوا الْجِيَفَ وَالْعِلْهَزَ، وَكَانَ الرَّجُلُ يَرَى بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ الدُّخَانَ، وَكَانَ يُحَدِّثُ الرَّجُلَ فيسْمَعُ كَلَامَهُ وَلَا يَرَاهُ مِنَ الدُّخَانِ، فَمَشَى إِلَيْهِ أَبُو سُفيانَ وَنَفَرَ مَعَهُ وَنَاشَدُوهُ اللَّهَ وَالرَّحِمَ وَوَاعَدُوهُ إِنْ دَعَا لَهُمْ وَكَشَفَ عَنْهُمْ أَنْ يُؤْمِنُوا، فَلَمَّا كَشَفَ عَنْهُمْ رَجَعُوا إِلَى شِرْكِهِمْ.

﴿بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾[1] ظَاهِرُ حَالِهِ لَا يَشُكُّ أَحَدٌ في أَنَّهُ دُخَانٌ ﴿يَغْشَى النَّاسَ﴾[2] يَشْمَلُهُمْ وَيُلْبِسُهُمْ، وَهُوَ في مَحَلِّ الْجَرِّ صِفَةٌ لِدُخَانٍ.

وَ﴿هَذَا عَذَابٌ﴾[3] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿مُؤْمِنُونَ﴾[4] مَنْصُوبُ الْمَحَلِّ بِفِعْلٍ مُضْمَرٍ، وَهُوَ: يَقُولُونَ، وَيَقُولُونَ: مَنْصُوبٌ عَلَى الْحَالِ، أَيْ: قَائِلِينَ ذَلِكَ.

﴿إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾[5]: مَوْعِدَةً بِالْإِيمَانِ إِنْ كَشَفَ عَنْهُمُ الْعَذَابَ.

﴿أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ﴾[6]

﴿أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى﴾[7]: كَيْفَ يُذَكَّرُونَ وَيَتَّعِظُونَ وَيَفُونَ بِمَا وَعَدُوهُ مِنَ الْإِيمَانِ عِنْدَ كَشْفِ الْعَذَابِ.

---

1 سورة الدُّخَانِ، الآية .
2 سورة الدُّخَانِ، الآية .
3 سورة الدُّخَانِ، الآية .
4 سورة الدُّخَانِ، الآية .
5 سورة الدُّخَانِ، الآية .
6 سورة الدُّخَانِ، الآية .
7 سورة الدُّخَانِ، الآية .

﴿وَقَدْ جَاءَهُمْ﴾[1] مَا هُوَ أَعْظَمُ وَأَدْخَلُ فِي وُجُوبِ الِادِّكَارِ مِنْ كَشْفِ الدُّخَانِ، وَهُوَ مَا ظَهَرَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ مِنَ الْكِتَابِ الْمُعْجِزِ وَغَيْرِهِ مِنَ الْمُعْجِزَاتِ، فَلَكَمْ يُذَكَّرُوا وَتَوَلَّوْا عَنْهُ، وَبَهَتُوهُ بِأَنْ عَدَّاسًا غُلَامًا أَعْجَمِيًّا لِبَعْضِ ثَقِيفٍ هُوَ الَّذِي عَلِمَهُ، وَنَسَبُوهُ إِلَى الْجُنُونِ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾[2]، أَيْ رَيْثَمَا نَكْشِفُ عَنْكُمُ الْعَذَابَ تَعُودُونَ إِلَى شِرْكِكُمْ لَا تَلْبَثُونَ غَبَّ الْكَشْفِ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ التَّضَرُّعِ وَالِابْتِهَالِ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ يَسْتَقِيمُ عَلَى قَوْلِ مَنْ جَعَلَ الدُّخَانَ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلا﴾[3].

قُلْتُ: إِذَا أَتَتِ السَّمَاءُ بِالدُّخَانِ تَصَوَّرَ الْمُعَذَّبِينَ بِهِ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ. وَغَوَّثُوا وَقَالُوا: ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾[4] مُنِيبُونَ، فَيَكْشِفُهُ اللَّهُ عَنْهُمْ بَعْدَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، فَرَيْثَمَا يَكْشِفُهُ عَنْهُمْ يَرْتَدُّونَ لَا يَتَمَهَّلُونَ، ثُمَّ قَالَ: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى﴾[5] يُرِيدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى﴾[6].

﴿إِنَّا مُنْتَقِمُونَ﴾[7]، أَيْ نَنْتَقِمُ مِنْهُمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ.

فَإِنْ قُلْتَ: بِمَ انْتَصَبَ يَوْمَ نَبْطِشُ؟

قُلْتُ: بِمَا دَلَّ عَلَيْهِ ﴿إِنَّا مُنْتَقِمُونَ﴾[8]، وَهُوَ نَنْتَقِمُ. وَلَا يَصِحُّ أَنْ يَنْتَصِبَ بِمُنْتَقِمُونَ، لِأَنَّ "إِنَّ" تَحْجُبُ عَنْ ذَلِكَ. وَقُرِئَ: (نَبْطُشُ) بِضَمِّ الطَّاءِ. وَقَرَأَ الْحَسَنُ: (نُبْطِشُ) بِضَمِّ النُّونِ، كَأَنَّهُ يَحْمِلُ الْمَلَائِكَةَ عَلَى أَنْ يَبْطِشُوا بِهِمُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى، أَوْ يَجْعَلَ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى بَاطِشَةً بِهِمْ.

---

1 سورة الدُّخَانِ، الآية .

2 سورة الدُّخَانِ، الآية .

3 سورة الدُّخَانِ، الآية .

4 سورة الدُّخَانِ، الآية .

5 سورة الدُّخَانِ، الآية .

6 سورة النَّازِعَاتُ، الآية 34.

7 سورة الدُّخَانِ، الآية .

8 سورة الدُّخَانِ، الآية .

وَقِيلَ: ﴿الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى﴾[1]: يَوْمَ بَدْرٍ.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ وَأَنْ لا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴾[2]

وَقُرِئَ: (وَلَقَدْ فَتَنَّا) بِالتَّشْدِيدِ لِلتَّأْكِيدِ، أَوْ لِوُقُوعِهِ عَلَى الْقَوْمِ. وَمَعْنَى الْفِتْنَةِ: أَنَّهُ أَمْهَلَهُمْ وَوَسَّعَ عَلَيْهِمْ فِي الرِّزْقِ، فَكَانَ ذَلِكَ سَبَبًا فِي ارْتِكَابِهِمُ الْمَعَاصِيَ وَاقْتِرَافِهِمُ الْآثَامَ، أَوِ ابْتَلَاهُمْ بِإِرْسَالِ مُوسَى إِلَيْهِمْ لِيُؤْمِنُوا، فَاخْتَارُوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ، أَوْ سَلَبَهُمْ مُلْكَهُمْ وَأَغْرَقَهُمْ.

﴿كَرِيمٌ﴾[3] عَلَى اللَّهِ وَعَلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، أَوْ كَرِيمٌ فِي نَفْسِهِ، لِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَبْعَثْ نَبِيًّا إِلَّا مِنْ سَرَاةِ قَوْمِهِ وَكِرَامِهِمْ.

﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ﴾[4] هِيَ أَنِ الْمُفَسِّرَةُ، لِأَنَّ مَجِيءَ الرَّسُولِ مَنْ بَعَثَ إِلَيْهِمْ مُتَضَمِّنٌ لِمَعْنَى الْقَوْلِ، لِأَنَّهُ لَا يَجِيئُهُمْ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ، أَوِ الْمُخَفَّفَةُ مِنَ الثَّقِيلَةِ، وَمَعْنَاهُ: وَجَاءَهُمْ بِأَنَّ الشَّأْنَ وَالْحَدِيثَ أَدُّوا إِلَيَّ.

وَ﴿عِبَادَ اللَّهِ﴾[5] مَفْعُولٌ بِهِ، وَهُمْ بَنُو إِسْرَائِيلَ، يَقُولُ: أَدُّوهُمْ إِلَيَّ وَأَرْسِلُوهُمْ مَعِي، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ﴾[6]، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ نِدَاءً لَهُمْ عَلَى: أَدُّوا إِلَيَّ يَا عِبَادَ اللَّهِ مَا هُوَ وَاجِبٌ لِي عَلَيْكُمْ مِنَ الْإِيمَانِ لِي وَقَبُولِ دَعْوَتِي وَاتِّبَاعِ سَبِيلِي، وَعَلَّلَ ذَلِكَ بِأَنَّهُ ﴿رَسُولٌ أَمِينٌ﴾[7] غَيْرُ ظَنِينٍ قَدِ ائْتَمَنَهُ اللَّهُ عَلَى وَحْيِهِ وَرِسَالَتِهِ.

---

1 سورة الدُّخَانِ، الآية .
2 سورة الدُّخَانِ، الآية .
3 سورة الدُّخَانِ، الآية .
4 سورة الدُّخَانِ، الآية .
5 سورة الدُّخَانِ، الآية .
6 سورة طه، الآية 47.
7 سورة الدُّخَانِ، الآية .

﴿وَأَنْ لا تَعْلُوا﴾[1] أَنَّ هَذِهِ مِثْلُ الْأُولَى فِي وَجْهَيْهَا، أَيْ: لَا تَسْتَكْبِرُوا ﴿عَلَى اللَّهِ﴾[2] بِالِاسْتِهَانَةِ بِرَسُولِهِ وَوَحْيِهِ، أَوْ لَا تَسْتَكْبِرُوا عَلَى نَبِيِّ اللَّهِ.

﴿بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾[3] بِحُجَّةٍ وَاضِحَةٍ.

﴿أَنْ تَرْجُمُونِ﴾[4]: أَنْ تَقْتُلُونِ.

وَقُرِئَ: (عَتَّ) بِالْإِدْغَامِ. وَمَعْنَاهُ أَنَّهُ عَائِذٌ بِرَبِّهِ مُتَّكِلٌ عَلَى أَنَّهُ يَعْصِمُهُ مِنْهُمْ وَمِنْ كَيْدِهِمْ، فَهُوَ غَيْرُ مُبَالٍ بِمَا كَانُوا يَتَوَعَّدُونَهُ بِهِ مِنَ الرَّجْمِ وَالْقَتْلِ.

"فَاعْتَزِلُونِ" يُرِيدُ: إِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَلَا مُوَالَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ مَنْ لَا يُؤْمِنُ، فَتَنَحَّوْا عَنِّي وَاقْطَعُوا أَسْبَابَ الْوَصْلَةِ عَنِّي، أَيْ: فَخَلُّونِي كَفَافًا لَا لِيَ وَلَا عَلَيَّ، وَلَا تَتَعَرَّضُوا لِي بِشَرٍّ كُمْ وَأَذَاكُمْ، فَلَيْسَ جَزَاءُ مَنْ دَعَاكُمْ إِلَى مَا فِيهِ فَلَا حُكْمَ ذَلِكَ .

﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ﴾[5]

"إِنَّ هَؤُلَاءِ" بِأَنَّ هَؤُلَاءِ، أَيْ: دَعَا رَبَّهُ بِذَلِكَ.

قِيلَ: كَانَ دُعَاؤُهُ: اللَّهُمَّ عَجِّلْ لَهُمْ مَا يَسْتَحِقُّونَهُ بِإِجْرَامِهِمْ.

وَقِيلَ هُوَ قَوْلُهُ: ﴿رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[6].

وَإِنَّمَا ذَكَرَ اللَّهُ –تَعَالَى– السَّبَبَ الَّذِي اسْتَوْجَبُوا بِهِ الْهَلَاكَ، وَهُوَ كَوْنُهُمْ مُجْرِمِينَ.

وَقُرِئَ: (إِنَّ هَؤُلَاءِ) بِالْكَسْرِ عَلَى إِضْمَارِ الْقَوْلِ، أَيْ: فَدَعَا رَبَّهُ، فَقَالَ: إِنَّ هَؤُلَاءِ

﴿فَأَسْرِ﴾[7] قُرِئَ بِقَطْعِ الْهَمْزَةِ مِنْ أُسْرِيَ، وَوَصْلِهَا مَنْ سَرَى.

---

1 سورة الدُّخَانِ، الآية .

2 سورة الدُّخَانِ، الآية .

3 سورة الدُّخَانِ، الآية .

4 سورة الدُّخَانِ، الآية .

5 سورة الدُّخَانِ، الآية .

6 سورة يُونُسُ، الآية 85.

7 سورة الدُّخَانِ، الآية .

وَفِيهِ وَجْهَانِ: إِضْمَارُ الْقَوْلِ بَعْدَ الْفَاءِ، فَقَالَ: أَسْرِ بِعِبَادِي. وَأَنْ يَكُونَ جَوَابَ شَرْطٍ مَحْذُوفٍ، كَأَنَّهُ قِيلَ: قَالَ إِنْ كَانَ الْأَمْرُ كَمَا تَقُولُ ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي﴾[1]، يَعْنِي: فَأَسْرِ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ، فَقَدْ دَبَّرَ اللَّهُ أَنْ تَتَقَدَّمُوا وَيَتْبَعُكُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ، فينْجِي الْمُتَقَدِّمِينَ وَيُغْرِقُ التَّابِعِينَ.

الرَّهْوُ فيهِ وَجْهَانِ:

– أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ السَّاكِنُ.

قَالَ الْأَعْشَى:

يَمْشِينَ رَهْوًا فَلَا الْأَعْجَازُ خَاذِلَةً وَلَا الصُّدُورُ عَلَى الْأَعْجَازِ تَتَّكِلُ

أَيْ: مَشْيًا سَاكِنًا عَلَى هَيِّنَةٍ. أَرَادَ مُوسَى لَمَّا جَاوَزَ الْبَحْرَ أَنْ يَضْرِبَهُ بِعَصَاهُ فينْطَبِقُ، كَمَا ضَرَبَهُ فَانْفَلَقَ، فَأَمَرَ بِأَنْ يَتْرُكَهُ سَاكِنًا عَلَى هَيْئَتِهِ، قَارًّا عَلَى حَالِهِ: مِنَ انْتِصَابِ الْمَاءِ، وَكَوْنُ الطَّرِيقِ يَبَسًا لَا يَضْرِبُهُ بِعَصَاهُ وَلَا يُغَيِّرُ مِنْهُ شَيْئًا لِيَدْخُلَهُ الْقِبْطُ، فَإِذَا حَصَلُوا فيهِ أَطْبَقَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ.

– وَالثَّانِي: أَنَّ الرَّهْوَ الْفَجْوَةُ الْوَاسِعَةُ.

وَعَنْ بَعْضِ الْعَرَبِ: أَنَّهُ رَأَى جَمَلًا فَالِجًا، فَقَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ، رَهْوٌ بَيْنَ سَنَامَيْنِ، أَيِ: اتْرُكْهُ مَفْتُوحًا عَلَى حَالِهِ مُنْفَرِجًا.

﴿إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ﴾[2] وَقُرِئَ بِالْفَتْحِ، بِمَعْنَى: لِأَنَّهُمْ.

﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾[3]

وَ"الْمَقَام الْكَرِيم": مَا كَانَ لَهُمْ مِنَ الْمَجَالِسِ وَالْمَنَازِلِ الْحَسَنَةِ. وَقِيلَ: الْمَنَابِرُ.

وَالنِّعْمَةُ بِالْفَتْحِ– مِنَ التَّنَعُّمِ، –وَبِالْكَسْرِ– مِنَ الْإِنْعَامِ.

وَقُرِئَ: (فَاكِهِينَ) وَ(فَكِهِينَ).

---

[1] سورة الدُّخَانِ، الآية .

[2] سورة الدُّخَانِ، الآية .

[3] سورة الدُّخَانِ، الآية .

﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾[1]

﴿كَذَلِكَ﴾[2] الْكَافُ مَنْصُوبَةٌ عَلَى مَعْنَى: مِثْلَ ذَلِكَ الْإِخْرَاجِ أَخْرَجْنَاهُمْ مِنْهَا ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا﴾[3] أَوْ فِي مَوْضِعِ الرَّفْعِ عَلَى الْأَمْرِ كَذَلِكَ.

﴿قَوْمًا آخَرِينَ﴾[4] لَيْسُوا مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ مِنْ قَرَابَةٍ وَلَا دِينٍ وَلَا وَلَاءٍ، وَهُمْ بَنُو إِسْرَائِيلَ: كَانُوا مُتَسَخِّرِينَ مُسْتَعْبَدِينَ فِي أَيْدِيهِمْ، فَأَهْلَكَهُمُ اللَّهُ عَلَى أَيْدِيهِمْ، وَأَوْرَثَهُمْ مُلْكَهُمْ وَدِيَارَهُمْ.

إِذَا مَاتَ رَجُلٌ خَطِيرٌ قَالَتِ الْعَرَبُ فِي تَعْظِيمِ مُهْلِكَةٍ: بَكَتْ عَلَيْهِ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ، وَبَكَتْهُ الرِّيحُ، وَأَظْلَمَتْ لَهُ الشَّمْسُ.

وَفِي حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "مَا مِنْ مُؤْمِنٍ مَاتَ فِي غُرْبَةٍ غَابَتْ فِيهَا بَوَاكِيهِ إِلَّا بَكَتْ عَلَيْهِ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ".

وَقَالَ جَرِيرٌ:

تَبْكِي عَلَيْكَ نُجُومُ اللَّيْلِ وَالْقَمَـــــــــرَا

وَقَالَتِ الْخَارِجِيَّةُ:

أَيَا شَجَرَ الْخَابُورِ مَا لَكَ مُورِقًا؟ كَأَنَّكَ لَمْ تَجْزَعْ عَلَى ابْنِ طَرِيفِ

وَذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ التَّمْثِيلِ وَالتَّخْيِيلِ مُبَالَغَةً فِي وُجُوبِ الْجَزَعِ وَالْبُكَاءِ عَلَيْهِ، وَكَذَلِكَ مَا يُرْوَى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا–: مِنْ بُكَاءِ مُصَلَّى الْمُؤْمِنِ، وَآثَارِهِ فِي الْأَرْضِ، وَمَصَاعِدِ عَمَلِهِ، وَمَهَابِطِ رِزْقِهِ فِي السَّمَاءِ تَمْثِيلٌ، وَنَفَى ذَلِكَ عَنْهُمْ فِي قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ﴾[5] فِيهِ تَهَكُّمٌ بِهِمْ وَبِحَالِهِمُ الْمُنَافِيَةِ لِحَالِ مَنْ يَعْظُمُ فَقْدَهُ: فَيُقَالُ فِيهِ: بَكَتْ عَلَيْهِ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ.

---

1 سورة الدُّخَانِ، الآية .

2 سورة الدُّخَانِ، الآية .

3 سورة الدُّخَانِ، الآية .

4 سورة الدُّخَانِ، الآية .

5 سورة الدُّخَانِ، الآية .

وَعَنِ الْحَسَنِ :فَمَا بَكَى عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ وَالْمُؤْمِنُونَ، بَلْ كَانُوا بِهَلَاكِهِمْ مَسْرُورِينَ، يَعْنِي: فَمَا بَكَى عَلَيْهِمْ أَهْلُ السَّمَاءِ وَأَهْلُ الْأَرْضِ، ﴿وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾[1] لَمَّا جَاءَ وَقْتُ هَلَاكِهِمْ لَمْ يَنْظُرُوا إِلَى وَقْتٍ آخَرَ، وَلَمْ يُمْهِلُوا إِلَى الْآخِرَةِ، بَلْ عَجَّلَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا.

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾[2]

﴿مِنْ فِرْعَوْنَ﴾[3] بَدَلٌ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ، كَأَنَّهُ فِي نَفْسِهِ كَانَ عَذَابًا مُهِينًا، لِإِفْرَاطِهِ فِي تَعْذِيبِهِمْ وَإِهَانَتِهِمْ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى: مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ وَاقِعًا مِنْ جِهَةِ فِرْعَوْنَ. وَقُرِئَ: (مِنْ عَذَابِ الْمُهِينِ).

وَوَجْهُهُ أَنْ يَكُونَ تَقْدِيرُ قَوْلِهِ: ﴿مِنْ فِرْعَوْنَ﴾[4]: مِنْ عَذَابِ فِرْعَوْنَ، حَتَّى يَكُونَ الْمُهِينُ هُوَ فِرْعَوْنُ.

وَفِي قِرَاءَةِ ابْنِ عَبَّاسٍ: مِنْ فِرْعَوْنَ، لَمَّا وَصَفَ عَذَابَ فِرْعَوْنَ بِالشِّدَّةِ وَالْفَظَاعَةِ قَالَ: مِنْ فِرْعَوْنَ، عَلَى مَعْنَى: هَلْ تَعْرِفُونَهُ مَنْ هُوَ فِي عُتُوِّهِ وَشَيْطَنَتِهِ.

ثُمَّ عَرَفَ حَالَهُ فِي ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾[5]، أَيْ كَبِيرًا رَفِيعَ الطَّبَقَةِ، وَمِنْ بَيْنِهِمْ فَائِقًا لَهُمْ، بَلِيغًا فِي إِسْرَافِهِ، أَوْ عَالِيًا مُتَكَبِّرًا، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ﴾[6].

وَ﴿مِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾[7] خَبَرٌ ثَانٍ، كَأَنَّهُ قِيلَ: إِنَّهُ كَانَ مُتَكَبِّرًا مُسْرِفًا.

---

1 سورة الدُّخَانِ، الآية .
2 سورة الدُّخَانِ، الآية .
3 سورة الدُّخَانِ، الآية .
4 سورة الدُّخَانِ، الآية .
5 سورة الدُّخَانِ، الآية .
6 سورة الدُّخَانِ، الآية .
7 سورة الْقَصَصُ، الآية 4.

﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الآيَاتِ مَا فِيهِ بَلاءٌ مُبِينٌ﴾[1]

الضَّمِيرُ في ﴿اخْتَرْنَاهُمْ﴾[2] لِبَنِي إِسْرَائِيلَ.

وَ﴿عَلَى عِلْمٍ﴾[3] في مَوْضِعِ الْحَالِ، أَيْ: عَالِمِينَ بِمَكَانِ الْخِيَرَةِ، وَبِأَنَّهُمْ أَحِقَّاءُ بِأَنْ يَخْتَارُوا.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى: مَعَ عِلْمٍ مِنَّا بِأَنَّهُمْ يَزِيغُونَ وَيُفَرِّطُ مِنْهُمُ الْفُرُطَاتُ في بَعْضِ الْأَحْوَالِ ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[4] عَلَى عَالِمِي زَمَانِهِمْ.

وَقِيلَ: عَلَى النَّاسِ جَمِيعًا لِكَثْرَةِ الْأَنْبِيَاءِ مِنْهُمْ.

﴿مِنَ الآيَاتِ﴾[5] مِنْ نَحْوِ فَلْقِ الْبَحْرِ وَتَظْلِيلِ الْغَمَامِ وَإِنْزَالِ الْمَنِّ وَالسَّلْوَى، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الْعِظَامِ الَّتِي لَمْ يُظْهِرِ اللَّهُ في غَيْرِهِمْ مِثْلَهَا ﴿بَلاءٌ مُبِينٌ﴾[6] نِعْمَةٌ ظَاهِرَةٌ، لِأَنَّ اللَّهَ –تَعَالَى– يَبْلُو بِالنِّعْمَةِ كَمَا يَبْلُو بِالْمُصِيبَةِ، أَوِ اخْتِبَارٍ ظَاهِرٍ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾[7].

﴿إِنَّ هَؤُلاءِ لَيَقُولُونَ إِنْ هِيَ إِلا مَوْتَتُنَا الأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[8]

﴿هَؤُلَاءِ﴾[9] إِشَارَةٌ إِلَى كُفَّارِ قُرَيْشٍ.

---

1 سورة الدُّخَانِ، الآية .

2 سورة الدُّخَانِ، الآية .

3 سورة الدُّخَانِ، الآية .

4 سورة الدُّخَانِ، الآية .

5 سورة الدُّخَانِ، الآية .

6 سورة الدُّخَانِ، الآية .

7 سورة الْبَقَرَةُ، الآية 49.

8 سورة الدُّخَانِ، الآية .

9 سورة الدُّخَانِ، الآية .

فَإِنْ قُلْتَ: كَانَ الْكَلَامُ وَاقِعًا فِي الْحَيَاةِ الثَّانِيَةِ لَا فِي الْمَوْتِ، فَهَلَّا قِيلَ: إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الْأَوْلَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ؟ كَمَا قِيلَ: ﴿إِنْ هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾[1]؟

وَمَا مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿إِنْ هِيَ إِلا مَوْتَتُنَا الأُولَى﴾[2]؟ وَمَا مَعْنَى ذِكْرِ الْأُولَى؟ كَأَنَّهُمْ وُعِدُوا مَوْتَةً أُخْرَى حَتَّى نَفَوْهَا وَجَحَدُوهَا وَأَثْبَتُوا الْأُولَى؟

قُلْتُ: مَعْنَاهُ –وَاللَّهُ الْمُوَفِّقُ لِلصَّوَابِ–: أَنَّهُ قِيلَ لَهُمْ: إِنَّكُمْ تَمُوتُونَ مَوْتَةً تَتَعَقَّبُهَا حَيَاةٌ، كَمَا تَقَدَّمَتْكُمْ مَوْتَةٌ قَدْ تَعَقَّبَتْهَا حَيَاةٌ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ –عَزَّ وَجَلَّ–: ﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾[3]، فَقَالُوا: ﴿إِنْ هِيَ إِلا مَوْتَتُنَا الأُولَى﴾[4]، يُرِيدُونَ: مَا الْمَوْتَةُ الَّتِي مِنْ شَأْنِهَا أَنْ يَتَعَقَّبَهَا حَيَاةٌ إِلَّا الْمَوْتَةُ الْأُولَى دُونَ الْمَوْتَةِ الثَّانِيَةِ، وَمَا هَذِهِ الصِّفَةُ الَّتِي تَصِفُونَ بِهَا الْمَوْتَةَ مِنْ تَعَقُّبِ الْحَيَاةِ لَهَا إِلَّا لِلْمَوْتَةِ الْأُولَى خَاصَّةً، فَلَا فَرْقَ إِذًا بَيْنَ هَذَا وَبَيْنَ قَوْلِهِ: (إِنْ هِي إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا) فِي الْمَعْنَى. يُقَالُ: أَنْشَرَ اللَّهُ الْمَوْتَى وَنَشَرَهُمْ: إِذَا بَعَثَهُمْ.

﴿فَأْتُوا بِآبَائِنَا﴾[5]: هَذَا خِطَابٌ لِلَّذِينِ كَانُوا يَعُدُّونَهُمُ النُّشُورَ: مِنْ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَالْمُؤْمِنِينَ، أَيْ: إِنْ صَدَقْتُمْ فِيمَا تَقُولُونَ، فَعَجِّلُوا لَنَا إِحْيَاءَ مَنْ مَاتَ مِنْ آبَائِنَا بِسُؤَالِكُمْ رَبَّكُمْ ذَلِكَ حَتَّى يَكُونَ دَلِيلًا عَلَى أَنَّ مَا تَعُدُّونَهُ مِنْ قِيَامِ السَّاعَةِ وَبَعْثِ الْمَوْتَى حَقٌّ، وَقِيلَ: كَانُوا يَطْلُبُونَ إِلَيْهِمْ أَنْ يَدْعُوا اللَّهَ وَيَنْشُرَهُمْ لَهُمْ قَصِيُّ بْنُ كِلَابٍ لِيُشَاوِرُوهُ، فَإِنَّهُ كَانَ كَبِيرُهُمْ وَمُشَاوِرُهُمْ فِي النَّوَازِلِ وَمَعَاظِمِ الشُّؤُونِ.

﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾[6]

---

1 سورة الْأَنْعَامُ، الآية 29.

2 سورة الدُّخَانِ، الآية .

3 سورة الْبَقَرَةُ، الآية 28.

4 سورة الدُّخَانِ، الآية .

5 سورة الدُّخَانِ، الآية .

6 سورة الدُّخَانِ، الآية .

هُوَ تُبَّعُ الْحَمِيرِيُّ: كَانَ مُؤْمِنًا وَقَوْمُهُ كَافِرِينَ، وَلِذَلِكَ ذَمَّ اللَّهُ قَوْمَهُ وَلَمْ يَذُمَّهُ، وَهُوَ الَّذِي سَارَ بِالْجُيُوشِ وَحَيَّرَ الْحِيرَةَ وَبَنَى سَمَرْقَنْدَ. وَقِيلَ: هَدَمَهَا وَكَانَ إِذَا كَتَبَ قَالَ: بِسْمِ اللَّهِ الَّذِي مَلَكَ بَرًّا وَبَحْرًا.

وَعَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "لَا تَسُبُّوا تُبَّعًا فَإِنَّهُ كَانَ قَدْ أَسْلَمَ". وَعَنْهُ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: "مَا أَدْرِي أَكَانَ تُبَّعٌ نَبِيًّا أَوْ غَيْرَ نَبِيٍّ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-: كَانَ نَبِيًّا.

وَقِيلَ: نَظَرَ إِلَى قَبْرَيْنِ بِنَاحِيَةِ حِمْيَرَ قَالَ: هَذَا قَبْرُ رَضْوَى وَقَبْرُ حُبَّى بِنْتَيْ تُبَّعٍ لَا تُشْرِكَانِ بِاللَّهِ شَيْئًا.

وَقِيلَ: هُوَ الَّذِي كَسَا الْبَيْتَ.

وَقِيلَ لِمُلُوكِ الْيَمَنِ: التَّبَابِعَةُ، لِأَنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ، كَمَا قِيلَ: الْأَقْيَالُ، لِأَنَّهُمْ يَتَقَيَّلُونَ، وَسُمِّيَ الظِّلُّ ﴿تُبَّعًا﴾[1]، لِأَنَّهُ يَتْبَعُ الشَّمْسَ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى قَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ﴾[2] وَلَا خَيْرَ فِي الْفَرِيقَيْنِ؟

قُلْتُ: مَعْنَاهُ: أَهُمْ خَيْرٌ فِي الْقُوَّةِ وَالْمَنْعَةِ، كَقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ﴾[3] بَعْدَ ذِكْرِ آلِ فِرْعَوْنَ.

وَفِي تَفْسِيرِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-: أَهُمْ أَشُدُّ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾[4]

---

[1] سورة الدُّخَانِ، الآية .

[2] سورة الدُّخَانِ، الآية .

[3] سورة الْقَمَرُ، الآية 43.

[4] سورة الدُّخَانِ، الآية .

﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾[1] وَمَا بَيْنَ الْجِنْسَيْنِ. وَقَرَأَ عُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ: وَمَا بَيْنَهُنَّ. وَقَرَأَ: (مِيقَاتَهُمْ) بِالنَّصْبِ عَلَى أَنَّهُ اسْمُ إِنَّ، وَيَوْمُ الْفَصْلِ، خَبَرُهَا، أَيْ: إِنَّ مِيعَادَ حِسَابِهِمْ وَجَزَائِهِمْ فِي يَوْمِ الْفَصْلِ.

﴿لا يُغْنِي مَوْلًى﴾[2]، أَيْ مَوْلَى كَانَ مِنْ قَرَابَةٍ أَوْ غَيْرِهَا، ﴿عَنْ مَوْلًى﴾[3]: عَنْ أَيِّ مَوْلًى كَانَ ﴿شَيْئًا﴾[4] مِنْ إِغْنَاءٍ. أَيْ: قَلِيلًا مِنْهُ.

﴿وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾[5] الضَّمِيرُ لِلْمَوَالِي، لِأَنَّهُمْ فِي الْمَعْنَى كَثِيرٌ، لِتَنَاوُلِ اللَّفْظِ عَلَى الْإِبْهَامِ وَالشِّيَاعِ كُلَّ مَوْلًى.

﴿إِلا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ﴾[6] فِي مَحَلِّ الرَّفْعِ عَلَى الْبَدَلِ مِنَ الْوَاوِ فِي ﴿يُنْصَرُونَ﴾[7]، أَيْ: لَا يَمْنَعُ مِنَ الْعَذَابِ إِلَّا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ. وَيَجُوزُ أَنْ يَنْتَصِبَ عَلَى الِاسْتِثْنَاءِ.

﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ﴾[8]: لَا يُنْصَرُ مِنْهُ مَنْ عَصَاهُ، ﴿الرَّحِيمِ﴾[9] لِمَنْ أَطَاعَهُ.

﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الأَثِيمِ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾[10]

قُرِئَ: (إِنَّ شِجَرَتِ الزَّقُّومِ) بِكَسْرِ الشِّينِ، وَفِيهَا ثَلَاثُ لُغَاتٍ: شَجَرَةَ، بِفَتْحِ الشِّينِ وَكَسْرِهَا وَشَيَرَةَ، بِالْيَاءِ.

---

1 سورة الدُّخَانِ، الآية .
2 سورة الدُّخَانِ، الآية .
3 سورة الدُّخَانِ، الآية .
4 سورة الدُّخَانِ، الآية .
5 سورة الدُّخَانِ، الآية .
6 سورة الدُّخَانِ، الآية .
7 سورة الدُّخَانِ، الآية .
8 سورة الدُّخَانِ، الآية .
9 سورة الدُّخَانِ، الآية .
10 سورة الدُّخَانِ، الآية .

وَرَوَى أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَ ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾[1]، قَالَ ابْنُ الزَّبَعْرَى: إِنَّ أَهْلَ الْيَمَنِ يَدْعُونَ أَكْلَ الزَّبَدِ وَالتَّمْرِ: التَّزَقُّمَ، فَدَعَا أَبُو جَهْلٍ بِتَمْرٍ وَزَبَدٍ، فَقَالَ: تَزَقَّمُوا، فَإِنَّ هَذَا هُوَ الَّذِي يُخَوِّفُكُمْ بِهِ مُحَمَّدٌ، فَنَزَلَ: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الأَثِيمِ﴾[2]، وَهُوَ الْفَاجِرُ الْكَثِيرُ الآثَامِ.

وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ أَنَّهُ كَانَ يُقْرِئُ رَجُلًا فَكَانَ يَقُولُ: طَعَامُ الْيَتِيمِ، فَقَالَ: قُلْ طَعَامَ الْفَاجِرِ يَا هَذَا. وَبِهَذَا يُسْتَدَلُّ عَلَى أَنَّ إِبْدَالَ كَلِمَةٍ مَكَانَ كَلِمَةٍ جَائِزٌ إِذَا كَانَتْ مُؤَدِّيَةً مَعْنَاهَا.

وَمِنْهُ أَجَازَ أَبُو حَنِيفَةَ الْقِرَاءَةَ بِالْفَارِسِيَّةِ عَلَى شَرِيطَةٍ، وَهِيَ: أَنْ يُؤَدِّيَ الْقَارِئُ الْمَعَانِيَ عَلَى كَمَالِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَخْرِمَ مِنْهَا شَيْئًا. قَالُوا: وَهَذِهِ الشَّرِيطَةُ تَشْهَدُ أَنَّهَا إِجَازَةٌ كَلَا إِجَازَةٍ، لِأَنَّ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ خُصُوصًا فِي الْقُرْآنِ الَّذِي هُوَ مُعْجِزٌ بِفَصَاحَتِهِ وَغَرَابَةِ نَظْمِهِ وَأَسَالِيبِهِ مِنْ لَطَائِفِ الْمَعَانِي وَالْأَغْرَاضِ مَا لَا يَسْتَقِلُّ بِأَدَائِهِ لِسَانٌ مِنْ فَارِسِيَّةٍ وَغَيْرِهَا، وَمَا كَانَ أَبُو حَنِيفَةَ –رَحِمَهُ اللَّهُ– يُحْسِنُ الْفَارِسِيَّةَ، فَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مِنْهُ عَنْ تَحَقُّقٍ وَتَبَصُّرٍ.

وَرَوَى عَلِيُّ بْنُ الْجَعْدِ عَنْ أَبِي يُوسُفَ عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ مِثْلَ قَوْلِ صَاحِبَيْهِ فِي إِنْكَارِ الْقِرَاءَةِ بِالْفَارِسِيَّةِ.

﴿كَالْمُهْلِ﴾[3] قُرِئَ: بِضَمِّ الْمِيمِ وَفَتْحِهَا، وَهُوَ دُرْدِيُّ الزَّيْتِ.

وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾[4] مَعَ قَوْلِهِ: ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾[5].

وَقِيلَ: هُوَ ذَائِبُ الْفِضَّةِ وَالنُّحَاسِ، وَالْكَافُ رَفْعُ خَبَرٍ بَعْدَ خَبَرٍ، وَكَذَلِكَ ﴿يَغْلِي﴾[6]، وَقُرِئَ بِالتَّاءِ لِلشَّجَرَةِ، وَبِالْيَاءِ لِلطَّعَامِ.

وَ﴿الْحَمِيمُ﴾[7] الْمَاءُ الْحَارُّ الَّذِي انْتَهَى غَلَيَانُهُ، يُقَالُ لِلزَّبَانِيَةِ: ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ﴾[8] فَقَوَّدُوهُ بِعُنْفٍ وَغِلْظَةٍ، وَهُوَ أَنْ يُؤْخَذَ بِتَلْبِيبِ الرَّجُلِ فيجَرَّ إِلَى حَبْسٍ أَوْ قَتْلٍ.

---

1 سورة الصَّافَّاتُ، الآية 62.
2 سورة الدُّخَانِ، الآية .
3 سورة الدُّخَانِ، الآية .
4 سورة الْمَعَارِجُ، الآية 8.
5 سورة الرَّحْمَنُ، الآية 37.
6 سورة الدُّخَانِ، الآية .
7 سورة الدُّخَانِ، الآية .
8 سورة الدُّخَانِ، الآية .

وَمِنْهُ "الْعُتُلُّ"، وَهُوَ الْغَلِيظُ الْجَافي. وَقُرِئَ: بِكَسْرِ التَّاءِ وَضَمِّهَا ﴿إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾[1] إِلَى وَسَطِهَا وَمُعْظَمِهَا.

فَإِنْ قُلْتَ: هَلَّا قِيلَ: صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنَ الْحَمِيمِ، كَقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾[2]، لِأَنَّ الْحَمِيمَ هُوَ الْمَصْبُوبُ لَا عَذَابُهُ؟

قُلْتُ: إِذَا صَبَّ عَلَيْهِ الْحَمِيمَ فَقَدْ صَبَّ عَلَيْهِ عَذَابَهُ وَشِدَّتُهُ، إِلَّا أَنَّ صَبَّ الْعَذَابِ طَرِيقَةُ الِاسْتِعَارِ، كَقَوْلِهِ:

صَبَّتْ عَلَيْهِ صُرُوفُ الدَّهْرِ مِنْ صَبَبِ

وَكَقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾[3]، فَذَكَرَ الْعَذَابَ مُعَلَّقًا بِهِ الصَّبُّ، مُسْتَعَارًا لَهُ، لِيَكُونَ أَهْوَلَ وَأَهْيَبَ يُقَالُ: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾[4] عَلَى سَبِيلِ الْهُزُؤِ وَالتَّهَكُّمِ بِمَنْ كَانَ يَتَعَزَّزُ وَيَتَكَرَّمُ عَلَى قَوْمِهِ.

وَرُوِيَ أَنَّ أَبَا جَهْلٍ قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: مَا بَيْنَ جَبَلَيْهَا أَعَزُّ وَلَا أَكْرَمُ مِنِّي، فَوَاللَّهِ مَا تَسْتَطِيعُ أَنْتَ وَلَا رَبُّكَ أَنْ تَفْعَلَا بِي شَيْئًا. وَقُرِئَ: (إِنَّكَ) بِمَعْنَى: لِأَنَّكَ.

وَعَنِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- أَنَّهُ قَرَأَ بِهِ عَلَى الْمِنْبَرِ (إِنَّ هَذَا) الْعَذَابَ. أَوْ إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ هُوَ ﴿مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾[5]، أَيْ تَشُكُّونَ، أَوْ تَتَمَارُونَ وَتَتَلَاجُّونَ.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلا الْمَوْتَةَ الأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[6]

---

[1] سورة الدُّخَانِ، الآية .

[2] سورة الْحَجُّ، الآية 19.

[3] سورة الْبَقَرَةُ، الآية 250.

[4] سورة الدُّخَانِ، الآية .

[5] سورة الدُّخَانِ ، الآية .

[6] سورة الدُّخَانِ، الآية .

قُرِئَ: (في مَقَامٍ) بِالْفَتْحِ: وَهُوَ مَوْضِعِ الْقِيَامِ، وَالْمُرَادُ الْمَكَانُ، وَهُوَ مِنَ الْخَاصِّ الَّذِي وَقَعَ مُسْتَعْمَلًا في مَعْنَى الْعُمُومِ. وَبِالضَّمِّ: وَهُوَ مَوْضِعُ الْإِقَامَةِ.

وَ"الْأَمِينُ" مِنْ قَوْلِكَ: أَمِنَ الرَّجُلُ أَمَانَةً فَهُوَ أَمِينٌ. وَهُوَ ضِدُّ الْخَائِنِ، فَوَصَفَ بِهِ الْمَكَانَ اسْتِعَارَةً، لِأَنَّ الْمَكَانَ الْمُخِيفَ كَأَنَّمَا يَخُونُ صَاحِبَهُ بِمَا يَلْقَى فيهِ مِنَ الْمَكَارِهِ. قِيلَ: السُّنْدُسُ: مَا رَقَّ مِنَ الدِّيبَاجِ. وَالْإِسْتَبْرَقُ: مَا غَلُظَ مِنْهُ وَهُوَ تَعْرِيبُ اسْتَبَرَ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ سَاغَ أَنْ يَقَعَ في الْقُرْآنِ الْعَرَبِيِّ الْمُبِينِ لَفْظٌ أَعْجَمِيٌّ؟

قُلْتُ: إِذَا عُرِّبَ خَرَجَ مِنْ أَنْ يَكُونَ عَجَمِيًّا، لِأَنَّ مَعْنَى التَّعْرِيبِ أَنْ يُجْعَلَ عَرَبِيًّا بِالتَّصَرُّفِ فيهِ، وَتَغْيِيرِهِ عَنْ مِنْهَاجِهِ، وَإِجْرَائِهِ عَلَى أَوْجُهِ الْإِعْرَابِ.

﴿كَذَلِكَ﴾[1] الْكَافُ مَرْفُوعٌ عَلَى الْأَمْرِ كَذَلِكَ، أَوْ مَنْصُوبٌ عَلَى: مِثْلِ ذَلِكَ أَثَبْنَاهُمْ.

﴿وَزَوَّجْنَاهُمْ﴾[2] وَقَرَأَ عِكْرِمَةُ: (بِحَوَرٍ عِينٍ) عَلَى الْإِضَافَةِ، وَالْمَعْنَى: بِالْحَوَرِ مِنَ الْعِينِ، لِأَنَّ الْعَيْنَ إِمَّا أَنْ تَكُونَ حُورًا أَوْ غَيْرَ حُورٍ، فَهَؤُلَاءِ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ لَا مِنْ شَهْلِهِنَّ مَثَلًا. وَفى قِرَاءَةِ عَبْدِ اللَّهِ: (بِعَيْسِ عِينٍ) وَالْعَيْسَاءُ: الْبَيْضَاءُ تَعْلُوهَا حُمْرَةٌ.

وَقَرَأَ عُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ: (لَا يُذَاقُونَ فيها الْمَوْتَ). وَقَرَأَ عَبْدُ اللَّهِ: (لَا يَذُوقُونَ فيها طَعْمَ الْمَوْتِ).

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ اسْتَثْنَيْتَ الْمَوْتَةَ الْأُولَى –الْمَذُوقَةَ قَبْلَ دُخُولِ الْجَنَّةِ– مِنَ الْمَوْتِ الْمَنْفى ذَوْقَهُ فيها؟

قُلْتُ: أُرِيدُ أَنْ يُقَالَ: لَا يَذُوقُونَ فيها الْمَوْتَ الْبَتَّةَ، فَوَضَعَ قَوْلَهُ: ﴿إِلا الْمَوْتَةَ الأُولَى﴾[3] مَوْضِعَ ذَلِكَ، لِأَنَّ الْمَوْتَةَ الْمَاضِيَةَ مُحَالُ ذَوْقِهَا في الْمُسْتَقْبَلِ، فَهُوَ مِنْ بَابِ التَّعْلِيقِ بِالْمُحَالِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: إِنْ كَانَتِ الْمَوْتَةُ الْأُولَى يَسْتَقِيمُ ذَوْقُهَا في الْمُسْتَقْبَلِ فَإِنَّهُمْ يَذُوقُونَهَا. وَقُرِئَ: (وَوَقَاهُمْ) بِالتَّشْدِيدِ.

﴿فَضْلا مِنْ رَبِّكَ﴾[4]: عَطَاءٌ مِنْ رَبِّكَ وَثَوَابًا، يَعْنِي: كُلُّ مَا أَعْطَى الْمُتَّقِينَ مِنْ نَعِيمِ الْجَنَّةِ وَالنَّجَاةِ مِنَ النَّارِ. وَقُرِئَ: (فَضْلُ)، أَيْ: ذَلِكَ فَضْلُ.

---

[1] سورة الدُّخَانِ، الآية .

[2] سورة الدُّخَانِ، الآية .

[3] سورة الدُّخَانِ، الآية .

[4] سورة الدُّخَانِ، الآية .

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ﴾[1]

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ﴾[2] فَذْلَكَةٌ لِلسُّورَةِ. وَمَعْنَاهَا: ذَكَّرَهُمْ بِالْكِتَابِ الْمُبِينِ.

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ﴾[3]، أَيْ: سَهَّلْنَاهُ، حَيْثُ أَنْزَلْنَاهُ عَرَبِيًّا بِلِسَانِكَ بِلُغَتِكَ إِرَادَةَ أَنْ يَفْهَمَهُ قَوْمُكَ فيتَذَكَّرُوا.

﴿فَارْتَقِبْ﴾[4]: فَانْتَظِرْ مَا يَحِلُّ بِهِمْ.

﴿إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ﴾[5] مَا يَحِلُّ بِكَ مُتَرَبِّصُونَ بِكَ الدَّوَائِرَ.

عَنْ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "مَنْ قَرَأَ سُورَةَ حم الدُّخَانِ في لَيْلَةٍ أَصْبَحَ يَسْتَغْفِرُ لَهُ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ"، وَعَنْهُ –عَلَيْهِ السَّلَامُ–: "مَنْ قَرَأَ سُورَةَ حم الَّتِي ذَكَرَ فيها الدُّخَّانَ في لَيْلَةِ جُمْعَةٍ أَصْبَحَ مَغْفُورًا لَهُ".

---

[1] سورة الدُّخَانِ، الآية .

[2] سورة الدُّخَانِ، الآية .

[3] سورة الدُّخَانِ، الآية .

[4] سورة الدُّخَانِ، الآية .

[5] سورة الدُّخَانِ، الآية .

سورة الرافعة

سورة الجاثية

مَكِّيَّةٌ [إِلَّا آيَةَ 14 فَمَدَنِيَّةٌ]

وَآيَاتُهَا 37 وَقِيلَ 36 آيَةٌ

[نَزَلَتْ بَعْدَ الدُّخَانِ]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حم تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾

﴿حم﴾[1] إِنْ جَعَلْتَهَا اسْمًا مُبْتَدَأً مُخْبَرًا عَنْهُ بِ ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾[2] لَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنْ حَذْفِ مُضَافٍ، تَقْدِيرُهُ: تَنْزِيلُ حم تَنْزِيلُ الْكِتَابِ.

---

[1] سورة الدُّخَانِ، الآية .

[2] سورة الدُّخَانِ، الآية .

وَ﴿مِنَ اللَّهِ﴾[1] صِلَةٌ لِلتَّنْزِيلِ، وَإِنْ جَعَلْتَهَا تَعْدِيدًا لِلْحُرُوفِ كَانَ ﴿تَنْزِيلِ الْكِتَابِ﴾[2] مُبْتَدَأً، وَالظَّرْفُ خَبَرًا ﴿إِنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾[3] يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ عَلَى ظَاهِرِهِ، وَأَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى، إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ لِقَوْلِهِ: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ﴾[4].

فَإِنْ قُلْتَ: عَلَامَ عَطَفَ ﴿وَمَا يَبُثُّ﴾[5] أَعَلَى الْخَلْقِ الْمُضَافِ؟ أَمْ عَلَى الضَّمِيرِ الْمُضَافِ إِلَيْهِ؟

قُلْتُ: بَلْ عَلَى الْمُضَافِ، لِأَنَّ الْمُضَافَ إِلَيْهِ ضَمِيرٌ مُتَّصِلٌ مَجْرُورٌ يَقْبُحُ الْعَطْفُ عَلَيْهِ، اسْتَقْبَحُوا أَنْ يُقَالَ: مَرَرْتُ بِكَ وَزَيْدٌ، وَهَذَا أَبُوكَ وَعَمْرٌو، وَكَذَلِكَ إِنْ أَكَّدُوهُ كَرِهُوا أَنْ يَقُولُوا: مَرَرْتُ بِكَ أَنْتَ وَزَيْدَ.

قُرِئَ: (آيَاتٍ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ) بِالنَّصْبِ وَالرَّفْعِ، عَلَى قَوْلِكَ: إِنَّ زَيْدًا فِي الدَّارِ وَعَمْرًا فِي السُّوقِ، أَوْ عَمْرٌو فِي السُّوقِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[6]، فَمِنَ الْعَطْفِ عَلَى عَامِلِينَ، سَوَاءٌ نُصِبَتْ أَوْ رُفِعَتْ، فَالْعَامِلَانِ إِذَا نُصِبَتْ هُمَا: إِنْ، وَفِي، أُقِيمَتِ الْوَاوُ مَقَامَهُمَا، فَعَمِلَتِ الْجَرَّ فِي (اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ)، وَالنَّصْبَ فِي "لِآيَاتٍ".

وَإِذَا رَفَعَتْ فَالْعَامِلَانِ: الِابْتِدَاءُ وَفِي عَمِلَتِ الرَّفْعَ فِي ﴿لَآيَاتُ﴾[7]، وَالْجَرُّ فِي ﴿وَاخْتِلَافِ﴾[8]، وَقَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ: (وَفِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ).

فَإِنْ قُلْتَ: الْعَطْفُ عَلَى عَامِلِينَ عَلَى مَذْهَبِ الْأَخْفَشِ سَدِيدٌ لَا مَقَالَ فِيهِ، وَقَدْ أَبَاهُ سِيبَوَيْهِ؛ فَمَا وَجْهُ تَخْرِيجِ الْآيَةِ عِنْدَهُ؟

قُلْتُ: فِيهِ وَجْهَانِ عِنْدَهُ:

– أَحَدُهُمَا: أَنْ يَكُونَ عَلَى إِضْمَارِ فِي. وَالَّذِي حَسَّنَهُ تَقَدُّمُ ذِكْرِهِ فِي الْآيَتَيْنِ قَبْلَهَا. وَيُعَضِّدُهُ قِرَاءَةُ ابْنِ مَسْعُودٍ.

---

1 سورة الدُّخَانِ، الآية .
2 سورة الدُّخَانِ، الآية .
3 سورة الدُّخَانِ، الآية .
4 سورة الدُّخَانِ، الآية .
5 سورة الدُّخَانِ، الآية .
6 سورة الدُّخَانِ، الآية .
7 سورة الدُّخَانِ، الآية .
8 سورة الدُّخَانِ، الآية .

– وَالثَّانِي: أَنْ يَنْتَصِبَ آيَاتٍ عَلَى الِاخْتِصَاصِ بَعْدَ انْقِضَاءِ الْمَجْرُورِ مَعْطُوفًا عَلَى مَا قَبْلُهُ أَوْ عَلَى التَّكْرِيرِ، وَرَفَعَهَا بِإِضْمَارِ هِيَ: وَقُرِئَ: (وَاخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) بِالرَّفْعِ. وَقُرِئَ: (آيَةٌ) وَكَذَلِكَ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَةٌ. وَقُرِئَ: (وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ).

وَالْمَعْنَى: إِنَّ الْمُنْصِفِينَ مِنَ الْعِبَادِ إِذَا نَظَرُوا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ النَّظَرَ الصَّحِيحَ، عَلِمُوا أَنَّهَا مَصْنُوعَةٌ، وَأَنَّهُ لَا بُدَّ لَهَا مِنْ صَانِعٍ، فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَأَقَرُّوا، فَإِذَا نَظَرُوا فِي خَلْقِ أَنْفُسِهِمْ وَتَنَقُّلِهَا مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ وَهَيْئَةٍ إِلَى هَيْئَةٍ، وَفِي خَلْقِ مَا عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ مِنْ صُنُوفِ الْحَيَوَانِ: ازْدَادُوا إِيمَانًا، وَأَيْقَنُوا وَانْتَفَى عَنْهُمُ اللَّبْسُ، فَإِذَا نَظَرُوا فِي سَائِرِ الْحَوَادِثِ الَّتِي تَتَجَدَّدُ فِي كُلِّ وَقْتٍ كَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَنُزُولِ الْأَمْطَارِ وَحَيَاةِ الْأَرْضِ بِهَا بَعْدَ مَوْتِهَا.

﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ﴾[1] جَنُوبًا وَشَمَالًا وَقَبُولًا وَدَبُورًا: عَقَلُوا وَاسْتَحْكَمَ عِلْمُهُمْ وَخَلَصَ يَقِينُهُمْ، وَسَمَّى الْمَطَرَ رِزْقًا، لِأَنَّهُ سَبَبُ الرِّزْقِ.

﴿تِلْكَ﴾[2] إِشَارَةً إِلَى الْآيَاتِ الْمُتَقَدِّمَةِ، أَيْ: تِلْكَ الْآيَاتُ آيَاتُ اللَّهِ.

وَ﴿نَتْلُوهَا﴾[3] فِي مَحَلِّ الْحَالِ، أَيْ: مَتْلُوَّةً ﴿عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾[4]، وَالْعَامِلُ مَا دَلَّ عَلَيْهِ تِلْكَ مِنْ مَعْنَى الْإِشَارَةِ. وَنَحْوُهُ: ﴿وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾[5]، وَقُرِئَ: (يَتْلُوهَا) بِالْيَاءِ.

﴿بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ﴾[6]، أَيْ بَعْدَ آيَاتِ اللَّهِ كَقَوْلِهِمْ: أَعْجَبَنِي زَيْدٌ وَكَرَمُهُ، يُرِيدُونَ: أَعْجَبَنِي كَرَمُ زَيْدٍ.

وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ: بَعْدَ حَدِيثِ اللَّهِ، وَهُوَ كِتَابُهُ وَقُرْآنُهُ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾[7].

وَقُرِئَ: (يُؤْمِنُونَ) بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ.

---

1 سورة الدُّخَانِ، الآية .

2 سورة الدُّخَانِ، الآية .

3 سورة الدُّخَانِ، الآية .

4 سورة الدُّخَانِ، الآية .

5 سورة الدُّخَانِ، الآية .

6 سورة الدُّخَانِ، الآية .

7 سورة الزُّمَرُ، الآية 23.

﴿وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[1]

الْأَفَّاكُ: الْكَذَّابُ، وَالْأَثِيمُ: الْمُتَبَالِغُ في اقْتِرَافِ الْآثَامِ.

﴿يُصِرُّ﴾[2] يُقْبَلُ عَلَى كُفْرِهِ وَيُقِيمُ عَلَيْهِ. وَأَصْلُهُ مِنْ إِصْرَارِ الْحِمَارِ عَلَى الْعَانَةِ، وَهُوَ أَنْ يُنَحَّى عَلَيْهَا صَارَّ أُذُنَيْهِ.

﴿مُسْتَكْبِرًا﴾[3] عَنِ الْإِيمَانِ بِالْآيَاتِ وَالْإِذْعَانِ لِمَا يَنْطِقُ بِهِ مِنَ الْحَقِّ، مزدريًا لَهَا معجبًا بِمَا عِنْدَهُ.

قِيلَ: نَزَلَتْ في النَّضِرِ بْنِ الْحَرْثِ وَمَا كَانَ يَشْتَرِي مِنْ أَحَادِيثِ الْأَعَاجِمِ، وَيُشْغِلُ النَّاسَ بِهَا عَنِ اسْتِمَاعِ الْقُرْآنِ.

وَالْآيَةُ عَامَّةٌ في كُلِّ مَا كَانَ مُضَارًّا لِدِينِ اللَّهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى ثُمَّ في قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا﴾[4]؟

قُلْتُ: كَمَعْنَاهُ في قَوْلِ الْقَائِلِ:

يَرَى غَمَرَاتِ الْمَوْتِ ثُمَّ يَزُورُهَـــــــا

وَذَلِكَ أَنَّ غَمَرَاتِ الْمَوْتِ حَقِيقَةٌ، بِأَنْ يَنْجُوَ رَائِيهَا بِنَفْسِهِ وَيَطْلُبَ الْفِرَارَ عَنْهَا.

وَأَمَّا زِيَارَتُهَا وَالْإِقْدَامُ عَلَى مُزَاوَلَتِهَا. فَأَمْرٌ مُسْتَبْعَدٌ، فَمَعْنَى ثُمَّ: الْإِيذَانُ بِأَنَّ فِعْلَ الْمُقَدَّمِ عَلَيْهَا بَعْدَمَا رَآهَا وَعَايَنَهَا، شَيْءٌ يُسْتَعْبَدُ في الْعَادَاتِ وَالطِّبَاعِ، وَكَذَلِكَ آيَاتُ اللَّهِ الْوَاضِحَةُ النَّاطِقَةُ بِالْحَقِّ، مَنْ تُلِيَتْ عَلَيْهِ وَسَمِعَهَا: كَانَ مُسْتَعْبَدًا في الْعُقُولِ إِصْرَارُهُ عَلَى الضَّلَالَةِ عِنْدَهَا وَاسْتِكْبَارُهُ عَنِ الْإِيمَانِ بِهَا.

﴿كَأَنْ﴾[5] مُخَفَّفَةٌ، وَالْأَصْلُ كَأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْهَا: وَالضَّمِيرُ ضَمِيرُ الشَّأْنِ، كَمَا في قَوْلِهِ:

---

1 سورة الدُّخَانِ، الآية .

2 سورة الدُّخَانِ، الآية .

3 سورة الدُّخَانِ، الآية .

4 سورة الدُّخَانِ، الآية .

5 سورة الدُّخَانِ، الآية .

كَأَنْ ظَبْيَةً تَعْطُو إِلَى نَاضِرِ السَّلَمِ

وَمَحِلُّ الْجُمْلَةِ النَّصْبُ عَلَى الْحَالِ، أَيْ: يَصِيرُ مِثْلَ غَيْرِ السَّامِعِ.

﴿وَإِذَا﴾[1] بَلَغَهُ شَيْءٌ مِنْ آيَاتِنَا وَعَلِمَ أَنَّهُ مِنْهَا ﴿اتَّخَذَهَا﴾[2]، أَيِ اتَّخَذَ الْآيَاتِ ﴿هُزُوًا﴾[3]، وَلَمْ يَقُلِ: اتَّخَذَهُ، لِلْإِشْعَارِ بِأَنَّهُ إِذَا أَحَسَّ بِشَيْءٍ مِنَ الْكَلَامِ أَنَّهُ مِنْ جُمْلَةِ الْآيَاتِ الَّتِي أَنْزَلَهَا اللَّهُ –تَعَالَى– عَلَى مُحَمَّدٍ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: خَاضَ فِي الِاسْتِهْزَاءِ بِجَمِيعِ الْآيَاتِ. وَلَمْ يَقْتَصِرْ عَلَى الِاسْتِهْزَاءِ بِمَا بَلَغَهُ.

وَيُحْتَمَلُ: وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا يُمْكِنُ أَنْ يَتَشَبَّثَ بِهِ الْمُعَانِدُ، وَيَجِدُ لَهُ مَحْمَلًا يَتَسَلَّقُ بِهِ عَلَى الطَّعْنِ وَالْغَمِيزَةِ: افْتَرَصَهُ وَاتَّخَذَ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا، وَذَلِكَ نَحْوُ افْتِرَاصِ ابْنِ الزَّبَعْرَى قَوْلُهُ –عَزَّ وَجَلَّ–: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾[4]، وَمُغَالَطَتُهُ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، وَقَوْلُهُ: خَصِمْتُكَ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَرْجِعَ الضَّمِيرُ إِلَى شَيْءٍ، لِأَنَّهُ فِي مَعْنَى الْآيَةِ كَقَوْلِ أَبِي الْعَتَاهِيَةِ:

نَفْسِي بِشَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا مُعَلَّقَةٌ أَللَّهُ وَالْقَائِمُ الْمَهْدِيُّ يَكْفِيهَا

حَيْثُ أَرَادَ عُتْبَةُ.

وَقُرِئَ: (عِلْمُ أُولَئِكَ) إِشَارَةٌ إِلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ، لِشُمُولِهِ الْأَفَّاكِينَ.

وَالْوَرَاءُ اسْمٌ لِلْجِهَةِ الَّتِي يُوَارِيهَا الشَّخْصُ مِنْ خَلْفٍ أَوْ قُدَّامٍ.

قَالَ:

أَلَيْسَ وَرَائِي أَنْ تَرَاخَتْ مَنِيَّتِي؟ أَدَبٌ مَعَ الْوِلْدَانِ أَزْحَفُ كَالنَّسْرِ

وَمِنْهُ قَوْلُهُ –عَزَّ وَجَلَّ–: ﴿مِنْ وَرَائِهِمْ﴾[5]، أَيْ مِنْ قُدَّامِهِمْ، ﴿مَا كَسَبُوا﴾[6] مِنَ الْأَمْوَالِ فِي رَحْلِهِمْ وَمَتَاجِرِهِمْ، ﴿وَلا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾[7] مِنَ الْأَوْثَانِ.

---

[1] سورة الدُّخَانِ، الآية .

[2] سورة الدُّخَانِ، الآية .

[3] سورة الدُّخَانِ، الآية .

[4] سورة الْأَنْبِيَاءُ، الآية 98.

[5] سورة الدُّخَانِ، الآية .

[6] سورة الدُّخَانِ، الآية .

[7] سورة الدُّخَانِ، الآية .

﴿هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ﴾[1]

﴿هَذَا﴾[2] إِشَارَةٌ إِلَى الْقُرْآنِ، يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ -تَعَالَى-: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾[3]، لِأَنَّ آيَاتِ رَبِّهِمْ هِيَ الْقُرْآنُ، أَيْ هَذَا الْقُرْآنُ كَامِلٌ فِي الْهِدَايَةِ، كَمَا تَقُولُ: زِيدٌ رَجُلٌ، تُرِيدُ كَامِلَ فِي الرُّجُولِيَّةِ. وَأَيُّمَا رَجُلٍ.

وَالرِّجْزُ: أَشَدُّ الْعَذَابِ.

وَقُرِئَ بِجَرِّ (أَلِيمٍ) وَرَفْعِهِ.

﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[4]

﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾[5] بِالتِّجَارَةِ أَوْ بِالْغَوْصِ عَلَى اللُّؤْلُؤِ وَالْمَرْجَانِ وَاسْتِخْرَاجِ اللَّحْمِ الطَّرِيِّ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَنَافِعِ الْبَحْرِ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى ﴿مِنْهُ﴾[6] فِي قَوْلِهِ: ﴿جَمِيعًا مِنْهُ﴾[7]؟ وَمَا مَوْقِعُهَا مِنَ الْإِعْرَابِ؟

قُلْتُ: هِيَ وَاقِعَةٌ مَوْقِعَ الْحَالِ، وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ سَخَّرَ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ كَائِنَةً مِنْهُ وَحَاصِلَةً مِنْ عِنْدِهِ، يَعْنِي: أَنَّهُ مُكَوِّنُهَا وَمُوجِدُهَا بِقُدْرَتِهِ وَحِكْمَتِهِ، ثُمَّ مُسَخِّرُهَا لِخَلْقِهِ.

---

1 سورة الدُّخَانِ، الآية .

2 سورة الدُّخَانِ، الآية .

3 سورة الدُّخَانِ، الآية .

4 سورة الدُّخَانِ، الآية .

5 سورة الدُّخَانِ، الآية .

6 سورة الدُّخَانِ، الآية .

7 سورة الدُّخَانِ، الآية .

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ خَبَرَ مُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ، تَقْدِيرُهُ: هِيَ جَمِيعًا مِنْهُ، وَأَنْ يَكُونَ ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ﴾[1] تَأْكِيدًا لِقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿سَخَّرَ لَكُمُ﴾[2]، ثُمَّ ابْتُدِئَ قَوْلُهُ: ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾[3]، وَأَنْ يَكُونَ (مَّا في الْأَرْضِ) مُبْتَدَأً، وَ ﴿مِنْهُ﴾[4] خَبَرُهُ.

وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا–: (مِنْهُ) وَقَرَأَ سَلَمَةُ بْنُ مُحَارِبٍ: (مِنْهُ)، عَلَى أَنْ يَكُونَ مِنْهُ فَاعِلُ سَخِرَ عَلَى الْإِسْنَادِ الْمَجَازِيِّ، أَوْ عَلَى أَنَّهُ خَبَرُ مُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ، أَيْ: ذَلِكَ. أَوْ هُوَ مِنْهُ.

﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾[5]

حَذْفُ الْمَقُولِ، لِأَنَّ الْجَوَابَ دَالٌّ عَلَيْهِ.

وَالْمَعْنَى: قُلْ لَهُمُ اغْفِرُوا يَغْفِرُوا ﴿لا يَرْجُونَ أَيَّامَ﴾[6]: لَا يَتَوَقَّعُونَ وَقَائِعَ اللَّهِ بِأَعْدَائِهِ، مِنْ قَوْلِهِمْ لِوَقَائِعِ الْعَرَبِ: أَيْ أُمُّ الْعَرَبِ .وَقِيلَ: لَا يَأْمَلُونَ الْأَوْقَاتِ الَّتِي وَقَّتَهَا اللَّهُ لِثَوَابِ الْمُؤْمِنِينَ وَوَعَدَهُمُ الْفَوْزَ فيها.

قِيلَ: نَزَلَتْ قَبْلَ آيَةِ الْقِتَالِ، ثُمَّ نُسِخَ حُكْمُهَا. وَقِيلَ: نُزُولُهَا في عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَقَدْ شَتَمَهُ رَجُلٌ مِنْ غِفَارٍ فَهَمَّ أَنْ يَبْطِشَ بِهِ.

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ: كُنَّا بَيْنَ يَدَيْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– فَقَرَأَ قَارِئٌ هَذِهِ الْآيَةَ، فَقَالَ عُمَرُ: لِيُجْزَى عُمَرُ بِمَا صَنَعَ "لِيَجْزِيَ" تَعْلِيلٌ لِلْأَمْرِ بِالْمَغْفِرَةِ، أَيْ: إِنَّمَا أُمِرُوا بِأَنْ يَغْفِرُوا لِمَا أَرَادَهُ اللَّهُ مِنْ تَوْفِيقِهِمْ جَزَاءَ مُغْفِرَتِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

---

1 سورة الدُّخَانِ، الآية .

2 سورة الدُّخَانِ، الآية .

3 سورة الدُّخَانِ، الآية .

4 سورة الدُّخَانِ، الآية .

5 سورة الدُّخَانِ، الآية .

6 سورة الدُّخَانِ، الآية .

فَإِنْ قُلْتَ: قَوْلُهُ: ﴿قَوْمًا﴾[1] مَا وَجْهُ تَنْكِيرِهِ وَإِنَّمَا أَرَادَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُمْ مَعَارِفٌ؟

قُلْتُ: هُوَ مَدْحٌ لَهُمْ وَثَنَاءٌ عَلَيْهِمْ، كَأَنَّهُ قِيلَ: لِيَجْزِيَ أَيْ مَا قَوْمٌ وَقَوْمًا مَخْصُوصِينَ، لِصَبْرِهِمْ وَإِغْضَائِهِمْ عَلَى أَذَى أَعْدَائِهِمْ مِنَ الْكُفَّارِ، وَعَلَى مَا كَانُوا يُجَرِّعُونَهُمْ مِنَ الْغَصَصِ ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[2] مِنَ الثَّوَابِ الْعَظِيمِ بِكَظْمِ الْغَيْظِ وَاحْتِمَالِ الْمَكْرُوهِ.

وَمَعْنَى قَوْلِ عُمَرَ: لِيُجْزَى عُمَرُ بِمَا صَنَعَ: لِيُجْزَى بِصَبْرِهِ وَاحْتِمَالِهِ. وَقَوْلُهُ لِرَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عِنْدَ نُزُولِ الْآيَةِ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَا تَرَى الْغَضَبَ فِي وَجْهِي. وَقُرِئَ: (لِيَجْزِيَ قَوْمًا) أَيِ: اللَّهُ -عَزَّ وَجَلَّ-. وَلِيُجْزَى قَوْمٌ. وَلِيَجْزِيَ قَوْمًا، عَلَى مَعْنَى: وَلِيَجْزِيَ الْجَزَاءَ قَوْمًا.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[3]

﴿الْكِتَابَ﴾[4]: التَّوْرَاةُ.

﴿وَالْحُكْمَ﴾[5]: الْحِكْمَةُ وَالْفِقْهُ، أَوْ فَصْلُ الْخُصُومَاتِ بَيْنَ النَّاسِ، لِأَنَّ الْمُلْكَ كَانَ فِيهِمْ وَالنُّبُوَّةُ.

﴿مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾[6]: مِمَّا أَحَلَّ اللَّهُ لَهُمْ وَأَطَابَ مِنَ الْأَرْزَاقِ.

﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[7] حَيْثُ لَمْ نُؤْتَ غَيْرَهُمْ مِثْلَ مَا آتَيْنَاهُمْ.

---

1 سورة الدُّخَانِ، الآية .

2 سورة الدُّخَانِ، الآية .

3 سورة الدُّخَانِ، الآية .

4 سورة الدُّخَانِ، الآية .

5 سورة الدُّخَانِ، الآية .

6 سورة الدُّخَانِ، الآية .

7 سورة الدُّخَانِ، الآية .

﴿بَيِّنَاتٍ﴾[1]: آيَاتٌ وَمُعْجِزَاتٌ.

﴿مِنَ الأَمْرِ﴾[2]: مِنْ أَمْرِ الدِّينِ، فَمَا وَقَعَ بَيْنَهُمُ الْخِلَافُ فِي الدِّينِ.

﴿إِلاّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ﴾[3] مَا هُوَ مُوجِبٌ لِزَوَالِ الْخِلَافِ وَهُوَ الْعِلْمُ. وَإِنَّمَا اخْتَلَفُوا لِبَغْيٍ حَدَثَ بَيْنَهُمْ، أَوْ لِعَدَاوَةٍ وَحَسَدٍ.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾[4]

﴿عَلَى شَرِيعَةٍ﴾[5]: عَلَى طَرِيقَةٍ وَمِنْهَاجٍ.

﴿مِنَ الأَمْرِ﴾[6]: مِنْ أَمْرِ الدِّينِ، فَاتَّبِعْ شَرِيعَتَكَ الثَّابِتَةَ بِالدَّلَائِلِ وَالْحُجَجِ، وَلَا تَتَّبِعْ مَا لَا حُجَّةَ عَلَيْهِ مِنْ أَهْوَاءِ الْجُهَّالِ، وَدِينِهِمُ الْمَبْنِيُّ عَلَى هَوًى وَبِدْعَةٍ؛ وَهُمْ رُؤَسَاءُ قُرَيْشٍ حِينَ قَالُوا: ارْجِعْ إِلَى دِينِ آبَائِكَ، وَلَا تُوَالِهِمْ، إِنَّمَا يُوَالِي الظَّالِمِينَ مَنْ هُوَ ظَالِمٌ مِثْلُهُمْ؛ وَأَمَّا الْمُتَّقُونَ، فَوَلِيَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ مُوَالُوهُ.

وَمَا أَبْيَنَ الْفَصْلَ بَيْنَ الْوِلَايَتَيْنِ.

﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[7]

---

1 سورة الدُّخَانِ، الآية .

2 سورة الدُّخَانِ، الآية .

3 سورة الدُّخَانِ، الآية .

4 سورة الدُّخَانِ، الآية .

5 سورة الدُّخَانِ، الآية .

6 سورة الدُّخَانِ، الآية .

7 سورة الدُّخَانِ، الآية .

﴿هَذَا﴾[1] الْقُرْآنُ ﴿بَصَائِرُ لِلنَّاسِ﴾[2] جُعِلَ مَا فِيهِ مِنْ مَعَالِمِ الدِّينِ وَالشَّرَائِعِ بِمَنْزِلَةِ الْبَصَائِرِ فِي الْقُلُوبِ. كَمَا جُعِلَ رُوحًا وَحَيَاةً، وَهُوَ هُدًى مِنَ الضَّلَالَةِ، وَرَحْمَةٌ مِنَ الْعَذَابِ لِمَنْ آمَنَ وَأَيْقَنَ.

وَقُرِئَ: (هَذِهِ بَصَائِرُ)، أَيْ: هَذِهِ الْآيَاتُ.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[3]

﴿أَمْ﴾[4] مُنْقَطِعَةٌ. وَمَعْنَى الْهَمْزَةِ فِيهَا إِنْكَارُ الْحُسْبَانِ.

وَالِاجْتِرَاحُ: الِاكْتِسَابُ. وَمِنْهُ الْجَوَارِحُ وَفُلَانٌ جَارِحَةُ أَهْلِهِ، أَيْ: كَاسِبُهُمْ.

﴿أَنْ نَجْعَلَهُمْ﴾[5]، أَيْ نَصِيرَهُمْ. وَهُوَ مِنْ جَعْلِ الْمُتَعَدِّي إِلَى مَفْعُولَيْنِ فَأَوَّلَهُمَا الضَّمِيرُ، وَالثَّانِي: الْكَافُ، وَالْجُمْلَةُ الَّتِي هِيَ ﴿سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾[6] بَدَلٌ مِنَ الْكَافِ، لِأَنَّ الْجُمْلَةَ تَقَعُ مَفْعُولًا ثَانِيًا، فَكَانَتْ فِي حُكْمِ الْمُفْرَدِ.

أَلَا تَرَاكَ لَوْ قُلْتَ: أَنْ نَجْعَلَهُمْ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ، كَانَ سَدِيدًا، كَمَا تَقُولُ: ظَنَنْتُ زَيْدًا أَبُوهُ مُنْطَلِقٌ؟

وَمَنْ قَرَأَ: (سَوَاءً) بِالنَّصْبِ: أَجْرَى سَوَاءً مَجْرَى مُسْتَوِيًا، وَارْتَفَعَ مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ عَلَى الْفَاعِلِيَّةِ، وَكَانَ مُفْرَدًا غَيْرَ جُمْلَةٍ.

وَمَنْ قَرَأَ: (وَمَمَاتَهُمْ) بِالنَّصْبِ، جَعَلَ مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتَهُمْ: ظَرْفَيْنِ، كَمَقْدَمِ الْحَاجِّ وَخَفُوقِ النَّجْمِ. أَيْ سَوَاءٌ: سَوَاءٌ فِي مَحْيَاهُمْ وَفِي مَمَاتِهِمْ.

وَالْمَعْنَى: إِنْكَارٌ أَنْ يَسْتَوِيَ الْمُسِيئُونَ وَالْمُحْسِنُونَ مَحْيَا، وَأَنْ يَسْتَوُوا مَمَاتًا، لِافْتِرَاقِ أَحْوَالِهِمْ أَحْيَاءً. حَيْثُ عَاشَ هَؤُلَاءِ عَلَى الْقِيَامِ بِالطَّاعَاتِ، وَأُولَئِكَ عَلَى رُكُوبِ الْمَعَاصِي.

---

[1] سورة الدُّخَانِ، الآية .

[2] سورة الدُّخَانِ، الآية .

[3] سورة الدُّخَانِ، الآية .

[4] سورة الدُّخَانِ، الآية .

[5] سورة الدُّخَانِ، الآية .

[6] سورة الدُّخَانِ، الآية .

وَمَمَاتًا، حَيْثُ مَاتَ هَؤُلَاءِ عَلَى الْبُشْرَى بِالرَّحْمَةِ وَالْوُصُولِ إِلَى ثَوَابِ اللَّهِ وَرِضْوَانِهِ، وَأُولَئِكَ عَلَى الْيَأْسِ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ وَالْوُصُولِ إِلَى هَوْلِ مَا أَعَدَّ لَهُمْ.

وَقِيلَ: مَعْنَاهُ إِنْكَارُ أَنْ يَسْتَوُوا فِي الْمَمَاتِ كَمَا يَسْتَوُوا فِي الْحَيَاةِ، لِأَنَّ الْمُسِيئِينَ وَالْمُحْسِنِينَ مُسْتَوٍ مَحْيَاهُمْ فِي الرِّزْقِ وَالصِّحَّةِ، وَإِنَّمَا يَفْتَرِقُونَ فِي الْمَمَاتِ، وَقِيلَ: سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ: كَلَامٌ مُسْتَأْنَفٌ عَلَى مَعْنَى: أَنَّ مَحْيَا الْمُسِيئِينَ وَمَمَاتَهُمْ سَوَاءٌ، وَكَذَلِكَ مَحْيَا الْمُحْسِنِينَ وَمَمَاتُهُمْ: كُلٌّ يَمُوتُ عَلَى حَسَبِ مَا عَاشَ عَلَيْهِ.

وَعَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– أَنَّهُ كَانَ يُصَلِّي ذَاتَ لَيْلَةٍ عِنْدَ الْمَقَامِ، فَبَلَغَ هَذِهِ الْآيَةَ، فَجَعَلَ يَبْكِي وَيُرَدِّدُ إِلَى الصَّبَاحِ: سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ.

وَعَنِ الْفُضَيْلِ: أَنَّهُ بَلَغَهَا فَجَعَلَ يُرَدِّدُهَا وَيَبْكِي وَيَقُولُ: يَا فُضَيْلُ، لَيْتَ شِعْرِي مِنْ أَيِّ الْفَرِيقَيْنِ أَنْتَ.

﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾[1]

﴿وَلِتُجْزَى﴾[2] مَعْطُوفٌ عَلَى بِالْحَقِّ، لِأَنَّ فِيهِ مَعْنَى التَّعْلِيلِ، أَوْ عَلَى مُعَلَّلٍ مَحْذُوفٍ تَقْدِيرُهُ: خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، لِيَدُلَّ بِهِ عَلَى قُدْرَتِهِ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ.

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنَ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾[3]

أَيْ: هُوَ مِطْوَاعٌ لِهَوَى النَّفْسِ يَتَّبِعُ مَا تَدْعُوهُ إِلَيْهِ، فَكَأَنَّهُ يَعْبُدُهُ كَمَا يَعْبُدُ الرَّجُلُ إِلَهَهُ. وَقُرِئَ: (آلَهَهُ هَوَاهُ)، لِأَنَّهُ كَانَ يَسْتَحْسِنُ الْحَجَرَ فَيَعْبُدُهُ، فَإِذَا رَأَى مَا هُوَ أَحْسَنُ رَفَضَهُ إِلَيْهِ، فَكَأَنَّهُ اتَّخَذَ هَوَاهُ آلِهَةً شَتَّى: يَعْبُدُ كُلَّ وَقْتٍ وَاحِدًا مِنْهَا.

---

[1] سورة الدُّخَانِ، الآية .

[2] سورة الدُّخَانِ، الآية .

[3] سورة الدُّخَانِ، الآية .

﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ﴾[1]: وَتَرَكَهُ عَنِ الْهِدَايَةِ وَاللُّطْفِ وَخَذَلَهُ عَلَى عِلْمٍ، عَالِمًا بِأَنَّ ذَلِكَ لَا يُجْدِي عَلَيْهِ، وَأَنَّهُ مِمَّنْ لَا لُطْفَ لَهُ، أَوْ مَعَ عِلْمِهِ بِوُجُوهِ الْهِدَايَةِ وَإِحَاطَتِهِ بِأَنْوَاعِ الْأَلْطَافِ الْمُحَصِّلَةِ وَالْمُقَرِّبَةِ.

﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ﴾[2] إِضْلَالِ "اللَّهِ"، وَقُرِئَ: (غِشَاوَةً) بِالْحَرَكَاتِ الثَّلَاثِ. و(غِشْوَةً)، بِالْكَسْرِ وَالْفَتْحِ. وَقُرِئَ: (تَتَذَكَّرُونَ).

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[3]

﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾[4] نَمُوتُ نَحْنُ وَيَحْيَا وَأَوْلَادُنَا، أَوْ يَمُوتُ بَعْضٌ وَيَحْيَا بَعْضٌ، أَوْ نَكُونُ مَوَاتًا نُطَفًا فِي الْأَصْلَابِ، وَنَحْيَا بَعْدَ ذَلِكَ، أَوْ يُصِيبُنَا الْأَمْرَانِ: الْمَوْتُ وَالْحَيَاةُ، يُرِيدُونَ: الْحَيَاةُ فِي الدُّنْيَا وَالْمَوْتُ بَعْدَهَا، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ حَيَاةٌ.

وَقُرِئَ: (نَحْيَا) بِضَمِّ النُّونِ.

وَقُرِئَ: (إِلَّا دَهْرٌ يَمُرُّ) مَا يَقُولُونَ ذَلِكَ عَنْ عِلْمٍ، وَلَكِنْ عَنْ ظَنٍّ وَتَخْمِينٍ: كَانُوا يَزْعُمُونَ أَنَّ مُرُورَ الْأَيَّامِ وَاللَّيَالِي هُوَ الْمُؤَثِّرُ فِي هَلَاكِ الْأَنْفُسِ، وَيُنْكِرُونَ مَلَكَ الْمَوْتِ وَقَبْضَهُ الْأَرْوَاحَ بِأَمْرِ اللَّهِ، وَكَانُوا يُضِيفُونَ كُلَّ حَادِثَةٍ تَحْدُثُ إِلَى الدَّهْرِ وَالزَّمَانِ، وَتَرَى أَشْعَارَهُمْ نَاطِقَةً بِشَكْوَى الزَّمَانِ.

وَمِنْهُ قَوْلُهُ –عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ–: "لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ، فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ"، أَيْ: فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْآتِي بِالْحَوَادِثِ لَا الدَّهْرُ.

---

[1] سورة الدُّخَانِ، الآية .

[2] سورة الدُّخَانِ، الآية .

[3] سورة الدُّخَانِ، الآية .

[4] سورة الدُّخَانِ، الآية .

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1]

وَقُرِئَ: (حُجَّتَهُمْ) بِالنَّصْبِ وَالرَّفْعِ، عَلَى تَقْدِيمِ خَبَرِ كَانَ وَتَأْخِيرِهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ سُمِّيَ قَوْلُهُمْ حُجَّةً وَلَيْسَ بِحُجَّةٍ؟

قُلْتُ: لِأَنَّهُمْ أَدْلَوْا بِهِ كَمَا يُدْلِي الْمُحْتَجُّ بِحُجَّتِهِ وَسَاقُوهُ مَسَاقَهَا، فَسُمِّيَتْ حُجَّةً عَلَى سَبِيلِ التَّهَكُّمِ، أَوْ لِأَنَّهُ فِي حُسْبَانِهِمْ وَتَقْدِيرِهِمْ حُجَّةٌ، أَوْ لِأَنَّهُ فِي أُسْلُوبِ قَوْلِهِ:

تَحِيَّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيـــــــــــــــعُ

كَأَنَّهُ قِيلَ: مَا كَانَ حُجَّتُهُمْ إِلَّا مَا لَيْسَ بِحُجَّةٍ. وَالْمُرَادُ: نَفَى أَنْ تَكُونَ لَهُمْ حُجَّةٌ الْبَتَّةَ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ وَقَعَ قَوْلُهُ: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾[2] جَوَابًا لِقَوْلِهِمْ: ﴿ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[3]؟

قُلْتُ: لَمَّا أَنْكَرُوا الْبَعْثَ وَكَذَّبُوا الرُّسُلَ، وَحَسِبُوا أَنَّ مَا قَالُوهُ قَوْلٌ مُبَكِّتٌ. أَلْزَمُوا مَا هُمْ مُقِرُّونَ بِهِ: مِنْ أَنَّ اللَّهَ -عَزَّ وَجَلَّ- هُوَ الَّذِي يُحْيِيهِمْ ثُمَّ يُمِيتُهُمْ، وَضَمَّ إِلَى إِلْزَامِ ذَلِكَ إِلْزَامَ مَا هُوَ وَاجِبُ الْإِقْرَارِ بِهِ إِنْ أَنْصَفُوا وَأَصْغَوْا إِلَى دَاعِي الْحَقِّ، وَهُوَ جَمْعُهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ كَانَ قَادِرًا عَلَى ذَلِكَ كَانَ قَادِرًا عَلَى الْإِتْيَانِ بِآبَائِهِمْ، وَكَانَ أَهْوَنَ شَيْءٍ عَلَيْهِمْ.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾[4]

---

[1] سورة الدُّخَانِ، الآية .

[2] سورة الدُّخَانِ، الآية .

[3] سورة الدُّخَانِ، الآية .

[4] سورة الدُّخَانِ، الآية .

عَامِلُ النَّصْبِ في (يَوْمِ تَقُومُ) يَخْسَرُ، وَ﴿يَوْمَئِذٍ﴾[1] بَدَلٌ مِنْ (يَوْم تَقُومُ) ﴿جَاثِيَةً﴾[2]: بَارِكَةً مُسْتَوْفِزَةً عَلَى الرُّكْبِ.

وَقُرِئَ: (جَاذِيَةً) وَالْجَذْوُ: أَشَدُّ اسْتِيفَازًا مِنَ الْجَثْوِ، لِأَنَّ الْجَاذِيَ هُوَ الَّذِي يَجْلِسُ عَلَى أَطْرَافِ أَصَابِعِهِ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-: جَاثِيَةٌ مُجْتَمِعَةٌ. وَعَنْ قَتَادَةَ جَمَاعَاتٌ مِنَ الْجَثْوَةِ، وَهِيَ الْجَمَاعَةُ، وَجَمْعُهَا: جُثًى.

وَفِي الْحَدِيثِ: "مَنْ جَثْي جَهَنَّمَ".

وَقُرِئَ: (كُلُّ أُمَّةٍ) عَلَى الِابْتِدَاءِ، وَكُلُّ أُمَّةٍ: عَلَى الْإِبْدَالِ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ.

﴿إِلَى كِتَابِهَا﴾[3]: إِلَى صَحَائِفِ أَعْمَالِهَا، فَاكْتَفى بِاسْمِ الْجِنْسِ، كَقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾[4].

﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ﴾[5] مَحْمُولٌ عَلَى الْقَوْلِ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ أُضِيفَ الْكِتَابُ إِلَيْهِمْ وَإِلَى اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ-؟

قُلْتُ: الْإِضَافَةُ تَكُونُ لِلْمُلَابَسَةِ، وَقَدْ لَابَسَهُمْ وَلَابَسَهُ، أَمَّا مُلَابَسَتُهُ أَيْ إِيَّاهُمْ، فَلِأَنَّ أَعْمَالَهُمْ مُثْبَتَةٌ فِيهِ. وَأَمَّا مُلَابَسَتُهُ، أَيْ إِيَّاهُ، فَلِأَنَّهُ مَالِكُهُ، وَالْآمِرُ مَلَائِكَتُهُ أَنْ يَكْتُبُوا فِيهِ أَعْمَالَ عِبَادِهِ.

﴿يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ﴾[6]: يَشْهَدُ عَلَيْكُمْ بِمَا عَمِلْتُمْ، ﴿بِالْحَقِّ﴾[7]: مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَلَا نُقْصَانٍ.

﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ﴾[8] الْمَلَائِكَةُ ﴿مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[9]، أَيْ: نَسْتَكْتِبُهُمْ أَعْمَالَكُمْ.

---

[1] سورة الدُّخَانِ، الآية .

[2] سورة الدُّخَانِ، الآية .

[3] سورة الدُّخَانِ، الآية .

[4] سورة الْكَهْفُ، الآية 49.

[5] سورة الدُّخَانِ، الآية .

[6] سورة الدُّخَانِ، الآية .

[7] سورة الدُّخَانِ، الآية .

[8] سورة الدُّخَانِ، الآية .

[9] سورة الدُّخَانِ، الآية .

﴿فِي رَحْمَتِهِ﴾[1]: في جَنَّتِهِ.

وَجَوَابُ أَمَّا مَحْذُوفٌ تَقْدِيرُهُ: وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا، فيقَالُ لَهُمْ: ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾[2]، وَالْمَعْنَى: أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلِي، فَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ؟ فَحَذَفَ الْمَعْطُوفَ عَلَيْهِ.

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾[3]

وَقُرِئَ: (وَالسَّاعَةَ) بِالنَّصْبِ عَطْفًا عَلَى الْوَعْدِ، وَبِالرَّفْعِ عَطْفًا عَلَى مَحَلِّ إِنَّ وَاسْمِهَا ﴿مَا السَّاعَةُ﴾[4]، أَيُّ شَيْءٍ السَّاعَةُ؟

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى: ﴿إِنْ نَظُنُّ إِلا ظَنًّا﴾[5]؟

قُلْتُ: أَصْلُهُ نَظُنُّ ظَنًّا. وَمَعْنَاهُ: إِثْبَاتُ الظَّنِّ فَحَسْبُ، فَأُدْخِلَ حَرْفَا النَّفى وَالِاسْتِثْنَاءِ، لِيُفَادَ إِثْبَاتُ الظَّنِّ مَعَ نَفى مَا سِوَاهُ وَزِيدَ نَفى مَا سِوَى الظَّنِّ تَوْكِيدًا بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾[6] ..... ﴿سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾[7]، أَيْ قَبَائِحَ أَعْمَالِهِمْ، أَوْ عُقُوبَاتِ أَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَاتِ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾[8].

---

1 سورة الدُّخَانِ، الآية .

2 سورة الدُّخَانِ، الآية .

3 سورة الدُّخَانِ، الآية .

4 سورة الدُّخَانِ، الآية .

5 سورة الدُّخَانِ، الآية .

6 سورة الدُّخَانِ، الآية .

7 سورة الدُّخَانِ، الآية .

8 سورة الشُّورَى، الآية 45.

﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾[1]

﴿نَنْسَاكُمْ﴾[2]: نَتْرُكُكُمْ في الْعَذَابِ كَمَا تَرَكْتُمْ عِدَةَ ﴿لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾[3]، وَهِيَ الطَّاعَةُ، أَوْ نَجْعَلُكُمْ بِمَنْزِلَةِ الشَّيْءِ الْمَنْسِيِّ غَيْرِ الْمُبَالَى بِهِ، كَمَا لَمْ تُبَالُوا أَنْتُمْ بِلِقَاءِ يَوْمِكُمْ وَلَمْ تُخْطِرُوهُ بِبَالٍ، كَالشَّيْءِ الَّذِي يُطْرَحُ نَسْيًا مَنْسِيًّا.

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا مَعْنَى إِضَافَةِ اللِّقَاءِ إِلَى الْيَوْمِ؟

قُلْتُ: كَمَعْنَى إِضَافَةِ الْمُكْرِ في قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾[4]، أَيْ نَسِيتُمْ لِقَاءَ الْيَوْمِ في يَوْمِكُمْ هَذَا وَلِقَاءَ جَزَائِهِ .

وَقُرِئَ: (لَا يَخْرُجُونَ) بِفَتْحِ الْيَاءِ.

﴿وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾[5]: وَلَا يَطْلُبُ مِنْهُمْ أَنْ يَعْتِبُوا رَبَّهُمْ أَيْ يَرْضُوهُ.

﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[6]

﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ﴾[7] فَاحْمَدُوا اللَّهَ الَّذِي هُوَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ كُلِّ شَيْءٍ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْعَالَمِينَ، فَإِنَّ مِثْلَ هَذِهِ الرُّبُوبِيَّةِ الْعَامَّةِ يُوجِبُ الْحَمْدَ وَالثَّنَاءَ عَلَى كُلِّ مَرْبُوبٍ.

---

1 سورة الدُّخَانِ، الآية .
2 سورة الدُّخَانِ، الآية .
3 سورة الدُّخَانِ، الآية .
4 سورة سَبَأٍ، الآية 33.
5 سورة الدُّخَانِ، الآية .
6 سورة الدُّخَانِ، الآية .
7 سورة الدُّخَانِ، الآية .

وَكَبَّرُوهُ، فَقَدْ ظَهَرَتْ آثَارُ كِبْرِيَائِهِ وَعَظَمَتِهِ ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[1]، وَحُقُّ مِثْلِهِ أَنْ يُكَبَّرَ وَيُعَظَّمَ.

عَنْ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "مَنْ قَرَأَ حم الْجَاثِيَةَ سَتَرَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ وَسَكَّنَ رَوْعَتَهُ يَوْمَ الْحِسَابِ".

[1] سورة الدُّخَانِ، الآية .

سُورَةُ الْأَحْقَافِ

سورة الأحقاف

مَكِّيَّةٌ [إِلَّا الْآيَاتُ 10 و 15 و 35 فَمَدَنِيَّةٌ]
وَآيَاتُهَا 34 وَقِيلَ 35 آيَةً
[نَزَلَتْ بَعْدَ الْجَاثِيَةِ]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حم تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾[1]

﴿إِلاّ بِالْحَقِّ﴾[2] إِلَّا خَلْقًا مُلْتَبِسًا بِالْحِكْمَةِ وَالْغَرَضِ الصَّحِيحِ، وَبِتَقْدِيرِ (أَجَلٍ مُسَمًّى) يَنْتَهِي إِلَيْهِ، وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا﴾[3] مِنْ هَوْلِ ذَلِكَ الْيَوْمِ الَّذِي لَا بُدَّ لِكُلِّ خَلْقٍ مِنَ انْتِهَائِهِ إِلَيْهِ.

﴿مُعْرِضُونَ﴾[4]: لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَلَا يَهْتَمُّونَ بِالِاسْتِعْدَادِ لَهُ.

وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ مَا مَصْدَرِيَّةً، أَيْ: عَنْ إِنْذَارِهِمْ ذَلِكَ الْيَوْمَ.

---

1 سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

2 سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

3 سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

4

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[1]

﴿بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾[2]، أَيْ مِنْ قَبْلِ هَذَا الْكِتَابِ وَهُوَ الْقُرْآنُ، يَعْنِي: أَنَّ هَذَا الْكِتَابَ نَاطِقٌ بِالتَّوْحِيدِ وَإِبْطَالِ الشِّرْكِ.

وَمَا مِنْ كِتَابٍ أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كُتُبِ اللَّهِ إِلَّا وَهُوَ نَاطِقٌ بِمِثْلِ ذَلِكَ، فَائْتُوا بِكِتَابٍ وَاحِدٍ مُنَزَّلٍ مَنْ قَبْلِهِ شَاهِدٍ بِصِحَّةِ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ.

﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ﴾[3]: أَوْ بَقِيَّةٍ مِنْ عِلْمٍ بَقِيَتْ عَلَيْكُمْ مِنْ عُلُومِ الْأَوَّلِينَ، مِنْ قَوْلِهِمْ: سَمِنَتِ النَّاقَةُ عَلَى أَثَارَةٍ مِنْ شَحْمٍ، أَيْ: عَلَى بَقِيَّةِ شَحْمٍ كَانَتْ بِهَا مِنْ شَحْمٍ ذَاهِبٍ.

وَقُرِئَ: (أَثَرَةٍ)، أَيْ: مِنْ شَيْءٍ أَوَثَرْتُمْ بِهِ وَخَصَصْتُمْ مِنْ عِلْمٍ لَا إِحَاطَةَ بِهِ لِغَيْرِكُمْ.

وَقُرِئَ: (أَثَرَةٍ) بِالْحَرَكَاتِ الثَّلَاثِ فِي الْهَمْزَةِ مَعَ سُكُونِ الثَّاءِ، فَالْأَثَرَةُ بِالْكَسْرِ بِمَعْنَى الْأَثَرَةِ.

وَأَمَّا الْأَثْرَةُ فَالْمَرَّةُ مِنْ مَصْدَرِ: أَثَرَ الْحَدِيثَ إِذَا رَوَاهُ.

وَأَمَّا الْأَثَرَةُ بِالضَّمِّ فَاسْمُ مَا يُؤْثَرُ، كَالْخُطْبَةِ: اسْمُ مَا يُخْطَبُ بِهِ.

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾[4]

---

[1] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

[2] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

[3] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

[4] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾[1] مَعْنَى الِاسْتِفْهَامِ فِيهِ إِنْكَارُ أَنْ يَكُونَ فِي الضَّلَالِ كُلُّهُمْ أَبْلَغُ ضَلَالًا مِنْ عَبَدَةِ الْأَصْنَامِ، حَيْثُ يَتْرُكُونَ دُعَاءَ السَّمِيعِ الْمُجِيبِ الْقَادِرِ عَلَى تَحْصِيلِ كُلِّ بُغْيَةٍ وَمَرَامٍ، وَيَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ جَمَادًا لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ وَلَا قُدْرَةَ بِهِ عَلَى اسْتِجَابَةِ أَحَدٍ مِنْهُمْ مَا دَامَتِ الدُّنْيَا وَإِلَى أَنْ تَقُومَ الْقِيَامَةُ، وَإِذَا قَامَتِ الْقِيَامَةُ وَحُشِرَ النَّاسُ: كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً، وَكَانُوا عَلَيْهِمْ ضِدًّا، فَلَيْسُوا فِي الدَّارَيْنِ إِلَّا عَلَى نَكَدٍ وَمَضَرَّةٍ، لَا تَتَوَلَّاهُمْ فِي الدُّنْيَا بِالِاسْتِجَابَةِ، وَفِي الْآخِرَةِ تُعَادِيهِمْ وَتَجْحَدُ عِبَادَتَهُمْ.

وَإِنَّمَا قِيلَ: ﴿مَنْ﴾[2] وَ﴿هُمْ﴾[3]، لِأَنَّهُ أَسْنَدَ إِلَيْهِمْ مَا يُسْنَدُ إِلَى أُولِي الْعِلْمِ مِنَ الِاسْتِجَابَةِ وَالْغَفْلَةِ، وَلِأَنَّهُمْ كَانُوا يَصِفُونَهُمْ بِالتَّمْيِيزِ جَهْلًا وَغَبَاوَةً.

وَيَجُوزُ أَنْ يُرِيدَ: كُلَّ مَعْبُودٍ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالْأَوْثَانِ، فَغُلِّبَ غَيْرُ الْأَوْثَانِ عَلَيْهَا.

قُرِئَ: (مَا لَا يَسْتَجِيبُ)، وَقُرِئَ: (يَدْعُو غَيْرَ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ)، وَوَصَفَهُمْ بِتَرْكِ الِاسْتِجَابَةِ وَالْغَفْلَةِ طَرِيقُهُ طَرِيقُ التَّهَكُّمِ بِهَا وَبِعَبَدَتِهَا.

وَنَحْوُهُ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾[4].

﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾[5]

﴿بَيِّنَاتٍ﴾[6] جَمْعُ بَيِّنَةٍ: وَهِيَ الْحُجَّةُ وَالشَّاهِدُ، أَوْ وَاضِحَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ.

---

1 سورة الْأَحْقَافِ، الآية .
2 سورة الْأَحْقَافِ، الآية .
3 سورة الْأَحْقَافِ، الآية .
4 سورة الْأَحْقَافِ، الآية .
5 سورة الْأَحْقَافِ، الآية .
6 سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

وَاللَّامُ في "لِلْحَقِّ" مِثْلُهَا في قَوْلِهِ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا﴾[1]، أَيْ لِأَجْلِ الْحَقِّ وَلِأَجَلِّ الَّذِينَ آمَنُوا.

وَالْمُرَادُ بِالْحَقِّ: الْآيَاتُ، وَبِالَّذِينِ كَفَرُوا: الْمَتْلُوُّ عَلَيْهِمْ، فَوَضَعَ الظَّاهِرَانِ مَوْضِعَ الضَّمِيرَيْنِ، لِلتَّسْجِيلِ عَلَيْهِمْ بِالْكُفْرِ، وَلِلْمَتْلُوِّ بِالْحَقِّ ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾[2]، أَيْ: بَادَهُوهُ بِالْجُحُودِ سَاعَةَ أَتَاهُمْ، وَأَوَّلُ مَا سَمِعُوهُ مِنْ غَيْرِ إِجَالَةِ فِكْرٍ وَلَا إِعَادَةِ نَظَرٍ.

وَمِنْ عِنَادِهِمْ وَظُلْمِهِمْ: أَنَّهُمْ سُمُّوهُ سِحْرًا مُبِينًا ظَاهِرًا أَمْرُهُ في الْبُطْلَانِ لَا شُبْهَةَ فيهِ.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[3]

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾[4]: إِضْرَابٌ عَنْ ذِكْرِ تَسْمِيَتِهِمُ الْآيَاتِ سِحْرًا إِلَى ذِكْرِ قَوْلِهِمْ: إِنَّ مُحَمَّدًا افْتَرَاهُ.

وَمَعْنَى الْهَمْزَةِ أَمِ: الْإِنْكَارُ وَالتَّعْجِيبُ، كَأَنَّهُ قِيلَ: دَعْ هَذَا وَاسْمَعْ قَوْلَهُمُ الْمُسْتَنْكَرَ الْمُفْضَى مِنْهُ الْعَجَبُ، وَذَلِكَ أَنَّ مُحَمَّدًا كَانَ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ حَتَّى يَقُولَهُ وَيَفْتَرِيَهُ عَلَى اللَّهِ، وَلَوْ قَدَرَ عَلَيْهِ دُونَ أُمَّةِ الْعَرَبِ، لَكَانَتْ قُدْرَتُهُ عَلَيْهِ مُعْجِزَةً لِخَرْقِهَا الْعَادَةَ، وَإِذَا كَانَتْ مُعْجِزَةً كَانَتْ تَصْدِيقًا مِنَ اللَّهِ لَهُ، وَالْحَكِيمُ لَا يُصَدِّقُ الْكَاذِبَ فَلَا يَكُونُ مُفْتَرِيًا.

وَالضَّمِيرُ لِلْحَقِّ، وَالْمُرَادُ بِهِ الْآيَاتُ.

---

[1] سورة الْأَحْقَافُ، الآية 11.

[2] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

[3] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

[4] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ﴾[1] عَلَى سَبِيلِ الْفَرْضِ عَاجَلَنِي اللَّهُ –تَعَالَى– لَا مَحَالَةَ بِعُقُوبَةِ الِافْتِرَاءِ عَلَيْهِ. فَلَا تَقْدِرُونَ عَلَى كَفِّهِ عَنْ مُعَاجَلَتِي وَلَا تُطِيقُونَ دَفْعَ شَيْءٍ مِنْ عِقَابِهِ عَنِّي، فَكَيْفَ أَفْتَرِيهِ وَأَتَعَرَّضُ لِعِقَابِهِ.

يُقَالُ: فُلَانٌ لَا يَمْلِكُ إِذَا غَضِبَ، وَلَا يَمْلِكُ عِنَانَهُ إِذَا صَمَّمَ، وَمِثْلُهُ: ﴿فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾[2]، ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾[3].

وَمِنْهُ قَوْلُهُ –عَلَيْهِ السَّلَامُ –: "لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا".

ثُمَّ قَالَ: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾[4]، أَيْ تَنْدَفِعُونَ فِيهِ مِنَ الْقَدْحِ فِي وَحْيِ اللَّهِ –تَعَالَى–، وَالطَّعْنِ فِي آيَاتِهِ، وَتَسْمِيَتِهِ سِحْرًا تَارَةً وَفِرْيَةً أُخْرَى.

﴿كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾[5]: يَشْهَدُ لِي بِالصِّدْقِ وَالْبَلَاغِ، وَيَشْهَدُ عَلَيْكُمْ بِالْكَذِبِ وَالْجُحُودِ. وَمَعْنَى ذِكْرِ الْعِلْمِ وَالشَّهَادَةِ وَعِيدٌ بِجَزَاءِ إِفَاضَتِهِمْ.

﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[6]: مَوْعِدَةٌ بِالْغُفْرَانِ وَالرَّحْمَةِ إِنْ رَجَعُوا عَنِ الْكُفْرِ وَتَابُوا وَآمَنُوا، وَإِشْعَارٌ بِحِلْمِ اللَّهِ عَنْهُمْ مَعَ عِظَمِ مَا ارْتَكَبُوا.

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا مَعْنَى إِسْنَادِ الْفِعْلِ إِلَيْهِمْ فِي قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِي﴾[7]؟

قُلْتُ: كَانَ فِيمَا أَتَاهُمْ بِهِ النَّصِيحَةُ لَهُمْ وَالْإِشْفَاقِ عَلَيْهِمْ مِنْ سُوءِ الْعَاقِبَةِ وَإِرَادَةِ الْخَيْرِ بِهِمْ، فَكَأَنَّهُ قَالَ لَهُمْ: إِنِ افْتَرَيْتُهُ وَأَنَا أُرِيدُ بِذَلِكَ التَّنَصُّحَ لَكُمْ وَصَدَّكُمْ عَنْ عِبَادَةِ الْآلِهَةِ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ، فَمَا تُغْنُونَ عَنِّي أَيُّهَا الْمَنْصُوحُونَ إِنْ أَخَذَنِي اللَّهُ بِعُقُوبَةِ الِافْتِرَاءِ عَلَيْهِ.

---

[1] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

[2] سورة الْمَائِدَةُ، الآية 17.

[3] سورة الْمَائِدَةُ، الآية 41.

[4] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

[5] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

[6] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

[7] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾[1]

الْبِدْعُ، بِمَعْنَى: الْبَدِيعِ، كَالْخُفِّ بِمَعْنَى الْخَفِيفِ. وَقُرِئَ: (بِدَعًا) بِفَتْحِ الدَّالِّ، أَيْ: ذَا بِدَعٍ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ صِفَةً عَلَى فِعْلٍ، كَقَوْلِهِمْ: دِينٌ قَيِّمٌ، وَلَحْمٌ زَيْمٌ. كَانُوا يَقْتَرِحُونَ عَلَيْهِ الْآيَاتِ وَيَسْأَلُونَهُ عَمَّا لَمْ يُوحَ بِهِ إِلَيْهِ مِنَ الْغُيُوبِ. فَقِيلَ لَهُ: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ﴾[2]، فَآتِيكُمْ بِكُلِّ مَا تَقْتَرِحُونَهُ، وَأُخْبِرُكُمْ بِكُلِّ مَا تَسْأَلُونَ عَنْهُ مِنَ الْمُغَيَّبَاتِ، فَإِنَّ الرُّسُلَ لَمْ يَكُونُوا يَأْتُونَ إِلَّا بِمَا آتَاهُمْ مِنْ آيَاتِهِ، وَلَا يُخْبِرُونَ إِلَّا بِمَا أَوْحَى إِلَيْهِمْ. وَلَقَدْ أَجَابَ مُوسَى –صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ– عَنْ قَوْلِ فِرْعَوْنَ: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى﴾[3]؟ بِقَوْلِهِ: ﴿عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾[4].

﴿وَمَا أَدْرِي﴾[5]، لِأَنَّهُ لَا عِلْمَ لِي بِالْغَيْبِ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِي وَبِكُمْ فِيمَا يُسْتَقْبَلُ مِنَ الزَّمَانِ مِنْ أَفْعَالِهِ، وَيَقْدِرُ لِي وَلَكُمْ مِنْ قَضَايَاهُ، ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾[6].

وَعَنِ الْحَسَنِ: وَمَا أَدْرِي مَا يَصِيرُ إِلَيْهِ أَمْرِي وَأَمْرُكُمْ فِي الدُّنْيَا، وَمِنَ الْغَالِبِ مِنَّا وَالْمَغْلُوبِ.

وَعَنِ الْكَلْبِيِّ: قَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ –وَقَدْ ضَجِرُوا مِنْ أَذَى الْمُشْرِكِينَ–: حَتَّى مَتَى نَكُونُ عَلَى هَذَا؟ فَقَالَ: (مَا أَدْرِي مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ) أَأُتْرَكُ بِمَكَّةَ أَمْ أُومَرُ بِالْخُرُوجِ إِلَى أَرْضٍ قَدْ رُفِعَتْ لِي وَرَأَيْتُهَا –يَعْنِي فِي مَنَامِهِ– ذَاتُ نَخِيلٍ وَشَجَرٍ؟

---

1 سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

2 سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

3 سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

4 سورة طه، الآية 52.

5 سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

6 سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ فِي الْآخِرَةِ، وَقَالَ: هِيَ مَنْسُوخَةٌ بِقَوْلِهِ: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[1]، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ نَفيا لِلدِّرَايَةِ الْمُفَصَّلَةِ. وَقُرِئَ: (مَا يَفْعَلُ) بِفَتْحِ الْيَاءِ، أَيْ: يَفْعَلُ اللَّهُ -عَزَّ وَجَلَّ-.

فَإِنْ قُلْتَ: إِنَّ (يَفْعَلُ) مُثْبَتٌ غَيْرُ مَنْفي، فَكَانَ وَجْهُ الْكَلَامِ: مَا يَفْعَلُ بِي وَبِكُمْ.

قُلْتُ: أَجَلْ، وَلَكِنَّ النَّفي في (مَا أَدْرِي) لَمَّا كَانَ مُشْتَمِلًا عَلَيْهِ لِتَنَاوُلِهِ "مَا"، وَمَا في حَيِّزِهِ: صَحَّ ذَلِكَ وَحَسُنَ.

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ﴾[2] كَيْفَ دَخَلَتِ الْيَاءُ في حَيِّزِ أَنَّ؟ وَذَلِكَ لِتَنَاوُلِ النَّفي، أَيْ أَنَّهَا مَعَ مَا في حَيِّزِهَا؟!

وَ﴿مَا﴾[3] في ﴿مَا يَفْعَلُ﴾[4] يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ مَوْصُولَةً مَنْصُوبَةً، وَأَنْ تَكُونَ اسْتِفْهَامِيَّةً مَرْفُوعَةً.

وَقُرِئَ: (يُوحِي) أَيِ اللَّهُ -عَزَّ وَجَلَّ-.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[5]

جَوَابُ الشَّرْطِ مَحْذُوفٌ تَقْدِيرُهُ: إِنْ كَانَ الْقُرْآنُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ أَلَسْتُمْ ظَالِمِينَ.

---

[1] سورة الْفَتْحُ، الآية 22.

[2] سورة الْأَحْقَافُ، الآية 33.

[3] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

[4] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

[5] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

وَيَدُلُّ عَلَى هَذَا الْمَحْذُوفِ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[1]، وَالشَّاهِدُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ، لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– الْمَدِينَةَ نَظَرَ إِلَى وَجْهِهِ، فَعَلِمَ أَنَّهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ. وَتَأَمَّلَهُ، فَتَحَقَّقَ أَنَّهُ هُوَ النَّبِيُّ الْمُنْتَظَرُ، وَقَالَ لَهُ: إِنِّي سَائِلُكَ عَنْ ثَلَاثٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا نَبِيٌّ: مَا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ؟ وَمَا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ؟ وَمَا بَالُ الْوَلَدِ يَنْزِعُ إِلَى أَبِيهِ أَوْ إِلَى أُمِّهِ؟ فَقَالَ –عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ–: "أَمَّا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ فَنَارٌ تَحْشُرُهُمْ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ، وَأَمَّا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ فَزِيَادَةُ كَبِدِ حُوتٍ، وَأَمَّا الْوَلَدُ فَإِذَا سَبَقَ مَاءُ الرَّجُلِ نَزَعَهُ، وَإِنْ سَبَقَ مَاءُ الْمَرْأَةِ نَزَعَتْهُ". فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا، ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ الْيَهُودَ قَوْمٌ بُهْتٌ وَإِنْ عَلِمُوا بِإِسْلَامِي قَبْلَ أَنْ تَسْأَلَهُمْ عَنِّي بَهَتُونِي عِنْدَكَ. فَجَاءَتِ الْيَهُودُ، فَقَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: أَيُّ رَجُلٍ عَبْدُ اللَّهِ فِيكُمْ؟ فَقَالُوا: خَيْرُنَا وَابْنُ خَيْرِنَا، وَسَيِّدُنَا وَابْنُ سَيِّدِنَا، وَأَعْلَمُنَا وَابْنُ أَعْلَمِنَا. قَالَ: أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ عَبْدُ اللَّهِ؟ قَالُوا: أَعَاذَهُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ عَبْدُ اللَّهِ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَقَالُوا: شَرُّنَا وَابْنُ شَرِّنَا، انْتَقَصُوهُ. قَالَ: هَذَا مَا كُنْتُ أَخَافُ عَلَيْهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَأُحْذَرُ. قَالَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ: مَا سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– يَقُولُ لِأَحَدٍ يَمْشِي عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ إِلَّا لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ، وَفِيهِ نَزَلَ: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ﴾[2]، الضَّمِيرُ لِلْقُرْآنِ، أَيْ: عَلَى مِثْلِهِ فِي الْمَعْنَى، وَهُوَ مَا فِي التَّوْرَاةِ مِنَ الْمَعَانِي الْمُطَابِقَةِ لِمَعَانِي الْقُرْآنِ مِنَ التَّوْحِيدِ وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ﴾[3]، ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى﴾[4]، ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ﴾[5].

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى: إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ عَلَى نَحْوِ ذَلِكَ، يَعْنِي كَوْنُهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: أَخْبِرْنِي عَنْ نَظْمِ هَذَا الْكَلَامِ لِأَقِفَ عَلَى مَعْنَاهُ مِنْ جِهَةِ النَّظْمِ.

---

[1] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

[2] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

[3] سورة الشُّعَرَاءُ، الآية 196.

[4] سورة الْأَعْلَى، الآية 18.

[5] سورة الشُّورَى، الآية 33.

قُلْتُ: الْوَاوُ الْأُولَى عَاطِفَةٌ لِكَفَرْتُمْ عَلَى فِعْلِ الشَّرْطِ، كَمَا عَطَفَتْهُ ﴿ثُمَّ﴾[1] في قَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ﴾[2]، وَكَذَلِكَ الْوَاوُ الْآخِرَةُ عَاطِفَةٌ لِاسْتَكْبَرْتُمْ عَلَى شَهِدَ شَاهِدٌ. وَأَمَّا الْوَاوُ في ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾[3]، فَقَدْ عُطِفَتْ جُمْلَةُ قَوْلِهِ: ﴿شَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾[4] عَلَى جُمْلَةِ قَوْلِهِ: ﴿كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ﴾[5].

وَنَظِيرُهُ قَوْلُكَ: إِنْ أَحْسَنْتُ إِلَيْكَ وَأَسَأْتَ، وَأَقْبَلْتُ عَلَيْكَ وَأَعْرَضْتَ عَنِّي، لَمْ نَتَّفِقْ في أَنَّكَ أَخَذْتَ ضَمِيمَتَيْنِ فَعَطَفْتَهُمَا عَلَى مِثْلَيْهِمَا، وَالْمَعْنَى: قُلْ أَخْبِرُونِي إِنِ اجْتَمَعَ كَوْنُ الْقُرْآنِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مَعَ كُفْرِكُمْ بِهِ، وَاجْتَمَعَ شَهَادَةُ أَعْلَمَ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى نُزُولِ مِثْلِهِ وَإِيمَانِهِ بِهِ، مَعَ اسْتِكْبَارِكُمْ عَنْهُ وَعَنِ الْإِيمَانِ بِهِ، أَلَسْتُمْ أَضَلَّ النَّاسِ وَأَظْلَمَهُمْ؟

وَقَدْ جُعِلَ الْإِيمَانُ في قَوْلِهِ: ﴿فَآمَنَ﴾[6] مُسَبَّبًا عَنِ الشَّهَادَةِ عَلَى مِثْلِهِ، لِأَنَّهُ لَمَّا عَلِمَ أَنَّ مِثْلَهُ أُنْزِلَ عَلَى مُوسَى صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَأَنَّهُ مِنْ جِنْسِ الْوَحْيِ وَلَيْسَ مِنْ كَلَامِ الْبَشَرِ، وَأَنْصَفَ مِنْ نَفْسِهِ فَشَهِدَ عَلَيْهِ وَاعْتَرَفَ كَانَ الْإِيمَانُ نَتِيجَةَ ذَلِكَ.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[7]

---

[1] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

[2] سورة فُصِّلَتْ، الآية 52.

[3] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

[4] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

[5] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

[6] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

[7] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾[1] لِأَجْلِهِمْ وَهُوَ كَلَامُ كُفَّارِ مَكَّةَ، قَالُوا: عَامَّةُ مَنْ يَتْبَعُ مُحَمَّدًا السِّقَاطُ، يَعْنُونَ الْفُقَرَاءَ مِثْلَ عَمَّارٍ وَصُهَيْبٍ وَابْنِ مَسْعُودٍ، فَلَوْ كَانَ مَا جَاءَ بِهِ خَيْرًا مَا سَبَقَنَا إِلَيْهِ هَؤُلَاءِ.

وَقِيلَ: لَمَّا أَسْلَمَتْ جُهَيْنَةُ وَمُزَيْنَةُ وَأَسْلَمُ وَغِفَارٌ، قَالَتْ بَنُو عَامِرٍ وَغَطَفَانُ وَأَسَدُ وَأَشْجَعُ: لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقَنَا إِلَيْهِ رِعَاءُ الْبُهْمِ.

وَقِيلَ: إِنَّ أَمَةً لِعُمَرَ أَسْلَمَتْ، فَكَانَ عُمَرُ يَضْرِبُهَا حَتَّى يَفْتُرَ ثُمَّ يَقُولُ لَوْلَا أَنِّي فَتَرَتْ لَزِدْتُكِ ضَرْبًا، وَكَانَ كُفَّارُ قُرَيْشٍ يَقُولُونَ: لَوْ كَانَ مَا يَدْعُو إِلَيْهِ مُحَمَّدٌ حَقًّا مَا سَبَقَتْنَا إِلَيْهِ فُلَانَةٌ.

وَقِيلَ: كَانَ الْيَهُودُ يَقُولُونَهُ عِنْدَ إِسْلَامِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَأَصْحَابِهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: لَا بُدَّ مِنْ عَامِلٍ فِي الظَّرْفِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ﴾[2]، وَمِنْ مُتَعَلِّقٍ لِقَوْلِهِ: ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾[3] وَغَيْرَ مُسْتَقِيمٍ أَنْ يَكُونَ، ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾[4] هُوَ الْعَامِلُ فِي الظَّرْفِ، لِتَدَافُعِ دَلَالَتَيْ الْمُضِيِّ وَالِاسْتِقْبَالِ، فَمَا وَجْهُ هَذَا الْكَلَامِ؟

قُلْتُ: الْعَامِلُ فِي "إِذْ" مَحْذُوفٌ، لِدَلَالَةِ الْكَلَامِ عَلَيْهِ، كَمَا حُذِفَ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ﴾[5]، وَقَوْلُهُمْ: حِينَئِذٍ الْآنَ، وَتَقْدِيرُهُ: وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ ظَهَرَ عِنَادُهُمْ، فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ، فَهَذَا الْمُضْمَرُ صَحَّ بِهِ الْكَلَامُ، حَيْثُ انْتَصَبَ بِهِ الظَّرْفُ وَكَانَ قَوْلُهُ: ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾[6] مُسَبَّبًا عَنْهُ كَمَا صَحَّ بِإِضْمَارٍ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ﴾[7] لِمُصَادَفَةِ "حَتَّى" مَجْرُورُهَا، وَالْمُضَارِعُ نَاصِبُهُ.

---

[1] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

[2] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

[3] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

[4] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

[5] سورة يُوسُفُ، الآية 15.

[6] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

[7] سورة الْبَقَرَة، الآية 214.

وَقَوْلُهُمْ: ﴿إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾[1] كَقَوْلِهِمْ: أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿كِتَابُ مُوسَى﴾[2] مُبْتَدَأٌ وَمِنْ قَبْلِهِ ظَرْفٌ وَاقِعٌ خَبَرًا مُقَدَّمًا عَلَيْهِ، وَهُوَ نَاصِبٌ ﴿إِمَامًا﴾[3] عَلَى الْحَالِ، كَقَوْلِكَ: فِي الدَّارِ زَيْدٌ قَائِمًا.

وَقُرِئَ: وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى، عَلَى: وَآتَيْنَا الَّذِينَ قَبْلَهُ التَّوْرَاةَ.

وَمَعْنَى: ﴿إِمَامًا﴾[4]: قُدْوَةٌ يُؤْتَمُّ بِهِ فِي دِينِ اللَّهِ وَشَرَائِعِهِ، كَمَا يُؤْتَمُّ بِالْإِمَامِ.

﴿وَرَحْمَةً﴾[5] لِمَنْ آمَنَ بِهِ وَعَمِلَ بِمَا فِيهِ.

﴿وَهَذَا﴾[6] الْقُرْآنُ ﴿كِتَابٌ مُصَدِّقٌ﴾[7] لِكِتَابِ مُوسَى، أَوْ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَقَدُّمِهِ مِنْ جَمِيعِ الْكُتُبِ. وَقُرِئَ (مُصَدِّقَ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ).

﴿لِسَانًا عَرَبِيًّا﴾[8]: حَالٌ مِنْ ضَمِيرِ الْكِتَابِ فِي مُصَدِّقٍ، وَالْعَامِلُ فِيهِ ﴿مُصَدِّقٌ﴾[9]، وَيَجُوزُ أَنْ يَنْتَصِبَ حَالًا عَنْ كِتَابٍ لِتُخَصِّصَهُ بِالصِّفَةِ، وَيَعْمَلَ فِيهِ مَعْنَى الْإِشَارَةِ. وَجَوَّزَ أَنْ يَكُونَ مَفْعُولًا لِمُصَدِّقٍ، أَيْ: يُصَدِّقُ ذَاتَ لِسَانٍ عَرَبِيٍّ وَهُوَ الرَّسُولُ.

وَقُرِئَ: (لِيُنْذِرَ) بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ، وَلِيُنْذِرَ: مِنْ نَذَرَ يُنْذِرُ إِذَا حَذَّرَ.

﴿وَبُشْرَى﴾[10] فِي مَحَلِّ النَّصْبِ مَعْطُوفٌ عَلَى مَحَلِّ لِيُنْذِرَ، لِأَنَّهُ مَفْعُولٌ لَهُ.

﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي

---

[1] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .
[2] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .
[3] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .
[4] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .
[5] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .
[6] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .
[7] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .
[8] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .
[9] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .
[10] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾[1]

قُرِئَ: (حُسْنًا) بِضَمِّ الْحَاءِ وَسُكُونِ السِّينِ، وَبِضَمِّهِمَا، وَبِفَتْحِهِمَا. وَإِحْسَانًا، وَكُرْهًا، بِالْفَتْحِ وَالضَّمِّ، وَهُمَا لُغَتَانِ فِي مَعْنَى الْمَشَقَّةِ، كَالْفَقْرِ وَالْفُقْرِ.

وَانْتِصَابُهُ عَلَى الْحَالِ: أَيْ: ذَاتُ كُرْهٍ، أَوْ عَلَى أَنَّهُ صِفَةٌ لِلْمَصْدَرِ، أَيْ: حَمْلًا ذَا كُرْهٍ.

﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ﴾[2] وَمُدَّةُ حَمْلِهِ وَفِصَالِهِ ﴿ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾[3].

وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ أَقَلَّ الْحَمْلِ سِتَّةُ أَشْهُرٍ، لِأَنَّ مُدَّةَ الرَّضَاعِ إِذَا كَانَتْ حَوْلَيْنِ لِقَوْلِهِ -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾[4]، بَقِيَتْ لِلْحَمْلِ سِتَّةُ أَشْهُرٍ.

وَقُرِئَ: (وَفَصْلُهُ) وَالْفَصْلُ وَالْفِصَالُ: كَالْفَطْمِ وَالْفِطَامِ. بِنَاءً وَمَعْنًى.

فَإِنْ قُلْتَ: الْمُرَادُ بَيَانُ مُدَّةِ الرَّضَاعِ لَا الْفِطَامِ، فَكَيْفَ عَبَّرَ عَنْهُ بِالْفِصَالِ؟

قُلْتُ: لَمَّا كَانَ الرَّضَاعُ يَلِيهِ الْفِصَالُ وَيُلَابِسُهُ، لِأَنَّهُ يَنْتَهِي بِهِ وَيَتِمُّ: سُمِّيَ فِصَالًا، كَمَا سَمَّى الْمُدَّةَ بِالْأَمَدِ مَنْ قَالَ:

كُلُّ حَيٍّ مُسْتَكْمِلٌ مُدَّةَ الْعُمْـ ـرِ وَمُودٍ إِذَا انْتَهَى أَمَدُهْ

وَفِيهِ فَائِدَةٌ، وَهِيَ الدَّلَالَةُ عَلَى الرَّضَاعِ التَّامِّ الْمُنْتَهَى بِالْفِصَالِ وَوَقْتِهِ.

وَقُرِئَ: (حَتَّى إِذَا اسْتَوَى وَبَلَغَ أَشُدَّهُ) وَبُلُوغُ الْأَشُدِّ: أَنْ يَكْتَهِلَ وَيَسْتَوْفِي السِّنَّ الَّتِي تَسْتَحْكِمُ فِيهَا قُوَّتُهُ وَعَقْلُهُ وَتَمْيِيزُهُ، وَذَلِكَ إِذَا أَنَافَ عَلَى الثَّلَاثِينَ وَنَاطَحَ الْأَرْبَعِينَ.

وَعَنْ قَتَادَةَ: ثَلَاثٌ وَثَلَاثُونَ سَنَةً، وَوَجْهُهُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ أَوَّلَ الْأَشُدِّ، وَغَايَتُهُ الْأَرْبَعِينَ.

---

[1] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

[2] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

[3] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

[4] سورة الْبَقَرَةُ، الآية 233.

وَقِيلَ: لَمْ يُبْعَثْ نَبِيٌّ قَطُّ إِلَّا بَعْدَ أَرْبَعِينَ سَنَةً. وَالْمُرَادُ بِالنِّعْمَةِ الَّتِي اسْتَوْزَعَ الشُّكْرَ عَلَيْهَا: نِعْمَةُ التَّوْحِيدِ وَالْإِسْلَامِ، وَجَمْعٌ بَيْنَ شُكْرِي النِّعْمَةِ عَلَيْهِ وَعَلَى وَالِدَيْهِ، لِأَنَّ النِّعْمَةَ عَلَيْهِمَا نِعْمَةٌ عَلَيْهِ.

وَقِيلَ فِي الْعَمَلِ الْمَرْضِيِّ: هُوَ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى ﴿فِي﴾[1] فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾[2]؟

قُلْتُ: مَعْنَاهُ: أَنْ يَجْعَلَ ذَرِّيَّتَهُ مَوْقِعًا لِلصَّلَاحِ وَمَظِنَّةً لَهُ كَأَنَّهُ قَالَ: هَبْ لِيَ الصَّلَاحَ فِي ذُرِّيَّتِي وَأَوْقِعْهُ فِيهِمْ وَنَحْوُهُ:

....

يَجْرَحْ فِي عَرَاقِيبِهَا نَصْلِـــــي

﴿مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[3] مِنَ الْمُخْلِصِينَ.

وَقُرِئَ: (يَتَقَبَّلُ) وَيَتَجَاوَزُ، بِفَتْحِ الْيَاءِ، وَالضَّمِيرُ فِيهِمَا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. وَقُرِئَا بِالنُّونِ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ﴾[4]؟

قُلْتُ: هُوَ نَحْوُ قَوْلِكَ: أَكْرَمَنِي الْأَمِيرُ فِي نَاسٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، تُرِيدُ: أَكْرَمَنِي فِي جُمْلَةِ مَنْ أَكْرَمَ مِنْهُمْ، وَنَظَمَنِي فِي عِدَادِهِمْ، وَمَحَلُّهُ النَّصْبُ عَلَى الْحَالِ، عَلَى مَعْنَى: كَائِنِينَ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَمَعْدُودِينَ فِيهِمْ ﴿وَعْدَ الصِّدْقِ﴾[5] مَصْدَرٌ مُؤَكِّدٌ، لِأَنَّ قَوْلَهُ: يَتَقَبَّلُ، وَيَتَجَاوَزُ: وَعْدٌ مِنَ اللَّهِ لَهُمْ بِالتَّقَبُّلِ وَالتَّجَاوُزِ.

وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي أَبِي بَكْرٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- وَفِي أَبِيهِ أَبِي قُحَافَةَ وَأُمِّهِ أُمُّ الْخَيْرِ وَفِي أَوْلَادِهِ، وَاسْتِجَابَةِ دُعَائِهِ فِيهِمْ.

وَقِيلَ: لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ مِنْهُمْ وَالْأَنْصَارِ أَسْلَمَ هُوَ وَوَلَدَاهُ وَبَنُوهُ وَبَنَاتُهُ غَيْرُ أَبِي بَكْرٍ.

---

[1] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

[2] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

[3] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

[4] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

[5] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾[1]

﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ﴾[2] مُبْتَدَأٌ خَبَرُهُ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾[3].

وَالْمُرَادُ بِـ ﴿الَّذِي﴾[4] قَالَ: الْجِنْسُ الْقَائِلُ ذَلِكَ الْقَوْلَ، وَلِذَلِكَ وَقَعَ الْخَبَرُ مَجْمُوعًا.

وَعَنِ الْحَسَنِ: هُوَ فِي الْكَافِرِ الْعَاقِّ لِوَالِدَيْهِ الْمُكَذِّبِ بِالْبَعْثِ. وَعَنْ قَتَادَةَ: هُوَ نَعْتُ عَبْدِ سُوءٍ عَاقٍّ لِوَالِدَيْهِ فَاجِرٍ لِرَبِّهِ.

وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ قَبْلَ إِسْلَامِهِ، وَقَدْ دَعَاهُ أَبُوهُ أَبُو بَكْرٍ وَأُمُّهُ أُمُّ رُومَانٍ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَأَفَّفَ بِهِمَا وَقَالَ: ابْعَثُوا لِي جُدْعَانَ بْنَ عَمْرٍو وَعُثْمَانَ بْنَ عَمْرٍو، وَهُمَا مِنْ أَجْدَادِهِ حَتَّى أَسْأَلَهُمَا عَمَّا يَقُولُ مُحَمَّدٌ، وَيَشْهَدُوا لِبُطْلَانِهِ أَنَّ الْمُرَادَ بِالَّذِي قَالَ: جَنْسُ الْقَائِلِينَ ذَلِكَ، وَأَنَّ قَوْلَهُ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ: هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ كَانَ مَنْ أَفَاضِلِ الْمُسْلِمِينَ وَسَرَوَاتِهِمْ.

وَعَنْ عَائِشَةَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا– إِنْكَارُ نُزُولِهَا فِيهِ، وَحِينَ كَتَبَ مُعَاوِيَةُ إِلَى مَرْوَانَ بِأَنْ يُبَايِعَ النَّاسَ لِيَزِيدَ قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: لَقَدْ جِئْتُمْ بِهَا هِرَقْلِيَّةً، أَتُبَايِعُونَ لِأَبْنَائِكُمْ؟ فَقَالَ مَرْوَانُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، هُوَ الَّذِي قَالَ اللَّهُ فِيهِ: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا﴾[5] فَسَمِعَتْ عَائِشَةُ فَغَضِبَتْ وَقَالَتْ: وَاللَّهِ مَا هُوَ بِهِ، وَلَوْ شِئْتُ أَنْ أُسَمِّيَهُ لِسَمَّيْتُهُ وَلَكِنَّ اللَّهَ لَعَنَ أَبَاكَ وَأَنْتَ فِي صُلْبِهِ، فَأَنْتَ فَضَضٌ مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ.

---

[1] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

[2] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

[3] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

[4] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

[5] سورة الْأَحْقَافُ، الآية 16.

وَقُرِئَ: (أُفٍّ) بِالْكَسْرِ وَالْفَتْحِ بِغَيْرِ تَنْوِينٍ، وَبِالْحَرَكَاتِ الثَّلَاثِ مَعَ التَّنْوِينِ، وَهُوَ صَوْتٌ إِذَا صَوَّتَ بِهِ الْإِنْسَانُ عَلِمَ أَنَّهُ مُتَضَجِّرٌ، كَمَا إِذَا قَالَ: حِسَّ، عُلِمَ مِنْهُ أَنَّهُ مُتَوَجِّعٌ، وَاللَّامُ لِلْبَيَانِ، مَعْنَاهُ: هَذَا التَّأْفِيفُ لَكُمَا خَاصَّةً، وَلِأَجْلِكُمَا دُونَ غَيْرِكُمَا.

وَقُرِئَ: (أَتَعِدَانِنِي) بِنُونَيْنِ، وَأَتَعِدَانِي: بِأَحَدِهِمَا، وَأَتَعِدَانِي: بِالْإِدْغَامِ.

وَقَدْ قَرَأَ بَعْضُهُمْ: أَتَعِدَانَنِي بِفَتْحِ النُّونِ، كَأَنَّهُ اسْتَثْقَلَ اجْتِمَاعَ النُّونَيْنِ وَالْكَسْرَتَيْنِ وَالْيَاءِ، فَفَتَحَ الْأُولَى تَحَرِّيًا لِلتَّخْفِيفِ، كَمَا تَحَرَّاهُ مَنْ أَدْغَمَ وَمَنْ أَطْرَحَ أَحَدَهُمَا.

﴿أَنْ أُخْرَجَ﴾[1]: أَنِ ابْعَثْ وَاخْرُجْ مِنَ الْأَرْضِ. وَقُرِئَ: (أَخْرَجَ).

﴿وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي﴾[2]، يَعْنِي: وَلَمْ يَبْعَثْ مِنْهُمْ أَحَدٌ ﴿يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ﴾[3] يَقُولَانِ: الْغِيَاثُ بِاللَّهِ مِنْكَ وَمِنْ قَوْلِكَ، وَهُوَ اسْتِعْظَامٌ لِقَوْلِهِ: ﴿وَيْلَكَ﴾[4] دُعَاءٌ عَلَيْهِ بِالثُّبُورِ.

وَالْمُرَادُ بِهِ: الْحَثُّ وَالتَّحْرِيضُ عَلَى الْإِيمَانِ لَا حَقِيقَةَ الْهَلَاكِ ﴿فِي أُمَمٍ﴾[5] نَحْوُ قَوْلِهِ: ﴿فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ﴾[6]، وَقُرِئَ: (أَنْ) بِالْفَتْحِ، عَلَى مَعْنَى: آمَنَ بِأَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ.

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾[7]

---

[1] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .
[2] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .
[3] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .
[4] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .
[5] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .
[6] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .
[7] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

﴿وَلِكُلٍّ﴾[1] مِنَ الْجِنْسَيْنِ الْمَذْكُورَيْنِ ﴿دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾[2]، أَيْ مَنَازِلَ وَمَرَاتِبَ مِنْ جَزَاءِ مَا عَمِلُوا مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَمِنْ أَجْلِ مَا عَمِلُوا مِنْهُمَا.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ قِيلَ: دَرَجَاتٌ، وَقَدْ جَاءَ: الْجَنَّةُ دَرَجَاتٌ وَالنَّارُ دَرَكَاتٌ؟

قُلْتُ: يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ التَّغْلِيبِ، لِاشْتِمَالِ كُلٍّ عَلَى الْفَرِيقَيْنِ "وَلِيُوَفِيهُمْ".

وَقُرِئَ: بِالنُّونِ تَعْلِيلُ مُعَلِّلِهِ مَحْذُوفٌ لِدَلَالَةِ الْكَلَامِ عَلَيْهِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: وَلِيُوَفِيهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَلَا يَظْلِمُهُمْ حُقُوقَهُمْ، قَدَّرَ جَزَاءَهُمْ عَلَى مَقَادِيرِ أَعْمَالِهِمْ، فَجَعَلَ الثَّوَابَ دَرَجَاتٍ وَالْعِقَابَ دَرَكَاتٍ.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾[3]

نَاصِبُ الظَّرْفِ هُوَ الْقَوْلُ الْمُضْمَرُ قَبْلَ ﴿أَذْهَبْتُمْ﴾[4] وَعَرْضُهُمْ عَلَى النَّارِ: تَعْذِيبُهُمْ بِهَا، مِنْ قَوْلِهِمْ: عُرِضَ بَنُو فُلَانٍ عَلَى السَّيْفِ إِذَا قُتِلُوا بِهِ وَمِنْهُ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾[5].

وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ: عَرَضَ النَّارَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَوْلِهِمْ: عَرَضْتُ النَّاقَةَ عَلَى الْحَوْضِ، يُرِيدُونَ: عَرَضَ الْحَوْضَ عَلَيْهَا فَقَبِلُوا.

وَيَدُلُّ عَلَيْهِ تَفْسِيرُ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: يُجَاءُ بِهِمْ إِلَيْهَا، فَيُكْشَفُ لَهُمْ عَنْهَا.

---

[1] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

[2] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

[3] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

[4] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

[5] سورة غَافِرُ، الآية 46.

﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ﴾[1]، أَيْ: مَا كُتِبَ لَكُمْ حَظٌّ مِنَ الطَّيِّبَاتِ إِلَّا مَا قَدْ أَصَبْتُمُوهُ فِي دُنْيَاكُمْ، وَقَدْ ذَهَبْتُمْ بِهِ وَأَخَذْتُمُوهُ، فَلَمْ يَبْقَ لَكُمْ بَعْدَ اسْتِيفَاءِ حَظِّكُمْ شَيْءٌ مِنْهَا.

وَعَنْ عُمَرَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: لَوْ شِئْتُ لَدَعَوْتُ بِصَلَائِقَ وَصِنَابٍ وَكَرَاكِرِ وَأَسْمِنَةٍ، وَلَكِنِّي رَأَيْتُ اللَّهَ تَعَالَى نَعَى عَلَى قَوْمٍ طَيِّبَاتِهِمْ فَقَالَ: أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا. وَعَنْهُ: لَوْ شِئْتُ لَكُنْتُ أَطْيَبَكُمْ طَعَامًا وَأَحْسَنَكُمْ لِبَاسًا، وَلَكِنِّي أَسْتَبْقِي طَيِّبَاتِي.

وَعَنْ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى أَهْلِ الصُّفَّةِ وَهُمْ يُرَقِّعُونَ ثِيَابَهُمْ بِالْأُدْمِ مَا يَجِدُونَ لَهَا رِقَاعًا، فَقَالَ: "أَأَنْتُمُ الْيَوْمَ خَيْرٌ أَوْ يَوْمَ يَغْدُو أَحَدُكُمْ فِي حُلَّةٍ وَيَرُوحُ فِي أُخْرَى، وَيُغَدِّي عَلَيْهِ بِجَفْنَةٍ وَيَرَاحُ عَلَيْهِ بِأُخْرَى، وَيَسْتُرُ بَيْتَهُ كَمَا تُسْتَرُ الْكَعْبَةُ. قَالُوا: نَحْنُ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ. قَالَ: بَلْ أَنْتُمُ الْيَوْمَ خَيْرٌ "وَقُرِئَ: (أَأَذْهَبْتُمْ) بِهَمْزَةِ الِاسْتِفْهَامِ. وَ(آأَذْهَبْتُمْ) بِأَلْفٍ بَيْنَ هَمْزَتَيْنِ: (الْهُونُ) وَ(الْهَوَانُ)، وَقُرِئَ: (عَذَابُ الْهَوَانِ)، وَقُرِئَ: (يَفْسُقُونَ) بِضَمِّ السِّينِ وَكَسْرِهَا.

﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[2]

الْأَحْقَافُ: جَمْعُ حِقْفٍ وَهُوَ رَمْلٌ مُسْتَطِيلٌ مُرْتَفِعٌ فِيهِ انْحِنَاءٌ، مَنِ احْقَوْقَفَ الشَّيْءُ إِذَا اعْوَجَّ، وَكَانَتْ عَادٌ أَصْحَابَ عُمُدٍ يَسْكُنُونَ بَيْنَ رِمَالٍ مُشْرِفِينَ عَلَى الْبَحْرِ بِأَرْضٍ يُقَالُ لَهَا الشَّحْرُ مِنْ بِلَادِ الْيَمَنِ .وَقِيلَ: بَيْنَ عُمَانَ وَمَهْرَةَ.

وَ﴿النُّذُرُ﴾[3] جَمْعُ نَذِيرٍ بِمَعْنَى الْمُنْذِرِ أَوِ الْإِنْذَارِ ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾[4] مِنْ قَبْلِهِ ﴿مِنْ خَلْفِهِ﴾[5] وَمِنْ بَعْدِهِ.

وَقُرِئَ: (مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ بَعْدِهِ).

---

[1] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

[2] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

[3] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

[4] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

[5] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

وَالْمَعْنَى: أَنَّ هُودًا -عَلَيْهِ السَّلَامُ- قَدْ أَنْذَرَهُمْ، فَقَالَ لَهُمْ: لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمُ الْعَذَابَ، وَأَعْلَمَهُمْ أَنَّ الرُّسُلَ الَّذِينَ بُعِثُوا قَبْلَهُ وَالَّذِينَ سَيُبْعَثُونَ بَعْدَهُ كُلُّهُمْ مُنْذِرُونَ نَحْوَ إِنْذَارِهِ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: يَعْنِي الرُّسُلَ الَّذِينَ بُعِثُوا قَبْلَهُ وَالَّذِينَ بُعِثُوا فِي زَمَانِهِ.

وَمَعْنَى: ﴿وَمِنْ خَلْفِهِ﴾[1] عَلَى هَذَا التَّفْسِيرِ وَمِنْ بَعْدِ إِنْذَارِهِ، هَذَا إِذَا عَلَّقْتَ، وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ بِقَوْلِهِ: أَنْذَرَ قَوْمَهُ، وَلَكَ أَنْ تَجْعَلَ قَوْلَهُ -تَعَالَى-: ﴿وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾[2] اعْتِرَاضًا بَيْنَ أَنْذَرَ قَوْمَهُ وَبَيْنَ ﴿أَلا تَعْبُدُوا﴾[3].

وَيَكُونُ الْمَعْنَى: وَاذْكُرْ إِنْذَارَ هُودٍ قَوْمَهُ عَاقِبَةَ الشِّرْكِ وَالْعَذَابِ الْعَظِيمِ، وَقَدْ أَنْذَرَ مَنْ تَقَدَّمَهُ مِنَ الرُّسُلِ وَمَنْ تَأَخَّرَ عَنْهُ مِثْلَ ذَلِكَ، فَاذْكُرْهُمْ.

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[4]

الْإِفْكُ: الصَّرْفُ. يُقَالُ أَفَكَهُ عَنْ رَأْيِهِ.

﴿عَنْ آلِهَتِنَا﴾[5]: عَنْ عِبَادَتِهَا ﴿بِمَا تَعِدُنَا﴾[6] مِنْ مُعَاجَلَةِ الْعَذَابِ عَلَى الشِّرْكِ، ﴿إِنْ كُنْتَ﴾[7] صَادِقًا فِي وَعْدِكَ.

---

[1] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

[2] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

[3] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

[4] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

[5] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

[6] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

[7] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

﴿قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾[1]

فَإِنْ قُلْتَ: مِنْ أَيْنَ طَابَقَ قَوْلَهُ –تَعَالَى–: ﴿إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ﴾[2] جَوَابًا لِقَوْلِهِمْ: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾[3]؟

قُلْتُ: مِنْ حَيْثُ إِنَّ قَوْلَهُمْ هَذَا اسْتِعْجَالٌ مِنْهُمْ بِالْعَذَابِ.

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ﴾[4]، فَقَالَ لَهُمْ: لَا عِلْمَ عِنْدِي بِالْوَقْتِ الَّذِي يَكُونُ فِيهِ تَعْذِيبُكُمْ حِكْمَةً وَصَوَابًا، إِنَّمَا عِلْمُ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ، فَكَيْفَ أَدْعُوهُ بِأَنْ يَأْتِيَكُمْ بِعَذَابِهِ فِي وَقْتٍ عَاجِلٍ تَقْتَرِحُونَهُ أَنْتُمْ؟!

وَمَعْنَى: ﴿وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾[5]، وَقُرِئَ بِالتَّخْفِيفِ: أَنَّ الَّذِي هُوَ شَأْنِي وَشَرْطِي: أَنَّ أُبَلِّغَكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ مِنَ الْإِنْذَارِ وَالتَّخْوِيفِ وَالصَّرْفِ عَمَّا يُعَرِّضُكُمْ لِسَخَطِ اللَّهِ بِجُهْدِي، وَلَكِنَّكُمْ جَاهِلُونَ لَا تَعْلَمُونَ أَنَّ الرُّسُلَ لَمْ يُبْعَثُوا إِلَّا مُنْذِرِينَ لَا مُقْتَرِحِينَ، وَلَا سَائِلِينَ غَيْرَ مَا أُذِنَ لَهُمْ فِيهِ.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾[6]

---

[1] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

[2] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

[3] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

[4] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

[5] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

[6] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾[1] فِي الضَّمِيرِ وَجْهَانِ: أَنْ يَرْجِعَ إِلَى مَا تَعِدُنَا، وَأَنْ يَكُونَ مُبْهَمًا قَدْ وَضَحَ أَمْرُهُ بِقَوْلِهِ: "عَارِضًا" إِمَّا تَمْيِيزًا وَإِمَّا حَالًا. وَهَذَا الْوَجْهُ أَعْرَبُ وَأَفْصَحُ.

وَالْعَارِضُ: السَّحَابُ الَّذِي يُعْرَضُ فِي أُفُقِ السَّمَاءِ. وَمِثْلُهُ: الْحُبَى وَالْعَنَانُ، مِنْ حَبَا وَعَنَّ: إِذَا عَرَضَ. وَإِضَافَةُ مُسْتَقْبَلٍ وَمُمْطِرٍ مَجَازِيَّةٌ غَيْرُ مَعْرُوفَةٍ، بِدَلِيلِ وُقُوعِهِمَا، وَهُمَا مُضَافَانِ إِلَى مَعْرِفَتَيْنِ وَصْفًا لِلنَّكِرَةِ "بَلْ هُوَ" الْقَوْلُ قَبْلَهُ مُضْمَرٌ، وَالْقَائِلُ: هُودٌ -عَلَيْهِ السَّلَامُ-، وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ قِرَاءَةُ مَنْ قَرَأَ: (قَالَ هُودٌ، بَلْ هُوَ) وَقُرِئَ: (قُلْ بَلْ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ هِيَ رِيحٌ)، أَيْ قَالَ اللَّهُ -تَعَالَى-: قُلْ ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾[2]: تَهْلِكُ مِنْ نُفُوسِ عَادٍ وَأَمْوَالِهِمُ الْجَمِّ الْكَثِيرِ، فَعَبَّرَ عَنِ الْكَثْرَةِ بِالْكُلِّيَّةِ.

وَقُرِئَ: (يُدَمِّرُ كُلّ شَيْء) مِنْ دَمَّرَ دَمَارًا إِذَا هَلَكَ "لَا تُرَى" الْخِطَابُ لِلرَّائِي مِنْ كَانَ.

وَقُرِئَ: (لَا يُرَى)، عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ، وَتَأْوِيلُ الْقِرَاءَةِ بِالتَّاءِ، وَهِيَ عَنِ الْحَسَنِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: لَا تَرَى بَقَايَا وَلَا أَشْيَاءَ مِنْهُمْ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ.

وَمِنْهُ بَيْتُ ذِي الرُّمَّةِ:

وَمَا بَقِيَتْ إِلَّا الضُّلُوعُ الْجَرَاشِـــــــعُ

وَلَيْسَتْ بِالْقَوِيَّةِ.

وَقُرِئَ: (لَا تُرَى إِلَّا مَسْكَنُهُمْ)، وَ (لَا يُرَى إِلَّا مَسْكَنُهُمْ). وَرَوَى أَنَّ الرِّيحَ كَانَتْ تَحْمِلُ الْفُسْطَاطَ وَالظَّعِينَةَ فَتَرْفَعُهَا فِي الْجَوِّ حَتَّى تُرَى كَأَنَّهَا جَرَادَةٌ.

وَقِيلَ: أَوَّلُ مَنْ أَبْصَرَ الْعَذَابَ امْرَأَةٌ مِنْهُمْ قَالَتْ: رَأَيْتُ رِيحًا فِيهَا كَشُهُبِ النَّارِ.

وَرُوِيَ: أَوَّلُ مَا عُرِفُوا بِهِ أَنَّهُ عَذَابٌ: أَنَّهُمْ رَأَوْا مَا كَانَ فِي الصَّحْرَاءِ مِنْ رِحَالِهِمْ وَمَوَاشِيهِمْ تَطِيرُ بِهِ الرِّيحُ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَدَخَلُوا بُيُوتَهُمْ وَغَلَّقُوا أَبْوَابَهُمْ، فَقَلَعَتِ الرِّيحُ الْأَبْوَابَ وَصَرَعَتْهُمْ، وَأَمَالَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْأَحْقَافَ، فَكَانُوا تَحْتَهَا سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ لَهُمْ أَنِينٌ، ثُمَّ كَشَفَتِ الرِّيحُ عَنْهُ، فَاحْتَمَلَتْهُمْ فَطَرَحَتْهُمْ فِي الْبَحْرِ.

وَرَوَى أَنَّ هُودًا لَمَّا أَحَسَّ بِالرِّيحِ خَطَّ عَلَى نَفْسِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ خَطًّا إِلَى جَنْبِ عَيْنٍ تَنْبُعُ.

---

[1] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

[2] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا–: اعْتَزَلَ هُودٌ وَمَنْ مَعَهُ فِي حَظِيرَةٍ مَا يُصِيبُهُمْ مِنَ الرِّيحِ إِلَّا مَا يَلِينُ عَلَى الْجُلُودِ وَتَلْذُّهُ الْأَنْفُسُ. وَإِنَّهَا لَتَمُرُّ مِنْ عَادٍ بِالظَّعْنِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَتَدْمَغُهُمْ بِالْحِجَارَةِ.

وَعَنِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أَنَّهُ كَانَ إِذَا رَأَى الرِّيحَ فَزِعَ وَقَالَ: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَهَا وَخَيْرَ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا وَشَرِّ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ، وَإِذَا رَأَى مُخَيِّلَةً: قَامَ وَقَعَدَ، وَجَاءَ وَذَهَبَ، وَتَغَيَّرَ لَوْنُهُ، فَيُقَالُ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا تَخَافُ؟ فَيَقُولُ: إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَكُونَ مِثْلَ قَوْمِ عَادٍ حَيْثُ قَالُوا: هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا".

فَإِنْ قُلْتَ: مَا فَائِدَةُ إِضَافَةِ الرَّبِّ إِلَى الرِّيحِ؟

قُلْتُ: الدَّلَالَةُ عَلَى أَنَّ الرِّيحَ وَتَصْرِيفَ أَعِنَّتِهَا مِمَّا يَشْهَدُ لِعِظَمِ قُدْرَتِهِ، لِأَنَّهَا مِنْ أَعَاجِيبِ خَلْقِهِ وَأَكَابِرِ جُنُودِهِ. وَذِكْرُ الْأَمْرِ وَكَوْنُهَا مَأْمُورَةً مِنْ جِهَتِهِ –عَزَّ وَجَلَّ–: يُعَضِّدُ ذَلِكَ وَيُقَوِّيهِ.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾[1]

"إِنَّ" نَافِيَةٌ، أَيْ: فِيمَا مَا مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ، إِلَّا أَنَّ ﴿إِنْ﴾ أَحْسَنُ فِي اللَّفْظِ، لِمَا فِيهِ مُجَامَعَةٌ "مَا" مِثْلِهَا مِنَ التَّكْرِيرِ الْمُسْتَبْشَعِ. وَمِثْلُهُ مُجْتَنَبٌ.

أَلَا تَرَى أَنَّ الْأَصْلَ فِي "مَهْمَا": (مَامَا)؟ فَلِبَشَاعَةِ التَّكْرِيرِ، قَلَبُوا الْأَلِفَ هَاءً.

وَلَقَدْ أَغَثَّ أَبُو الطِّيبِ فِي قَوْلِهِ:

لَعَمْرُكَ مَامَا بَانَ مِنْكَ لِضَـــــــارِبِ

وَمَا ضَرَّهُ لَوِ اقْتَدَى بِعُذُوبَةِ لَفْظِ التَّنْزِيلِ، فَقَالَ: لَعَمْرُكَ مَا إِنْ بَانَ مِنْكَ لِضَارِبِ. وَقَدْ جُعِلَتْ إِنْ صِلَةً، مِثْلُهَا فِيمَا أَنْشَدَهُ الْأَخْفَشُ:

يُرَجَّى الْمَرْءُ مَا إِنْ لَا يَرَاهُ وَتَعْرِضُ دُونَ أَدْنَاهُ الْخُطُوبُ

---

[1] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

وَتُؤَوَّلُ بِإِنَّا مَكَّنَّاهُمْ فِي مِثْلِ مَا مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ، وَالْوَجْهُ هُوَ الْأَوَّلُ، وَلَقَدْ جَاءَ عَلَيْهِ غَيْرُ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ ﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا﴾[1]، ﴿قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا﴾[2]، وَهُوَ أَبْلَغُ فِي التَّوْبِيخِ، وَأَدْخَلُ فِي الْحَثِّ عَلَى الِاعْتِبَارِ ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾[3]، أَيْ مِنْ شَيْءٍ مِنَ الْإِغْنَاءِ، وَهُوَ الْقَلِيلُ مِنْهُ.

فَإِنْ قُلْتَ: بِمَ انْتَصَبَ ﴿إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ﴾[4]؟

قُلْتُ: بِقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿فَمَا أَغْنَى﴾[5].

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ جَرَى مَجْرَى التَّعْلِيلِ؟

قُلْتُ: لِاسْتِوَاءِ مُؤَدَّى التَّعْلِيلِ وَالظَّرْفِ فِي قَوْلِكَ: ضَرَبْتُهُ لِإِسَاءَتِهِ وَضَرَبْتُهُ إِذَا أَسَاءَ، لِأَنَّكَ إِذَا ضَرَبْتَهُ فِي وَقْتِ إِسَاءَتِهِ، فَإِنَّمَا ضَرَبْتَهُ فِيهِ لِوُجُودِ إِسَاءَتِهِ فِيهِ، إِلَّا أَنَّ ﴿إِذْ﴾[6]، وَحَيْثُ، غَلَبَتَا دُونَ سَائِرِ الظُّرُوفِ فِي ذَلِكَ.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[7]

﴿مَا حَوْلَكُمْ﴾[8] يَا أَهْلَ مَكَّةَ ﴿مِنَ الْقُرَى﴾[9] مِنْ نَحْوِ حِجْرِ ثَمُودَ وَقَرْيَةِ سَدُومَ وَغَيْرِهِمَا.

وَالْمُرَادُ: أَهْلُ الْقُرَى. وَلِذَلِكَ قَالَ: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[10].

---

1 سورة مَرْيَمَ، الآية 74.

2 سورة غَافِرٍ، الآية 82.

3 سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

4 سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

5 سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

6 سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

7 سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

8 سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

9 سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

10 سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

﴿فَلَوْلا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾[1]

الْقُرْبَانُ: مَا تُقُرِّبَ بِهِ إِلَى اللَّهِ –تَعَالَى–، أَيِ: اتَّخَذُوهُمْ شُفَعَاءَ مُتَقَرَّبًا بِهِمْ إِلَى اللَّهِ، حَيْثُ قَالُوا: هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ. وَأَحَدُ مَفْعُولَيِّ اتَّخَذَ الرَّاجِعُ إِلَى الَّذِينَ الْمَحْذُوفِ، وَالثَّانِي: آلِهَةٌ.

وَقُرْبَانًا: حَالٌ وَلَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ قُرْبَانًا مَفْعُولًا ثَانِيًا وَآلِهَةٌ بَدَلًا مِنْهُ لِفَسَادِ الْمَعْنَى. وَقُرِئَ (قُرْبَانًا) بِضَمِّ الرَّاءِ.

وَالْمَعْنَى: فَهَلَّا مَنَعَهُمْ مِنَ الْهَلَاكِ آلِهَتُهُمْ ﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾[2]، أَيْ غَابُوا عَنْ نُصْرَتِهِمْ.

﴿وَذَلِكَ﴾[3] إِشَارَةٌ إِلَى امْتِنَاعِ نُصْرَةِ آلِهَتِهِمْ لَهُمْ وَضَلَالِهِمْ عَنْهُمْ، أَيْ: وَذَلِكَ أَثَرُ إِفْكِهِمُ الَّذِي هُوَ اتِّخَاذُهُمْ إِيَّاهَا آلِهَةً، وَثَمَرَةُ شِرْكِهِمْ وَافْتِرَائِهِمْ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبُ مِنْ كَوْنِهِ ذَا شُرَكَاءَ.

وَقُرِئَ: (إِفْكُهُمْ)، وَالْأَفْكُ وَالْإِفْكُ: كَالْحِذْرِ وَالْحَذْرِ.

وَقُرِئَ: (وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ) أَيْ: وَذَلِكَ الِاتِّخَاذُ الَّذِي هَذَا أَثَرُهُ وَثَمَرَتُهُ صَرْفُهُمْ عَنِ الْحَقِّ.

وَقُرِئَ: (أَفَكَّهُمْ) عَلَى التَّشْدِيدِ لِلْمُبَالَغَةِ. وَ(آفَكَهُمْ): جَعَلَهُمْ آفِكِينَ. وَ(آفَكَهُمْ)، أَيْ: قَوْلُهُمُ الْآفِكُ ذُو الْإِفْكِ، كَمَا تَقُولُ قَوْلٌ كَاذِبٌ، وَذَلِكَ إِفْكٌ مِمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ، أَيْ: بَعْضُ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ مِنَ الْإِفْكِ.

---

[1] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

[2] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

[3] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ وَمَنْ لا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾[1]

﴿صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا﴾[2] أَمَلْنَاهُمْ إِلَيْكَ وَأَقْبَلْنَا بِهِمْ نَحْوكَ. وَقُرِئَ: (صَرَّفْنَا) بِالتَّشْدِيدِ، لِأَنَّهُمْ جَمَاعَةٌ. وَالنَّفَرُ: دُونَ الْعَشْرَةِ. وَيُجْمَعُ أَنْفَارًا.

وَفِي حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: لَوْ كَانَ هَهُنَا أَحَدٌ مِنْ أَنْفَارِنَا.

﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾[3] الضَّمِيرُ لِلْقُرْآنِ. أَيْ: فَلَمَّا كَانَ بِمَسْمَعٍ مِنْهُمْ. أَوْ لِرَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–. وَتُعَضِّدُهُ قِرَاءَةُ مَنْ قَرَأَ: (فَلَمَّا قَضَى) أَيْ أَتَمَّ قِرَاءَتَهُ وَفَرَّعَ مِنْهَا "قَالُواْ" قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ "أَنصِتُواْ" اسْكُتُوا مُسْتَمِعِينَ. يُقَالُ: أَنْصَتَ لِكَذَا وَاسْتَنْصَتَ لَهُ. رَوَى: أَنَّ الْجِنَّ كَانَتْ تَسْتَرِقُ السَّمْعَ، فَلَمَّا حَرَسَتِ السَّمَاءَ وَرُجِمُوا بِالشُّهُبِ قَالُوا: مَا هَذَا إِلَّا لِنَبَإٍ حَدَثَ، فَنَهَضَ سَبْعَةُ نَفَرٍ أَوْ تِسْعَةٌ مِنْ أَشْرَافِ جِنِّ نَصِيبِينَ أَوْ نِينَوَى: مِنْهُمْ زَوْبَعَةُ، فَضَرَبُوا حَتَّى بَلَغُوا تِهَامَةَ، ثُمَّ انْدَفَعُوا إِلَى وَادِي نَخْلَةَ، فَوَافَقُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ قَائِمٌ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ يُصَلِّي أَوْ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ، فَاسْتَمَعُوا لِقِرَاءَتِهِ، وَذَلِكَ عِنْدَ مُنْصَرَفِهِ مِنَ الطَّائِفِ حِينَ خَرَجَ إِلَيْهِمْ يَسْتَنْصِرُهُمْ فَلَمْ يُجِيبُوهُ إِلَى طَلَبَتِهِ وَأَغْرَوْا بِهِ سُفَهَاءُ ثَقِيفٍ.

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: مَا قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– عَلَى الْجِنِّ وَلَا رَآهُمْ، وَإِنَّمَا كَانَ يَتْلُو فِي صَلَاتِهِ فَمَرُّوا بِهِ فَوَقَفُوا مُسْتَمِعِينَ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ، فَأَنْبَأَهُ اللَّهُ بِاسْتِمَاعِهِمْ.

---

[1] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

[2] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

[3] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

وَقِيلَ: بَلْ أَمَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ أَنْ يُنْذِرَ الْجِنَّ وَيَقْرَأَ عَلَيْهِمْ فَصَرَفَ إِلَيْهِ نَفَرًا مِنْهُمْ جَمَعَهُمْ لَهُ فَقَالَ: إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَقْرَأَ عَلَى الْجِنِّ اللَّيْلَةَ فَمَنْ يَتْبَعُنِي: قَالَهَا ثَلَاثًا، فَأَطْرَقُوا إِلَّا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–، قَالَ: لَمْ يَحْضُرْهُ لَيْلَةَ الْجِنِّ أَحَدٌ غَيْرِي، فَانْطَلَقْنَا حَتَّى إِذَا كُنَّا بِأَعْلَى مَكَّةَ فِي شِعْبِ الْحَجُونِ فَخَطَّ لِي خَطًّا وَقَالَ: لَا تَخْرُجْ مِنْهُ حَتَّى أَعُودَ إِلَيْكَ، ثُمَّ افْتَتَحَ الْقُرْآنَ وَسَمِعْتُ لَغَطًا شَدِيدًا حَتَّى خِفْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، وَغَشِيتُهُ أَسْوِدَةً كَثِيرَةً حَالَتْ بَيْنِي وَبَيْنَهُ حَتَّى مَا أَسْمَعُ صَوْتَهُ ثُمَّ انْقَطَعُوا كَقِطَعِ السَّحَابِ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: هَلْ رَأَيْتَ شَيْئًا؟ قُلْتُ: نَعَمْ رِجَالٌ سُودٌ مُسْتَثْفِرِي ثِيَابِ بِيضٍ، فَقَالَ: "أُولَئِكَ جِنُّ نَصِيبِينَ"، وَكَانُوا اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا، وَالسُّورَةُ الَّتِي قَرَأَهَا عَلَيْهِمْ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾[1].

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ قَالُوا: ﴿مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾[2]؟

قُلْتُ: عَنْ عَطَاءٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: أَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الْيَهُودِيَّةِ. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا–: إِنَّ الْجِنَّ لَمْ تَكُنْ سَمِعَتْ بِأَمْرِ عِيسَى –عَلَيْهِ السَّلَامُ–، فَلِذَلِكَ قَالَتْ: ﴿مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾.[3]

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ بَعَّضَ فِي قَوْلِهِ: ﴿مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾[4]؟

قُلْتُ: لِأَنَّ مِنَ الذُّنُوبِ مَا لَا يُغْفَرُ بِالْإِيمَانِ كَذُنُوبِ الْمَظَالِمِ وَنَحْوِهَا.

وَنَحْوُهُ قَوْلُهُ –عَزَّ وَجَلَّ–: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾[5].

فَإِنْ قُلْتَ: هَلْ لِلْجِنِّ ثَوَابٌ كَمَا لِلْإِنْسِ؟

قُلْتُ: اخْتُلِفَ فِيهِ فَقِيلَ: لَا ثَوَابَ لَهُمْ إِلَّا النَّجَاةُ مِنَ النَّارِ، لِقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[6]، وَإِلَيْهِ كَانَ يَذْهَبُ أَبُو حَنِيفَةَ –رَحِمَهُ اللَّهُ–.

---

[1] سورة الْعَلَقُ، الآية 1.

[2] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

[3] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

[4] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

[5] سورة نُوحٌ، الآيتان 3–4.

[6] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

وَالصَّحِيحُ أَنَّهُمْ فِي حُكْمِ بَنِي آدَمَ، لِأَنَّهُمْ مُكَلَّفُونَ مِثْلَهُمْ.

﴿فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ﴾[1]، أَيْ: لَا يُنْجِي مِنْهُ مَهْرَبٌ، وَلَا يَسْبِقُ قَضَاءَهُ سَابِقَ. وَنَحْوُهُ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا﴾[2].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[3]

﴿بِقَادِرٍ﴾[4] مَحَلُّهُ الرَّفْعُ، لِأَنَّهُ خَبَرُ أَنَّ، يَدُلُّ عَلَيْهِ قِرَاءَةُ عَبْدِ اللَّهِ: (قَادِرٌ)، وَإِنَّمَا دَخَلَتِ الْبَاءُ لِاشْتِمَالِ النَّفْيِ فِي أَوَّلِ الْآيَةِ عَلَى أَنَّ وَمَا فِي حَيِّزِهَا.

وَقَالَ الزَّجَّاجُ: لَوْ قُلْتَ: مَا ظَنَنْتُ أَنَّ زَيْدًا يُغَائِمُ: جَازَ، كَأَنَّهُ قِيلَ: أَلَيْسَ اللَّهُ بِقَادِرٍ. أَلَا تَرَى إِلَى وُقُوعِ بَلَى مُقَرَّرَةً لِلْقُدْرَةِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مِنَ الْبَعْثِ وَغَيْرِهِ، لَا لِرُؤْيَتِهِمْ. وَقُرِئَ: (يَقْدِرُ)، وَيُقَالُ: عَيِيتُ بِالْأَمْرِ، إِذَا لَمْ تَعْرِفْ وَجْهَهُ. وَمِنْهُ: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾[5].

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾[6]

﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾[7] مَحْكِيٌّ بَعْدَ قَوْلٍ مُضْمَرٍ، وَهَذَا الْمُضْمَرُ هُوَ نَاصِبُ الظَّرْفِ.

---

[1] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

[2] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

[3] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

[4] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

[5] سورة ق، الآية 15.

[6] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

[7] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

وَهَذَا إِشَارَةٌ إِلَى الْعَذَابِ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾[1]، وَالْمَعْنَى: التَّهَكُّمُ بِهِمْ، وَالتَّوْبِيخُ لَهُمْ عَلَى اسْتِهْزَائِهِمْ بِوَعْدِ اللَّهِ وَوَعِيدِهِ، وَقَوْلُهُمْ: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[2].

﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ نَهَارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾[3]

﴿أُولُو الْعَزْمِ﴾[4]: أُولُو الْجِدِّ وَالثَّبَاتِ وَالصَّبْرِ.

وَ﴿مِنْ﴾[5] يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ لِلتَّبْعِيضِ، وَيُرَادُ بِأُولِي الْعَزْمِ: بَعْضُ الْأَنْبِيَاءِ. قِيلَ: هُمْ نُوحٌ، صَبَرَ عَلَى أَذَى قَوْمِهِ: كَانُوا يَضْرِبُونَهُ حَتَّى يُغْشَى عَلَيْهِ، وَإِبْرَاهِيمُ عَلَى النَّارِ وَذَبْحِ وَلَدِهِ، وَإِسْحَاقُ عَلَى الذَّبْحِ، وَيَعْقُوبُ عَلَى فَقْدِ وَلَدِهِ وَذَهَابِ بَصَرِهِ، وَيُوسُفُ عَلَى الْجُبِّ وَالسِّجْنِ، وَأَيُّوبُ عَلَى الضُّرِّ، وَمُوسَى قَالَ لَهُ قَوْمُهُ: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ قَالَ كَلا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾[6]، وَدَاوُدُ بَكَى عَلَى خَطِيئَتِهِ أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَعِيسَى لَمْ يَضَعْ لَبِنَةً عَلَى لَبِنَةٍ، وَقَالَ: إِنَّهَا مُعَبِّرَةٌ فَاعْبُرُوهَا وَلَا تُعَمِّرُوهَا. وَقَالَ اللَّهُ –تَعَالَى– فِي آدَمَ: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾[7]، وَفِي يُونُسَ: ﴿وَلا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾[8]، وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ لِلْبَيَانِ، فَيَكُونُ أُولُو الْعِزِّ صِفَةُ الرُّسُلِ كُلِّهِمْ.

---

[1] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

[2] سورة الشُّعَرَاءُ، الآية 138.

[3] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

[4] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

[5] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

[6] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

[7] سورة طه، الآية 115.

[8] سورة الْقَلَمُ، الآية 48.

﴿وَلا تَسْتَعْجِلْ﴾[1] لِكَفَّارِ قُرَيْشٍ بِالْعَذَابِ، أَيْ: لَا تَدْعُ لَهُمْ بِتَعْجِيلِهِ، فَإِنَّهُ نَازِلٌ بِهِمْ لَا مَحَالَةَ، وَإِنْ تَأَخَّرَ، وَأَنَّهُمْ مُسْتَقْصِرُونَ حِينَئِذٍ مُدَّةَ لُبْثِهِمْ فِي الدُّنْيَا حَتَّى يَحْسَبُوهَا ﴿سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلاغٌ﴾[2]، أَيْ هَذَا الَّذِي وُعِظْتُمْ بِهِ كِفَايَةٌ فِي الْمَوْعِظَةِ، أَوْ هَذَا تَبْلِيغٌ مِنَ الرَّسُولِ – عَلَيْهِ السَّلَامُ–.

﴿فَهَلْ يُهْلَكُ﴾[3] إِلَّا الْخَارِجُونَ عَنِ الِاتِّعَاظِ بِهِ، وَالْعَمَلِ بِمُوجِبِهِ؟

وَيَدُلُّ عَلَى مَعْنَى التَّبْلِيغِ قِرَاءَةُ مَنْ قَرَأَ: بَلِّغْ فَهَلْ يُهْلَكُ: وَقُرِئَ: (بَلَاغًا)، أَيْ بَلِّغُوا بَلَاغًا، وَقُرِئَ: (يَهْلِكُ)، بِفَتْحِ الْيَاءِ وَكَسْرِ اللَّامِ وَفَتْحِهَا، مِنْ هَلَكَ وَهَلِكَ. وَنَهْلَكُ بِالنُّونِ ﴿إِلا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾[4].

وَعَنْ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْأَحْقَافِ كُتِبَ لَهُ عَشْرُ حَسَنَاتٍ بِعَدَدِ كُلِّ رَمْلَةٍ فِي الدُّنْيَا".

---

[1] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

[2] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

[3] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

[4] سورة الْأَحْقَافِ، الآية .

سورة محمد
صلى الله عليه وسلم

سورة محمد
-صلى الله عليه وسلم-

مَدَنِيَّةٌ عِنْدَ مُجَاهِدٍ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: مَكِّيَّةٌ.
وَهِيَ سُورَةُ الْقِتَالِ، وَهِيَ تِسْعٌ وَثَلَاثُونَ آيَةً.
وَقِيلَ ثَمَانٍ وَثَلَاثُونَ
[نَزَلَتْ بَعْدَ الْحَدِيدِ]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾[1]

﴿وَصُدُّواْ﴾[2]. وَأَعْرَضُوا وَامْتَنَعُوا عَنِ الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ، أَوْ صَدُّوا غَيْرَهُمْ عَنْهُ.
قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: هُمُ الْمُطْعَمُونَ يَوْمَ بَدْرٍ.
وَعَنْ مُقَاتِلٍ: كَانُوا اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الشِّرْكِ يَصُدُّونَ النَّاسَ عَنِ الْإِسْلَامِ وَيَأْمُرُونَهُمْ بِالْكُفْرِ. وَقِيلَ: هُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا مَنْ أَرَادَ مِنْهُمْ وَمِنْ غَيْرِهِمْ أَنْ يَدْخُلَ فِي الْإِسْلَامِ. وَقِيلَ: هُوَ عَامٌّ فِي كُلِّ مَنْ كَفَرَ وَصَدَّ.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .

﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾[1]: أَبْطَلَهَا وَأَحْبَطَهَا.

وَحَقِيقَتُهُ: جَعَلَهَا ضَالَّةً ضَائِعَةً لَيْسَ لَهَا مَنْ يَتَقَبَّلُهَا وَيُثِيبُ عَلَيْهَا، كَالضَّالَّةِ مِنَ الْإِبِلِ الَّتِي هِيَ بِمُضَيِّعَةٍ لَا رَبَّ لَهَا يَحْفَظُهَا وَيَعْتَنِي بِأَمْرِهَا، أَوْ جَعَلَهَا ضَالَّةً فِي كُفْرِهِمْ مَعَاصِيهِمْ وَمَغْلُوبَةً بِهَا، كَمَا يَضِلُّ الْمَاءُ فِي اللَّبَنِ.

وَأَعْمَالُهُمْ: مَا عَمِلُوهُ فِي كُفْرِهِمْ بِمَا كَانُوا يُسَمُّونَهُ مَكَارِمَ: مِنْ صِلَةِ الْأَرْحَامِ وَفَكِّ الْأَسَارَى وَقُرَى الْأَضْيَافِ وَحِفْظِ الْجِوَارِ. وَقِيلَ: أَبْطَلَ مَا عَمِلُوهُ مِنَ الْكَيْدِ لِرَسُولِ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَالصَّدِّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ: بِأَنْ نَصَرَهُ عَلَيْهِمْ وَأَظْهَرَ دِينَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ .

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾[2]: قَالَ مُقَاتِلٌ: هُمْ نَاسٌ مِنْ قُرَيْشٍ .وَقِيلَ: مِنَ الْأَنْصَارِ. وَقِيلَ: هُمْ مُؤْمِنُوا أَهْلِ الْكِتَابِ. وَقِيلَ: هُوَ عَامٌّ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾[3] اخْتِصَاصٌ لِلْإِيمَانِ بِالْمُنْزِلِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– مِنْ بَيْنِ مَا يَجِبُ بِهِ الْإِيمَانُ تَعْظِيمًا لِشَأْنِهِ وَتَعْلِيمًا، لِأَنَّهُ لَا يَصِحُّ الْإِيمَانُ وَلَا يَتِمُّ إِلَّا بِهِ. وَأَكَّدَ ذَلِكَ بِالْجُمْلَةِ الِاعْتِرَاضِيَّةِ الَّتِي هِيَ قَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾[4].

وَقِيلَ: مَعْنَاهَا إِنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ هُوَ الْحَقُّ، إِذْ لَا يَرِدُ عَلَيْهِ النَّسْخُ، وَهُوَ نَاسِخٌ لِغَيْرِهِ. وَقُرِئَ: (نَزَلَ وَأَنْزَلَ)، عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ. وَنَزَّلَ عَلَى الْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ، وَنَزَلَ بِالتَّخْفِيفِ.

﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾[5] سَتَرَ بِإِيمَانِهِمْ وَعَمَلِهِمُ الصَّالِحِ مَا كَانَ مِنْهُمْ مِنَ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي لِرُجُوعِهِمْ عَنْهَا وَتَوْبَتِهِمْ.

﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾[6]، أَيْ حَالُهُمْ وَشَأْنُهُمْ بِالتَّوْفِيقِ فِي أُمُورِ الدِّينِ، وَبِالتَّسْلِيطِ عَلَى الدُّنْيَا بِمَا أَعْطَاهُمْ مِنَ النُّصْرَةِ وَالتَّأْيِيدِ .

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾[1]

﴿ذَلِكَ﴾[2] مُبْتَدَأٌ وَمَا بَعْدَهُ خَبَرُهُ، أَيْ: ذَلِكَ الْأَمْرُ، وَهُوَ إِضْلَالُ أَعْمَالِ أَحَدِ الْفَرِيقَيْنِ وَتَكْفِيرِ سَيِّئَاتِ الثَّانِي: كَائِنٌ بِسَبَبِ اتِّبَاعِ هَؤُلَاءِ الْبَاطِلَ وَهَؤُلَاءِ الْحَقَّ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ خَبَرُ مُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ، أَيِ الْأَمْرُ كَمَا ذُكِرَ بِهَذَا السَّبَبِ، فيكُونُ مَحَلَّ الْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ مَنْصُوبًا عَلَى هَذَا، وَمَرْفُوعًا عَلَى الْأَوَّلِ.

وَ "الْبَاطِلُ" مَا لَا يُنْتَفَعُ بِهِ.

وَعَنْ مُجَاهِدٍ: الْبَاطِلُ الشَّيْطَانُ، وَهَذَا الْكَلَامُ يُسَمِّيهِ عُلَمَاءُ الْبَيَانِ التَّفْسِيرَ "كَذَلِكَ" مِثْلُ ذَلِكَ الضَّرْبِ ﴿يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾[3] وَالضَّمِيرُ رَاجِعٌ إِلَى النَّاسِ، أَوْ إِلَى الْمَذْكُورِينَ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ، عَلَى مَعْنَى: أَنَّهُ يَضْرِبُ أَمْثَالَهُمْ لِأَجْلِ النَّاسِ لِيَعْتَبِرُوا بِهِمْ.

فَإِنْ قُلْتَ: أَيْنَ ضَرْبُ الْأَمْثَالِ؟

قُلْتُ: فِي أَنْ جَعَلَ اتِّبَاعَ الْبَاطِلِ مَثَلًا لِعَمَلِ الْكُفَّارِ، وَاتِّبَاعِ الْحَقِّ مَثَلًا لِعَمَلِ الْمُؤْمِنِينَ، أَوْ فِي أَنْ جَعَلَ الْإِضْلَالَ مَثَلًا لِخَيْبَةِ الْكُفَّارِ، وَتَكْفِيرِ السَّيِّئَاتِ مَثَلًا لِفَوْزِ الْمُؤْمِنِينَ.

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾[4]

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

﴿لَقِيتُمُ" مِنَ اللِّقَاءِ وَهُوَ الْحَرْبُ ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾[1] أَصْلُهُ: فَاضْرِبُوا الرِّقَابَ ضَرْبًا، فَحُذِفَ الْفِعْلُ وَقُدِّمَ الْمَصْدَرُ فَأُنِيبَ مَنَابَهُ مُضَافًا إِلَى الْمَفْعُولِ. وَفِيهِ اخْتِصَارٌ مَعَ إِعْطَاءِ مَعْنَى التَّوْكِيدِ، لِأَنَّكَ تُذَكِّرُ الْمَصْدَرَ وَتَدُلُّ عَلَى الْفِعْلِ بِالنَّصْبَةِ الَّتِي فِيهِ. وَضَرْبَ الرِّقَابِ عِبَارَةٌ عَنِ الْقَتْلِ، لِأَنَّ الْوَاجِبَ أَنْ تَضْرِبَ الرِّقَابَ خَاصَّةً دُونَ غَيْرِهَا مِنَ الْأَعْضَاءِ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ: ضَرَبَ الْأَمِيرُ رَقَبَةَ فُلَانٍ، وَضَرَبَ عُنُقَهُ وَعِلَاوَتَهُ، وَضَرَبَ مَا فِيهِ عَيْنَاهُ إِذَا قَتَلَهُ، وَذَلِكَ أَنَّ قَتْلَ الْإِنْسَانِ أَكْثَرُ مَا يَكُونُ بِضَرْبِ رَقَبَتِهِ، فَوَقَعَ عِبَارَةً عَنِ الْقَتْلِ، وَإِنْ ضَرَبَ بِغَيْرِ رَقَبَتِهِ مِنَ الْمُقَاتِلِ كَمَا ذَكَرْنَا فِي قَوْلِهِ: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾[2]]الشُّورَى: 300] عَلَى أَنَّ فِي هَذِهِ الْعِبَارَةِ مِنَ الْغِلْظَةِ وَالشِّدَّةِ مَا لَيْسَ فِي لَفْظِ الْقَتْلِ، لِمَا فِيهِ مِنْ تَصْوِيرِ الْقَتْلِ بِأَشْنَعِ صُورَةٍ وَهُوَ حَزُّ الْعُنُقِ وَإِطَارَةُ الْعُضْوِ الَّذِي هُوَ رَأْسُ الْبَدَنِ وَعُلُوُّهُ وَأَوْجُهُ أَعْضَائِهِ.

وَلَقَدْ زَادَ فِي هَذِهِ الْغِلْظَةِ فِي قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾[3]]الْأَنْفَالُ: 122].

﴿أَثْخَنْتُمُوهُمْ﴾[4]: أَكْثَرْتُمْ قَتْلَهُمْ وَأَغْلَظْتُمُوهُ، مِنَ الثَّخِينِ: وَهُوَ الْغَلِيظُ، أَوْ أَثْقَلْتُمُوهُمْ بِالْقَتْلِ وَالْجِرَاحِ حَتَّى أَذْهَبْتُمْ عَنْهُمُ النُّهُوضَ.

﴿فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾[5] فَأَسَرُوهُمْ. وَالْوَثَاقُ –بِالْفَتْحِ وَالْكَسْرِ–: اسْمُ مَا يُوثَقُ بِهِ.

﴿مِنًّا﴾[6] وَ﴿فَدَاءً﴾[7] مَنْصُوبَانِ بِفِعْلِهِمَا مُضْمَرَيْنِ، أَيْ: فَإِمَّا تُمَنُّونَ مِنًّا، وَإِمَّا تَفْدُونَ فِدَاءً.

وَالْمَعْنَى: التَّخْيِيرُ بَعْدَ الْأَسْرِ بَيْنَ أَنْ يَمُنُّوا عَلَيْهِمْ فيطْلِقُوهُمْ، وَبَيْنَ أَنْ يُفَادُوهُمْ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ حُكْمُ أَسَارَى الْمُشْرِكِينَ؟

قُلْتُ: أَمَّا عِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ وَأَصْحَابِهِ فَأَحَدُ أَمْرَيْنِ: إِمَّا قَتْلُهُمْ وَإِمَّا اسْتِرْقَاقُهُمْ: أَيْ هُمَا رَأَيُ الْإِمَامِ، وَيَقُولُونَ فِي الْمَنِّ وَالْفِدَاءِ الْمَذْكُورَيْنِ فِي الْآيَةِ: نَزَلَ ذَلِكَ فِي يَوْمِ بَدْرٍ ثُمَّ نُسِخَ.

وَعَنْ مُجَاهِدٍ: لَيْسَ الْيَوْمَ مَنٌّ وَلَا فِدَاءٌ، وَإِنَّمَا هُوَ الْإِسْلَامُ أَوْ ضَرْبُ الْعُنُقِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

[7] سورة ، الآية .

وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ بِالْمَنِّ: أَنْ يَمُنَّ عَلَيْهِمْ بِتَرْكِ الْقَتْلِ وَيَسْتَرِقُّوا، أَوْ يَمُنَّ عَلَيْهِمْ فيخْلُوا لِقَبُولِهِمُ الْجِزْيَةَ، وَكَوْنِهِمْ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ. وَبِالْفِدَاءِ أَنْ يُفَادِيَ بِأَسَارَاهُمْ أَسَارِي الْمُسْلِمِينَ، فَقَدْ رَوَاهُ الطَّحَاوِيُّ مَذْهَبًا عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ، وَالْمَشْهُورُ أَنَّهُ لَا يَرَى فِدَاءَهُمْ لَا بِمَالٍ وَلَا بِغَيْرِهِ، خِيفَةَ أَنْ يَعُودُوا حَرْبًا لِلْمُسْلِمِينَ. وَأَمَّا الشَّافِعِيُّ، فيقُولُ: لِلْإِمَامِ أَنْ يَخْتَارَ أَحَدَ أَرْبَعَةٍ عَلَى حَسَبِ مَا اقْتَضَاهُ نَظَرُهُ لِلْمُسْلِمِينَ، وَهُوَ: الْقَتْلُ، وَالِاسْتِرْقَاقُ، وَالْفِدَاءُ بِأَسَارَى الْمُسْلِمِينَ، وَالْمَنُّ. وَيَحْتَجُّ بِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مَنَّ عَلَى أَبِي عُزْوَةَ الْجَحْبِيِّ، وَعَلَى ثُمَامَةَ بْنِ أُثَالٍ الْحَنَفِي، وَفَادَى رَجُلًا بِرَجُلَيْنِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. وَهَذَا كُلُّهُ مَنْسُوخٌ عِنْدَ أَصْحَابِ الرَّأْيِ. وَقُرِئَ: (فَدَى) بِالْقَصْرِ مَعَ فَتْحِ الْفَاءِ. أَوْزَارَ الْحَرْبِ: آلَاتُهَا وَأَثْقَالُهَا الَّتِي لَا تَقُومُ إِلَّا بِهَا كَالسِّلَاحِ وَالْكُرَاعِ.

قَالَ الْأَعْشَى:

وَأَعْدَدْتُ لِلْحَرْبِ أَوْزَارَهَا رِمَاحًا طِوَالًا وَخَيْلًا ذُكُورًا

وَسُمِّيَتْ أَوْزَارُهَا، لِأَنَّهُ لَمَّا لَمْ يَكُنْ لَهَا بُدٌّ مِنْ جَرِّهَا فَكَأَنَّهَا تَحْمِلُهَا وَتَسْتَقِلُّ بِهَا، فَإِذَا انْقَضَتْ فَكَأَنَّهَا وَضَعَتْهَا. وَقِيلَ: أَوْزَارُهَا آثَامُهَا، يَعْنِي: حَتَّى يَتْرُكَ أَهْلَ الْحَرْبِ. وَهُمُ الْمُشْرِكُونَ شِرْكَهُمْ وَمَعَاصِيهِمْ بِأَنْ يُسْلِمُوا.

فَإِنْ قُلْتَ: (حَتَّى) بِمَ تَعَلَّقَتْ؟

قُلْتُ: لَا تَخْلُو إِمَّا أَنْ تَتَعَلَّقَ بِالضَّرْبِ وَالشَّدِّ، أَوْ بِالْمَنِّ وَالْفِدَاءِ، فَالْمَعْنَى عَلَى كِلَا الْمُتَعَلِّقَيْنِ عِنْدَ الشَّافِعِيِّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: أَنَّهُمْ لَا يَزَالُونَ عَلَى ذَلِكَ أَبَدًا إِلَى أَنْ لَا يَكُونُ حَرْبٌ مَعَ الْمُشْرِكِينَ. وَذَلِكَ إِذَا لَمْ يَبْقَ لَهُمْ شَوْكَةٌ. وَقِيلَ: إِذَا نَزَلَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ -عَلَيْهِ السَّلَامُ-.

وَعِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ-: إِذَا عَلَّقَ بِالضَّرْبِ وَالشَّدِّ، فَالْمَعْنَى: أَنَّهُمْ يُقْتَلُونَ وَيُؤْسَرُونَ حَتَّى تَضَعَ جِنْسُ الْحَرْبِ الْأَوْزَارَ، وَذَلِكَ حِينَ لَا تَبْقَى شَوْكَةٌ لِلْمُشْرِكِينَ.

وَإِذَا عُلِّقَ بِالْمَنِّ وَالْفِدَاءِ، فَالْمَعْنَى: أَنَّهُ يَمُنُّ عَلَيْهِمْ وَيُفَادُونَ حَتَّى تَضَعَ حَرْبُ بَدْرٍ أَوْزَارَهَا إِلَّا أَنْ يَتَأَوَّلَ الْمَنُّ وَالْفِدَاءُ بِمَا ذَكَرْنَا مِنَ التَّأْوِيلِ.

﴿ذَلِكَ﴾[1]، أَيِ: الْأَمْرُ ذَلِكَ، أَوِ افْعَلُوا ذَلِكَ.

---

[1] سورة ، الآية .

﴿لانْتَصَرَ مِنْهُمْ﴾[1]: لَانْتَقَمَ مِنْهُمْ بِبَعْضِ أَسْبَابِ الْهَلَكِ: مِنْ خَسْفٍ، أَوْ رَجْفَةٍ، أَوْ حَاصِبٍ، أَوْ غَرَقٍ، أَوْ مَوْتٍ جَارِفٍ.

﴿وَلَكِنَّ﴾[2] أَمْرَكُمْ بِالْقِتَالِ لِيَبْلُوَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْكَافِرِينَ: أَنْ يُجَاهِدُوا وَيَصْبِرُوا حَتَّى يَسْتَوْجِبُوا الثَّوَابَ الْعَظِيمَ، وَالْكَافِرِينَ بِالْمُؤْمِنِينَ بِأَنْ يُعَاجِلَهُمْ عَلَى أَيْدِيهِمْ بِبَعْضِ مَا وَجَبَ لَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ. وَقُرِئَ: (قُتِلُوا) بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ: وَقُتِّلُوا. وَقَاتَلُوا. وَقُرِئَ: (فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ)، وَتُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ: عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ. وَيُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ مِنْ ضَلَّ.

وَعَنْ قَتَادَةَ: أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي يَوْمِ أُحُدٍ ﴿عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾[3] أَعْلَمَهَا لَهُمْ وَبَيَّنَهَا بِمَا يَعْلَمُ بِهِ كُلُّ أَحَدٍ مَنْزِلَتَهُ وَدَرَجَتَهُ مِنَ الْجَنَّةِ.

قَالَ مُجَاهِدٌ: يَهْتَدِي أَهْلُ الْجَنَّةِ إِلَى مَسَاكِنِهِمْ مِنْهَا لَا يُخْطِئُونَ، كَأَنَّهُمْ كَانُوا سُكَّانُهَا مُنْذُ خُلِقُوا لَا يَسْتَدِلُّونَ عَلَيْهَا.

وَعَنْ مُقَاتِلٍ: إِنَّ الْمَلَكَ الَّذِي وُكِّلَ بِحِفْظِ عَمَلِهِ فِي الدُّنْيَا يَمْشِي بَيْنَ يَدَيْهِ فَيعَرِّفُهُ كُلَّ شَيْءٍ أَعْطَاهُ اللَّهُ، أَوْ طَيَّبَهَا لَهُمْ، مِنَ الْعُرْفِ: وَهُوَ طَيِّبُ الرَّائِحَةِ.

وَفِي كَلَامِ بَعْضِهِمْ: عَرْفٌ كَنُوحِ الْقِمَارِيِّ وَعُرْفٌ كَفَوْحِ الْقِمَارِيِّ، أَوْ حَدَّدَهَا لَهُمْ، فَجَنَّةُ كُلِّ أَحَدٍ مَحْدُودَةٌ مَفْرَزَةٌ عَنْ غَيْرِهَا، مِنْ: عَرَفَ الدَّارَ وَأَرَفَّهَا. وَالْعُرْفُ وَالْأَرَفُ، وَالْحُدُودُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[4]

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

﴿إِنْ تَنْصُرُوا﴾[1] دِينَ ﴿اللَّهِ﴾[2] وَرَسُولِهِ "يَنْصُرْكُمُ" عَلَى عَدُوِّكُمْ وَيَفْتَحْ لَكُمْ ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[3] في مُوَاطِنِ الْحَرْبِ أَوْ عَلَى مَحَجَّةِ الْإِسْلَامِ.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾[4]

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾[5] يَحْتَمِلُ الرَّفْعَ عَلَى الِابْتِدَاءِ وَالنَّصْبِ بِمَا يُفَسِّرُهُ.

﴿فَتَعْسًا لَهُمْ﴾[6]، كَأَنَّهُ قَالَ: أُتْعِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا.

فَإِنْ قُلْتَ: عَلَامَ عَطَفَ قَوْلَهُ: ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾[7]؟

قُلْتُ: عَلَى الْفِعْلِ الَّذِي نَصَبَ تَعْسًا، لِأَنَّ الْمَعْنَى، فَقَالَ: تَعْسًا لَهُمْ، أَوْ فَقَضَى تَعْسًا لَهُمْ. وَتَعْسًا لَهُ: نَقِيضُ ﴿لَعَالَهُ﴾[8].

قَالَ الْأَعْشَى:

فَالتَّعْسُ أَوْلَى لَهَا مِنْ أَنْ أَقُولَ: لَعَــا

يُرِيدُ: فَالْعُثُورُ وَالِانْحِطَاطُ أَقْرَبُ لَهَا مِنَ الِانْتِعَاشِ وَالثُّبُوتِ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا–: يُرِيدُ فِي الدُّنْيَا الْقَتْلَ، وَفِي الْآخِرَةِ التَّرَدِّي فِي النَّارِ.

﴿كَرِهُوا﴾[9] الْقُرْآنَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ مِنَ التَّكَالِيفِ وَالْأَحْكَامِ، لِأَنَّهُمْ قَدْ أَلِفُوا الْإِهْمَالَ وَإِطْلَاقَ الْعِنَانِ فِي الشَّهَوَاتِ وَالْمَلَاذِّ فَشُقَّ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ وَتَعَاظَمَهُمْ .

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .
[8] سورة ، الآية .
[9] سورة ، الآية .

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾[1]

دَمَّرَهُ: أَهْلَكَهُ، وَدَمَّرَ عَلَيْهِ: أَهْلَكَ عَلَيْهِ مَا يَخْتَصُّ بِهِ.

وَالْمَعْنَى: دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا اخْتَصَّ بِهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ وَكُلُّ مَا كَانَ لَهُمْ.

﴿وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾[2] الضَّمِيرُ لِلْعَاقِبَةِ الْمَذْكُورَةِ أَوْ لِلْهَلَكَةِ، لِأَنَّ التَّدْمِيرَ يَدُلُّ عَلَيْهَا، أَوْ لِلسُّنَّةِ، لِقَوْلِهِ –عَزَّ وَعَلَا–: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا﴾[3]]الْأَحْزَابُ: 388– 62 .[

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ﴾[4]

﴿مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾[5]: وَلِيُّهُمْ وَنَاصِرُهُمْ.

وَفِي قِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ: (وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا).

وَيُرْوَى :أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– كَانَ فِي الشِّعْبِ يَوْمَ أُحُدٍ وَقَدْ فَشَتْ فِيهِمُ الْجِرَاحَاتُ، وَفِيهِ نَزَلَتْ، فَنَادَى الْمُشْرِكُونَ: اعْلُ هُبَلُ: فَنَادَى الْمُسْلِمُونَ: اللَّهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ، فَنَادَى الْمُشْرِكُونَ: يَوْمٌ بِيَوْمٍ وَالْحَرْبُ سِجَالٌ، إِنَّ لَنَا عُزَّى وَلَا عُزَّى لَكُمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "قُولُوا اللَّهُ مَوْلَانَا وَلَا مَوْلَى لَكُمْ، إِنَّ الْقَتْلَى مُخْتَلِفَةٌ أَمَّا قَتْلَانَا فَأَحْيَاءٌ يُرْزَقُونَ وَأَمَّا قَتْلَاكُمْ فَفِي النَّارِ يُعَذَّبُونَ".

فَإِنْ قُلْتَ: قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ﴾[6]]يُونُسُ: 300[مُنَاقِضٌ لِهَذِهِ الْآيَةِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

قُلْتُ: لَا تَنَاقُضَ بَيْنَهُمَا، لِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى عِبَادِهِ جَمِيعًا عَلَى مَعْنَى أَنَّهُ رَبُّهُمْ وَمَالِكُ أَمْرِهِمْ. وَأَمَّا عَلَى مَعْنَى النَّاصِرِ، فَهُوَ مَوْلَى الْمُؤْمِنِينَ خَاصَّةً.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾[1]

﴿يَتَمَتَّعُونَ﴾[2]: يَنْتَفِعُونَ بِمَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا أَيَّامًا قَلَائِلَ، ﴿وَيَأْكُلُونَ﴾[3] غَافِلِينَ غَيْرِ مُفَكِّرِينَ فِي الْعَاقِبَةِ، ﴿كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ﴾[4] فِي مَسَارِحِهَا وَمَعَالِفِهَا، غَافِلَةً عَمَّا هِيَ بِصَدَدِهِ مِنَ النَّحْرِ وَالذَّبْحِ.

﴿مَثْوًى لَهُمْ﴾[5]: مَنْزِلٌ وَمَقَامٌ.

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ﴾[6]

وَقُرِئَ: (وَكَائِنٍ) بِوَزْنِ كَاعِنٍ. وَأَرَادَ بِالْقَرْيَةِ أَهْلَهَا، وَلِذَلِكَ قَالَ: ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾[7]، كَأَنَّهُ قَالَ: وَكَمْ مِنْ قَوْمٍ هُمْ أَشَدُّ قُوَّةً مَنْ قَوْمِكَ الَّذِينَ أَخْرَجُوكَ أَهْلَكْنَاهُمْ.

وَمَعْنَى أَخْرَجُوكَ: كَانُوا سَبَبَ خُرُوجِكَ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ قَالَ: ﴿فَلا نَاصِرَ لَهُمْ﴾[8]؟ وَإِنَّمَا هُوَ أَمْرٌ قَدْ قَضَى.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .
[8] سورة ، الآية .

قُلْتُ: مَجْرَاهُ مَجْرَى الْحَالِ الْمَحْكِيَّةِ، كَأَنَّهُ قَالَ: أَهْلَكْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ.

﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾[1]

مَنْ زُيِّنَ لَهُ: هُمْ أَهْلُ مَكَّةَ الَّذِينَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ شِرْكَهُمْ وَعَدَاوَتَهُمْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَيْ عَلَى حُجَّةٍ مِنْ عِنْدِهِ وَبُرْهَانٍ: وَهُوَ الْقُرْآنُ الْمُعْجِزُ وَسَائِرُ الْمُعْجِزَاتِ هُوَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–. وَقُرِئَ: (أَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ).

وَقَالَ –تَعَالَى–: ﴿سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا﴾[2] لِلْحَمْلِ عَلَى لَفْظِ ﴿مَنْ﴾[3] وَمَعْنَاهُ.

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾[4]

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾[5]؟

قُلْتُ: هُوَ كَلَامٌ فِي صُورَةِ الْإِثْبَاتِ وَمَعْنَى النَّفْيِ وَالْإِنْكَارِ، لِانْطِوَائِهِ تَحْتَ حُكْمِ كَلَامٍ مُصَدَّرٍ بِحَرْفِ الْإِنْكَارِ، وَدُخُولُهُ فِي حَيِّزِهِ، وَانْخِرَاطِهِ فِي سِلْكِهِ، وَهُوَ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾[6]، فَكَأَنَّهُ قِيلَ: أَمَثَلُ الْجَنَّةِ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ، أَيْ كَمَثَلِ جَزَاءِ مَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .

فَإِنْ قُلْتَ: فَلِمَ عَرَّى فِي حَرْفِ الْإِنْكَارِ؟ وَمَا فَائِدَةُ التَّعْرِيَةِ؟

قُلْتُ: تَعْرِيَتُهُ مِنْ حَرْفِ الْإِنْكَارِ فيها زِيَادَةُ تَصْوِيرٍ لِمُكَابَرَةِ مَنْ يُسَوِّي بَيْنَ الْمُتَمَسِّكِ بِالْبَيِّنَةِ وَالتَّابِعِ لِهَوَاهُ، وَأَنَّهُ بِمَنْزِلَةِ مَنْ يُثْبِتُ التَّسْوِيَةَ بَيْنَ الْجَنَّةِ الَّتِي تَجْرِي فيها تِلْكَ الْأَنْهَارُ، وَبَيْنَ النَّارِ الَّتِي يُسْقَى أَهْلُهَا الْحَمِيمَ.

وَنَظِيرُهُ قَوْلُ الْقَائِلِ:

أَفْرَحُ أَنْ أُرْزَأَ الْكِرَامَ وَأَنْ أُورَثَ ذُودًا شَصَائِصًا نَبَلًا

هُوَ كَلَامٌ مُنْكِرٌ لِلْفَرَحِ بِرَزِيَّةِ الْكِرَامِ وَوِرَاثَةِ الذَّوْدِ، مَعَ تَعَرِّيهِ عَنْ حَرْفِ الْإِنْكَارِ لِانْطِوَائِهِ تَحْتَ حُكْمِ قَوْلِ مَنْ قَالَ: أَتَفْرَحُ بِمَوْتِ أَخِيكَ وَبِوَرَاثَةِ إِبِلِهِ، وَالَّذِي طُرِحَ لِأَجْلِهِ حَرْفُ الْإِنْكَارِ إِرَادَةُ أَنْ يُصَوِّرَ قُبْحَ مَا أَزَنَّ بِهِ فَكَأَنَّهُ قَالَ لَهُ: نَعَمْ مِثْلِي يَفْرَحُ بِمُرَزَّأَةِ الْكِرَامِ وَبِأَنْ يَسْتَبْدِلَ مِنْهُمْ ذَوْدًا يَقِلُّ طَائِلَةً وَهُوَ مِنَ التَّسْلِيمِ الَّذِي تَحْتَهُ كُلُّ إِنْكَارٍ، وَمَثَلُ الْجَنَّةِ: صِفَةُ الْجَنَّةِ الْعَجِيبَةِ الشَّأْنِ، وَهُوَ مُبْتَدَأٌ، وَخَبَرُهُ: كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فيها أَنْهَارٌ﴾[1]، دَاخِلٌ فِي حُكْمِ الصِّلَةِ كَالتَّكْرِيرِ لَهَا.

أَلَا تَرَى إِلَى صِحَّةِ قَوْلِكَ: الَّتِي فيها أَنْهَارٌ؟

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ خَبَرَ مُبْتَدَإٍ مَحْذُوفٍ هِيَ فيها أَنْهَارٌ، وَكَأَنَّ قَائِلًا قَالَ: وَمَا مِثْلُهَا؟ فَقِيلَ: فيها أَنْهَارٌ، وَأَنْ يَكُونَ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ، أَيْ: مُسْتَقِرَّةٌ فيها أَنْهَارٌ، وَفِي قِرَاءَةِ عَلِيٍّ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: (أَمْثَالَ الْجَنَّةِ) أَيْ: مَا صِفَاتُهَا كَصِفَاتِ النَّارِ. وَقُرِئَ: (أَسِنٍ) يُقَالُ: أَسِنَ الْمَاءُ وَأَجِنَ: إِذَا تَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَرِيحُهُ.

وَأَنْشَدَ لِيَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ:

لَقَدْ سَقَتْنِي رُضَابًا غَيْرَ ذِي أَسَنٍ كَالْمِسْكِ فُتَّ عَلَى مَاءِ الْعَنَاقِيدِ

﴿مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾[2]، كَمَا تَتَغَيَّرُ أَلْبَانُ الدُّنْيَا، فَلَا يَعُودُ قَارِصًا وَلَا حَاذِرًا. وَلَا مَا يَكْرَهُ مِنَ الطُّعُومِ "لَذَّةٍ" تَأْنِيثُ لَذٍّ، وَهُوَ اللَّذِيذُ، أَوْ وُصِفَ بِمَصْدَرٍ. وَقُرِئَ بِالْحَرَكَاتِ الثَّلَاثِ، فَالْجَرُّ عَلَى صِفَةِ الْخَمْرِ، وَالرَّفْعُ عَلَى صِفَةِ الْأَنْهَارِ، وَالنُّصْبُ عَلَى الْعِلَّةِ، أَيْ: لِأَجْلِ لَذَّةِ الشَّارِبِينَ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

وَالْمَعْنَى: مَا هُوَ إِلَّا التَّلَذُّذُ الْخَالِصُ، لَيْسَ مَعَهُ ذَهَابُ عَقْلٍ وَلَا خِمَارٌ وَلَا صُدَاعٌ، وَلَا آفَةٌ مِنْ آفَاتِ الْخَمْرِ ﴿مُصَفي﴾[1] لَمْ يَخْرُجْ مِنْ بُطُونِ النَّحْلِ فيخَالِطُهُ الشَّمْعُ وَغَيْرُهُ.

﴿مَاءً حَمِيمًا﴾[2]، قِيلَ: إِذَا دَنَا مِنْهُمْ شَوَى وُجُوهَهُمْ، وَانْمَازَتْ فَرْوَةُ رُءُوسِهِمْ، فَإِذَا شَرِبُوهُ قَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾[3]

هُمُ الْمُنَافِقُونَ: كَانُوا يَحْضُرُونَ مَجْلِسَ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فيسْمَعُونَ كَلَامَهُ وَلَا يَعُونَهُ وَلَا يُلْقُونَ لَهُ بِالًا تَهَاوُنًا مِنْهُمْ، فَإِذَا خَرَجُوا قَالُوا لِأُولِي الْعِلْمِ مِنَ الصَّحَابَةِ، مَاذَا قَالَ السَّاعَةُ؟ عَلَى جِهَةِ الِاسْتِهْزَاءِ. وَقِيلَ: كَانَ يَخْطُبُ فَإِذَا عَابَ الْمُنَافِقِينَ خَرَجُوا فَقَالُوا ذَلِكَ لِلْعُلَمَاءِ. وَقِيلَ: قَالُوهُ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَا مِنْهُمْ، وَقَدْ سُمِّيَتْ فيمَنْ سُئِلَ ﴿آنِفًا﴾[4] وَقُرِئَ: (أَنَفًا) عَلَى فِعْلٍ، نُصِبَ عَلَى الظَّرْفِ.

قَالَ الزَّجَّاجُ: هُوَ مَنِ اسْتَأْنَفْتُ الشَّيْءَ: إِذَا ابْتَدَأْتُهُ. وَالْمَعْنَى: مَاذَا قَالَ في أَوَّلِ وَقْتٍ يَقْرُبُ مِنَّا.

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾[5]

﴿زَادَهُمْ﴾[6] اللَّهُ ﴿هُدًى﴾[7] بِالتَّوْفِيقِ.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا﴾[1] أَعَانَهُمْ عَلَيْهَا، أَوْ أَتَاهُمْ جَزَاءَ تَقْوَاهُمْ.

وَعَنِ السُّدِّيِّ: بَيَّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ. وَقُرِئَ: (وَأَعْطَاهُمْ) وَقِيلَ: الضَّمِيرُ فِي زَادَهُمْ، لِقَوْلِ الرَّسُولِ أَوْ لِاسْتِهْزَاءِ الْمُنَافِقِينَ.

﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾[2]

﴿أَنْ تَأْتِيَهُمْ﴾[3] بَدَلُ اشْتِمَالٍ مِنَ السَّاعَةِ، نَحْوُ: ﴿أَنْ تَطَئُوهُمْ﴾[4] مِنْ قَوْلِهِ: ﴿رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ﴾[5]]الْفَتْحُ: 25]، وَقُرِئَ: (أَنْ تَأْتِهِمْ) بِالْوَقْفِ عَلَى السَّاعَةِ وَاسْتِئْنَافِ الشَّرْطِ، وَهِيَ فِي مَصَاحِفِ أَهْلِ مَكَّةَ كَذَلِكَ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا جَزَاءُ الشَّرْطِ؟

قُلْتُ: قَوْلُهُ: ﴿فَأَنَّى لَهُمْ﴾[6]، وَمَعْنَاهُ: إِنْ تَأْتِهِمُ السَّاعَةُ فَكَيْفَ لَهُمْ ذِكْرَاهُمْ، أَيْ تَذَكُّرُهُمْ وَاتِّعَاظُهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ، يَعْنِي لَا تَنْفَعُهُمُ الذِّكْرَى حِينَئِذٍ، كَقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾[7]] الْفَجْرُ: 23].

فَإِنْ قُلْتَ: بِمَ يَتَّصِلُ قَوْلُهُ: ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾[8] عَلَى الْقِرَاءَتَيْنِ؟

قُلْتُ: بِإِتْيَانِ السَّاعَةِ اتِّصَالُ الْعِلَّةِ بِالْمَعْلُولِ، كَقَوْلِكَ: إِنْ أَكْرَمَنِي زَيْدٌ فَأَنَا حَقِيقٌ بِالْإِكْرَامِ أُكْرِمُهُ. وَالْأَشْرَاطُ: الْعَلَامَاتُ.

قَالَ أَبُو الْأَسْوَدِ:

فَإِنْ كُنْتِ قَدْ أَزْمَعْتِ بِالصَّرْمِ بَيْنَنَا فَقَدْ جَعَلَتْ أَشْرَاطُ أَوَّلِهِ تَبْدُو

---

[7] سورة ، الآية .

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

[7] سورة ، الآية .

[8] سورة ، الآية .

وَقِيلَ: مَبْعَثُ مُحَمَّدٍ خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَعَلَيْهِمْ مِنْهَا، وَانْشِقَاقُ الْقَمَرِ، وَالدُّخَانِ.

وَعَنِ الْكَلْبِيِّ: كَثْرَةُ الْمَالِ وَالتِّجَارَةِ، وَشَهَادَةُ الزُّورِ، وَقَطْعُ الْأَرْحَامِ، وَقِلَّةُ الْكِرَامِ، وَكَثْرَةُ اللِّئَامِ. وَقُرِئَ: (بَغْتَةً) بِوَزْنِ جَرْبَةً، وَهِيَ غَرِيبَةٌ لَمْ تَرِدْ فِي الْمَصَادِرِ أُخْتِهَا، وَهِيَ مَرْوِيَّةٌ عَنْ أَبِي عَمْرٍو، وَمَا أَخْوَفَنِي أَنْ تَكُونَ غَلْطَةً مِنَ الرَّاوِي عَلَى أَبِي عَمْرٍو، وَأَنْ يَكُونَ الصَّوَابُ: بَغْتَةً، بِفَتْحِ الْعَيْنِ مِنْ غَيْرِ تَشْدِيدٍ، كَقِرَاءَةِ الْحَسَنِ فيمَا تَقَدَّمَ.

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾[1]

لَمَّا ذَكَرَ حَالَ الْمُؤْمِنِينَ وَحَالَ الْكَافِرِينَ قَالَ: إِذَا عَلِمْتَ أَنَّ الْأَمْرَ كَمَا ذُكِرَ مِنْ سَعَادَةِ هَؤُلَاءِ وَشَقَاوَةِ هَؤُلَاءِ، فَاثْبُتْ عَلَى مَا أَنْتَ عَلَيْهِ مِنَ الْعِلْمِ بِوَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ، وَعَلَى التَّوَاضُعِ وَهَضْمِ النَّفْسِ: بِاسْتِغْفَارِ ذَنْبِكَ وَذُنُوبِ مَنْ عَلَى دِينِكَ. وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَحْوَالَكُمْ وَمُتَصَرَّفَاتِكُمْ وَمُتَقَلَّبَكُمْ فِي مَعَايِشِكُمْ وَمَتَاجِرِكُمْ، وَيَعْلَمُ حَيْثُ تَسْتَقِرُّونَ فِي مَنَازِلِكُمْ أَوْ مُتَقَلَّبِكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ وَمَثْوَاكُمْ فِي الْقُبُورِ، أَوْ مُتَقَلَّبِكُمْ فِي أَعْمَالِكُمْ وَمَثْوَاكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ. وَمِثْلُهُ حَقِيقٌ بِأَنْ يَخْشَى وَيَتَّقِيَ، وَأَنْ يَسْتَغْفِرَ وَيَسْتَرْحِمَ.

وَعَنْ سُفيانَ بْنِ عُيَيْنَةَ: أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ فَضْلِ الْعِلْمِ فَقَالَ: أَلَمْ تَسْمَعْ قَوْلَهُ حِينَ بَدَأَ بِهِ فَقَالَ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾[2]، فَأَمَرَ بِالْعَمَلِ بَعْدَ الْعِلْمِ وَقَالَ: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾[3]]الْحَدِيدُ: 20] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾[4]،]الْحَدِيدُ: 21] وَقَالَ: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾[5]؛ ثُمَّ قَالَ بَعْدَ:

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

﴿فَاحْذَرُوهُمْ﴾[1]، [التَّغَابُنُ: 14] وَقَالَ: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾[2]]الْأَنْفَالُ: 41] ثُمَّ أَمَرَ بِالْعَمَلِ بَعْدُ.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾[3]

كَانُوا يَدَّعُونَ الْحِرْصَ عَلَى الْجِهَادِ وَيَتَمَنَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِهِمْ وَيَقُولُونَ: ﴿لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾[4] في مَعْنَى الْجِهَادِ، ﴿فَإِذَا أُنْزِلَتْ﴾[5] وَأَمَرُوا فيها بِمَا تَمَنَّوْا وَحَرِصُوا عَلَيْهِ كَاعُوا وَشُقَّ عَلَيْهِمْ، وَسَقَطُوا في أَيْدِيهِمْ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ﴾[6]]النِّسَاءُ.[777 :

﴿مُحْكَمَةٌ﴾[7] مُبَيَّنَةٌ غَيْرُ مُتَشَابِهَةٍ لَا تَحْتَمِلُ وَجْهًا إِلَّا وُجُوبَ الْقِتَالِ.

وَعَنْ قَتَادَةَ: كُلُّ سُورَةٍ فيها ذِكْرُ الْقِتَالِ فَهِيَ مُحْكَمَةٌ، وَهِيَ أَشَدُّ الْقُرْآنِ عَلَى الْمُنَافِقِينَ.

وَقِيلَ لَهَا: ﴿مُحْكَمَةٌ﴾[8]، لِأَنَّ النَّسْخَ لَا يَرِدُ عَلَيْهَا مِنْ قَبْلِ أَنَّ الْقِتَالَ قَدْ نَسَخَ مَا كَانَ مِنَ الصَّفْحِ وَالْمُهَادَنَةِ، وَهُوَ غَيْرُ مَنْسُوخٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَقِيلَ: هِيَ الْمُحْدَثَةُ، لِأَنَّهَا حِينَ يَحْدُثُ نُزُولُهَا لَا يَتَنَاوَلُهَا النَّسْخُ، ثُمَّ تُنْسَخُ بَعْدَ ذَلِكَ أَوْ تَبْقَى غَيْرَ مَنْسُوخَةٍ. وَفِي

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .
[8] سورة ، الآية .

قِرَاءَةِ عَبْدِ اللَّهِ: (سُورَةٌ مُحْدَثَةٌ)، وَقُرِئَ: (فَإِذَا نَزَلَتْ سُورَةٌ ذُكِرَ فيها الْقِتَالُ) عَلَى الْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ وَنُصِبَ الْقِتَالُ.

﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾[1] هَمُ الَّذِينَ كَانُوا عَلَى حَرْفٍ غَيْرَ ثَابِتِي الْأَقْدَامِ.

﴿نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾[2]، أَيْ تَشْخَصُ أَبْصَارُهُمْ جُبْنًا وَهَلَعًا وَغَيْظًا، كَمَا يَنْظُرُ مَنْ أَصَابَتْهُ الْغَشْيَةُ عِنْدَ الْمَوْتِ.

﴿فَأَوْلَى لَهُمْ﴾[3]، وَعِيدٌ بِمَعْنَى: فَوَيْلٌ لَهُمْ. وَهُوَ أَفْعَلُ: مِنَ الْوَلِيِّ، وَهُوَ الْقُرْبُ. وَمَعْنَاهُ: الدُّعَاءُ عَلَيْهِمْ بِأَنْ يَلِيَهُمُ الْمَكْرُوهُ.

﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾[4] كَلَامٌ مُسْتَأْنَفٌ، أَيْ: طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ خَيْرٌ لَهُمْ. وَقِيلَ: هِيَ حِكَايَةُ قَوْلِهِمْ، أَيْ: قَالُوا وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ، بِمَعْنَى: أَمْرُنَا طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ. وَتَشْهَدُ لَهُ قِرَاءَةُ أُبَيٍّ: يَقُولُونَ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ.

﴿فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ﴾[5]، أَيْ جَدَّ. وَالْعَزْمُ وَالْجِدُّ لِأَصْحَابِ الْأَمْرِ. وَإِنَّمَا يُسْنَدَانِ إِلَى الْأَمْرِ إِسْنَادًا مَجَازِيًّا. وَمِنْهُ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾[6]] الشُّورَى: 43].

﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ﴾[7] فيمَا زَعَمُوا مِنَ الْحِرْصِ عَلَى الْجِهَادِ. أَوْ: فَلَوْ صَدَقُوا في إِيمَانِهِمْ وَوَاطَأَتْ قُلُوبُهُمْ فيهِ أَلْسِنَتُهُمْ.

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾[8]

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .
[8] سورة ، الآية .

عَسَيْتُ وَعَسَيْتُمْ: لُغَةُ أَهْلِ الْحِجَازِ .وَأَمَّا بَنُو تَمِيمٍ فيقُولُونَ: عَسَى أَنْ تَفْعَلَ، وَعَسَى أَنْ تَفْعَلُوا، وَلَا يَلْحَقُونَ الضَّمَائِرَ، وَقَرَأَ نَافِعٌ بِكَسْرِ السِّينِ وَهُوَ غَرِيبٌ، وَقَدْ نُقِلَ الْكَلَامُ مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى الْخِطَابِ عَلَى طَرِيقَةِ الِالْتِفَاتِ، لِيَكُونَ أَبْلَغَ في التَّوْكِيدِ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى: (فَهَلْ عَسَيْتُمْ .... إِنَّ تُفْسِدُواْ في الْأَرْضِ)؟

قُلْتُ: مَعْنَاهُ: هَلْ يَتَوَقَّعُ مِنْكُمُ الْإِفْسَادَ؟

فَإِنْ قُلْتَ: فَكَيْفَ يَصِحُّ هَذَا في كَلَامِ اللَّهِ عَزَّ وَعَلَا وَهُوَ عَالِمٌ بِمَا كَانَ وَبِمَا يَكُونُ؟

قُلْتُ: مَعْنَاهُ إِنَّكُمْ –لِمَا عَهِدَ مِنْكُمْ– أَحِقَّاءُ بِأَنْ يَقُولَ لَكُمْ كُلُّ مَنْ ذَاقَكُمْ وَعَرَفَ تَمْرِيضَكُمْ وَرَخَاوَةَ عَقْدِكُمْ في الْإِيمَانِ: يَا هَؤُلَاءِ، مَا تَرَوْنَ؟ هَلْ يَتَوَقَّعُ مِنْكُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أُمُورَ النَّاسِ وَتَأَمَّرْتُمْ عَلَيْهِمْ لِمَا تَبَيَّنَ مِنْكُمْ مِنَ الشَّوَاهِدِ وَلَاحَ مِنَ الْمَخَايِلِ.

﴿أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾[1] تَنَاحَرَا عَلَى الْمُلْكِ وَتَهَالَكًا عَلَى الدُّنْيَا؟ وَقِيلَ: إِنْ أَعْرَضْتُمْ وَتَوَلَّيْتُمْ عَنْ دِينِ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَسُنَّتِهِ أَنْ تَرْجِعُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ عَلَيْهِ في الْجَاهِلِيَّةِ مِنَ الْإِفْسَادِ في الْأَرْضِ: بِالتَّغَاوُرِ وَالتَّنَاهُبِ، وَقَطْعِ الْأَرْحَامِ: بِمُقَاتَلَةِ بَعْضِ الْأَقَارِبِ بَعْضًا وَوَأْدِ الْبَنَاتِ؟ وَقُرِئَ: (وَلِيتُمَّ) وَفى قِرَاءَةِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: (تُوَلِّتُمْ)، أَيْ: إِنْ تَوَلَّاكُمْ وُلَاةٌ غَشَمَةٌ خَرَجْتُمْ مَعَهُمْ وَمَشَيْتُمْ تَحْتَ لِوَائِهِمْ وَأَفْسَدْتُمْ بِإِفْسَادِهِمْ؟ وَقُرِئَ: (وَتَقْطَعُوا) (وَتُقَطِّعُوا) مِنَ التَّقْطِيعِ وَالتَّقَطُّعِ.

﴿أَوْلَئِكَ﴾[2]: إِشَارَةٌ إِلَى الْمَذْكُورِينَ، ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾[3]، لِإِفْسَادِهِمْ وَقَطْعِهِمُ الْأَرْحَامَ، فَمَنَعَهُمْ أَلْطَافَهُ وَخَذَلَهُمْ، حَتَّى صُمُّوا عَنِ اسْتِمَاعِ الْمَوْعِظَةِ، وَعَمُوا عَنْ إِبْصَارِ طَرِيقِ الْهُدَى.

وَيَجُوزُ أَنْ يُرِيدَ بِالَّذِينَ آمَنُوا: الْمُؤْمِنِينَ الْخُلَّصِ الثَّابِتِينَ، وَأَنَّهُمْ يَتَسَوَّفُونَ إِلَى الْوَحْيِ إِذَا أَبْطَأَ عَلَيْهِمْ، فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ في مَعْنَى الْجِهَادِ: رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ فيمَا بَيْنَهُمْ يَضْجَرُونَ مِنْهَا.

﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[4]

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾[1] وَيَتَصَفَّحُونَهُ وَمَا فيهِ مِنَ الْمَوَاعِظِ وَالزَّوَاجِرِ وَوَعِيدِ الْعُصَاةِ، حَتَّى لَا يَجْسُرُوا عَلَى الْمَعَاصِي.

ثُمَّ قَالَ: ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[2]، وَأَمْ بِمَعْنَى بَلْ وَهَمْزَةُ التَّقْرِيرِ، لِلتَّسْجِيلِ عَلَيْهِمْ بِأَنَّ قُلُوبَهُمْ مُقْفَلَةٌ لَا يَتَوَصَّلُ إِلَيْهَا ذِكْرٌ.

وَعَنْ قَتَادَةَ: إِذًا وَاللَّهِ يَجِدُوا فِي الْقُرْآنِ زَاجِرًا عَنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ لَوْ تَدَبَّرُوهُ، وَلَكِنَّهُمْ أُخِذُوا بِالْمُتَشَابِهِ فَهَلَكُوا.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ نُكِّرَتِ الْقُلُوبُ وَأُضِيفَتِ الْأَقْفَالُ إِلَيْهَا؟

قُلْتُ: أَمَّا التَّنْكِيرُ فَفِيهِ وَجْهَانِ: أَنْ يُرَادَ عَلَى قُلُوبٍ قَاسِيَةٍ مُبْهَمٌ أَمْرُهَا فِي ذَلِكَ، أَوْ يُرَادُ عَلَى بَعْضِ الْقُلُوبِ: وَهِيَ قُلُوبُ الْمُنَافِقِينَ. وَأَمَّا إِضَافَةُ الْأَقْفَالِ، فَلِأَنَّهُ يُرِيدُ الْأَقْفَالَ الْمُخْتَصَّةَ بِهَا، وَهِيَ أَقْفَالُ الْكُفْرِ الَّتِي اسْتُغْلِقَتْ فَلَا تَنْفَتِحُ. وَقُرِئَ: (إِقْفَالُهَا) عَلَى الْمَصْدَرِ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾[3]

﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾[4] جُمْلَةٌ مِنْ مُبْتَدَأٍ وَخَبَرٍ وَقَعَتْ خَبَرًا لـ ﴿أَنَّ﴾[5]، كَقَوْلِكَ: إِنَّ زَيْدًا عَمْرٌو مَرَّ بِهِ.

﴿سَوَّلَ لَهُمْ﴾[6]: سَهَّلَ لَهُمْ رُكُوبَ الْعَظَائِمِ، مِنَ السُّؤْلِ وَهُوَ الِاسْتِرْخَاءُ، وَقَدِ اشْتَقَّهُ مِنَ السُّؤْلِ مَنْ لَا عِلْمَ لَهُ بِالتَّصْرِيفِ وَالِاشْتِقَاقِ جَمِيعًا.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .

﴿وَأَمْلَى لَهُمْ﴾[1]: وَمَدَّ لَهُمْ فِي الْآمَالِ وَالْأَمَانِيِّ.

وَقُرِئَ: (وَأَمْلَى لَهُمْ) يَعْنِي: إِنَّ الشَّيْطَانَ يُغْوِيهِمْ وَأَنَا أَنْظُرُهُمْ، كَقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ﴾[2]]آلُ عِمْرَانَ : 1788]، وَقُرِئَ: (وَأُمْلِيَ لَهُمْ) عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ، أَيْ: أُمْهِلُوا وَمُدَّ فِي عُمُرِهِمْ. وَقُرِئَ: (سَوَّلَ لَهُمْ)، وَمَعْنَاهُ: كَيْدُ الشَّيْطَانِ زَيَّنَ لَهُمْ عَلَى تَقْدِيرِ حَذْفِ الْمُضَافِ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَنْ هَؤُلَاءِ؟

قُلْتُ: الْيَهُودُ كَفَرُوا بِمُحَمَّدٍ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى، وَهُوَ نَعْتُهُ فِي التَّوْرَاةِ.

وَقِيلَ: هُمُ الْمُنَافِقُونَ. الَّذِينَ قَالُوا: هُمُ الْيَهُودُ، وَالَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ: الْمُنَافِقُونَ. وَقِيلَ عَكْسُهُ، وَأَنَّهُ قَوْلُ الْمُنَافِقِينَ لِقُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرِ: لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ. وَقِيلَ: ﴿بَعْضِ الأَمْرِ﴾[3]: التَّكْذِيبُ بِرَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، أَوْ بِلَا إِلَاهَ إِلَّا اللَّهُ، أَوْ تَرَكَ الْقِتَالَ مَعَهُ. وَقِيلَ: هُوَ قَوْلُ أَحَدِ الْفَرِيقَيْنِ لِلْمُشْرِكِينَ: سَنُطِيعُكُمْ فِي التَّظَافُرِ عَلَى عَدَاوَةِ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَالْقُعُودِ عَنِ الْجِهَادِ مَعَهُ.

وَمَعْنَى: ﴿فِي بَعْضِ الأَمْرِ﴾[4] فِي بَعْضِ مَا تَأْمُرُونَ بِهِ، أَوْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ الَّذِي يُهِمُّكُمْ.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾[5]، وَقُرِئَ: (إِسْرَارَهُمْ) عَلَى الْمَصْدَرِ، قَالُوا ذَلِكَ سِرًّا فِيمَا بَيْنَهُمْ، فَأَفْشَاهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ. فَكَيْفَ يَعْمَلُونَ وَمَا حِيلَتُهُمْ حِينَئِذٍ؟ وَقُرِئَ: (تَوَفَّاهُمْ) وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مَاضِيًا، وَمُضَارِعًا قَدْ حُذِفَتْ إِحْدَى تَاءَيْهِ، كَقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾[6]]النِّسَاءُ: 97].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-: لَا يَتَوَفَّى أَحَدٌ عَلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ إِلَّا يُضْرَبُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ فِي وَجْهِهِ وَدُبُرِهِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

﴿ذَلِكَ﴾[1] إِشَارَةٌ إِلَى التَّوَفِّي الْمَوْصُوفِ.

﴿مَا أَسْخَطَ اللَّهَ﴾[2] مِنْ كِتْمَانِ نَعْتِ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

وَ﴿رِضْوَانَهُ﴾[3]: الْإِيمَانُ بِرَسُولِ اللَّهِ.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾[4]

﴿أَضْغَانَهُمْ﴾[5] أَحْقَادَهُمْ وَإِخْرَاجُهَا: إِبْرَازُهَا لِرَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَلِلْمُؤْمِنِينَ. وَإِظْهَارُهُمْ عَلَى نِفَاقِهِمْ وَعَدَاوَتِهِمْ لَهُمْ، وَكَانَتْ صُدُورُهُمْ تَغْلِي حَنَقًا عَلَيْهِمْ.

﴿لَأَرَيْنَاكَهُمْ﴾[6] لَعَرَفْنَاكَهُمْ وَدَلَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ. حَتَّى تَعْرِفَهُمْ بِأَعْيَانِهِمْ لَا يَخْفُونَ عَلَيْكَ "بِسِيمَاهُمْ" بِعَلَامَتِهِمْ: وَهُوَ أَنْ يَسْمَعَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِعَلَامَةٍ يُعَلَّمُونَ بِهَا.

وَعَنْ أَنَسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: مَا خَفِي عَلَى رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ شَيْءٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ: كَانَ يَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ، وَلَقَدْ كُنَّا في بَعْضِ الْغَزَوَاتِ وَفيها تِسْعَةٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ يَشْكُوهُمُ النَّاسُ، فَنَامُوا ذَاتَ لَيْلَةٍ وَأَصْبَحُوا وَعَلَى جَبْهَةِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَكْتُوبٌ: هَذَا مُنَافِقٌ.

فَإِنْ قُلْتَ: أَيُّ فَرْقٍ بَيْنَ اللَّامَيْنِ في ﴿فَلَعَرَفْتَهُمْ﴾[7] وَ﴿لَتَعْرِفَنَّهُمْ﴾[8]؟

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

[7] سورة ، الآية .

[8] سورة ، الآية .

قُلْتُ: الْأُولَى هِيَ الدَّاخِلَةُ فِي جَوَابِ (لَوْ) كَالَّتِي فِي ﴿لَأَرَيْنَاكَهُمْ﴾[1] كُرِّرَتْ فِي الْمَعْطُوفِ. وَأَمَّا اللَّامُ فِي ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ﴾[2]، فَوَاقِعَةٌ مَعَ النُّونِ فِي جَوَابِ قَسَمٍ مَحْذُوفٍ.

﴿فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾[3] فِي نَحْوِهِ وَأُسْلُوبِهِ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: هُوَ قَوْلُهُمْ: مَا لَنَا إِنْ أَطَعْنَا مِنَ الثَّوَابِ؟ وَلَا يَقُولُونَ: مَا عَلَيْنَا إِنْ عَصَيْنَا مِنَ الْعِقَابِ. وَقِيلَ: اللَّحْنُ: أَنْ تَلْحَنَ بِكَلَامِكَ، أَيْ: تُمِيلُهُ إِلَى نَحْوٍ مَنِ الْأَنْحَاءِ لِيَفْطَنَ لَهُ صَاحِبُكَ كَالتَّعْرِيضِ وَالتَّوْرِيَةِ.

قَالَ:

وَلَقَدْ لَحَنْتُ لَكُمْ لِكَيْمَا تَفْقَهُوا وَاللَّحْنُ يَعْرِفُهُ ذَوُو الْأَلْبَابِ

وَقِيلَ لِلْمُخْطِئِ: لَاحَنَ، لِأَنَّهُ يَعْدِلُ بِالْكَلَامِ عَنِ الصَّوَابِ.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾[4]

﴿أَخْبَارَكُمْ﴾[5] مَا يُحْكَى عَنْكُمْ وَمَا يُخْبَرُ بِهِ عَنْ أَعْمَالِكُمْ، لِيَعْلَمَ حَسَنَهَا مِنْ قَبِيحِهَا، لِأَنَّ الْخَبَرَ عَلَى حَسَبِ الْمُخْبَرِ عَنْهُ: إِنْ حَسَنًا فَحَسَنٌ، وَإِنْ قَبِيحًا فَقَبِيحٌ، وَقَرَأَ يَعْقُوبُ: (وَنَبْلُو)، بِسُكُونِ الْوَاوِ عَلَى مَعْنَى: وَنَحْنُ نَبْلُو أَخْبَارَكُمْ. وَقُرِئَ: (وَلَيَبْلُونَّكُمْ) وَيَعْلَمَ وَيَبْلُو بِالْيَاءِ.

وَعَنِ الْفُضَيْلِ: أَنَّهُ كَانَ إِذَا قَرَأَهَا بَكَى وَقَالَ: اللَّهُمَّ لَا تُبْلِنَا، فَإِنَّكَ إِنْ بَلَوْتَنَا فَضَحْتَنَا وَهَتَكْتَ أَسْتَارَنَا وَعَذَّبْتَنَا.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ﴾[1]

﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ﴾[2] الَّتِي عَمِلُوهَا فِي دِينِهِمْ يَرْجُونَ بِهَا الثَّوَابَ، لِأَنَّهَا مَعَ كُفْرِهِمْ بِرَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بَاطِلَةٌ، وَهُمْ قُرَيْظَةُ وَالنَّضِيرُ، أَوْ سَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمُ الَّتِي عَمِلُوهَا، وَالْمَكَايِدَ الَّتِي نَصَبُوهَا فِي مُشَاقَّةِ الرَّسُولِ، أَيْ: سَيُبْطِلُهَا فَلَا يَصِلُونَ مِنْهَا إِلَى أَغْرَاضِهِمْ، بَلْ يَسْتَنْصِرُونَ بِهَا وَلَا يُثْمِرُ لَهُمْ إِلَّا الْقَتْلُ وَالْجَلَاءُ عَنْ أَوْطَانِهِمْ.

وَقِيلَ: هُمْ رُؤَسَاءُ قُرَيْشٍ، وَالْمُطْعَمُونَ يَوْمَ بَدْرٍ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾[3]

﴿وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾[4]، أَيْ لَا تُحْبِطُوا الطَّاعَاتِ بِالْكَبَائِرِ، كَقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾[5]]الْحُجُرَاتُ: 2] إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ﴾[6].]الْحُجُرَاتُ: 20]

وَعَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ: كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا يَضُرُّ مَعَ الْإِيمَانِ ذَنْبٌ، كَمَا لَا يَنْفَعُ مَعَ الشِّرْكِ عَمَلٌ، حَتَّى نَزَلَتْ: ﴿وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾[7]، فَكَانُوا يَخَافُونَ الْكَبَائِرَ عَلَى أَعْمَالِهِمْ.

وَعَنْ حُذَيْفَةَ: فَخَافُوا أَنْ تُحْبِطَ الْكَبَائِرُ أَعْمَالَهُمْ.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ: كُنَّا نَرَى أَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ مِنْ حَسَنَاتِنَا إِلَّا مَقْبُولًا، حَتَّى نَزَلَ: ﴿ولا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾[1]، فَقُلْنَا: مَا هَذَا الَّذِي يُبْطِلُ أَعْمَالَنَا؟ فَقُلْنَا: الْكَبَائِرُ الْمُوجِبَاتُ وَالْفَوَاحِشُ، حَتَّى نَزَلَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[2]،]النِّسَاءُ: 1166] فَكَفَفْنَا عَنِ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ، فَكُنَّا نَخَافُ عَلَى مَنْ أَصَابَ الْكَبَائِرَ وَنَرْجُو لِمَنْ لَمْ يُصِبْهَا.

وَعَنْ قَتَادَةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ-: رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا لَمْ يُحْبَطْ عَمَلُهُ الصَّالِحُ بِعَمَلِهِ السَّيِّئِ. وَقِيلَ: لَا تُبْطِلُوهَا بِمَعْصِيَتِهِمَا.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-: لَا تُبْطِلُوهَا بِالرِّيَاءِ وَالسُّمْعَةِ، وَعَنْهُ: بِالشَّكِّ وَالنِّفَاقِ، وَقِيلَ: بِالْعُجْبِ، فَإِنَّ الْعُجْبَ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ. وَقِيلَ: وَلَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾[3]

﴿ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾[4]، قِيلَ: هُمْ أَصْحَابُ الْقَلِيبِ، وَالظَّاهِرُ الْعُمُومُ.

﴿فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾[5]

﴿فَلا تَهِنُوا﴾[6]: وَلَا تَضْعُفُوا وَلَا تَذِلُّوا لِلْعَدُوِّ.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .

﴿وَ﴾[1] لَا (تَدْعُو إِلَى السَّلْمِ)، وَقُرِئَ: (السِّلْمِ)، وَهُمُ الْمُسَالَمَةُ.

﴿وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ﴾[2]، أَيِ: الْأَغْلَبُونَ الْأَقْهَرُونَ.

﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾[3]، أَيْ: نَاصِرُكُمْ.

وَعَنْ قَتَادَةَ: لَا تَكُونُوا أَوَّلَ الطَّائِفَتَيْنِ ضَرَعَتْ إِلَى صَاحِبَتِهَا بِالْمُوَادَعَةِ. وَقُرِئَ: (لَا تَدَّعُوا) مَنِ ادَّعَى الْقَوْمُ وَتَدَاعَوْا: إِذَا دَعَوْا. نَحْوَ قَوْلِكَ: ارْتَمَوُا الصَّيْدَ وَتَرَامَوْهُ. وَتَدْعُوَا: مَجْزُومٌ لِدُخُولِهِ فِي حُكْمِ النَّهْيِ، أَوْ مَنْصُوبٌ لِإِضْمَارِ إِنَّ.

وَنَحْوُ قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ﴾[4]: قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى﴾[5]]طه: 68.[

﴿ وَلَنْ يَتِرَكُمْ﴾[6] مِنْ وَتَرْتُ الرَّجُلَ إِذَا قَتَلْتُ لَهُ قَتِيلًا مِنْ وَلَدٍ أَوْ أَخٍ أَوْ حَمِيمٍ، أَوْ حَرْبَتِهِ، وَحَقِيقَتُهُ: أَفْرَدْتُهُ مِنْ قَرِيبِهِ أَوْ مَالِهِ، مِنَ الْوَتَرِ وَهُوَ الْفَرْدُ، فَشَبَّهَ إِضَاعَةَ عَمَلِ الْعَامِلِ وَتَعْطِيلَ ثَوَابِهِ بِوِتْرِ الْوَاتِرِ، وَهُوَ مِنْ فَصِيحِ الْكَلَامِ.

وَمِنْهُ قَوْلُهُ –عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ–: "مِمَّنْ فَاتَتْهُ صَلَاةُ الْعَصْرِ، فَكَأَنَّمَا وُتِرَ أَهْلُهُ وَمَالُهُ"، أَيْ أَفْرَدَ عَنْهُمَا قَتْلًا وَنَهْبًا.

﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلا يَسْأَلْكُمْ
أَمْوَالَكُمْ إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ هَا أَنْتُمْ هَؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا
فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ
وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ
ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾[7]

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

[7] سورة ، الآية .

﴿يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾[1] ثَوَابُ إِيمَانِكُمْ وَتَقْوَاكُمْ، ﴿وَلا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾[2]، أَيْ وَلَا يَسْأَلُكُمْ جَمِيعَهَا، إِنَّمَا يَقْتَصِرُ مِنْكُمْ عَلَى رُبْعِ الْعُشْرِ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ﴾[3]، أَيْ يُجْهِدُكُمْ وَيَطْلُبُهُ كُلَّهُ، وَالْإِحْفَاءُ: الْمُبَالَغَةُ وَبُلُوغُ الْغَايَةِ فِي كُلِّ شَيْءٍ، يُقَالُ: أَحْفَاهُ فِي الْمَسْأَلَةِ إِذَا لَمْ يَتْرُكْ شَيْئًا مِنَ الْإِلْحَاحِ. وَأَحْفَى شَارِبَهُ: إِذَا اسْتَأْصَلَهُ.

﴿تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ﴾[4]، أَيْ: تَضْطَغِنُونَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَتَضِيقُ صُدُورُكُمْ لِذَلِكَ، وَأَظْهَرْتُمْ كَرَاهَتَكُمْ وَمَقْتَكُمْ لِدِينٍ يَذْهَبُ بِأَمْوَالِكُمْ، وَالضَّمِيرُ فِي "يَخْرُجُ" لِلَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، أَيْ: يَضْغَنُكُمْ بِطَلَبِ أَمْوَالِكُمْ، أَوْ لِلْبُخْلِ، لِأَنَّهُ سَبَبُ الِاضْطِغَانِ، وَقُرِئَ: (نُخْرِجُ) بِالنُّونِ. وَيُخْرِجُ، بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ مَعَ فَتْحِهِمَا وَرَفْعِ أَضْغَانِكُمْ.

﴿هَؤُلَاءِ﴾[5] مَوْصُولٌ بِمَعْنَى الَّذِينَ صِلَتُهُ، ﴿تَدْعُونَ﴾[6]، أَيْ: أَنْتُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ، أَوْ أَنْتُمْ يَا مُخَاطَبُونَ هَؤُلَاءِ الْمَوْصُوفُونَ، ثُمَّ اسْتَأْنَفَ وَصْفَهُمْ، كَأَنَّهُمْ قَالُوا: وَمَا وَصْفُنَا؟ فَقِيلَ: تَدْعُونَ.

﴿لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾[7] قِيلَ: هِيَ النَّفَقَةُ فِي الْغَزْوِ. وَقِيلَ: الزَّكَاةُ، كَأَنَّهُ قِيلَ: الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّهُ لَوْ أَحْفَاكُمْ لَبَخِلْتُمْ وَكَرِهْتُمُ الْعَطَاءَ وَاضْطَغَنْتُمْ أَنَّكُمْ تَدْعُونَ إِلَى أَدَاءِ رُبْعِ الْعُشْرِ، فَمِنْكُمْ نَاسٌ يَبْخَلُونَ بِهِ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمَنْ يَبْخَلْ﴾[8] بِالصَّدَقَةِ وَأَدَاءِ الْفَرِيضَةِ. فَلَا يَتَعَدَّاهُ ضَرَرُ بُخْلِهِ، وَإِنَّمَا ﴿يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ﴾[9] يُقَالُ بَخِلْتُ عَلَيْهِ وَعَنْهُ، وَكَذَلِكَ ضَنِنْتُ عَلَيْهِ وَعَنْهُ.

ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ لَا يَأْمُرُ بِذَلِكَ وَلَا يَدْعُو إِلَيْهِ لِحَاجَتِهِ إِلَيْهِ، فَهُوَ الْغَنِيُّ الَّذِي تَسْتَحِيلُ عَلَيْهِ الْحَاجَاتُ، وَلَكِنْ لِحَاجَتِكُمْ وَفَقْرِكُمْ إِلَى الثَّوَابِ.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .
[8] سورة ، الآية .
[9] سورة ، الآية .

﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا﴾[1] مَعْطُوفٌ عَلَى: وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا.

﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾[2]: يَخْلُقُ قَوْمًا سِوَاكُمْ عَلَى خِلَافِ صِفَتِكُمْ رَاغِبِينَ فِي الْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى، غَيْرَ مُتَوَلِّينَ عَنْهُمَا، كَقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[3]. [إِبْرَاهِيمُ: 19] وَقِيلَ: هُمُ الْمَلَائِكَةُ. وَقِيلَ: الْأَنْصَارُ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: كِنْدَةُ وَالنَّخْعُ، وَعَنِ الْحَسَنِ: الْعَجَمُ، وَعَنْ عِكْرِمَةَ: فَارِسُ وَالرُّومُ.

وَسُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عَنِ الْقَوْمِ وَكَانَ سَلْمَانُ إِلَى جَنْبِهِ، فَضَرَبَ عَلَى فَخْذِهِ وَقَالَ: "هَذَا وَقَوْمُهُ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ كَانَ الْإِيمَانُ مَنُوطًا بِالثُّرَيَّا لَتَنَاوَلَهُ رِجَالٌ مِنْ فَارِسٍ".

وَعَنْ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "مَنْ قَرَأَ سُورَةَ مُحَمَّدٍ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَسْقِيَهُ مَنْ أَنْهَارِ الْجَنَّةِ".

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

سُورَةُ الْفَتْحِ

سورة الفتح

مَدَنِيَّةٌ [نَزَلَتْ فِي الطَّرِيقِ عِنْدَ الِانْصِرَافِ مِنَ الْحُدَيْبِيَةِ]
وَآيَاتُهَا تِسْعٌ وَعِشْرُونَ
[نَزَلَتْ بَعْدَ الْجُمُعَةِ]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾[1]

هُوَ فَتْحُ مَكَّةَ، وَقَدْ نَزَلَتْ مَرْجِعُ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– عَنْ مَكَّةَ عَامَ الْحُدَيْبِيَةِ عِدَةٌ لَهُ بِالْفَتْحِ، وَجِيءَ بِهِ عَلَى لَفْظِ الْمَاضِي عَلَى عَادَةِ رَبِّ الْعِزَّةِ –سُبْحَانَهُ– فِي أَخْبَارِهِ، لِأَنَّهَا فِي تَحَقُّقِهَا وَتَيَقُّنِهَا بِمَنْزِلَةِ الْكَائِنَةِ الْمَوْجُودَةِ، وَفِي ذَلِكَ مِنَ الْفَخَامَةِ وَالدَّلَالَةِ عَلَى عُلُوِّ شَأْنِ الْمُخْبِرِ مَا لَا يَخْفَى.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ جَعَلَ فَتْحَ مَكَّةَ عِلَّةً لِلْمَغْفِرَةِ؟

قُلْتُ: لَمْ يَجْعَلْ عِلَّةً لِلْمَغْفِرَةِ، وَلَكِنْ لِاجْتِمَاعِ مَا عَدَّدَ مِنَ الْأُمُورِ الْأَرْبَعَةِ: وَهِيَ الْمَغْفِرَةُ وَإِتْمَامُ النِّعْمَةِ وَهِدَايَةُ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ وَالنَّصْرُ الْعَزِيزُ، كَأَنَّهُ قِيلَ: يَسَّرْنَا لَكَ فَتْحَ مَكَّةَ، وَنَصَرْنَاكَ عَلَى عَدُوِّكَ، لِنَجْمَعَ لَكَ بَيْنَ عِزِّ الدَّارَيْنِ وَأَغْرَاضِ الْعَاجِلِ وَالْآجِلِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فَتْحُ مَكَّةَ –مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ جِهَادٌ لِلْعَدُوِّ– سَبَبًا لِلْغُفْرَانِ وَالثَّوَابِ وَالْفَتْحِ وَالظَّفَرِ بِالْبَلَدِ عُنْوَةً أَوْ صُلْحًا بِحَرْبٍ أَوْ بِغَيْرِ حَرْبٍ، لِأَنَّهُ مُنْغَلِقٌ مَا لَمْ يَظْفَرْ بِهِ، فَإِذَا ظَفِرَ بِهِ وَحَصَلَ فِي الْيَدِ فَقَدْ فَتَحَ.

---

[1] سورة ، الآية .

وَقِيلَ: هُوَ فَتْحُ الْحُدَيْبِيَةِ، وَلَمْ يَكُنْ فيهِ قِتَالٌ شَدِيدٌ، وَلَكِنْ تُرَامُ بَيْنَ الْقَوْمِ بِسِهَامٍ وَحِجَارَةٍ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: رَمَوُا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى أَدْخَلُوهُمْ دِيَارَهُمْ.

وَعَنِ الْكَلْبِيِّ: ظَهَرُوا عَلَيْهِمْ حَتَّى سَأَلُوا الصُّلْحَ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ يَكُونُ فَتْحًا وَقَدْ أُحْصِرُوا فَنَحَرُوا وَحَلَقُوا بِالْحُدَيْبِيَةِ؟

قُلْتُ: كَانَ ذَلِكَ قَبْلَ الْهُدْنَةِ، فَلَمَّا طَلَبُوهَا وَتَمَّتْ كَانَ فَتْحًا مُبِينًا.

وَعَنْ مُوسَى بْنِ عُقْبَةَ :أَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مِنَ الْحُدَيْبِيَةِ رَاجِعًا، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ: مَا هَذَا بِفَتْحٍ، لَقَدْ صَدُّونَا عَنِ الْبَيْتِ وَصُدَّ هَدْيُنَا، فَبَلَغَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَقَالَ: "بِئْسَ الْكَلَامُ هَذَا، بَلْ هُوَ أَعْظَمُ الْفُتُوحِ، وَقَدْ رَضِيَ الْمُشْرِكُونَ أَنْ يَدْفَعُوكُمْ عَنْ بِلَادِهِمْ بِالرَّاحِ، وَيَسْأَلُوكُمُ الْقَضِيَّةَ، وَيَرْغَبُوا إِلَيْكُمْ فِي الْأَمَانِ، وَقَدْ رَأَوْا مِنْكُمْ مَا كَرِهُوا".

وَعَنِ الشَّعْبِيِّ: نَزَلَتْ بِالْحُدَيْبِيَةِ وَأَصَابَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ مَا لَمْ يُصِبْ فِي غَزْوَةٍ، أَصَابَ: أَنْ بُويِعَ بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ، وَغُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، وَظَهَرَتِ الرُّومُ عَلَى فَارِسٍ، وَبَلَغَ الْهُدَيُ مَحِلَّهُ، وَأُطْعِمُوا نَخْلَ خَيْبَرَ، وَكَانَ فِي فَتْحِ الْحُدَيْبِيَةِ آيَةٌ عَظِيمَةٌ.

وَذَلِكَ أَنَّهُ نَزَحَ مَاؤُهَا حَتَّى لَمْ يَبْقَ فيها قَطْرَةٌ، فَتَمَضْمَضَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ثُمَّ مَجَّهُ فيها، فَدُرْتُ بِالْمَاءِ حَتَّى شَرِبَ جَمِيعُ مَنْ كَانَ مَعَهُ.

وَقِيلَ: فَجَاشَ الْمَاءُ حَتَّى امْتَلَأَتْ وَلَمْ يَنْفَدْ مَاؤُهَا بَعْدُ. وَقِيلَ: هُوَ فَتْحُ خَيْبَرَ، وَقِيلَ: فَتْحُ الرُّومِ. وَقِيلَ: فَتَحَ اللَّهُ لَهُ بِالْإِسْلَامِ وَالنُّبُوَّةِ وَالدَّعْوَةِ بِالْحُجَّةِ وَالسَّيْفِ، وَلَا فَتْحَ أَبْيَنُ مِنْهُ وَأَعْظَمُ، وَهُوَ رَأْسُ الْفُتُوحِ كُلِّهَا، إِذْ لَا فَتْحَ مِنْ فُتُوحِ الْإِسْلَامِ إِلَّا وَهُوَ تَحْتَهُ وَمُتَشَعِّبٌ مِنْهُ. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ قَضَيْنَا لَكَ قَضَاءً بَيِّنًا عَلَى أَهْلِ مَكَّةَ أَنْ تَدْخُلَهَا أَنْتَ وَأَصْحَابُكَ مِنْ قَابِلٍ، لِتَطُوفُوا بِالْبَيْتِ: مِنَ الْفَتَاحَةِ وَهِيَ الْحُكُومَةُ، وَكَذَا عَنْ قَتَادَةَ ﴿مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[1] يُرِيدُ: جَمِيعَ مَا فَرَّطَ مِنْكَ.

وَعَنْ مُقَاتِلٍ: مَا تَقَدَّمَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَمَا بَعْدَهَا.

---

[1] سورة ، الآية .

وَقِيلَ: مَا تَقَدَّمَ مِنْ حَدِيثِ مَارِيَةَ وَمَا تَأَخَّرَ مِنَ امْرَأَةِ زَيْدٍ ﴿نَصْرًا عَزِيزًا﴾[1] فِيهِ عِزٌّ وَمَنَعَةٌ أَوْ وُصِفَ بِصِفَةِ الْمَنْصُورِ إِسْنَادًا مَجَازِيًّا أَوْ عَزِيزًا صَاحِبُهُ .

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[2]

﴿السَّكِينَةَ﴾[3] السُّكُونُ كَالْبُهْتِيَّةِ لِلْبُهْتَانِ، أَيْ: أَنْزَلَ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمُ السُّكُونَ، وَالطُّمَأْنِينَةَ بِسَبَبِ الصُّلْحِ وَالْأَمْنِ، لِيَعْرِفُوا فَضْلَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ بِتَيْسِيرِ الْأَمْنِ بَعْدَ الْخَوْفِ، وَالْهُدْنَةِ غَبَّ الْقِتَالِ، فيزْدَادُوا يَقِينًا إِلَى يَقِينِهِمْ، وَأَنْزَلَ فيها السُّكُونَ إِلَى مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الشَّرَائِعِ ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا﴾[4] بِالشَّرَائِعِ مَقْرُونًا إِلَى إِيمَانِهِمْ وَهُوَ التَّوْحِيدُ.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا–: إِنَّ أَوَّلَ مَا أَتَاهُمْ بِهِ النَّبِيُّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– التَّوْحِيدَ، فَلَمَّا آمَنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ أَنْزَلَ الصَّلَاةَ وَالزَّكَاةَ، ثُمَّ الْحَجَّ، ثُمَّ الْجِهَادَ، فَازْدَادُوا إِيمَانًا إِلَى إِيمَانِهِمْ، أَوْ أَنْزَلَ فيها الْوَقَارَ وَالْعَظَمَةَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَلِرَسُولِهِ، لِيَزْدَادُوا بِاعْتِقَادِ ذَلِكَ إِيمَانًا إِلَى إِيمَانِهِمْ.

وَقِيلَ: أَنْزَلَ فيها الرَّحْمَةَ لِيَتَرَاحَمُوا فيزْدَادُ إِيمَانَهُمْ ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[5] يُسَلِّطُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ كَمَا يَقْتَضِيهِ عِلْمُهُ وَحِكْمَتُهُ، وَمِنْ قَضِيَّتِهِ أَنْ سَكَنَ

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .

قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ بِصُلْحِ الْحُدَيْبِيَةِ وَوَعَدَهُمْ أَنْ يَفْتَحَ لَهُمْ، وَإِنَّمَا قَضَى ذَلِكَ لِيَعْرِفَ الْمُؤْمِنُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ فيهِ وَيَشْكُرُوهَا فيسْتَحِقُّوا الثَّوَابَ، فيثِيبُهُمْ وَيُعَذِّبُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ لِمَا غَاظَهُمْ مِنْ ذَلِكَ وَكَرِهُوهُ.

وَقَعَ السُّوءُ: عِبَارَةٌ عَنْ رَدَاءَةِ الشَّيْءِ وَفَسَادِهِ، وَالصِّدْقِ عَنْ جَوْدَتِهِ وَصَلَاحِهِ، فَقِيلَ في الْمَرْضَى الصَّالِحُ مِنَ الْأَفْعَالِ: فِعْلٌ صَدَقَ، وَفى الْمَسْخُوطِ الْفَاسِدِ مِنْهَا: فَعْلُ سُوءٍ. وَمَعْنَى ﴿ظَنَّ السَّوْءِ﴾[1] ظَنُّهُمْ أَنَّ اللَّهَ –تَعَالَى– لَا يَنْصُرُ الرَّسُولَ وَالْمُؤْمِنِينَ، وَلَا يُرْجِعُهُمْ إِلَى مَكَّةَ ظَافِرِينَ فَاتِحِيهَا غُنْوَةً وَقَهْرًا ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾[2]، أَيْ: مَا يَظُنُّونَهُ وَيَتَرَبَّصُونَهُ بِالْمُؤْمِنِينَ فَهُوَ حَائِقٌ بِهِمْ وَدَائِرٌ عَلَيْهِمْ، وَالسُّوءُ: الْهَلَاكُ وَالدَّمَارُ.

وَقُرِئَ: (دَائِرَةَ السَّوْءِ) بِالْفَتْحِ، أَيِ: الدَّائِرَةُ الَّتِي يَذُمُّونَهَا وَيَسْخَطُونَهَا، فَهِيَ عِنْدُهُمْ دَائِرُ سُوءٍ، وَعِنْدَ الْمُؤْمِنِينَ دَائِرَةُ صِدْقٍ.

فَإِنْ قُلْتَ: هَلْ مِنْ فَرْقٍ بَيْنَ السُّوءِ وَالسَّوْءِ؟

قُلْتُ: هُمَا كَالْكُرْهِ وَالْكَرْهِ وَالضُّعْفِ وَالضَّعْفِ، مِنْ سَاءَ، إِلَّا أَنَّ الْمَفْتُوحَ غَلَبَ في أَنْ يُضَافَ إِلَيْهِ مَا يُرَادُ ذَمُّهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ. وَأَمَّا السُّوءُ بِالضَّمِّ فَجَارٍ مَجْرَى الشَّرِّ الَّذِي هُوَ نَقِيضُ الْخَيْرِ. يُقَالُ: أَرَادَ بِهِ السُّوءَ وَأَرَادَ بِهِ الْخَيْرَ، وَلِذَلِكَ أُضِيفَ الظَّنُّ إِلَى الْمَفْتُوحِ لِكَوْنِهِ مَذْمُومًا، وَكَانَتِ الدَّائِرَةُ مَحْمُودَةً فَكَانَ حَقُّهَا أَنْ لَا تُضَافَ إِلَيْهِ إِلَّا عَلَى التَّأْوِيلِ الَّذِي ذَكَرْنَا وَأَمَّا دَائِرَةُ السَّوْءِ بِالضَّمِّ، فَلِأَنَّ الَّذِي أَصَابَهُمْ مَكْرُوهٌ وَشِدَّةٌ، فَصَحَّ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ اسْمُ السُّوءِ، كَقَوْلِهِ عَزَّ وَعَلَا: ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ﴾[3]الْأَحْزَابُ: 17 .]

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلا﴾[4]

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

شَاهِدًا: تَشْهَدُ عَلَى أُمَّتِكَ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[1]]الْبَقَرَةُ: 143].

﴿لِتُؤْمِنُوا﴾[2] الضَّمِيرُ لِلنَّاسِ ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ وَيُقَوُّوهُ بِالنُّصْرَةِ ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾[3] وَيُعَظِّمُوهُ "وَتُسَبِّحُوهُ" مِنَ التَّسْبِيحِ، أَوْ مِنَ السُّبْحَةِ، وَالضَّمَائِرُ لِلَّهِ –عَزَّ وَجَلَّ–.

وَالْمُرَادُ بِتَعْزِيزِ اللَّهِ: تَعْزِيزُ دِينِهِ وَرَسُولِهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–. وَمِنْ فَرَّقَ الضَّمَائِرَ فَقَدْ أَبْعَدَ.

وَقُرِئَ: (لِتُؤْمِنُوا) (وَتُعَزِّرُوهُ) (وَتُوَقِّرُوهُ) (وَتُسَبِّحُوهُ) بِالتَّاءِ. وَالْخِطَابُ لِرَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَلِأُمَّتِهِ.

وَقُرِئَ: (وَتُعَزِّرُوهُ) بِضَمِّ الزَّايِ وَكَسْرِهَا، (وَتُعَزِرُوهُ) بِضَمِّ التَّاءِ وَالتَّخْفِيفِ، (وَتُعَزِّزُوهُ) بِالزَّايَيْنِ، (وَتُوَقِّرُوهُ) مِنْ أَوْقَرَهُ بِمَعْنَى وَقَرَهُ.

وَتُسَبِّحُوا اللَّهَ ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلا﴾[4] عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا–: صَلَاةُ الْفَجْرِ وَصَلَاةُ الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[5]

لَمَّا قَالَ: ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾[6] أَكَّدَهُ تَأْكِيدًا عَلَى طَرِيقِ التَّخْيِيلِ، فَقَالَ: ﴿أَيْدِيهِمْ﴾[7] يُرِيدُ أَنْ يَدَ رَسُولِ اللَّهِ الَّتِي تَعْلُو أَيْدِي الْمُبَايِعِينَ: هِيَ يَدُ اللَّهِ، وَاللَّهُ –تَعَالَى– مُنَزَّهٌ عَنِ الْجَوَارِحِ وَعَنْ صِفَاتِ الْأَجْسَامِ.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .

وَإِنَّمَا الْمَعْنَى: تَقْرِيرُ أَنَّ عَقْدَ الْمِيثَاقِ مَعَ الرَّسُولِ كَعَقْدِهِ مَعَ اللَّهِ مِنْ غَيْرِ تَفَاوُتٍ بَيْنِهِمَا، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾[1]]النِّسَاءُ: 80] وَالْمُرَادُ: بَيْعَةُ الرِّضْوَانِ.

﴿فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾[2] فَلَا يَعُودُ ضَرَرُ نَكْثِهِ إِلَّا عَلَيْهِ.

قَالَ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: بَايَعَنَا رَسُولُ اللَّهِ تَحْتَ الشَّجَرَةِ عَلَى الْمَوْتِ، وَعَلَى أَنْ لَا نَفِرَّ، فَمَا نَكَثَ أَحَدٌ مِنَّا الْبَيْعَةَ إِلَّا جِدُّ بْنُ قَيْسٍ وَكَانَ مُنَافِقًا، اخْتَبَأَ تَحْتَ إِبِطِ بَعِيرِهِ وَلَمْ يَسِرْ مَعَ الْقَوْمِ.

وَقُرِئَ: (إِنَّمَا يُبَايِعُونَ لِلَّهِ) أَيْ: لِأَجْلِ اللَّهِ وَلِوَجْهِهِ، وَقُرِئَ: (يَنْكُثُ) بِضَمِّ الْكَافِ وَكَسْرِهَا، وَبِمَا عَاهَدَ وَعَهِدَ.

"فَسَنُؤْتِيهِ" بِالنُّونِ وَالْيَاءِ، يُقَالُ: وَفيتُ بِالْعَهْدِ وَأَوْفيتُ بِهِ، وَهِيَ لُغَةُ تِهَامَةَ. وَمِنْهَا قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾]الْمَائِدَةُ: 1[﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ﴾[3]]الْبَقَرَةُ: 177 .[

﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾[4]

هُمُ الَّذِينَ خُلِّفُوا عَنِ الْحُدَيْبِيَةِ، وَهُمْ أَعْرَابُ غِفَارٍ وَمُزَيْنَةَ وَجُهَيْنَةَ وَأَشْجَعَ وَأَسْلَمَ وَالدِّيْلِ. وَذَلِكَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– حِينَ أَرَادَ الْمَسِيرَ إِلَى مَكَّةَ عَامَ الْحُدَيْبِيَةِ مُعْتَمِرًا اسْتَنْفَرَ مِنْ حَوْلِ الْمَدِينَةِ مِنَ الْأَعْرَابِ وَأَهْلِ الْبَوَادِي لِيَخْرُجُوا مَعَهُ حَذَرًا مِنْ قُرَيْشٍ أَنْ يَعْرِضُوا لَهُ بِحَرْبٍ أَوْ يَصُدُّوهُ عَنِ الْبَيْتِ، وَأَحْرَمَ هُوَ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَسَاقَ مَعَهُ الْهَدْيَ، لِيَعْلَمَ أَنَّهُ لَا يُرِيدُ حَرْبًا، فَتَثَاقَلَ كَثِيرٌ مِنَ الْأَعْرَابِ، وَقَالُوا: يَذْهَبُ إِلَى قَوْمٍ قَدْ غَزَوْهُ فِي عُقْرِ دَارِهِ بِالْمَدِينَةِ وَقَتَلُوا أَصْحَابَهُ، فيقَاتِلُهُمْ، وَظَنُّوا أَنَّهُ يَهْلَكُ فَلَا يَنْقَلِبُ إِلَى الْمَدِينَةِ وَاعْتَلُوا بِالشُّغْلِ بِأَهَالِيهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَأَنَّهُ لَيْسَ لَهُمْ مَنْ يَقُومُ بِأَشْغَالِهِمْ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

وَقُرِئَ: (شَغَّلَتْنَا) بِالتَّشْدِيدِ.

﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾[1]: تَكْذِيبٌ لَهُمْ في اعْتِذَارِهِمْ. وَأَنَّ الَّذِي خَلَّفَهُمْ لَيْسَ بِمَا يَقُولُونَ، وَإِنَّمَا هُوَ الشَّكُّ في اللَّهِ وَالنِّفَاقُ، وَطَلَبُهُمْ لِلاسْتِغْفَارِ أَيْضًا لَيْسَ بِصَادِرٍ عَنْ حَقِيقَةٍ.

﴿فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ﴾[2]: فَمَنْ يَمْنَعُكُمْ مِنْ مَشِيئَةِ اللَّهِ وَقَضَائِهِ.

﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ﴾[3]: مَا يَضُرُّكُمْ مِنْ قَتْلٍ أَوْ هَزِيمَةٍ، ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾[4] مِنْ ظَفْرٍ وَغَنِيمَةٍ.

وَقُرِئَ: (ضَرًّا)، بِالْفَتْحِ وَالضَّمِّ. الْأَهْلُونَ: جَمْعُ أَهْلٍ. وَيُقَالُ: أَهِلَاتٌ، عَلَى تَقْدِيرِ تَاءِ التَّأْنِيثِ. كَأَرْضٍ وَأَرْضَاتٍ، وَقَدْ جَاءَ أَهِلَّةٌ. وَأَمَّا أَهَالٍ، فَاسْمُ جَمْعٍ، كَلَيَالٍ.

﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾[5]

وَقُرِئَ: (إِلَى أَهْلِهِمْ) (وَزَيَّنَ)، عَلَى الْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ وَهُوَ الشَّيْطَانُ، أَوِ اللَّهُ -عَزَّ وَجَلَّ- ، وَكِلَاهُمَا جَاءَ في الْقُرْآنِ ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾[6]]النَّمْلُ: 24]، وَ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾[7]]النَّمْلُ: 44].

وَالْبُورُ: مِنْ بَارَ، كَالْهَلَكِ: مِنْ هَلَكَ، بِنَاءً وَمَعْنًى، وَلِذَلِكَ وُصِفَ بِهِ الْوَاحِدُ وَالْجَمْعُ وَالْمُذَكَّرُ وَالْمُؤَنَّثُ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ جَمْعُ بَائِرٍ كَعَائِذٍ وَعَوْذٍ.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .

وَالْمَعْنَى: وَكُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِدِينَ فِي أَنْفُسِكُمْ وَقُلُوبِكُمْ وَنِيَّاتِكُمْ لَا خَيْرَ فِيكُمْ، أَوْ هَالِكِينَ عِنْدَ اللَّهِ مُسْتَوْجِبِينَ لِسُخْطِهِ وَعِقَابِهِ .

﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾[1]

﴿لِلْكَافِرِينَ﴾[2] مَقَامٌ لَهُمْ، لِلْإِيذَانِ بِأَنَّ مَنْ لَمْ يَجْمَعْ بَيْنَ الْإِيمَانَيْنِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ فَهُوَ كَافِرٌ.

وَنَكَّرَ ﴿سَعِيرًا﴾[3]، لِأَنَّهَا نَارٌ مَخْصُوصَةٌ، كَمَا نَكَّرَ ﴿نَارًا تَلَظَّى﴾[4]اللَّيْلُ: 14 .]

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ
وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾[5]

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[6] يُدَبِّرُهُ تَدْبِيرَ قَادِرٍ حَكِيمٍ، فيغْفِرُ وَيُعَذِّبُ بِمَشِيئَتِهِ، وَمَشِيئَتُهُ تَابِعَةٌ لِحِكْمَتِهِ، وَحِكْمَتُهُ الْمَغْفِرَةُ لِلتَّائِبِ وَتَعْذِيبُ الْمُصِرِّ.

﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾[7]: رَحْمَتُهُ سَابِقَةٌ لِغَضَبِهِ، حَيْثُ يُكَفِّرُ السَّيِّئَاتِ بِاجْتِنَابِ الْكَبَائِرِ، وَيَغْفِرُ الْكَبَائِرَ بِالتَّوْبَةِ.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .

﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1]

﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ﴾[2] الَّذِينَ تَخَلَّفُوا عَنِ الْحُدَيْبِيَةِ ﴿إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ﴾[3] إِلَى غَنَائِمِ خَيْبَرَ ﴿أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾[4].

وَقُرِئَ: (كَلِمَ اللَّهِ) أَنْ يُغَيِّرُوا مَوْعِدَ اللَّهِ لِأَهْلِ الْحُدَيْبِيَةِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ وَعَدَهُمْ أَنْ يُعَوِّضَهُمْ مِنْ مَغَانِمِ مَكَّةَ مَغَانِمِ خَيْبَرَ إِذَا قَفَلُوا مُوَادِعِينَ لَا يُصِيبُونَ مِنْهُمْ شَيْئًا.

وَقِيلَ: هُوَ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا﴾[5]]التَّوْبَةُ: 833]

﴿تَحْسُدُونَنَا﴾[6] أَنَّ نُصِيبَ مَعَكُمْ مِنَ الْغَنَائِمِ.

قُرِئَ: بِضَمِّ السِّينِ وَكَسْرِهَا.

﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾[7]: لَا يَفْهَمُونَ إِلَّا فَهْمًا ﴿قَلِيلًا﴾[8]، وَهُوَ فِطْنَتُهُمْ لِأُمُورِ الدُّنْيَا دُونَ أُمُورِ الدِّينِ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[9].]الرُّومُ: 77]

فَإِنْ قُلْتَ: مَا الْفَرْقُ بَيْنَ حَرْفَيِ الْإِضْرَابِ؟

قُلْتُ:

– الْأَوَّلُ: إِضْرَابٌ مَعْنَاهُ: رَدٌّ أَنْ يَكُونَ حُكْمُ اللَّهِ أَنْ لَا يَتْبَعُوهُمْ وَإِثْبَاتَ الْحَسَدِ.

– وَالثَّانِي: إِضْرَابٌ عَنْ وَصْفِهِمْ بِإِضَافَةِ الْحَسَدِ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ إِلَى وَصْفِهِمْ بِمَا هُوَ أَطَمُّ مِنْهُ، وَهُوَ الْجَهْلُ وَقِلَّةُ الْفِقْهِ.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .
[8] سورة ، الآية .
[9] سورة ، الآية .

﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[1]

﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ﴾[2] هُمُ الَّذِينَ تَخَلَّفُوا عَنِ الْحُدَيْبِيَةِ ﴿إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾[3]، يَعْنِي بَنِي حَنِيفَةَ قَوْمُ مُسَيْلِمَةَ، وَأَهْلُ الرِّدَّةِ الَّذِينَ حَارَبَهُمْ أَبُو بَكْرٍ الصَّدِيقُ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–، لِأَنَّ مُشْرِكِي الْعَرَبِ وَالْمُرْتَدِّينَ هُمُ الَّذِينَ لَا يُقْبَلُ مِنْهُمْ إِلَّا الْإِسْلَامُ أَوِ السَّيْفُ عِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ وَمَنْ عَدَاهُمْ مِنْ مُشْرِكِي الْعَجَمِ وَأَهْلِ الْكِتَابِ.

وَالْمَجُوسُ تُقْبَلُ مِنْهُمُ الْجِزْيَةُ، وَعَنِ الشَّافِعِيِّ لَا تُقْبَلُ الْجِزْيَةُ إِلَّا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمَجُوسِ دُونَ مُشْرِكِي الْعَجَمِ وَالْعَرَبِ. وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى إِمَامَةِ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–، فَإِنَّهُمْ لَمْ يَدْعُوا إِلَى حَرْبٍ فِي أَيَّامِ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، وَلَكُمْ بَعْدَ وَفَاتِهِ. وَكَيْفَ يَدْعُوهُمْ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– مَعَ قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾[4]]التَّوْبَةُ: 83].

وَقِيلَ: هُمْ فَارِسٌ وَالرُّومُ.

وَمَعْنَى ﴿يُسْلِمُونَ﴾[5] يَنْقَادُونَ، لِأَنَّ الرُّومَ نَصَارَى، وَفَارِسٌ مَجُوسٌ يُقْبَلُ مِنْهُمْ إِعْطَاءُ الْجِزْيَةِ.

فَإِنْ قُلْتَ: عَنْ قَتَادَةَ أَنَّهُمْ ثَقِيفُ وَهَوَازِنُ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي أَيَّامِ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–؟

قُلْتُ: إِنْ صَحَّ ذَلِكَ فَالْمَعْنَى: لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا مَا دُمْتُمْ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ مَرَضِ الْقُلُوبِ وَالِاضْطِرَابِ فِي الدِّينِ، أَوْ عَلَى قَوْلِ مُجَاهِدٍ: كَانَ الْمَوْعِدُ أَنَّهُمْ لَا يَتَّبِعُونَ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ– وَسَلَّمَ إِلَّا مُتَطَوِّعِينَ لَا نَصِيبَ لَهُمْ فِي الْمَغْنَمِ.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .

﴿كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾[1] يُرِيدُ في غَزْوَةِ الْحُدَيْبِيَةِ، أَوْ يُسْلِمُونَ.

مَعْطُوفٌ عَلَى تُقَاتِلُونَهُمْ، أَيْ: يَكُونُ أَحَدَ الْأَمْرَيْنِ: إِمَّا الْمُقَاتِلَةُ، أَوِ الْإِسْلَامُ، لَا ثَالِثَ لَهُمَا.

وَفِي قِرَاءَةِ أُبَيٍّ: (أَوْ يُسْلِمُوا) بِمَعْنَى: إِلَى أَنْ يُسْلِمُوا.

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[2]

نَفى الْحَرَجَ عَنْ هَؤُلَاءِ مِنْ ذَوِي الْعَاهَاتِ في التَّخَلُّفِ عَنِ الْغَزْوِ.

وَقُرِئَ: (نُدْخِلْهُ) (وَنُعَذِّبْهُ) بِالنُّونِ.

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[3]

هِيَ بَيْعَةُ الرِّضْوَانِ، سُمِّيَتْ بِهَذِهِ الْآيَةِ، وَقِصَّتُهَا: أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- حِينَ نَزَلَ الْحُدَيْبِيَةَ بَعَثَ خِرَاشَ بْنَ أُمَيَّةَ الْخُزَاعِيَّ رَسُولًا إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ، فَهَمُّوا بِهِ فَمَنَعَهُ الْأَحَابِيشُ، فَلَمَّا رَجَعَ دَعَا بِعُمَرَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- لِيَبْعَثَهُ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُهُمْ عَلَى نَفْسِي، لِمَا عَرَفَ مِنْ عَدَاوَتِي إِيَّاهُمْ وَمَا بِمَكَّةَ عَدُوِّي يَمْنَعُنِي، وَلَكِنِّي أَدُلُّكَ عَلَى رَجُلٍ هُوَ أَعَزُّ بِهَا مِنِّي وَأَحَبُّ إِلَيْهِمْ: عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ فَبَعَثَهُ فَخَبَّرَهُمْ أَنَّهُ لَمْ يَأْتِ بِحَرْبٍ، وَإِنَّمَا جَاءَ زَائِرًا لِهَذَا الْبَيْتِ مُعْظِمًا لِحُرْمَتِهِ، فَوَقَّرُوهُ وَقَالُوا: إِنْ شِئْتَ أَنْ تَطُوفَ بِالْبَيْتِ فَافْعَلْ، فَقَالَ: مَا كُنْتُ لِأَطُوفَ قَبْلَ أَنْ يَطُوفَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَاحْتَبَسَ عِنْدَهُمْ

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

فَأَرْجُفُ بِأَنَّهُمْ قَتَلُوهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "لَا نَبْرَحُ حَتَّى نُنَاجِزَ الْقَوْمَ، وَدَعَا النَّاسُ إِلَى الْبَيْعَةِ فَبَايَعُوهُ تَحْتَ الشَّجَرَةِ وَكَانَتْ سَمُرَةً".

قَالَ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: لَوْ كُنْتُ أُبْصِرُ لَأَرَيْتُكُمْ مَكَانَهَا.

وَقِيلَ :كَانَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– جَالِسًا فِي أَصْلِ الشَّجَرَةِ وَعَلَى ظَهْرِهِ غُصْنٌ مِنْ أَغْصَانِهَا.

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُغَفَّلِ: وَكُنْتُ قَائِمًا عَلَى رَأْسِهِ وَبِيَدِي غُصْنٌ مِنَ الشَّجَرَةِ أَذُبُّ عَنْهُ. فَرَفَعْتُ الْغُصْنَ عَنْ ظَهْرِهِ، فَبَايَعُوهُ عَلَى الْمَوْتِ دُونَهُ، وَعَلَى أَنْ لَا يَفِرُّوا، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "أَنْتُمُ الْيَوْمَ خَيْرُ أَهْلِ الْأَرْضِ"، وَكَانَ عَدَدُ الْمُبَايِعِينَ أَلْفًا وَخَمْسِمِائَةٍ وَخَمْسَةٍ وَعِشْرِينَ، وَقِيلَ: أَلْفًا وَأَرْبَعِمِائَةٍ، وَقِيلَ: أَلْفًا وَثَلَاثِمِائَةٍ.

﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾[1] مِنَ الْإِخْلَاصِ وَصِدْقِ الضَّمَائِرِ فِيمَا بَايَعُوا عَلَيْهِ، ﴿فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ﴾[2]، أَيِ: الطُّمَأْنِينَةُ وَالْأَمْنُ بِسَبَبِ الصُّلْحِ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴿وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[3].

وَقُرِئَ: (وَآتَاهُمْ) وَهُوَ فَتْحُ خَيْبَرَ غِبُّ انْصِرَافِهِمْ مِنْ مَكَّةَ.

وَعَنِ الْحَسَنِ: فَتْحُ هَجَرٍ، وَهُوَ أَجَلُّ فَتْحٍ: اتَّسَعُوا بِثَمَرِهَا زمانًا.

﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾[4] هِيَ مَغَانِمُ خَيْبَرَ، وَكَانَتْ أرضًا ذَات عَقَار وَأَمْوَال، فَقَسَّمَهَا رَسُول اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَآله وَسَلَّمَ– عَلَيْهِمْ، ثُمَّ أَتَاهُ عُثْمَانُ بِالصُّلْحِ فَصَالَحَهُمْ وَانْصَرَفَ بَعْدَ أَنْ نَحَرَ بِالْحُدَيْبِيَةِ وَحَلَقَ.

﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾[5]

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾[1]، وَهِيَ مَا يَفيءُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾[2] الْمَغَانِمَ، يَعْنِي مَغَانِمَ خَيْبَرَ.

﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ﴾[3]، يَعْنِي: أَيْدِي أَهْلِ خَيْبَرَ وَحُلَفَاؤُهُمْ مِنْ أَسَدٍ وَغَطَفَانَ حِينَ جَاءُوا لِنُصْرَتِهِمْ، فَقَذَفَ اللَّهُ في قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَنَكَصُوا. وَقِيلَ: أَيْدِي أَهْلِ مَكَّةَ بِالصُّلْحِ.

﴿وَلِتَكُونَ﴾[4] هَذِهِ الْكِفَّةُ ﴿آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[5] وَعِبْرَةً يَعْرِفُونَ بِهَا أَنَّهُمْ مِنَ اللَّهِ –تَعَالَى– بِمَكَانٍ، وَأَنَّهُ ضَامِنٌ نَصْرَهُمْ وَالْفَتْحَ عَلَيْهِمْ.

وَقِيلَ: رَأَى رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فَتَحَ مَكَّةَ في مَنَامِهِ، وَرُؤْيَا الْأَنْبِيَاءِ –صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ– وَحَيٌ، فَتَأَخَّرَ ذَلِكَ إِلَى السَّنَةِ الْقَابِلَةِ، فَجَعَلَ فَتْحَ خَيْبَرَ عَلَامَةً وَعُنْوَانًا لِفَتْحِ مَكَّةَ.

﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾[6] وَيَزِيدَكُمْ بَصِيرَةً وَيَقِينًا، وَثِقَةً بِفَضْلِ اللَّهِ.

﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾[7]

﴿وَأُخْرَى﴾[8] مَعْطُوفَةٌ عَلَى هَذِهِ، أَيْ: فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ الْمَغَانِمَ وَمَغَانِمَ أُخْرَى ﴿لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾[9]، وَهِيَ مَغَانِمُ هَوَازِنَ في غَزْوَةِ حُنَيْنٍ، وَقَالَ: لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا لِمَا كَانَ فيها مِنَ الْجَوَّالَةِ ﴿قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾[10]، أَيْ: قَدَرَ عَلَيْهَا وَاسْتَوْلَى وَأَظْهَرَكُمْ عَلَيْهَا وَغَنَّمَكُمُوهَا.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .
[8] سورة ، الآية .
[9] سورة ، الآية .
[10] سورة ، الآية .

وَيَجُوزُ فِي ﴿وَأُخْرَى﴾[1] النَّصْبُ بِفِعْلٍ مُضْمَرٍ، يُفَسِّرُهُ ﴿قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾[2]، تَقْدِيرُهُ: وَقَضَى اللَّهُ أُخْرَى قَدْ أَحَاطَ بِهَا.

وَأَمَّا ﴿لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾[3] فَصِفَةٌ لِأُخْرَى، وَالرَّفْعُ عَلَى الِابْتِدَاءِ لِكَوْنِهَا مَوْصُوفَةً بِلَمٍّ تُقَدِّرُوا، وَقَدْ أَحَاطَ بِهَا: خَبَرُ الْمُبْتَدَأِ، وَالْجَرُّ بِإِضْمَارِ رَبٍّ.

فَإِنْ قُلْتَ: قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[4]]الْفَتْحُ: 200] كَيْفَ مَوْقِعُهُ؟

قُلْتُ: هُوَ كَلَامٌ مُعْتَرِضٌ. وَمَعْنَاهُ: وَلِتَكُونَ الْكِفَّةُ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ فِعْلُ ذَلِكَ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى: وَعَدَكُمُ الْمَغَانِمَ، فَعَجَّلَ هَذِهِ الْغَنِيمَةَ وَكَفَّ الْأَعْدَاءَ لِيَنْفَعَكُمْ بِهَا، وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ إِذَا وَجَدُوا وَعْدَ اللَّهِ بِهَا صَادِقًا، لِأَنَّ صِدْقَ الْإِخْبَارِ عَنِ الْغُيُوبِ مُعْجِزَةٌ وَآيَةٌ، وَيَزِيدُكُمْ بِذَلِكَ هِدَايَةً وَإِيقَانًا.

﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾[5]

﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[6] مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ وَلَمْ يُصَالِحُوا.

وَقِيلَ: مِنْ حُلَفَاءِ أَهْلِ خَيْبَرَ لَغُلِبُوا وَانْهَزَمُوا.

﴿سُنَّةَ اللَّهِ﴾[7] فِي مَوْضِعِ الْمَصْدَرِ الْمُؤَكِّدِ، أَيْ: سَنَّ اللَّهُ غَلَبَةَ أَنْبِيَائِهِ سُنَّةً، وَهُوَ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾[8]]الْمُجَادَلَةُ: 21 .]

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .
[8] سورة ، الآية .

﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾[1]

أَيْدِيهِمْ: أَيْدِي أَهْلِ مَكَّةَ، أَيْ: قَضَى بَيْنَهُمْ وَبَيْنَكُمُ الْمُكَافَّةَ وَالْمُحَاجَزَةَ بَعْدَ مَا خَوَّلَكُمُ الظَّفَرَ عَلَيْهِمْ وَالْغَلَبَةَ، وَذَلِكَ يَوْمُ الْفَتْحِ.

وَبِهِ اسْتَشْهَدَ أَبُو حَنِيفَةَ –رَحِمَهُ اللَّهُ–، عَلَى أَنَّ مَكَّةَ فُتِحَتْ عُنْوَةً لَا صُلْحًا.

وَقِيلَ: كَانَ ذَلِكَ فِي غَزْوَةِ الْحُدَيْبِيَةِ لِمَا رُوِيَ أَنَّ عِكْرِمَةَ بْنَ أَبِي جَهْلٍ خَرَجَ فِي خَمْسِمِائَةٍ، فَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– مَنْ هَزَمَهُ وَأَدْخَلَهُ حِيطَانَ مَكَّةَ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: أَظْهَرَ اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ عَلَيْهِمْ بِالْحِجَارَةِ حَتَّى أَدْخَلُوهُمُ الْبُيُوتَ.

وَقُرِئَ: (تَعْمَلُونَ) بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ.

﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[2]

وَقُرِئَ: (وَالْهَدْيَ) (وَالْهُدَى) بِتَخْفِيفِ الْيَاءِ وَتَشْدِيدِهَا، وَهُوَ مَا يُهْدَى إِلَى الْكَعْبَةِ :بِالنَّصْبِ عَطْفًا عَلَى الضَّمِيرِ الْمَنْصُوبِ فِي صَدُّوكُمْ. أَيْ: صَدُّوكُمْ وَصَدُّوا الْهَدْيَ وَبِالْجَرِّ عَطْفًا عَلَى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، بِمَعْنَى: وَصَدُّوكُمْ عَنْ نَحْرِ الْهَدْيِ.

﴿مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾[3]: مَحْبُوسًا عَنْ أَنْ يُبَاعَ، وَبِالرَّفْعِ عَلَى: وَصَدَّ الْهَدْيِ.

وَمَحَلُّهُ: مَكَانُهُ الَّذِي يَحِلُّ فِيهِ نَحْرُهُ، أَيْ يَجِبُ.

وَهَذَا دَلِيلٌ لِأَبِي حَنِيفَةَ عَلَى أَنَّ الْمُحْصَرَ مَحَلُّ هَدْيِهِ الْحَرَمُ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

فَإِنْ قُلْتُ: فَكَيْفَ حَلَّ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَمَنْ مَعَهُ وَإِنَّمَا نُحِرَ هَدْيِهِمْ بِالْحُدَيْبِيَةِ؟

قُلْتُ: بَعْضُ الْحُدَيْبِيَةِ مِنَ الْحَرَمِ.

وَرَوَى أَنَّ مَضَارِبَ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– كَانَتْ فِي الْحَلِّ، وَمُصَلَّاهُ فِي الْحَرَمِ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَإِذَنْ قَدْ نَحَرَ فِي الْحَرَمِ، فَلِمَ قِيلَ: ﴿مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾[1]؟

قُلْتُ: الْمُرَادُ الْمَحَلُّ الْمَعْهُودُ وَهُوَ مِنِّي لَمْ تَعْلَمُوهُمْ صِفَةٌ لِلرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ جَمِيعًا.

وَ﴿أَنْ تَطَئُوهُمْ﴾[2] بَدَلُ اشْتِمَالٍ مِنْهُمْ أَوْ مِنَ الضَّمِيرِ الْمَنْصُوبِ فِي تَعْلَمُوهُمْ.

وَالْمَعَرَّةُ: مَفْعَلَةٌ، مِنْ عَرَّهُ بِمَعْنَى عُرَاهُ إِذَا دَهَاهُ مَا يَكْرَهُ وَيَشُقُّ عَلَيْهِ.

وَ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[3] مُتَعَلِّقٌ بِأَنْ تَطَئُوهُمْ، يَعْنِي: أَنْ تَطَئُوهُمْ غَيْرَ عَالِمِينَ بِهِمْ.

وَالْوَطْءُ وَالدَّوْسُ: عِبَارَةٌ عَنِ الْإِيقَاعِ وَالْإِبَادَةِ.

قَالَ:

وَوَطِئْتَنَا وَطْأً عَلَى حَنَقٍ وَطْأَ الْمُقَيَّدِ نَابِتَ الْهَرْمِ

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "وَأَنَّ آخِرَ وَطْأَةٍ وَطِئَهَا اللَّهُ بِوَجٍّ".

وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ كَانَ بِمَكَّةَ قَوْمٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مُخْتَلِطُونَ بِالْمُشْرِكِينَ غَيْرَ مُتَمَيِّزِينَ مِنْهُمْ وَلَا مَعْرُوفِي الْأَمَاكِنِ، فَقِيلَ: وَلَوْلَا كَرَاهَةُ أَنْ تُهْلِكُوا نَاسًا مُؤْمِنِينَ بَيْنَ ظَهَرَانِي الْمُشْرِكِينَ وَأَنْتُمْ غَيْرُ عَارِفِينَ بِهِمْ، فَتُصِيبُكُمْ بِإِهْلَاكِهِمْ مَكْرُوهٌ وَمَشَقَّةٌ: لَمَّا كَفَّ أَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ، وَحَذَفَ جَوَابَ ﴿لَوْلَا﴾[4]، لِدَلَالَةِ الْكَلَامِ عَلَيْهِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾[5] كَالتَّكْرِيرِ لِلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ، لِمَرْجِعِهِمَا إِلَى مَعْنًى وَاحِدٍ، وَيَكُونُ ﴿لَعَذَّبْنَا﴾[6] هُوَ الْجَوَابُ.

فَإِنْ قُلْتَ: أَيُّ مَعَرَّةٍ تُصِيبُهُمْ إِذَا قَتَلُوهُمْ وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

قُلْتُ: يُصِيبُهُمْ وُجُوبُ الدِّيَةِ وَالْكَفَّارَةِ، وَسُوءُ قَالَةِ الْمُشْرِكِينَ أَنَّهُمْ فَعَلُوا بِأَهْلِ دِينِهِمْ مِثْلَ مَا فَعَلُوا بِنَا مِنْ غَيْرِ تَمْيِيزٍ، وَالْمَأْثَمُ إِذَا جَرَى مِنْهُمْ بَعْضُ التَّقْصِيرِ.

فَإِنْ قُلْتَ: قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾[1] تَعْلِيلٌ لِمَاذَا؟

قُلْتُ: لِمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الْآيَةُ وَسِيقَتْ لَهُ: مَنْ كَفِّ الْأَيْدِي عَنْ أَهْلِ مَكَّةَ، وَالْمَنْعُ مِنْ قَتْلِهِمْ، صَوْنًا لِمَنْ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، كَأَنَّهُ قَالَ: كَانَ الْكَفُّ وَمَنْعُ التَّعْذِيبِ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ، أَيْ: فِي تَوْفِيقِهِ لِزِيَادَةِ الْخَيْرِ وَالطَّاعَةِ مُؤْمِنِيهِمْ، أَوْ لِيُدْخِلَ فِي الْإِسْلَامِ مَنْ رَغِبَ فِيهِ مِنْ مُشْرِكِيهِمْ.

﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾[2]: لَوْ تَفَرَّقُوا وَتَمَيَّزَ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ: مَنْ زَالَهُ يُزِيلُهُ.

وَقُرِئَ: (لَوْ تَزَايَلُوا).

﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾[3]

﴿إِذْ﴾[4] يَجُوزُ أَنْ يَعْمَلَ فِيهِ مَا قَبْلَهُ، أَيْ: لَعَذَّبْنَاهُمْ أَوْ صَدُّوهُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، وَأَنْ يَنْتَصِبَ بِإِضْمَارِ اذْكُرْ.

وَالْمُرَادُ بِحَمِيَّةِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَسَكِينَةِ الْمُؤْمِنِينَ –وَالْحَمِيَّةِ الْأَنَفَةِ وَالسَّكِينَةِ وَالْوَقَارِ– مَا رُوِيَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا نَزَلَ بِالْحُدَيْبِيَةِ بَعَثَتْ قُرَيْشٌ سُهَيْلَ بْنَ عَمْرٍو الْقُرَشِيَّ وَحُوَيْطِبَ بْنَ عَبْدِ الْعُزَّى وَمُكَرِّزَ بْنَ حَفْصِ بْنِ الْأَخْيَفِ، عَلَى أَنْ يَعْرِضُوا عَلَى النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أَنْ يَرْجِعَ مِنْ عَامِهِ ذَلِكَ عَلَى أَنْ تُخْلِي لَهُ قُرَيْشٌ مَكَّةَ مِنَ الْعَامِ الْقَابِلِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَفَعَلَ ذَلِكَ، وَكَتَبُوا بَيْنَهُمْ كِتَابًا، فَقَالَ –عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ– لِعَلِيٍّ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: "اكْتُبْ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ"، فَقَالَ سُهَيْلٌ وَأَصْحَابُهُ: مَا نَعْرِفُ هَذَا، وَلَكِنِ اكْتُبْ: بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ، ثُمَّ قَالَ: "اكْتُبْ هَذَا مَا صَالَحَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أَهْلَ مَكَّةَ "فَقَالُوا: لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ مَا صَدَدْنَاكَ عَنِ الْبَيْتِ وَلَا قَاتَلْنَاكَ، وَلَكِنِ اكْتُبْ: هَذَا مَا صَالَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ أَهْلَ مَكَّةَ، فَقَالَ –عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ–: "اكْتُبْ مَا يُرِيدُونَ، فَأَنَا أَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ وَأَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدُ اللَّهِ " فَهَمَّ الْمُسْلِمُونَ أَنْ يَأْبَوْا ذَلِكَ وَيَشْمَئِزُّوا مِنْهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ السَّكِينَةَ فَتُوَقَّرُوا وَحَلِمُوا.

وَ﴿كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾[1] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَمُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، قَدِ اخْتَارَهَا اللَّهُ لِنَبِيِّهِ وَلِلَّذِينِ مَعَهُ أَهْلِ الْخَيْرِ وَمُسْتَحِقِّيهِ وَمَنْ هُمْ أَوْلَى بِالْهِدَايَةِ مِنْ غَيْرِهِمْ.

وَقِيلَ: هِيَ كَلِمَةُ الشَّهَادَةِ.

وَعَنِ الْحَسَنِ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: كَلِمَةُ التَّقْوَى هِيَ الْوَفَاءُ بِالْعَهْدِ.

وَمَعْنَى إِضَافَتِهَا إِلَى التَّقْوَى: أَنَّهَا سَبَبُ التَّقْوَى وَأَسَاسُهَا.

وَقِيلَ: كَلِمَةُ أَهْلِ التَّقْوَى.

وَفِي مُصْحَفِ الْحَرْثِ بْنِ سُوَيْدٍ صَاحِبِ عَبْدِ اللَّهِ: (وَكَانُوا أَهْلَهَا وَأَحَقَّ بِهَا)، وَهُوَ الَّذِي دُفِنَ مُصْحَفُهُ أَيَّامَ الْحَجَّاجِ.

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[2]

رَأَى رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قَبْلَ خُرُوجِهِ إِلَى الْحُدَيْبِيَةِ كَأَنَّهُ وَأَصْحَابُهُ قَدْ دَخَلُوا مَكَّةَ آمِنِينَ وَقَدْ حَلَقُوا وَقَصَّرُوا، فَقَصَّ الرُّؤْيَا عَلَى أَصْحَابِهِ، فَفَرِحُوا وَاسْتَبْشَرُوا وَحَسِبُوا أَنَّهُمْ دَاخِلُوهَا فِي عَامِهِمْ، وَقَالُوا: إِنَّ رُؤْيَا رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– حَقٌّ، فَلَمَّا تَأَخَّرَ ذَلِكَ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ نُفيلٍ وَرِفَاعَةُ بْنُ الْحَرْثِ: وَاللَّهِ مَا حَلَقْنَا وَلَا قَصَّرْنَا وَلَا رَأَيْنَا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ، فَنَزَلَتْ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

وَمَعْنَى: ﴿صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا﴾[1]: صِدْقَهُ فِي رُؤْيَاهُ وَلَمْ يُكَذِّبْهُ -تَعَالَى اللَّهُ عَنِ الْكَذِبِ وَعَنْ كُلِّ قَبِيحٍ عُلُوًّا كَبِيرًا- فَحَذَفَ الْجَارَّ وَأَوْصَلَ الْفِعْلَ، كَقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾[2]]الْأَحْزَابُ: 233].

فَإِنْ قُلْتَ: بِمَ تَعَلَّقَ ﴿بِالْحَقِّ﴾[3]؟

قُلْتُ: إِمَّا بِصِدْقٍ، أَيْ: صِدْقَهُ فِيمَا رَأَى، وَفِي كَوْنِهِ وَحُصُولِهِ صِدْقًا مُلْتَبِسًا بِالْحَقِّ: أَيْ بِالْغَرَضِ الصَّحِيحِ وَالْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ، وَذَلِكَ مَا فِيهِ مِنَ الِابْتِلَاءِ وَالتَّمْيِيزِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ الْمُخْلِصِ، وَبَيْنَ مَنْ فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَتَعَلَّقَ بِالرُّؤْيَا حَالًا مِنْهَا، أَيْ: صَدَّقَهُ الرُّؤْيَا مُلْتَبِسًا بِالْحَقِّ، عَلَى مَعْنَى أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ مِنْ أَضْغَاثِ الْأَحْلَامِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ﴿بِالْحَقِّ﴾[4] قَسَمًا: إِمَّا بِالْحَقِّ الَّذِي هُوَ نَقِيضُ الْبَاطِلِ، أَوْ بِالْحَقِّ الَّذِي هُوَ مِنْ أَسْمَائِهِ.

وَ﴿لَتَدْخُلُنَّ﴾[5] جَوَابُهُ. وَعَلَى الْأَوَّلِ هُوَ جَوَابُ قَسَمٍ مَحْذُوفٍ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا وَجْهُ دُخُولِ ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾[6] فِي أَخْبَارِ اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ-؟

قُلْتُ: فِيهِ وُجُوهٌ: أَنْ يُعَلِّقَ عُدَّتَهُ بِالْمَشِيئَةِ تَعْلِيمًا لِعِبَادِهِ أَنْ يَقُولُوا فِي عِدَاتِهِمْ مِثْلَ ذَلِكَ، مُتَأَدِّبِينَ بِأَدَبِ اللَّهِ، وَمُقْتَدِينَ بِسُنَّتِهِ.

وَأَنْ يُرِيدَ: لَتَدْخُلُنَّ جَمِيعًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَلَمْ يُمِتْ مِنْكُمْ أَحَدًا، أَوْ كَانَ ذَلِكَ عَلَى لِسَانِ مَلَكٍ، (فَأَدْخَلَ الْمَلَكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ)، أَوْ هِيَ حِكَايَةُ مَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لِأَصْحَابِهِ وَقَصَّ عَلَيْهِمْ.

وَقِيلَ: هُوَ مُتَعَلِّقٌ بِآمِنِينَ.

﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾[7] مِنَ الْحِكْمَةِ وَالصَّوَابِ فِي تَأْخِيرِ فَتْحِ مَكَّةَ إِلَى الْعَامِ الْقَابِلِ.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .

﴿فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ﴾[1]، أَيْ: مِنْ دُونِ فَتْحِ مَكَّةَ ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾[2]، وَهُوَ فَتْحُ خَيْبَرَ، لِتَسْتَرْوِحَ إِلَيْهِ قُلُوبُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى أَنْ يَتَيَسَّرَ الْفَتْحُ الْمَوْعُودُ.

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾[3]

﴿بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾[4]: بِدِينِ الْإِسْلَامِ.

﴿لِيُظْهِرَهُ﴾[5]: لِيُعْلِيَهُ ﴿عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾[6]: عَلَى جِنْسِ الدِّينِ كُلِّهِ، يُرِيدُ: الْأَدْيَانُ الْمُخْتَلِفَةُ مِنْ أَدْيَانِ الْمُشْرِكِينَ وَالْجَاحِدِينَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَقَدْ حَقَّقَ ذَلِكَ –سُبْحَانَهُ–، فَإِنَّكَ لَا تَرَى دِينًا قَطُّ إِلَّا وَلِلْإِسْلَامِ دُونَهُ الْعِزُّ وَالْغَلَبَةُ. وَقِيلَ: هُوَ عِنْدَ نُزُولِ عِيسَى حِينَ لَا يَبْقَى عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ كَافِرٌ. وَقِيلَ: هُوَ إِظْهَارُهُ بِالْحُجَجِ وَالْآيَاتِ.

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ تَأْكِيدٌ لِمَا وَعَدَ مِنَ الْفَتْحِ وَتَوْطِينٌ لِنُفُوسِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى أَنَّ اللَّهَ –تَعَالَى– سَيَفْتَحُ لَهُمْ مِنَ الْبِلَادِ وَيُقَيِّضُ لَهُمْ مِنَ الْغَلَبَةِ عَلَى الْأَقَالِيمِ مَا يَسْتَقِلُّونَ إِلَيْهِ مِنْ فَتْحِ مَكَّةَ.

﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾[7] عَلَى أَنَّ مَا وَعَدَهُ كَائِنٌ.

وَعَنِ الْحَسَنِ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: شَهِدَ عَلَى نَفْسِهِ أَنَّهُ سَيُظْهِرُ دِينَكَ.

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .

سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارِ وَعَدَ اللَّهِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[1]

﴿مُحَمَّدٌ﴾[2] إِمَّا خَبَرُ مُبْتَدَأٍ، أَيْ: هُوَ مُحَمَّدُ لِتُقَدِّمِ قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ﴾[3]،]الْفَتْحُ: 28] وَإِمَّا مُبْتَدَأٌ، وَرَسُولُ اللَّهِ: عَطْفُ بَيَانٍ.

وَعَنِ ابْنِ عَامِرٍ أَنَّهُ قَرَأَ: رَسُولَ اللَّهِ، بِالنَّصْبِ عَلَى الْمَدْحِ.

﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾[4] أَصْحَابُهُ ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[5] جَمْعُ شَدِيدٍ وَرَحِيمٍ. وَنَحْوُهُ ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[6]]الْمَائِدَةُ: 54]، ﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾[7]]التَّوْبَةُ: 73]، ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[8].]التَّوْبَةُ: 128]

وَعَنِ الْحَسَنِ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: بَلَغَ مِنْ تَشَدُّدِهِمْ عَلَى الْكُفَّارِ: أَنَّهُمْ كَانُوا يَتَحَرَّزُونَ مِنْ ثِيَابِهِمْ أَنْ تَلْزَقَ بِثِيَابِهِمْ، وَمِنْ أَبْدَانِهِمْ أَنْ تَمَسَّ أَبْدَانَهُمْ، وَبَلَغَ مَنْ تَرَحُّمِهِمْ فِيمَا بَيْنَهُمْ أَنَّهُ كَانَ لَا يَرَى مُؤْمِنٌ مُؤْمِنًا إِلَّا صَافَحَهُ وَعَانَقَهُ، وَالْمُصَافَحَةُ لَمْ تَخْتَلِفْ فِيهَا الْفُقَهَاءُ.

وَأَمَّا الْمُعَانَقَةُ، فَقَدْ كَرِهَهَا أَبُو حَنِيفَةَ –رَحِمَهُ اللَّهُ–، وَكَذَلِكَ التَّقْبِيلُ. قَالَ: لَا أُحِبُّ أَنْ يُقَبِّلَ الرَّجُلُ مِنَ الرَّجُلِ وَجْهَهُ وَلَا يَدَهُ وَلَا شَيْئًا مِنْ جَسَدِهِ. وَقَدْ رَخَّصَ أَبُو يُوسُفَ فِي الْمُعَانَقَةِ.

وَمِنْ حَقِّ الْمُسْلِمِينَ فِي كُلِّ زَمَانٍ أَنْ يُرَاعُوا هَذَا التَّشَدُّدَ وَهَذَا التَّعَطُّفَ: فَيَتَشَدَّدُوا عَلَى مَنْ لَيْسَ عَلَى مِلَّتِهِمْ وَدِينِهِمْ وَيَتَحَامَوْهُ، وَيُعَاشِرُوا إِخْوَتَهُمْ فِي الْإِسْلَامِ مُتَعَطِّفِينَ بِالْبِرِّ وَالصِّلَةِ. وَكَفِّ الْأَذَى. وَالْمَعُونَةِ، وَالِاحْتِمَالِ، وَالْأَخْلَاقِ السَّجِيحَةِ وَوَجْهُ مَنْ قَرَأَ: (أَشِدَّاءَ،

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .
[8] سورة ، الآية .

وَرُحَمَاءَ) بِالنَّصْبِ أَنْ يَنْصِبَهُمَا عَلَى الْمَدْحِ، أَوْ عَلَى الْحَالِ بِالْمُقَدَّرِ فِي ﴿مَعَهُ﴾[1]، وَيَجْعَلُ ﴿تَرَاهُمْ﴾[2] الْخَبَرَ.

﴿سِيمَاهُمْ﴾[3]: عَلَامَتُهُمْ. وَقُرِئَ: (سِيمَاؤُهُمْ) وَفيها ثَلَاثُ لُغَاتٍ: هَاتَانِ.

وَالسِّيمِيَاءُ، وَالْمُرَادُ بِهَا السِّمَةُ الَّتِي تَحْدُثُ في جَبْهَةِ السَّجَّادِ مِنْ كَثْرَةِ السُّجُودِ، وَقَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾[4] يُفَسِّرُهَا، أَيْ: مِنَ التَّأْثِيرِ الَّذِي يُؤْثِرُهُ السُّجُودُ، وَكَانَ كُلٌّ مِنَ الْعَلِيَّيْنِ: عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ زَيْنِ الْعَابِدِينَ، وَعَلِيِّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ أَبِي الْأَمْلَاكِ، يُقَالُ لَهُ: ذُو الثَّفِنَاتِ، لِأَنَّ كَثْرَةَ سُجُودِهِمَا أَحْدَثَتْ في مَوَاقِعِهِ مِنْهُمَا أَشْبَاهُ ثَفِنَاتِ الْبَعِيرِ.

وَقُرِئَ: (مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ) وَ(مِنْ آثَارِ السُّجُودِ)، وَكَذَا عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ: هِيَ السِّمَةِ في الْوَجْهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَقَدْ جَاءَ عَنِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "لَا تُعَلِّبُوا صُوَرَكُمْ".

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا قَدْ أَثَّرَ في وَجْهِهِ السُّجُودُ، فَقَالَ: إِنَّ صُورَةَ وَجْهِكَ أَنْفُكَ، فَلَا تُعَلِّبْ وَجْهَكَ، وَلَا تَشُنَّ صُورَتَكَ.

قُلْتُ: ذَلِكَ إِذَا اعْتَمَدَ بِجَبْهَتِهِ عَلَى الْأَرْضِ لِتَحْدُثَ فيهِ تِلْكَ السِّمَةُ. وَذَلِكَ رِيَاءٌ وَنِفَاقٌ يُسْتَعَاذُ بِاللَّهِ مِنْهُ، وَنَحْنُ فيمَا حَدَثَ في جَبْهَةِ السَّجَّادِ الَّذِي لَا يَسْجُدُ إِلَّا خَالِصًا لِوَجْهِ اللَّهِ –تَعَالَى–.

وَعَنْ بَعْضِ الْمُتَقَدِّمِينَ: كُنَّا نُصَلِّي، فَلَا يُرَى بَيْنَ أَعْيُنِنَا شَيْءٌ، وَنَرَى أَحَدَنَا الْآنَ يُصَلِّي فيرَى بَيْنَ عَيْنَيْهِ رُكْبَةَ الْبَعِيرِ، فَمَا نَدْرِي أَثَقُلَتِ الْأَرْؤُسُ أَمْ خَشُنَتِ الْأَرْضُ، وَإِنَّمَا أَرَادَ بِذَلِكَ مَنْ تَعَمَّدَ ذَلِكَ لِلنِّفَاقِ.

وَقِيلَ: هُوَ صُفْرَةُ الْوَجْهِ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ.

وَعَنِ الضَّحَّاكِ: لَيْسَ بِالنَّدْبِ في الْوُجُوهِ، وَلَكِنَّهُ صُفْرَةٌ.

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ: نَدَى الطَّهُورِ وَتُرَابِ الْأَرْضِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

وَعَنْ عَطَاءٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: اسْتَنَارَتْ وُجُوهُهُمْ مِنْ طُولِ مَا صَلُّوا بِاللَّيْلِ، كَقَوْلِهِ: "مَنْ كَثُرَتْ صَلَاتُهُ بِاللَّيْلِ حَسُنَ وَجْهُهُ بِالنَّهَارِ".

﴿ذَلِكَ﴾[1] الْوَصْفُ ﴿مَثَلُهُمْ﴾[2]، أَيْ: وَصْفُهُمُ الْعَجِيبُ الشَّأْنِ فِي الْكِتَابَيْنِ جَمِيعًا، ثُمَّ ابْتَدَأَ فَقَالَ: ﴿كَزَرْعٍ﴾[3]، يُرِيدُ: هُمْ كَزَرْعٍ.

وَقِيلَ: تَمَّ الْكَلَامُ عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ﴾[4].

ثُمَّ ابْتُدِئَ: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ﴾[5].

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ إِشَارَةً مُبْهَمَةً أُوضِحَتْ بِقَوْلِهِ: ﴿ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾[6] كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ﴾[7]]الْحِجْرُ: 666].

وَقُرِئَ: (الْأَنْجِيلَ) بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ "شَطْأَهُ" فِرَاخَهُ. يُقَالُ: أَشْطَا الزَّرْعُ إِذَا فَرَخَ.

وَقُرِئَ: (شَطَأَهُ) بِفَتْحِ الطَّاءِ. وَ(شَطَاهُ) بِتَخْفِيفِ الْهَمْزَةِ: وَ(شَطَاءَهُ) بِالْمَدِّ. وَ(شَطَهُ)، بِحَذْفِ الْهَمْزَةِ وَنَقْلِ حَرَكَتِهَا إِلَى مَا قَبْلَهَا. وَشَطُّوهُ، بِقَلْبِهَا وَاوًا.

﴿فَآزَرَهُ﴾[8] مِنَ الْمُؤَازَرَةِ، وَهِيَ الْمُعَاوَنَةُ.

وَعَنِ الْأَخْفَشِ: أَنَّهُ أَفْعَلُ.

وَقُرِئَ: (فَأَزَرَهُ) بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ، أَيْ: فَشَدَّ أَزْرَهُ وَقَوَّاهُ.

وَمَنْ جَعَلَ "آزَرَ" أَفْعَلَ، فَهُوَ فِي مَعْنَى الْقِرَاءَتَيْنِ "فَاسْتَغْلَظَ" فَصَارَ مِنَ الدِّقَّةِ إِلَى الْغِلَظِ ﴿فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ﴾[9]، فَاسْتَقَامَ عَلَى قَصَبِهِ جَمْعُ سَاقٍ.

وَقِيلَ: مَكْتُوبٌ فِي الْإِنْجِيلِ سَيَخْرُجُ قَوْمٌ يَنْبُتُونَ نَبَاتَ الزَّرْعِ، يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .
[8] سورة ، الآية .
[9] سورة ، الآية .

وَعَنْ عِكْرِمَةَ: أَخْرَجَ شَطْأَهُ بِأَبِي بَكْرٍ، فَآزَرَهُ بِعُمَرَ، فَاسْتَغْلَظَ بِعُثْمَانَ، فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ بِعَلَيٍّ.

وَهَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللَّهُ لِبَدْءِ أَمْرِ الْإِسْلَامِ وَتَرَقِّيهِ فِي الزِّيَادَةِ إِلَى أَنْ قَوِيَ وَاسْتَحْكَمَ، لِأَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، قَامَ وَحْدَهُ.

ثُمَّ قَوَّاهُ اللَّهُ بِمَنْ آمَنَ مَعَهُ كَمَا يُقَوِي الطَّاقَةَ الْأَوْلَى مِنَ الزَّرْعِ مَا يَحْتَفِ بِهَا مِمَّا يَتَوَلَّدُ مِنْهَا حَتَّى يُعْجِبَ الزُّرَّاعَ.

فَإِنْ قُلْتَ: قَوْلُهُ: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾[1] تَعْلِيلٌ لِمَاذَا؟

قُلْتُ: لِمَا دَلَّ عَلَيْهِ تَشْبِيهُهُمْ بِالزَّرْعِ مِنْ نَمَائِهِمْ وَتَرَقِّيهِمْ فِي الزِّيَادَةِ وَالْقُوَّةِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يُعَلِّلَ بِهِ ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[2]، لِأَنَّ الْكَفَّارَ إِذَا سَمِعُوا بِمَا أُعِدَّ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ مَعَ مَا يُعِزُّهُمْ بِهِ فِي الدُّنْيَا غَاظَهُمْ ذَلِكَ.

وَمَعْنَى ﴿مِنْهُمْ﴾[3]: الْبَيَانُ، كَقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾[4]]الْحَجُّ: 30 .[

عَنْ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ-: "مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْفَتْحِ فَكَأَنَّمَا كَانَ مِمَّنْ شَهِدَ مَعَ مُحَمَّدٍ فَتْحَ مَكَّةَ".

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

سُورَةُ الْحُجُرَاتِ

سُورَةُ الْحَشْرِ

مَدَنِيَّةٌ، وَآيَاتُهَا 18 [نَزَلَتْ بَعْدَ الْمُجَادَلَةِ]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهِ إِنَّ اللَّهِ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1]

قَدَّمَهُ وَأَقْدَمَهُ: مَنْقُولَانِ بِتَثْقِيلِ الْحَشْوِ وَالْهَمْزَةِ، مِنْ قَدَّمَهُ إِذَا تَقَدَّمَهُ، فِي قَوْلِهِ –تَعَالَى–﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ﴾[2]]هُودٌ: 98] وَنَظِيرُهُمَا مَعْنًى وَنَقْلًا: سَلَّفَهُ وَأَسْلَفَهُ.

وَفِي قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿لا تُقَدِّمُوا﴾[3] مِنْ غَيْرِ ذَلِكَ مَفْعُولٌ: وَجْهَانِ:

– أَحَدُهُمَا: أَنْ يُحْذَفَ لِيَتَنَاوَلَ كُلَّ مَا يَقَعُ فِي النَّفْسِ مِمَّا يُقَدَّمُ.

– وَالثَّانِي: أَنْ لَا يَقْصِدُ قَصْدَ مَفْعُولٍ وَلَا حَذْفَهُ، وَيَتَوَجَّهُ بِالنَّهْيِ إِلَى نَفْسِ التَّقْدِمَةِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: لَا تُقَدِّمُوا عَلَى التَّلَبُّسِ بِهَذَا الْفِعْلِ، وَلَا تَجْعَلُوهُ مِنْكُمْ بِسَبِيلٍ كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾[4]]غَافِرٌ: 688].

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِنْ قَدَّمَ بِمَعْنَى تَقَدَّمَ، كَوَجْهٍ وَبَيْنٍ. وَمِنْهُ مُقَدِّمَةُ الْجَيْشِ خِلَافُ سَاقَتِهِ، وَهِيَ الْجَمَاعَةُ الْمُتَقَدِّمَةُ مِنْهُ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

وَتُعَضِّدُهُ قِرَاءَةُ مَنْ قَرَأَ: (لَا تُقَدِّمُوا) بِحَذْفِ إِحْدَى تَاءَيْ تَتَقَدَّمُوا، إِلَّا أَنَّ الْأَوَّلَ أَمْلَأُ بِالْحُسْنِ وَأَوْجَهُ، وَأَشَدُّ مُلَاءَمَةً لِبَلَاغَةِ الْقُرْآنِ، وَالْعُلَمَاءُ لَهُ أَقْبَلُ. وَقُرِئَ: (لَا تُقَدِّمُوا) مِنَ الْقُدُومِ، أَيْ لَا تُقَدِّمُوا إِلَى أَمْرٍ مِنْ أُمُورِ الدِّينِ قَبْلَ قُدُومِهَا، وَلَا تَعْجَلُوا عَلَيْهِمَا. وَحَقِيقَةُ قَوْلِهِمْ: جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْ فُلَانٍ، أَنْ يَجْلِسَ بَيْنَ الْجِهَتَيْنِ الْمُسَامِتَتَيْنِ لِيَمِينِهِ وَشِمَالِهِ قَرِيبًا مِنْهُ، فَسُمِّيَتِ الْجِهَتَانِ يَدَيْنِ لِكَوْنِهِمَا عَلَى سَمْتِ الْيَدَيْنِ مَعَ الْقُرْبِ مِنْهُمَا تَوَسُّعًا، كَمَا يُسَمَّى الشَّيْءُ بِاسْمِ غَيْرِهِ إِذَا جَاوَرَهُ وَدَانَاهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ، وَقَدْ جَرَتْ هَذِهِ الْعِبَارَةُ هَاهُنَا عَلَى سُنَنِ ضَرْبٍ مِنَ الْمَجَازِ، وَهُوَ الَّذِي يُسَمِّيهِ أَهْلُ الْبَيَانِ تَمْثِيلًا. وَلِجَرْيِهَا هَكَذَا فَائِدَةٌ جَلِيلَةٌ لَيْسَتْ فِي الْكَلَامِ الْعُرْيَانِ: وَهِيَ تَصْوِيرُ الْهُجْنَةِ وَالشَّنَاعَةِ فِيمَا نُهُوا عَنْهُ مِنَ الْإِقْدَامِ عَلَى أَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ دُونَ الِاحْتِذَاءِ عَلَى أَمْثِلَةِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَالْمَعْنَى: أَنْ لَا تَقْطَعُوا أَمْرًا إِلَّا بَعْدَمَا يَحْكُمَانِ بِهِ وَيَأْذَنَانِ فِيهِ، فَتَكُونُوا إِمَّا عَامِلِينَ بِالْوَحْيِ الْمُنَزَّلِ. وَإِمَّا مُقْتَدِينَ بِرَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–. وَعَلَيْهِ يَدُورُ تَفْسِيرُ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–.

وَعَنْ مُجَاهِدٍ: لَا تَفْتَاتُوا عَلَى اللَّهِ شَيْئًا حَتَّى يَقُصَّهُ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ. وَيَجُوزُ أَنْ يَجْرِيَ مَجْرَى قَوْلِكَ: سَرَّنِي زَيْدٌ وَحَسَنٌ حَالُهُ، وَأُعْجِبْتُ بِعَمْرٍو وَكَرَمِهِ.

وَفَائِدَةُ هَذَا الْأُسْلُوبِ: الدَّلَالَةُ عَلَى قُوَّةِ الِاخْتِصَاصِ، وَلَمَّا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– مِنَ اللَّهِ بِالْمَكَانِ الَّذِي لَا يَخْفَى: سَلَكَ لَهُ ذَلِكَ الْمَسْلَكَ. وَفِي هَذَا تَمْهِيدٌ وَتَوْطِئَةٌ لِمَا نَقَمَ مِنْهُمْ فِيمَا يَتَوَلَّوْهُ مِنْ رَفْعِ أَصْوَاتِهِمْ فَوْقَ صَوْتِهِ، لِأَنَّ مَنْ أَحْظَاهُ اللَّهُ بِهَذِهِ الْأَثَرَةِ وَاخْتَصَّهُ هَذَا الِاخْتِصَاصَ الْقَوِيَّ: كَانَ أَدْنَى مَا يَجِبُ لَهُ مِنَ التَّهَيُّبِ وَالْإِجْلَالِ أَنْ يَخْفِضَ بَيْنَ يَدَيْهِ الصَّوْتُ، وَيُخَافِتَ لَدَيْهِ بِالْكَلَامِ. وَقِيلَ :بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– إِلَى تِهَامَةَ سَرِيَّةً سَبْعَةً وَعِشْرِينَ رَجُلًا وَعَلَيْهِمُ الْمُنْذِرُ بْنُ عَمْرٍو السَّاعِدِيُّ، فَقَتَلَهُمْ بَنُو عَامِرٍ وَعَلَيْهِمْ عَامِرُ بْنُ الطُّفَيلِ، إِلَّا الثَّلَاثَةَ نَفَرٍ نَجَوْا فَلَقُوا رَجُلَيْنِ مَنْ بَنِي سَلِيمٍ قُرْبَ الْمَدِينَةِ، فَاعْتَزَيَا لَهُمْ إِلَى بَنِي عَامِرٍ، لِأَنَّهُمْ أَعَزُّ مَنْ بَنِي سَلِيمٍ، فَقَتَلُوهُمَا وَسَلَبُوهُمَا، ثُمَّ أَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، فَقَالَ: "بِئْسَمَا صَنَعْتُمْ كَانَا مِنْ سَلِيمٍ، وَالسَّلْبُ مَا كَسَوْتُهُمَا" فَوَدَّاهُمَا رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَنَزَلَتْ، أَيْ: لَا تَعْمَلُوا شَيْئًا مِنْ ذَاتِ أَنْفُسِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْمِرُوا رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–.

وَعَنْ مَسْرُوقٍ: دَخَلْتُ عَلَى عَائِشَةَ فِي الْيَوْمِ الَّذِي يُشَكُّ فِيهِ، فَقَالَتْ لِلْجَارِيَةِ: اسْقِهِ عَسَلًا، فَقُلْتُ: إِنِّي صَائِمٌ، فَقَالَتْ: قَدْ نَهَى اللَّهُ عَنْ صَوْمِ هَذَا الْيَوْمِ. وَفِيهِ نَزَلَتْ.

وَعَنِ الْحَسَنِ: أَنَّ أُنَاسًا ذَبَحُوا يَوْمَ الْأَضْحَى قَبْلَ الصَّلَاةِ فَنَزَلَتْ، وَأَمَرَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَنْ يُعِيدُوا ذَبْحًا آخَرَ.

وَهَذَا مَذْهَبُ أَبِي حَنِيفَةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ-، إِلَّا أَنْ تَزُولَ الشَّمْسُ.

وَعِنْدَ الشَّافِعِيِّ: يَجُوزُ الذَّبْحُ إِذَا مَضَى مِنَ الْوَقْتِ مِقْدَارُ الصَّلَاةِ.

وَعَنِ الْحَسَنِ أَيْضًا: لَمَّا اسْتَقَرَّ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بِالْمَدِينَةِ أَتَتْهُ الْوُفُودُ مِنَ الْآفَاقِ فَأَكْثَرُوا عَلَيْهِ بِالْمَسَائِلِ، فَنُهُوا أَنْ يَبْتَدِئُوهُ بِالْمَسْأَلَةِ حَتَّى يَكُونَ هُوَ الْمُبْتَدِئُ.

وَعَنْ قَتَادَةَ: ذُكِرَ لَنَا أَنَّ نَاسًا كَانُوا يَقُولُونَ: لَوْ أُنْزِلَ فِيهِ كَذَا لَكَانَ كَذَا، فَكَرِهَ اللَّهُ ذَلِكَ مِنْهُمْ وَأَنْزَلَهَا. وَقِيلَ: هِيَ عَامَّةٌ فِي كُلِّ قَوْلٍ وَفِعْلٍ، وَيَدْخُلُ فِيهِ أَنَّهُ إِذَا جَرَتْ مَسْأَلَةٌ فِي مَجْلِسِ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لَمْ يَسْبِقُوهُ بِالْجَوَابِ، وَأَنْ لَا يَمْشِيَ بَيْنَ يَدَيْهِ إِلَّا لِحَاجَةٍ، وَأَنْ يَسْتَأْنِيَ فِي الِافْتِتَاحِ بِالطَّعَامِ.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾[1]، فَإِنَّكُمْ إِنِ اتَّقَيْتُمُوهُ عَاقَتْكُمُ التَّقْوَى عَنِ التَّقَدُّمَةِ الْمُنْهَى عَنْهَا وَعَنْ جَمِيعِ مَا تَقْتَضِي مُرَاقَبَةُ اللَّهِ تَجَنُّبُهُ، فَإِنَّ التَّقِيَّ حَذِرٌ لَا يُشَافِهُ أَمْرًا إِلَّا عَنِ ارْتِفَاعِ الرَّيْبِ وَانْجِلَاءِ الشَّكِّ فِي أَنْ لَا تَبِعَةَ عَلَيْهِ فِيهِ.

وَهَذَا كَمَا تَقُولُ لِمَنْ يُقَارِفُ بَعْضَ الرَّذَائِلِ: لَا تَفْعَلْ هَذَا وَتَحَفَّظْ مِمَّا يَلْصَقُ بِكَ الْعَارَ. فَتَنْهَاهُ أَوَّلًا عَنْ عَيْنِ مَا قَارَفَهُ، ثُمَّ تَعُمُّ وَتَشِيعُ وَتَأْمُرُهُ بِمَا لَوِ امْتَثَلَ فِيهِ أَمْرُكَ لَمْ يَرْتَكِبْ تِلْكَ الْفَعْلَةَ وَكُلُّ مَا يُضْرَبُ فِي طَرِيقِهَا وَيَتَعَلَّقُ بِسَبَبِهَا.

﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾[2] لِمَا تَقُولُونَ "عَلِيمٌ" بِمَا تَعْمَلُونَ، وَحَقُّ مِثْلِهِ أَنْ يَتَّقِيَ وَيُرَاقِبَ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾[3]

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

إِعَادَةُ النِّدَاءِ عَلَيْهِمْ: اسْتِدْعَاءٌ مِنْهُمْ لِتَجْدِيدِ الِاسْتِبْصَارِ عِنْدَ كُلِّ خِطَابٍ وَارِدٍ، وَتَطْرِيَةُ الْإِنْصَاتِ لِكُلِّ حُكْمٍ نَازِلٍ، وَتَحَرِّيكٌ مِنْهُمْ لِئَلَّا يَفْتَرِقُوا وَيَغْفُلُوا عَنْ تَأَمُّلِهِمْ وَمَا أَخَذُوا بِهِ عِنْدَ حُضُورِ مَجْلِسِ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مِنَ الْأَدَبِ الَّذِي الْمُحَافَظَةُ عَلَيْهِ تَعُودُ عَلَيْهِمْ بِعَظِيمِ الْجَدْوَى فِي دِينِهِمْ، وَذَلِكَ لِأَنَّ فِي إِعْظَامِ صَاحِبِ الشَّرْعِ إِعْظَامُ مَا وَرَدَ بِهِ، وَمُسْتَعْظِمُ الْحَقِّ لَا يَدَعُهُ اسْتِعْظَامُهُ أَنْ يَأْلُوَ عَمَلًا بِمَا يَحْدُوهُ عَلَيْهِ. وَارْتِدَاعًا عَمَّا يَصُدُّهُ عَنْهُ، وَانْتِهَاءً إِلَى كُلِّ خَيْرٍ.

وَالْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: ﴿لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾[1] أَنَّهُ إِذَا نَطَقَ وَنَطَقْتُمْ فَعَلَيْكُمْ أَنْ لَا تُبَلِّغُوا بِأَصْوَاتِكُمْ وَرَاءَ الْحَدِّ الَّذِي يُبَلِّغُهُ بِصَوْتِهِ، وَأَنْ تَغُضُّوا مِنْهَا بِحَيْثُ يَكُونُ كَلَامُهُ عَالِيًا لِكَلَامِكُمْ، وَجَهْرُهُ بَاهِرًا لِجَهْرِكُمْ، حَتَّى تَكُونَ مَزِيَّتُهُ عَلَيْكُمْ لَائِحَةً، وَسَابِقَتُهُ وَاضِحَةً، وَامْتِيَازُهُ عَنْ جُمْهُورِكُمْ كَشِيَةِ الْأَبْلَقِ غَيْرِ خَافٍ، لَا أَنْ تَغْمُرُوا صَوْتَهُ بِلَغَطِكُمْ وَتُبْهِرُوا مَنْطِقَهُ بِصَخَبِكُمْ.

وَبِقَوْلِهِ: وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ: إِنَّكُمْ إِذَا كَلَّمْتُمُوهُ وَهُوَ صَامِتٌ فَإِيَّاكُمْ وَالْغُدُولَ عَمَّا نَهَيْتُمْ عَنْهُ مِنْ رَفْعِ الصَّوْتِ، بَلْ عَلَيْكُمْ أَنْ لَا تُبَلِّغُوا بِهِ الْجَهْرَ الدَّائِرَ بَيْنَكُمْ، وَأَنْ تَتَعَمَّدُوا فِي مُخَاطَبَتِهِ الْقَوْلَ اللَّيِّنَ الْمُقَرَّبَ مِنَ الْهَمْسِ الَّذِي يُضَادُّ الْجَهْرَ، كَمَا تَكُونُ مُخَاطَبَةُ الْمَهِيبِ الْمُعَظَّمِ، عَامِلِينَ بِقَوْلِهِ -عَزَّ اسْمُهُ-: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾[2].]الْفَتْحُ: 9]

وَقِيلَ مَعْنَى: ﴿وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾[3]: لَا تَقُولُوا لَهُ: يَا مُحَمَّدُ، يَا أَحْمَدُ، وَخَاطِبُوهُ بِالنُّبُوَّةِ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ قَالَ أَبُو بَكْرٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَاللَّهِ لَا أُكَلِّمُكَ إِلَّا السِّرَارَ أَوْ أَخَا السِّرَارِ حَتَّى أَلْقَى اللَّهَ، وَعَنْ عُمَرَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: أَنَّهُ كَانَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كَأَخِي السَّرَارِ لَا يَسْمَعُهُ حَتَّى يَسْتَفْهِمَهُ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ إِذَا قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَفْدٌ: أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ مَنْ يُعَلِّمُهُمْ كَيْفَ يُسْلِمُونَ وَيَأْمُرُهُمْ بِالسَّكِينَةِ وَالْوَقَارِ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَلَيْسَ الْغَرَضُ بِرَفْعِ الصَّوْتِ وَلَا الْجَهْرِ: مَا يَقْصِدُ بِهِ الِاسْتِخْفَافَ وَالِاسْتِهَانَةَ، لِأَنَّ ذَلِكَ كُفْرٌ، وَالْمُخَاطَبُونَ مُؤْمِنُونَ، وَإِنَّمَا الْغَرَضُ صَوْتٌ هُوَ فِي نَفْسِهِ وَالْمَسْمُوعُ مِنْ جَرْسِهِ غَيْرُ مُنَاسِبٍ لِمَا يَهَابُ بِهِ

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

الْعُظَمَاءُ وَيُوَقَّرُ الْكُبَرَاءُ، فيتَكَلَّفُ الْغَضُّ مِنْهُ، وَرَدَّهُ إِلَى حَدٍّ يَمِيلُ بِهِ إِلَى مَا يَسْتَبِينُ فيهِ الْمَأْمُورُ بِهِ مِنَ التَّعْزِيزِ وَالتَّوْقِيرِ، وَلَمْ يَتَنَاوَلِ النَّهْيُ أَيْضًا رَفْعَ الصَّوْتِ الَّذِي لَا يَتَأَذَّى بِهِ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، وَهُوَ مَا كَانَ مِنْهُمْ في حَرْبٍ أَوْ مُجَادَلَةِ مُعَانِدٍ أَوْ إِرْهَابِ عَدُوٍّ أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فَفي الْحَدِيثِ، أَنَّهُ قَالَ –عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ– لِلْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَمَّا انْهَزَمَ النَّاسُ يَوْمَ حُنَيْنٍ: "اصْرُخْ بِالنَّاسِ" وَكَانَ الْعَبَّاسُ أَجْهَرَ النَّاسِ صَوْتًا.

يُرْوَى: أَنَّ غَارَةً أَتَتْهُمْ يَوْمًا فَصَاحَ الْعَبَّاسُ يَا صَبَاحَاهُ، فَأَسْقَطَتِ الْحَوَامِلُ لِشِدَّةِ صَوْتِهِ.

وَفيهِ يَقُولُ نَابِغَةُ بَنِي جَعْدَةَ:

زَجْرَ أَبِي عُرْوَةَ السِّبَاعَ إِذَا أَشْفَقَ أَنْ يَخْتَلِطْنَ بِالْغَنَمِ

زَعَمَتِ الرُّوَاةُ أَنَّهُ كَانَ يَزْجُرُ السِّبَاعَ عَنِ الْغَنَمِ فيفْتُقُ مَرَارَةَ السَّبُعِ في جَوْفِهِ.

وَفى قِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ: (لَا تَرْفَعُوا بِأَصْوَاتِكُمْ) وَالْبَاءُ مَزِيدَةٌ مَحْذُوٌّ بِهَا حَذَرَ التَّشْدِيدِ في قَوْلِ الْأَعْلَمِ الْهُذَلِيِّ

رَفَعْتُ عَيْنِي بِالْحِجَا زِ إِلَى أُنَاسٍ بِالْمَنَاقِبْ

وَلَيْسَ الْمَعْنَى في هَذِهِ الْقِرَاءَةِ أَنَّهُمْ نُهُوا عَنِ الرَّفْعِ الشَّدِيدِ، تَخَيُّلًا أَنْ يَكُونَ مَا دُونَ الشَّدِيدِ مَسُوغًا لَهُمْ، وَلَكِنَّ الْمَعْنَى نَهْيُهُمْ عَمَّا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْجَلَبَةِ، وَاسْتِجْفَاؤُهُمْ فيمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: نَزَلَتْ في ثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ، وَكَانَ في أُذُنِهِ وَقْرٌ، وَكَانَ جَهُورِيَّ الصَّوْتِ، فَكَانَ إِذَا تَكَلَّمَ رَفَعَ صَوْتَهُ، وَرُبَّمَا كَانَ يُكَلِّمُ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فيتَأَذَّى بِصَوْتِهِ.

وَعَنْ أَنَسٍ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ لَمَّا نَزَلَتْ: فُقِدَ ثَابِتٌ، فَتَفَقَّدَهُ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فَأُخْبِرَ بِشَأْنِهِ، فَدَعَاهُ، فَسَأَلَهُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَقَدْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ هَذِهِ الْآيَةُ، وَإِنِّي رَجُلٌ جَهِيرُ الصَّوْتِ، فَأَخَافُ أَنْ يَكُونَ عَمَلِي قَدْ حَبِطَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "لَسْتَ هُنَاكَ، إِنَّكَ تَعِيشُ بِخَيْرٍ وَتَمُوتُ بِخَيْرٍ، وَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ".

وَأَمَّا مَا يُرْوَى عَنِ الْحَسَنِ: أَنَّهَا نَزَلَتْ فيمَنْ كَانَ يَرْفَعُ صَوْتَهُ مِنَ الْمُنَافِقِينَ فَوْقَ صَوْتِ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، فَمَحْمَلُهُ وَالْخِطَابُ لِلْمُؤْمِنِينَ: عَلَى أَنْ يَنْهَى الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْدَرِجَ الْمُنَافِقُونَ تَحْتَ النَّهْيِ، لِيَكُونَ الْأَمْرُ أَغْلَظَ عَلَيْهِمْ وَأَشَقَّ.

وَقِيلَ: كَانَ الْمُنَافِقُونَ يَرْفَعُونَ أَصْوَاتَهُمْ لِيُظْهِرُوا قِلَّةَ مُبَالَاتِهِمْ، فيقْتَدِيَ بِهِمْ ضَعَفَةُ الْمُسْلِمِينَ. وَكَانَ التَّشْبِيهُ في مَحَلِّ النَّصْبِ، أَيْ: لَا تَجْهَرُوا لَهُ جَهْرًا مِثْلَ جَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ.

وَفِي هَذَا: أَنَّهُمْ لَمْ يُنْهَوْا عَنِ الْجَهْرِ مُطْلَقًا، حَتَّى لَا يَسُوغَ لَهُمْ أَنْ يُكَلِّمُوهُ إِلَّا بِالْهَمْسِ وَالْمُخَافَتَةِ، وَإِنَّمَا نُهُوا عَنْ جَهْرٍ مَخْصُوصٍ مُقَيَّدٍ بِصِفَةٍ، أَعْنِي: الْجَهْرُ الْمَنْعُوتُ بِمُمَاثَلَةِ مَا قَدِ اعْتَادُوهُ مِنْهُمْ فيمَا بَيْنَهُمْ، وَهُوَ الْخُلُوُّ مِنْ مُرَاعَاةِ أُبَّهَةِ النُّبُوَّةِ وَجَلَالَةِ مِقْدَارِهَا، وَانْحِطَاطِ سَائِرِ الرُّتَبِ،بِ وَإِنْ جَلَتْ عَنْ رُتْبَتِهَا ﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ﴾[1] مَنْصُوبُ الْمَوْضِعِ عَلَى أَنَّهُ مَفْعُولٌ لَهُ، وَفِي مُتَعَلِّقِهِ وَجْهَانِ:

– أَحَدُهُمَا: أَنْ يَتَعَلَّقَ بِمَعْنَى النَّهْيِ، فيكُونُ الْمَعْنَى: انْتَهُوا عَمَّا نَهَيْتُهُمْ عَنْهُ لِحُبُوطِ أَعْمَالِكُمْ، أَيْ: لِخَشْيَةِ حُبُوطِهَا عَلَى تَقْدِيرِ حَذْفِ الْمُضَافِ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا﴾[2]]النِّسَاءُ: 1766]

– وَالثَّانِي: أَنْ يَتَعَلَّقَ بِنَفْسِ الْفِعْلِ، وَيَكُونُ الْمَعْنَى: أَنَّهُمْ نُهُوا عَنِ الْفِعْلِ الَّذِي فَعَلُوهُ لِأَجْلِ الْحُبُوطِ، لِأَنَّهُ لَمَّا كَانَ بِصَدَدِ الْأَدَاءِ إِلَى الْحُبُوطِ: جُعِلَ كَأَنَّهُ فِعْلٌ لِأَجْلِهِ، وَكَأَنَّهُ الْعِلَّةُ وَالسَّبَبُ في إِيجَادِهِ عَلَى سَبِيلِ التَّمْثِيلِ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا﴾[3].]الْقَصَصُ: 88]

فَإِنْ قُلْتَ: لَخِّصِ الْفَرْقَ بَيْنَ الْوَجْهَيْنِ.

قُلْتُ: تَلْخِيصُهُ أَنْ يُقَدَّرَ الْفِعْلُ في الثَّانِي مَضْمُومًا إِلَيْهِ الْمَفْعُولُ لَهُ، كَأَنَّهُمَا شَيْءٌ وَاحِدٌ، ثُمَّ يَصُبُّ النَّهْيُ عَلَيْهِمَا جَمِيعًا صَبًّا. وَفِي الْأَوَّلِ يُقَدَّرُ النَّهْيُ مُوَجَّهًا عَلَى الْفِعْلِ عَلَى حِيَالِهِ، ثُمَّ يُعَلَّلُ لَهُ مَنْهِيًّا عَنْهُ.

فَإِنْ قُلْتَ: بِأَيِّ النَّهْيَيْنِ تَعَلَّقَ الْمَفْعُولُ لَهُ؟

قُلْتُ: بِالثَّانِي عِنْدَ الْبَصْرِيِّينَ، مُقَدِّرًا إِضْمَارُهُ عِنْدَ الْأَوَّلِ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾[4]،]الْكَهْفُ: 966] وَبِالْعَكْسِ عِنْدَ الْكُوفِيينَ؛ وَأَيُّهُمَا كَانَ فَمَرْجِعُ الْمَعْنَى إِلَى أَنَّ الرَّفْعَ وَالْجَهْرَ كِلَاهُمَا مَنْصُوصٌ أَدَاؤُهُ إِلَى حُبُوطِ الْعَمَلِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

وَقِرَاءَةُ ابْنِ مَسْعُودٍ: (فَتَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ) أَظْهَرَ نَصًّا بِذَلِكَ، لِأَنَّ مَا بَعْدَ الْفَاءِ لَا يَكُونُ إِلَّا مُسَبَّبًا عَمَّا قَبْلَهُ، فيتَنَزَّلُ الْحُبُوطُ مِنَ الْجَهْرِ مَنْزِلَةَ الْحُلُولِ مِنَ الطُّغْيَانِ في قَوْلِهِ – تَعَالَى–: ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾[1]]طه: 811] وَالْحُبُوطُ مِنْ حَبِطَتِ الْإِبِلُ: إِذَا أَكَلَتِ الْخُضَرَ فَنَفَخَ بُطُونَهَا، وَرُبَّمَا هَلَكَتْ.

وَمِنْهُ قَوْلُهُ –عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ–: "وَإِنَّ مِمَّا يُنْبِتُ الرَّبِيعُ لَمَا يَقْتُلُ حَبَطًا أَوْ يُلِمُّ"، وَمِنْ أَخَوَاتِهِ: حَبَجَتِ الْإِبِلُ، إِذَا أَكَلَتِ الْعُرْفُجَ فَأَصَابَهَا ذَلِكَ. وَأَحْبَضَ عَمَلَهُ: مِثْلُ أَحْبَطَهُ. وَحَبِطَ الْجُرْحُ وَحَبِرَ: إِذَا غَفَرَ، وَهُوَ نَكْسُهُ وَتَرَامِيهِ إِلَى الْفَسَادِ: جَعَلَ الْعَمَلَ السَّيِّئَ في إِضْرَارِهِ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ كَالدَّاءِ وَالْحِرْصِ لِمَنْ يُصَابُ بِهِ، أَعَاذَنَا اللَّهُ مِنْ حَبْطِ الْأَعْمَالِ وَخَيْبَةِ الْآمَالِ.

وَقَدْ دَلَّتِ الْآيَةُ عَلَى أَمْرَيْنِ هَائِلَيْنِ:

– أَحَدُهُمَا: أَنَّ فيمَا يَرْتَكِبُ مَنْ يُؤْمَنُ مِنَ الْآثَامِ مَا يُحْبِطُ عَمَلَهُ.

– وَالثَّانِي: أَنَّ في آثَامِهِ مَا لَا يَدْرِي أَنَّهُ مُحْبِطٌ، وَلَعَلَّهُ عِنْدَ اللَّهِ كَذَلِكَ، فَعَلَى الْمُؤْمِنِ أَنْ يَكُونَ في تَقْوَاهُ كَالْمَاشِي في طَرِيقٍ شَائِكٍ لَا يَزَالُ يَحْتَرِزُ وَيَتَوَقَّى وَيَتَحَفَّظُ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[2]

﴿امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾[3] مِنْ قَوْلِكَ: امْتُحِنَ فُلَانٌ لِأَمْرِ كَذَا وَجُرِّبَ لَهُ، وَدُرِّبَ لِلنُّهُوضِ بِهِ. فَهُوَ مُضْطَلِعٌ بِهِ غَيْرُ وَانٍ عَنْهُ.

وَالْمَعْنَى: أَنَّهُمْ صَبْرٌ عَلَى التَّقْوَى، أَقْوِيَاءُ عَلَى احْتِمَالِ مَشَاقِّهَا، أَوْ وَضْعِ الِامْتِحَانِ مَوْضِعَ الْمَعْرِفَةِ، لِأَنَّ تَحَقُّقَ الشَّيْءِ بِاخْتِبَارِهِ، كَمَا يُوضَعُ الْخَبَرُ مَوْضِعَهَا، فَكَأَنَّهُ قِيلَ: عَرَّفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى، وَتَكُونُ اللَّامُ مُتَعَلِّقَةً بِمَحْذُوفٍ، وَاللَّامُ هِيَ الَّتِي في قَوْلِكَ: أَنْتَ لِهَذَا الْأَمْرِ، أَيْ: كَائِنٌ لَهُ وَمُخْتَصٌّ بِهِ قَالَ:

أَنْتَ لَهَا أَحْمَدُ مِنْ بَيْنِ الْبَشَـــــــــرِ

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

***

أَعَدَّاءُ مَنْ لِلْيَعْمُلَاتِ عَلَى الْوَجَـــــى

وَهِيَ مَعَ مَعْمُولِهَا مَنْصُوبَةٌ عَلَى الْحَالِ، أَوْ ضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنْوَاعِ الْمِحَنِ وَالتَّكَالِيفِ الصَّعْبَةِ لِأَجْلِ التَّقْوَى، أَيْ لِتَثْبُتَ وَتَظْهَرَ تَقْوَاهَا، وَيَعْلَمَ أَنَّهُمْ مُتَّقُونَ، لِأَنَّ حَقِيقَةَ التَّقْوَى لَا تُعْلَمُ إِلَّا عِنْدَ الْمِحَنِ وَالشَّدَائِدِ وَالِاصْطِبَارِ عَلَيْهَا.

وَقِيلَ أَخْلَصُهَا لِلتَّقْوَى. مِنْ قَوْلِهِمْ: امْتَحَنَ الذَّهَبَ وَفَتَنَهُ، إِذَا أَذَابَهُ فَخَلُصَ إِبْرِيزُهُ مِنْ خَبَثِهِ وَنَقَّاهُ.

وَعَنْ عُمَرَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: أَذْهَبَ الشَّهَوَاتِ عَنْهَا.

وَالِامْتِحَانُ: افْتِعَالٌ، مِنْ مِحَنِهِ، وَهُوَ اخْتِبَارٌ بَلِيغٌ أَوْ بَلَاءٌ جَهِيدٌ.

قَالَ أَبُو عَمْرٍو: كُلُّ شَيْءٍ جَهِدْتُهُ فَقَدَ مِحْنَتَهُ.

وَأَنْشَدَ:

أَتَتْ رَذَايَا بَادِيًا كِلَالُهَا قَدْ مَحَنَتْ وَاضْطَرَبَتْ آطَالُهَا

قِيلَ: أُنْزِلَتْ فِي الشَّيْخَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، لِمَا كَانَ مِنْهُمَا مِنْ غَضِّ الصَّوْتِ وَالْبُلُوغِ بِهِ أَخَا السِّرَارِ.

وَهَذِهِ الْآيَةُ بِنَظْمِهَا الَّذِي رُتِّبَتْ عَلَيْهِ مِنْ إِيقَاعِ الْغَاضِّينَ أَصْوَاتَهُمُ اسْمًا، لِأَنَّ الْمُؤَكَّدَةِ. وَتَصْيِيرُ خَبَرِهَا جُمْلَةٌ مِنْ مُبْتَدَأٍ وَخَبَرٍ مَعْرِفَتَيْنِ مَعًا. وَالْمُبْتَدَأُ: اسْمُ الْإِشَارَةِ، وَاسْتِئْنَافُ الْجُمْلَةِ الْمُسْتَوْدَعَةِ مَا هُوَ جَزَاؤُهُمْ عَلَى عَمَلِهِمْ، وَإِيرَادُ الْجَزَاءِ نَكِرَةٌ: مُبْهَمًا أَمْرُهُ نَاظِرَةٌ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى غَايَةِ الِاعْتِدَادِ وَالِارْتِضَاءِ لِمَا فَعَلَ الَّذِينَ وَقَّرُوا رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– مِنْ خَفْضِ أَصْوَاتِهِمْ، وَفِي الْإِعْلَامِ بِمَبْلَغِ عِزَّةِ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَقَدْرِ شَرَفِ مَنْزِلَتِهِ، وَفِيهَا تَعْرِيضٌ بِعَظِيمِ مَا ارْتَكَبَ الرَّافِعُونَ أَصْوَاتَهُمْ وَاسْتِيجَابَهُمْ ضِدَّ مَا اسْتَوْجَبَ هَؤُلَاءِ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1]

وَالْوَرَاءُ: الْجِهَةُ الَّتِي يُوَارِيهَا عَنْكَ الشَّخْصُ بِظِلِّهِ مِنْ خَلْفٍ أَوْ قُدَّامٍ.

---

[1] سورة ، الآية .

وَ﴿مَنْ﴾[1] لِابْتِدَاءِ الْغَايَةِ، وَأَنَّ الْمُنَادَاةَ نَشَأَتْ مِنْ ذَلِكَ الْمَكَانِ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَرْقٌ بَيْنَ الْكَلَامَيْنِ بَيْنَ مَا تَثْبُتُ فيهِ وَمَا تَسْقُطُ عَنْهُ.

قُلْتُ: الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا أَنَّ الْمُنَادِي وَالْمُنَادَى في أَحَدِهِمَا يَجُوزُ أَنْ يَجْمَعَهُمَا الْوَرَاءُ، وَفى الثَّانِي: لَا يَجُوزُ لِأَنَّ الْوَرَاءَ تَصِيرُ بِدُخُولِ مِنْ مُبْتَدَأَ الْغَايَةِ.

وَلَا يَجْتَمِعُ عَلَى الْجِهَةِ الْوَاحِدَةِ أَنْ تَكُونَ مُبْتَدَأً وَمُنْتَهًى لِفِعْلٍ وَاحِدٍ، وَالَّذِي يَقُولُ: نَادَانِي فُلَانٌ مِنْ وَرَاءِ الدَّارِ. لَا يُرِيدُ وَجْهَ الدَّارِ وَلَا دُبُرَهَا، وَلَكِنْ أَيَّ قُطْرٍ مِنْ أَقْطَارِهَا الظَّاهِرَةِ كَانَ مُطْلَقًا بِغَيْرِ تَعْيِينٍ وَاخْتِصَاصٍ، وَالْإِنْكَارُ لَمْ يَتَوَجَّهْ عَلَيْهِمْ مِنْ قِبَلِ أَنَّ النِّدَاءَ وَقَعَ مِنْهُمْ في أَدْبَارِ الْحُجُرَاتِ أَوْ في وُجُوهِهَا، وَإِنَّمَا أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ نَادَوْهُ مِنَ الْبَرِّ وَالْخَارِجِ مُنَادَاةَ الْأَجْلَافِ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ، مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ إِلَى جِهَةٍ دُونِ جِهَةٍ.

وَالْحُجْرَةُ: الرُّقْعَةُ وَالْخَارِجُ مُنَادَاةُ الْأَجْلَافِ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ، مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ إِلَى جِهَةٍ دُونِ جِهَةٍ.

وَالْحُجْرَةُ: الرُّقْعَةُ مِنَ الْأَرْضِ الْمَحْجُورَة بِحَائِطٍ يُحَوِّطُ عَلَيْهَا، وَحَظِيرَةُ الْإِبِلِ تُسَمَّى الْحُجْرَةَ، وَهِيَ فِعْلَةٌ بِمَعْنَى مُفَعْوِلَةٍ، كَالْغُرْفَةِ وَالْقَبْضَةِ، وَجَمْعُهَا: الْحُجُرَاتُ بِضَمَّتَيْنِ، وَالْحُجَرَاتُ بِفَتْحِ الْجِيمِ، وَالْحُجْرَاتُ بِتَسْكِينِهَا.

وَقُرِئَ بِهِنَّ جَمِيعًا، وَالْمُرَادُ: حُجُرَاتُ نِسَاءِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَانَتْ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُنَّ حُجْرَةٌ. وَمُنَادَاتُهُمْ مِنْ وَرَائِهَا يُحْتَمَلُ أَنَّهُمْ قَدْ تَفَرَّقُوا عَلَى الْحُجُرَاتِ مُتَطَلِّبِينَ لَهُ، فَنَادَاهُ بَعْضُ مِنْ وَرَاءِ هَذِهِ، وَبَعْضٌ مِنْ وَرَاءِ تِلْكَ، وَأَنَّهُمْ قَدْ أَتَوْهَا حُجْرَةً حُجْرَةً فَنَادَوْهُ مِنْ وَرَائِهَا، وَأَنَّهُمْ نَادَوْهُ مِنْ وَرَاءِ الْحُجْرَةِ الَّتِي كَانَ فيها، وَلَكِنَّهَا جُمِعَتْ إِجْلَالًا لِرَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَلِمَكَانِ حُرْمَتِهِ.

وَالْفِعْلُ، وَإِنْ كَانَ مُسْنَدًا إِلَى جَمِيعِهِمْ فَإِنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَتَوَلَّاهُ بَعْضُهُمْ، وَكَانَ الْبَاقُونَ رَاضِينَ، فَكَأَنَّهُمْ تَوَلَّوْهُ جَمِيعًا، فَقَدْ ذَكَرَ الْأَصَمُّ: أَنَّ الَّذِي نَادَاهُ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ وَالْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ.

وَالْإِخْبَارُ عَنْ أَكْثَرِهِمْ بِأَنَّهُمْ لَا يَعْقِلُونَ: يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ فيهِمْ مَنْ قُصِدَ بِالْمُحَاشَاةِ.

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْحُكْمُ بِقِلَّةِ الْعُقَلَاءِ فيهِمْ قَصْدًا إِلَى نَفى أَنْ يَكُونَ فيهِمْ مِنْ يَعْقِلُ، فَإِنَّ الْقِلَّةَ تَقَعُ مَوْقِعَ النَّفي في كَلَامِهِمْ.

---

[1] سورة ، الآية .

وَرُوِيَ :أَنَّ وَفْدَ بَنِي تَمِيمٍ أَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَقْتَ الظَّهِيرَةِ، وَهُوَ رَاقِدٌ، فَجَعَلُوا يُنَادُونَهُ :مُحَمَّدُ اخْرُجْ إِلَيْنَا، فَاسْتَيْقَظَ فَخَرَجَ وَنَزَلَتْ: وَسُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– عَنْهُمْ، فَقَالَ: "هُمْ جُفَاةُ بَنِي تَمِيمٍ، لَوْلَا أَنَّهُمْ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ قِتَالًا لِلْأَعْوَرِ الدَّجَّالِ لَدَعَوْتُ اللَّهَ عَلَيْهِمْ أَنْ يُهْلِكَهُمْ".

فَوُرُودُ الْآيَةِ عَلَى النَّمَطِ الَّذِي وَرَدَتْ عَلَيْهِ فِيهِ مَا لَا يَخْفى عَلَى النَّاظِرِ: مِنْ بَيِّنَاتِ إِكْبَارِ مَحَلِّ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَإِجْلَالِهِ: مِنْهَا مَجِيئُهَا عَلَى النَّظْمِ الْمُسَجَّلِ عَلَى الصَّائِحِينَ بِهِ بِالسَّفَهِ وَالْجَهْلِ، لَمَّا أَقْدَمُوا عَلَيْهِ. وَمِنْهَا لَفْظُ الْحُجُرَاتِ وَإِيقَاعُهَا كِنَايَةً عَنْ مَوْضِعِ خَلْوَتِهِ. وَمَقِيلُهُ مَعَ بَعْضِ نِسَائِهِ. وَمِنْهَا: الْمُرُورُ عَلَى لَفْظِهَا بِالِاقْتِصَارِ عَلَى الْقَدْرِ الَّذِي تَبَيَّنَ بِهِ مَا اسْتَنْكَرَ عَلَيْهِمْ. وَمِنْهَا: التَّعْرِيفُ بِاللَّامِ دُونَ الْإِضَافَةِ. وَمِنْهَا: أَنْ شَفَعَ ذَمُّهُمْ بِاسْتِجْفَائِهِمْ وَاسْتِرْكَاكِ عُقُولِهِمْ وَقِلَّةِ ضَبْطِهِمْ لِمَوَاضِعِ التَّمْيِيزِ فِي الْمُخَاطَبَاتِ، تَهْوِينًا لِلْخُطْبِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، وَتَسْلِيَةً لَهُ، وَإِمَاطَةً لِمَا تُدَاخِلُهُ مِنْ إِيحَاشِ تَعَجْرُفِهِمْ وَسُوءِ أَدَبِهِمْ، وَهَلُمَّ جَرًّا، مِنْ أَوَّلِ السُّورَةِ إِلَى آخِرِهَا هَذِهِ الْآيَةُ، فَتَأَمَّلْ كَيْفَ ابْتُدِئَ بِإِيجَابِ أَنْ تَكُونَ الْأُمُورُ الَّتِي تَنْتَمِي إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ مُتَقَدِّمَةً عَلَى الْأُمُورِ كُلِّهَا مِنْ غَيْرِ حَصْرٍ وَلَا تَقْيِيدٍ، ثُمَّ أَرْدَفَ ذَلِكَ النَّهْيَ عَمَّا هُوَ مِنْ جِنْسِ التَّقْدِيمِ مِنْ رَفْعِ الصَّوْتِ وَالْجَهْرِ. كَأَنَّ الْأَوَّلَ بِسَاطٌ لِلثَّانِي وَوَطْأَةٌ لِذِكْرِهِ مَا هُوَ ثَنَاءٌ عَلَى الَّذِينَ تَحَامَوْا ذَلِكَ فَغَضُّوا أَصْوَاتَهُمْ، دَلَالَةٌ عَلَى عَظِيمِ مَوْقِعِهِ عِنْدَ اللَّهِ، ثُمَّ جِيءَ عَلَى عَقِبِ ذَلِكَ بِمَا هُوَ أَطَمُّ وَهَجَّنَتْهُ أَتَمُّ: مِنَ الصِّيَاحِ بِرَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فِي حَالِ خَلْوَتِهِ بِبَعْضِ حُرُمَاتِهِ مِنْ وَرَاءِ الْجُدُرِ، كَمَا يُصَاحُ بِأَهْوَنِ النَّاسِ قَدْرًا، لِيُنَبِّهَ عَلَى فَظَاعَةِ مَنْ أَجْرَوْا إِلَيْهِ وَجَسَرُوا عَلَيْهِ، لِأَنَّ مَنْ رَفَعَ اللَّهَ قَدْرَهُ عَلَى أَنْ يَجْهَرَ لَهُ بِالْقَوْلِ حَتَّى خَاطَبَهُ جُلَّةُ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ بِأَخِي السَّرَارِ، كَانَ صَنِيعُ هَؤُلَاءِ مِنَ الْمُنْكَرِ الَّذِي بَلَغَ مِنَ التَّفَاحُشِ مَبْلَغًا.

وَمِنْ هَذَا وَأَمْثَالِهِ يَقْتَطِفُ ثَمَرَ الْأَلْبَابِ وَتَقْتَبِسُ مَحَاسِنَ الْآدَابِ، كَمَا يُحْكَى عَنْ أَبِي عُبَيْدٍ –وَمَكَانُهُ مِنَ الْعِلْمِ وَالزُّهْدِ وَثِقَةُ الرِّوَايَةِ مَا لَا يَخْفى– أَنَّهُ قَالَ: مَا دَقَقْتُ بَابًا عَلَى عَالِمٍ قَطُّ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ وَقْتِ خُرُوجِهِ.

﴿أَنَّهُمْ صَبَرُوا﴾[1] فِي مَوْضِعِ الرَّفْعِ عَلَى الْفَاعِلِيَّةِ، لِأَنَّ الْمَعْنَى: وَلَوْ ثَبَتَ صَبْرُهُمْ. وَالصَّبْرُ: حَبْسُ النَّفْسِ عَنْ أَنْ تُنَازِعَ إِلَى هَوَاهَا.

---

[1] سورة ، الآية .

قَالَ اللَّهُ –تَعَالَى–: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾[1]الْكَهْفُ: 288]، وَقَوْلُهُمْ: صَبَرَ عَنْ كَذَا، مَحْذُوفٌ مِنْهُ الْمَفْعُولُ، وَهُوَ النَّفْسُ، وَهُوَ حَبْسٌ فِيهِ شِدَّةٌ وَمَشَقَّةٌ عَلَى الْمَحْبُوسِ، فَلِهَذَا قِيلَ لِلْحَبْسِ عَلَى الْيَمِينِ أَوِ الْقَتْلِ: صَبْرٌ. وَفِي كَلَامِ بَعْضِهِمُ: الصَّبْرُ مُرٌّ لَا يَتَجَرَّعُهُ إِلَّا حُرٌّ.

فَإِنْ قُلْتَ: هَلْ مِنْ فَرْقٍ بَيْنَ ﴿حَتَّى تَخْرُجَ﴾[2] وَإِلَى أَنْ تَخْرُجَ؟

قُلْتُ: إِنَّ ﴿حَتَّى﴾[3] مُخْتَصَّةٌ بِالْغَايَةِ الْمَضْرُوبَةِ. تَقُولُ: أَكَلْتُ السَّمَكَةَ حَتَّى رَأْسَهَا، وَلَوْ قُلْتَ: حَتَّى نِصْفَهَا، أَوْ صَدْرَهَا: لَمْ يَجُزْ، وَ"إِلَى" عَامَّةٌ فِي كُلِّ غَايَةٍ، فَقَدْ أَفَادَتْ ﴿حَتَّى﴾[4] بِوَضْعِهَا: أَنَّ خُرُوجَ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– إِلَيْهِمْ غَايَةٌ قَدْ ضُرِبَتْ لِصَبْرِهِمْ، فَمَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَقْطَعُوا أَمْرًا دُونَ الِانْتِهَاءِ إِلَيْهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَأَيُّ فَائِدَةٍ فِي قَوْلِهِ: "إِلَيْهِمْ"؟

قُلْتُ: فِيهِ أَنَّهُ لَوْ خَرَجَ وَلَمْ يَكُنْ خُرُوجُهُ إِلَيْهِمْ وَلِأَجْلِهِمْ، لَلَزِمَهُمْ أَنْ يَصْبِرُوا إِلَى أَنْ يَعْلَمُوا أَنَّ خُرُوجَهُ إِلَيْهِمْ.

﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾[5] فِي "كَانَ" إِمَّا ضَمِيرُ فَاعِلِ الْفِعْلِ الْمُضْمَرِ بَعْدَ لَوْ، وَإِمَّا ضَمِيرُ مَصْدَرِ "صَبَرُواْ"، كَقَوْلِهِمْ: مَنْ كَذَبَ كَانَ شَرًّا لَهُ.

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[6]: بَلِيغُ الْغُفْرَانِ وَالرَّحْمَةِ وَاسِعُهُمَا، فَلَنْ يَضِيقَ غُفْرَانُهُ وَرَحْمَتُهُ عَنْ هَؤُلَاءِ إِنْ تَابُوا وَأَنَابُوا.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .

﴿وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ فَضْلا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[1]

بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– الْوَلِيدَ بْنَ عُقْبَةَ أَخَا عُثْمَانَ لِأُمِّهِ –وَهُوَ الَّذِي وَلَّاهُ عُثْمَانُ الْكُوفَةَ بَعْدَ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، فَصَلَّى بِالنَّاسِ، وَهُوَ سَكْرَانُ صَلَاةَ الْفَجْرِ أَرْبَعًا، ثُمَّ قَالَ: هَلْ أَزِيدُكُمْ، فَعَزَلَهُ عُثْمَانُ عَنْهُمْ– مُصَدِّقًا إِلَى بَنِي الْمُصْطَلِقِ، وَكَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ إِحْنَةٌ، فَلَمَّا شَارَفَ دِيَارَهُمْ رَكِبُوا مُسْتَقْبِلِينَ لَهُ، فَحَسِبَهُمْ مُقَاتِلِيهِ، فَرَجَعَ وَقَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: قَدِ ارْتَدُّوا وَمَنَعُوا الزَّكَاةَ، فَغَضِبَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَهَمَّ أَنْ يَغْزُوَهُمْ. فَبَلَغَ الْقَوْمُ فَوَرَدُوا وَقَالُوا: نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ غَضَبِهِ وَغَضَبِ رَسُولِهِ، فَاتَّهَمَهُمْ فَقَالَ: "لَتَنْتَهُنَّ أَوْ لَأَبْعَثَنَّ إِلَيْكُمْ رَجُلًا هُوَ عِنْدِي كَنَفْسِي يُقَاتِلُ مُقَاتَلَتَكُمْ وَيَسْبِي ذَرَارِيكُمْ، ثُمَّ ضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى كَتِفِ عَلِيٍّ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–".

وَقِيلَ: بَعَثَ إِلَيْهِمْ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ فَوَجَدَهُمْ مُنَادِينَ بِالصَّلَوَاتِ مُتَهَجِّدِينَ، فَسَلَّمُوا إِلَيْهِ الصَّدَقَاتِ، فَرَجَعَ .وَفِي تَنْكِيرِ الْفَاسِقِ وَالنَّبَأِ: شِيَاعٌ فِي الْفُسَّاقِ وَالْأَنْبَاءِ، كَأَنَّهُ قَالَ: أَيُّ فَاسِقٍ جَاءَكُمْ بِأَيِّ نَبَأٍ. فَتَوَقَّفُوا فِيهِ وَتَطَلَّبُوا بَيَانَ الْأَمْرِ وَانْكِشَافَ الْحَقِيقَةِ، وَلَا تَعْتَمِدُوا قَوْلَ الْفَاسِقِ، لِأَنَّ مَنْ لَا يَتَحَامَى جِنْسَ الْفُسُوقِ لَا يَتَحَامَى الْكَذِبَ الَّذِي هُوَ نَوْعٌ مِنْهُ.

وَالْفُسُوقُ: الْخُرُوجُ مِنَ الشَّيْءِ وَالِانْسِلَاخُ مِنْهُ. يُقَالُ: فَسَقَتِ الرُّطَبَةُ عَنْ قِشْرِهَا. وَمِنْ مَقْلُوبِهِ: فَقَسَتِ الْبَيْضَةُ، إِذَا كَسَرَتْهَا وَأَخْرَجَتْ مَا فِيهَا.

وَمِنْ مَقْلُوبِهِ أَيْضًا: قَفَسْتُ الشَّيْءَ إِذَا أَخْرَجْتُهُ عَنْ يَدِ مَالِكِهِ مُغْتَصِبًا لَهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ اسْتُعْمِلَ فِي الْخُرُوجِ عَنِ الْقَصْدِ وَالِانْسِلَاخِ مِنَ الْحَقِّ.

قَالَ رُؤْبَةُ:

فَوَاسِقًا عَنْ قَصْدِهَا جَوَائِـــــــــــرَا

وَقَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ: (فَتَثَبَّتُوا) وَالتَّثَبُّتُ وَالتَّبَيُّنُ: مُتَقَارِبَانِ، وَهُمَا طَلَبُ الثَّبَاتِ وَالْبَيَانِ وَالتَّعَرُّفِ.

وَلَمَّا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ– وَالَّذِينَ مَعَهُ بِالْمَنْزِلَةِ الَّتِي لَا يَجْسُرُ أَحَدٌ أَنْ يُخْبِرَهُمْ بِكَذِبٍ، وَمَا كَانَ يَقَعُ مِثْلَ مَا فَرَّطَ مِنَ الْوَلِيدِ إِلَّا فِي النُّدْرَةِ.

---

[1] سورة ، الآية .

قِيلَ: إِنْ جَاءَكُمْ بِحَرْفِ الشَّكِّ وَفِيهِ أَنَّ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَكُونُوا عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ، لِئَلَّا يَطْمَعُ فَاسِقٌ فِي مُخَاطَبَتِهِمْ بِكَلِمَةِ زُورٍ.

﴿أَنْ تُصِيبُوا﴾[1] مَفْعُولٌ لَهُ، أَيْ: كَرَاهَةَ إِصَابَتِكُمْ، ﴿قَوْمًا بِجَهَالَةٍ﴾[2] حَالٌ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ﴾[3]]الْأَحْزَابُ: 255] يَعْنِي جَاهِلِينَ بِحَقِيقَةِ الْأَمْرِ وَكُنْهِ الْقِصَّةِ. وَالْإِصْبَاحُ: بِمَعْنَى الصَّيْرُورَةِ.

وَالنَّدَمُ: ضَرْبٌ مِنَ الْغَمِّ، وَهُوَ: أَنْ تَغْتَمَّ عَلَى مَا وَقَعَ مِنْكَ تَتَمَنَّى أَنَّهُ لَمْ يَقَعْ، وَهُوَ غَمٌّ يَصْحَبُ الْإِنْسَانَ صُحْبَةً لَهَا دَوَامٌ وَلِزَامٌ، لِأَنَّهُ كُلَّمَا تَذَكَّرَ الْمُتَنَدِّمُ عَلَيْهِ رَاجَعَهُ مِنَ النِّدَامِ: وَهُوَ لِزَامُ الشِّرِّيبِ وَدَوَامُ صُحْبَتِهِ.

وَمِنْ مَقْلُوبَاتِهِ: أَدْمَنَ الْأَمْرَ أَدَامَهُ. وَمَدَّنَ بِالْمَكَانِ: أَقَامَ بِهِ. وَمِنْهُ: الْمَدِينَةُ وَقَدْ تَرَاهُمْ يَجْعَلُونَ الْهَمَّ صَاحِبًا وَنَجِيًّا وَسَمِيرًا وَضَجِيعًا، وَمَوْصُوفًا بِأَنَّهُ لَا يُفَارِقُ صَاحِبَهُ. الْجُمْلَةُ الْمُصَدَّرَةُ بِلَوْلَا تَكُونُ كَلَامًا مُسْتَأْنَفًا، لِأَدَائِهِ إِلَى تَنَافُرِ النُّظُمِ، وَلَكِنْ مُتَّصِلًا بِمَا قَبْلَهُ حَالًا مِنْ أَحَدِ الضَّمِيرَيْنِ فِي فِيكُمُ الْمُسْتَتِرِ الْمَرْفُوعِ، أَوِ الْبَارِزِ الْمَجْرُورِ. وَكِلَاهُمَا مَذْهَبٌ سَدِيدٌ.

وَالْمَعْنَى: أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ عَلَى حَالَةٍ يَجِبُ عَلَيْكُمْ تَغْيِيرُهَا، أَوْ أَنْتُمْ عَلَى حَالَةٍ يَجِبُ عَلَيْكُمْ تَغْيِيرُهَا: وَهِيَ أَنَّكُمْ تُحَاوِلُونَ مِنْهُ أَنْ يَعْمَلَ فِي الْحَوَادِثِ عَلَى مُقْتَضَى مَا يَعِنُّ لَكُمْ مَنْ رَأَى، وَاسْتِصْوَابُ فِعْلِ الْمِطْوَاعِ لِغَيْرِهِ التَّابِعِ لَهُ فِيمَا يَرْتَئِيهِ، الْمُحْتَذَى عَلَى أَمْثِلَتِهِ، وَلَوْ فَعَلَ ذَلِكَ "لَعَنِتُّمْ" أَيْ لَوَقَعْتُمْ فِي الْعَنَتِ وَالْهَلَاكِ. يُقَالُ: فُلَانٌ يَتَعَنَّتُ فُلَانًا، أَيْ: يَطْلُبُ مَا يُؤَدِّيهِ إِلَى الْهَلَاكِ. وَقَدْ أَعَنْتَ الْعَظْمَ: إِذَا هِيضَ بَعْدَ الْجَبْرِ.

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ بَعْضَ الْمُؤْمِنِينَ زَيَّنُوا لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْإِيقَاعَ بِبَنِي الْمُصْطَلِقِ وَتَصْدِيقِ قَوْلِ الْوَلِيدِ. وَأَنَّ نَظَائِرَ ذَلِكَ مِنَ الْهِنَاتِ كَانَتْ تُفَرَّطُ مِنْهُمْ، وَأَنْ بَعْضَهُمْ كَانُوا يَتَصَوَّنُونَ وَيَزَعُهُمْ جِدُّهُمْ فِي التَّقْوَى عَنِ الْجَسَارَةِ عَلَى ذَلِكَ، وَهُمُ الَّذِينَ اسْتَثْنَاهُمْ بِقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ﴾[4]، أَيْ إِلَى بَعْضِكُمْ، وَلَكِنَّهُ أَغْنَتْ عَنْ ذِكْرِ الْبَعْضِ: صِفَتُهُمُ الْمُفَارِقَةُ لِصِفَةِ غَيْرِهِمْ، وَهَذَا مِنْ إِيجَازَاتِ الْقُرْآنِ وَلَمَحَاتِهِ

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

اللَّطِيفَةِ، الَّتِي لَا يَفْطَنُ لَهَا إِلَّا الْخَوَاصُّ. وَعَنْ بَعْضِ الْمُفَسِّرِينَ: هُمُ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى.

وَقَوْلُهُ: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾[1]، وَالْخِطَابُ لِرَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، أَيْ: أُولَئِكَ الْمُسْتَثْنَوْنَ هُمُ الرَّاشِدُونَ بِصِدْقِ مَا قُلْتَهُ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا فَائِدَةُ تَقْدِيمِ خَبَرِ إِنَّ عَلَى اسْمِهَا؟

قُلْتُ: الْقَصْدُ إِلَى تَوْبِيخِ بَعْضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا اسْتَهْجَنَ اللَّهُ مِنْهُمْ مَنِ اسْتِتْبَاعِ رَأْيِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِآرَائِهِمْ، فَوَجَبَ تَقْدِيمُهُ لِانْصِبَابِ الْغَرَضِ إِلَيْهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَلِمَ قِيلَ ﴿يُطِيعُكُمْ﴾[2] دُونَ: أَطَاعَكُمْ؟

قُلْتُ: لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّهُ كَانَ فِي إِرَادَتِهِمُ اسْتِمْرَارُ عَمَلِهِ عَلَى مَا يَسْتَصْوِبُونَهُ. وَأَنَّهُ كُلَّمَا عَنَّ لَهُمْ رَأْيٌ فِي أَمْرٍ كَانَ مَعْمُولًا عَلَيْهِ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: ﴿فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ﴾[3]، كَقَوْلِكَ: فُلَانٌ يَقْرِي الضَّيْفَ وَيَحْمِي الْحَرِيمَ، تُرِيدُ: أَنَّهُ مِمَّا اعْتَادَهُ وَوُجِدَ مِنْهُ مُسْتَمِرًّا.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ مَوْقِعُ ﴿وَلَكِنَّ﴾[4] وَشَرِيطَتُهَا مَفْقُودَةٌ مِنْ مُخَالَفَةِ مَا بَعْدَهَا لِمَا قَبْلَهَا نَفيا وَإِثْبَاتًا؟

قُلْتُ: هِيَ مَفْقُودَةٌ مِنْ حَيْثُ اللَّفْظِ، حَاصِلَةٌ مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى، لِأَنَّ الَّذِينَ حُبِّبَ إِلَيْهِمُ الْإِيمَانُ قَدْ غَايَرَتْ صِفَتُهُمْ صِفَةَ الْمُتَقَدِّمِ ذِكْرُهُمْ، فَوَقَعَتْ، لَكِنَّ فِي حَاقِ مَوْقِعَهَا مِنَ الِاسْتِدْرَاكِ.

وَمَعْنَى تَحْبِيبُ اللَّهِ وَتَكْرِيهُهُ لِلُطْفِ وَالْإِمْدَادِ بِالتَّوْفِيقِ، وَسَبِيلُهُ الْكِتَابَةُ كَمَا سَبَقَ، وَكُلُّ ذِي لُبٍّ وَرَاجِعٍ إِلَى بَصِيرَةٍ وَذِهْنٍ لَا يَغْبَى عَلَيْهِ أَنَّ الرَّجُلَ لَا يُمْدَحُ بِغَيْرِ فِعْلِهِ، وَحَمْلُ الْآيَةِ عَلَى ظَاهِرِهَا يُؤَدِّي إِلَى أَنْ يُثْنِيَ عَلَيْهِمْ بِفِعْلِ اللَّهِ، وَقَدْ نَفى اللَّهُ هَذَا عَنِ الَّذِينَ أُنْزِلَ فِيهِمْ ﴿وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾[5]]آلُ عِمْرَانَ : 1888]

فَإِنْ قُلْتَ: فَإِنَّ الْعَرَبَ تُمْدَحُ بِالْجَمَالِ وَحُسْنِ الْوُجُوهِ، وَذَلِكَ فِعْلُ اللَّهِ، وَهُوَ مَدْحٌ مَقْبُولٌ عِنْدَ النَّاسِ غَيْرُ مَرْدُودٍ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

قُلْتُ: الَّذِي سَوَّغَ ذَلِكَ لَهُمْ أَنَّهُمْ رَأَوْا حَسَنَ الرِّوَاءِ وَوَسَامَةَ الْمَنْظَرِ فِي الْغَالِبِ، يُسْفِرُ عَنْ مَخْبَرٍ مَرْضَى وَأَخْلَاقٍ مَحْمُودَةٍ، وَمِنْ ثَمَّ قَالُوا: أَحْسَنُ مَا فِي الدَّمِيمِ وَجْهُهُ، فَلَمْ يَجْعَلُوهُ مِنْ صِفَاتِ الْمَدْحِ لِذَاتِهِ، وَلَكِنْ لِدَلَالَتِهِ عَلَى غَيْرِهِ، عَلَى أَنَّ مِنْ مُحَقَّقَةُ الثِّقَاتِ وَعُلَمَاءُ الْمَعَانِي مِنْ دَفْعِ صِحَّةِ ذَلِكَ وَخَطَأِ الْمَادِحِ بِهِ، وَقَصْرِ الْمَدْحِ عَلَى النَّعْتِ بِأُمَّهَاتِ الْخَيْرِ: وَهِيَ الْفَصَاحَةُ وَالشَّجَاعَةُ وَالْعَدْلُ وَالْعِفَّةُ، وَمَا يَتَشَعَّبُ مِنْهَا وَيَرْجِعُ إِلَيْهَا، وَجَعْلُ الْوَصْفِ بِالْجِمَالِ وَالثَّرْوَةِ وَكَثْرَةِ الْحِفْدَةِ وَالْأَعْضَادِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ فِيهِ عَمَلٌ غَلَطًا وَمُخَالَفَةً عَنِ الْمَعْقُولِ.

وَ﴿الْكُفْرِ﴾[1]: تَغْطِيَةُ نِعَمِ اللَّهِ –تَعَالَى– وَغَمْطِهَا بِالْجُحُودِ.

وَ﴿الْفُسُوقُ﴾[2]: الْخُرُوجُ عَنْ قَصْدِ الْإِيمَانِ وَمَحَجَّتِهِ بِرُكُوبِ الْكَبَائِرِ.

﴿وَالْعِصْيَانَ﴾[3]: تَرْكُ الِانْقِيَادِ وَالْمُضِيِّ لِمَا أَمَرَ بِهِ الشَّارِعُ. وَالْعَرَقُ الْعَاصِي: الْعَانِدُ. وَاعْتَصَتِ النَّوَاةُ: اشْتَدَّتْ.

وَالرُّشْدُ: الِاسْتِقَامَةُ عَلَى طَرِيقِ الْحَقِّ مَعَ تَصَلُّبٍ فِيهِ مِنَ الرَّشَادَةِ وَهِيَ الصَّخْرَةُ.

قَالَ أَبُو الْوَازِعِ: كُلُّ صَخْرَةٍ وَشَادَّةٍ، وَأَنْشَدَ:

وَغَيْرُ مُقَلَّدٍ وَمُوَشَّمَاتٍ صَلَيْنَ الضَّوْءَ مِنْ صُمِّ الرَّشَادِ

وَ﴿فَضْلًا﴾[4] مَفْعُولٌ لَهُ، أَوْ مَصْدَرٌ مِنْ غَيْرِ فِعْلِهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: مِنْ أَيْنَ جَازَ وُقُوعُهُ مَفْعُولًا لَهُ، وَالرُّشْدُ فِعْلُ الْقَوْمِ، وَالْفَضْلُ فِعْلُ اللَّهِ –تَعَالَى–، وَالشَّرْطُ أَنْ يَتَّحِدَ الْفَاعِلُ.

قُلْتُ: لَمَّا وَقَعَ الرُّشْدُ عِبَارَةً عَنِ التَّحْبِيبِ وَالتَّزْيِينِ وَالتَّكْرِيهِ، مُسْنَدَةً إِلَى اسْمِهِ تَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ: صَارَ الرُّشْدُ كَأَنَّهُ فِعْلُهُ، فَجَازَ أَنْ يَنْتَصِبَ عَنْهُ أَوْ لَا يَنْتَصِبَ عَنِ الرَّاشِدُونَ، وَلَكِنْ عَنِ الْفِعْلِ الْمُسْنَدِ إِلَى اسْمِ اللَّهِ –تَعَالَى–، وَالْجُمْلَةُ الَّتِي هِيَ ﴿أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾[5] اعْتِرَاضٌ، أَوْ عَنْ فِعْلٍ مُقَدَّرٍ، كَأَنَّهُ قِيلَ: جَرَى ذَلِكَ، أَوْ كَانَ ذَلِكَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

وَأَمَّا كَوْنُهُ مَصْدَرًا مِنْ غَيْرِ فِعْلِهِ، فَأَنْ يُوضَعَ مَوْضِعَ ﴿رُشْدًا﴾[1]، لِأَنَّ رُشْدَهُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لِكَوْنِهِمْ مُوَفَّقِينَ فِيهِ، وَالْفَضْلُ وَالنِّعْمَةِ بِمَعْنَى الْإِفْضَالِ وَالْإِنْعَامِ.

﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾[2] بِأَحْوَالِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَا بَيْنَهُمْ مِنَ التَّمَايُزِ وَالتَّفَاضُلِ "حَكِيمٌ" حِينَ يُفْضِلُ وَيُنْعِمُ بِالتَّوْفِيقِ عَلَى أَفَاضِلِهِمْ.

﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[3]

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا– قَالَ: وَقَفَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– عَلَى مَجْلِسٍ بَعْضِ الْأَنْصَارِ وَهُوَ عَلَى حِمَارٍ فَبَالَ الْحِمَارُ، فَأَمْسَكَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ بِأَنْفِهِ وَقَالَ: خَلِّ سَبِيلَ حِمَارِكَ فَقَدْ آذَانَا نَتْنُهُ. فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ: وَاللَّهِ إِنَّ بَوْلَ حِمَارِهِ لَأَطْيَبُ مِنْ مِسْكِكَ وَرَوَى :حِمَارُهُ أَفْضَلُ مِنْكَ، وَبَوْلُ حِمَارِهِ أَطْيَبُ مِنْ مِسْكِكَ، وَمَضَى رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَطَالَ الْخَوْضُ بَيْنَهُمَا حَتَّى اسْتَبَّا وَتَجَالَدَا، وَجَاءَ قَوْمَاهُمَا وَهُمَا الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ، فَتَجَالَدُوا بِالْعِصِيِّ، وَقِيلَ: بِالْأَيْدِي وَالنِّعَالِ وَالسَّعَفِ، فَرَجَعَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ، وَنَزَلَتْ. وَعَنْ مُقَاتِلٍ: قَرَأَهَا عَلَيْهِمْ فَاصْطَلَحُوا.

وَالْبَغْيُ: الِاسْتِطَالَةُ وَالظُّلْمُ وَإِبَاءُ الصُّلْحِ. وَالْفَيْءُ: الرُّجُوعُ، وَقَدْ سُمِّيَ بِهِ الظِّلُّ وَالْغَنِيمَةُ، لِأَنَّ الظِّلَّ يَرْجِعُ بَعْدَ نَسْخِ الشَّمْسِ، وَالْغَنِيمَةُ: مَا يَرْجِعُ مِنْ أَمْوَالِ الْكُفَّارِ إِلَى الْمُسْلِمِينَ.

وَعَنْ أَبِي عَمْرٍو: (حَتَّى تَفي) بِغَيْرِ هَمْزٍ. وَوَجْهُهُ: أَنَّ أَبَا عَمْرٍو خَفَّفَ الْأُولَى مِنَ الْهَمْزَتَيْنِ الْمُلْتَقِيَتَيْنِ فَلَطَفَتْ عَلَى الرَّاوِي تِلْكَ الْخِلْسَةُ فَظَنَّهُ قَدْ طَرَحَهَا.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا وَجْهُ قَوْلِهِ: "اقْتَتَلُواْ" وَالْقِيَاسُ اقْتَتَلَتَا، كَمَا قَرَأَ ابْنُ أَبِي عَبْلَةَ: (اقْتَتَلَا) كَمَا قَرَأَ عُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ عَلَى تَأْوِيلِ الرَّهْطَيْنِ أَوِ النَّفَرَيْنِ؟

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

قُلْتُ: هُوَ مِمَّا حُمِلَ عَلَى الْمَعْنَى دُونَ اللَّفْظِ، لِأَنَّ الطَّائِفَتَيْنِ فِي مَعْنَى الْقَوْمِ وَالنَّاسِ. وَفِي قِرَاءَةِ عَبْدِ اللَّهِ: (حَتَّى يَفيئُوا إِلَى أَمْرِ اللَّهِ)، فَإِنْ فَاءُوا فَخُذُوا بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ. وَحُكْمُ الْفِئَةِ الْبَاغِيَةِ: وُجُوبُ قِتَالِهَا مَا قَاتَلَتْ.

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ: مَا وَجَدْتُ فِي نَفْسِي مِنْ شَيْءٍ مَا وَجَدْتُهُ مِنْ أَمْرِ هَذِهِ الْآيَةِ إِنْ لَمْ أُقَاتِلْ هَذِهِ الْفِئَةَ الْبَاغِيَةَ كَمَا أَمَرَنِي اللَّهُ –عَزَّ وَجَلَّ–. قَالَهُ بَعْدَ أَنِ اعْتَزَلَ، فَإِذَا كَافَّتْ وَقَبَضَتْ عَنِ الْحَرْبِ أَيْدِيَهَا تُرِكَتْ، وَإِذَا تَوَلَّتْ عَمِلَ بِمَا رَوَى عَنِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أَنَّهُ قَالَ: "يَا ابْنَ أُمِّ عَبْدٍ، هَلْ تَدْرِي كَيْفَ حُكْمُ اللَّهِ فِيمَنْ بَغَى مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ؟ قَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: لَا يُجْهَزُ عَلَى جَرِيحِهَا، وَلَا يُقْتَلُ أَسِيرُهَا، وَلَا يُطْلَبُ هَارِبُهَا وَلَا يُقْسِمُ فيؤُهَا".

وَلَا تَخْلُوَا الْفِئَتَانِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي اقْتِتَالِهِمَا: إِمَّا أَنْ يَقْتَتِلَا عَلَى سَبِيلِ الْبَغْيِ مِنْهُمَا جَمِيعًا، فَالْوَاجِبُ فِي ذَلِكَ أَنْ يَمْشِيَ بَيْنَهُمَا بِمَا يُصْلِحُ ذَاتَ الْبَيْنِ وَيُثْمِرُ الْمُكَافَّةَ وَالْمُوَادَعَةَ، فَإِنْ لَمْ تَتَحَاجَزَا وَلَمْ تَصْطَلِحَا وَأَقَامَتَا عَلَى الْبَغْيِ: صُيِّرَ إِلَى مُقَاتَلَتِهِمَا، وَإِمَّا أَنْ يَلْتَحِمَ بَيْنَهُمَا الْقِتَالُ لِشُبْهَةٍ دَخَلَتْ عَلَيْهِمَا. وَكِلْتَاهُمَا عِنْدَ أَنْفُسِهِمَا مُحِقَّةٌ، فَالْوَاجِبُ إِزَالَةُ الشُّبْهَةِ بِالْحُجَجِ النَّيِّرَةِ وَالْبَرَاهِينِ الْقَاطِعَةِ، وَإِطْلَاعُهُمَا عَلَى مَرَاشِدِ الْحَقِّ. فَإِنْ رَكِبَتَا مَتْنَ اللَّجَاجِ وَلَمْ تَعْمَلَا عَلَى شَاكِلَةِ مَا هُدِيَتَا إِلَيْهِ وَنَصَحَتَا مِنَ اتِّبَاعِ الْحَقِّ بَعْدَ وُضُوحِهِ لَهُمَا، فَقَدْ لَحِقَتَا بِالْفِئَتَيْنِ الْبَاغِيَتَيْنِ. وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ إِحْدَاهُمَا الْبَاغِيَةُ عَلَى الْأُخْرَى، فَالْوَاجِبُ أَنْ تَقَاتِلَ فِئَةُ الْبَغْيِ إِلَى أَنْ تَكُفَّ وَتَتُوبَ، فَإِنْ فَعَلَتْ أَصْلَحَ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ الْمُبْغَى عَلَيْهَا بِالْقِسْطِ وَالْعَدْلِ، وَفِي ذَلِكَ تَفَاصِيلُ: إِنْ كَانَتِ الْبَاغِيَةُ مِنْ قِلَّةِ الْعَدَدِ بِحَيْثُ لَا مَنْعَةَ لَهَا: ضَمِنَتْ بَعْدَ الْفَيْئَةِ مَا جُنَّتْ، وَإِنْ كَانَتْ كَثِيرَةً ذَاتَ مَنْعَةٍ وَشَوْكَةٍ، لَمْ تَضْمَنْ إِلَّا عِنْدَ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ –رَحِمَهُ اللَّهُ–، فَإِنْ كَانَ يُفْتِي بِأَنَّ الضَّمَانَ يَلْزَمُهَا إِذَا فَاءَتْ.

وَأَمَّا قَبْلَ التَّجَمُّعِ وَالتَّجَنُّدِ أَوْ حِينَ تَتَفَرَّقُ عِنْدَ وَضْعِ الْحَرْبِ أَوْزَارَهَا، فَمَا جَنَتْهُ ضَمَّنَتْهُ عِنْدَ الْجَمِيعِ، فَمَحْمَلُ الْإِصْلَاحِ بِالْعَدْلِ فِي قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ﴾[1] عَلَى مَذْهَبِ مُحَمَّدٍ وَاضِحٌ مُنْطَبِقٌ عَلَى لَفْظِ التَّنْزِيلِ، وَعَلَى قَوْلِ غَيْرِهِ: وَجْهُهُ أَنْ يُحْمَلَ عَلَى كَوْنِ الْفِئَةِ قَلِيلَةَ الْعَدَدِ، وَالَّذِي ذَكَرُوا أَنَّ الْغَرَضَ إِمَاتَةُ الضَّغَائِنِ وَسَلُّ الْأَحْقَادِ دُونَ ضَمَانِ الْجِنَايَاتِ: لَيْسَ بِحَسَنِ الطِّبَاقِ لِلْمَأْمُورِ بِهِ مِنْ أَعْمَالِ الْعَدْلِ وَمُرَاعَاةِ الْقِسْطِ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَلِمَ قَرَنَ بِالْإِصْلَاحِ الثَّانِي الْعَدْلَ دُونَ الْأَوَّلِ؟

---

[1] سورة ، الآية .

قُلْتُ: لِأَنَّ الْمُرَادَ بِالِاقْتِتَالِ فِي أَوَّلِ الْآيَةِ أَنْ يَقْتَتِلَا بَاغِيَتَيْنِ مَعًا أَوْ رَاكِبَتَيْ شُبْهَةٍ، وَأَيَّتُهُمَا كَانَتْ، فَالَّذِي يَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَأْخُذُوا بِهِ فِي شَأْنِهِمَا: إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ، وَتَسْكِينُ الدَّهْمَاءِ بِإِرَادَةِ الْحَقِّ وَالْمَوَاعِظِ الشَّافِيةِ، وَنَفْي الشُّبْهَةِ، إِلَّا إِذَا أَصَرَّتَا، فَحِينَئِذٍ تَجِبُ الْمُقَاتَلَةُ. وَأَمَّا الضَّمَانُ فَلَا يَتَّجِهُ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ إِذَا بَغَتْ إِحْدَاهُمَا، فَإِنَّ الضَّمَانَ مُتَّجِهٌ عَلَى الْوَجْهَيْنِ الْمَذْكُورَيْنِ.

﴿وَأَقْسِطُواْ﴾[1]: أَمَرَ بِاسْتِعْمَالِ الْقِسْطِ عَلَى طَرِيقِ الْعُمُومِ بَعْدَ مَا أَمَرَ بِهِ فِي إِصْلَاحِ ذَاتِ الْبَيْنِ، وَالْقَوْلِ فيهِ مِثْلُهُ فِي الْأَمْرِ بِاتِّقَاءِ اللَّهِ عَلَى عَقِبِ النَّهْيِ عَنِ التَّقْدِيمِ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَالْقِسْطِ بِالْفَتْحِ-: الْجَوْرُ مِنَ الْقِسْطِ: وَهُوَ اعْوِجَاجٌ فِي الرِّجْلَيْنِ. وَعُودٌ قَاسِطٌ: يَابِسٌ. وَأَقْسَطَتْهُ الرِّيَاحُ.

وَأَمَّا الْقِسْطُ بِمَعْنَى الْعَدْلِ، فَالْفِعْلُ مِنْهُ: أَقْسَطَ، وَهَمْزَتُهُ لِلسَّلْبِ، أَيْ: أَزَالَ الْقِسْطَ وَهُوَ الْجَوْرُ.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[2]

هَذَا تَقْرِيرٌ لِمَا أَلْزَمَهُ مَنْ تَوَلِّي الْإِصْلَاحَ بَيْنَ مَنْ وَقَعَتْ بَيْنَهُمُ الْمُشَاقَّةُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَبَيَانُ أَنَّ الْإِيمَانَ قَدْ عُقِدَ بَيْنَ أَهْلِهِ مِنَ السَّبَبِ الْقَرِيبِ وَالنَّسَبِ اللَّاصِقِ: مَا إِنْ لَمْ يُفَضِّلِ الْأُخُوَّةَ وَلَمْ يُبْرِزْ عَلَيْهَا لَمْ يَنْقُصْ عَنْهَا وَلَمْ يَتَقَاصَرْ عَنْ غَايَتِهَا. ثُمَّ قَدْ جَرَتْ عَادَةُ النَّاسِ عَلَى أَنَّهُ إِذَا نَشَبَ مِثْلَ ذَلِكَ بَيْنَ اثْنَيْنِ مِنْ إِخْوَةِ الْوِلَادِ، لَزِمَ السَّائِرُ أَنْ يَتَنَاهَضُوا فِي رَفْعِهِ وَإِزَاحَتِهِ، وَيَرْكَبُوا الصَّعْبَ وَالذَّلُولَ مَشْيًا بِالصُّلْحِ وَبَثًّا لِلسُّفَرَاءِ بَيْنَهُمَا، إِلَى أَنْ يُصَادِفَ مَا وَهِيَ مِنَ الْوِفَاقِ مَنْ يُرَقِّعُهُ، وَمَا اسْتَشَنَّ مِنَ الْوِصَالِ مَنْ يَبُلُّهُ، فَالْأُخُوَّةُ فِي الدِّينِ أَحَقُّ بِذَلِكَ وَبِأَشَدَّ مِنْهُ.

وَعَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يَخْذُلُهُ ، وَلَا يَعِيبُهُ، وَلَا يَتَطَاوَلُ عَلَيْهِ فِي الْبُنْيَانِ فيسْتُرُ عَنْهُ الرِّيحَ إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَلَا يُؤْذِيهِ بِقُتَارِ قَدْرِهِ. ثُمَّ قَالَ: "احْفَظُوا، وَلَا يَحْفَظُ مِنْكُمْ إِلَّا قَلِيلٌ".

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

فَإِنْ قُلْتَ: فَلِمَ خَصَّ الِاثْنَانِ بِالذِّكْرِ دُونَ الْجَمْعِ؟

قُلْتُ: لِأَنَّ أَقَلَّ مَنْ يَقَعُ بَيْنَهُمُ الشِّقَاقُ اثْنَانِ، فَإِذَا لَزِمَتِ الْمُصَالَحَةُ بَيْنَ الْأَقَلِّ كَانَتْ بَيْنَ الْأَكْثَرِ أَلْزَمُ، لِأَنَّ الْفَسَادَ في شِقَاقِ الْجَمْعِ أَكْثَرُ مِنْهُ في شِقَاقِ الِاثْنَيْنِ، وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالْأَخَوَيْنِ الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ، وَقُرِئَ: (بَيْنَ إِخْوَتِكُمْ وَإِخْوَانِكُمْ).

وَالْمَعْنَى: لَيْسَ الْمُؤْمِنُونَ إِلَّا إِخْوَةٌ، وَأَنَّهُمْ خُلَّصٌ لِذَلِكَ مُتَمَحِّضُونَ، قَدِ انْزَاحَتْ عَنْهُمْ شُبَهَاتُ الْأَجْنَبِيَّةِ، وَأَبَى لُطْفُ حَالِهِمْ في التَّمَازُجِ وَالِاتِّحَادِ أَنْ يُقَدِّمُوا عَلَى مَا يَتَوَلَّدُ مِنْهُ التَّقَاطُعُ، فَبَادِرُوا قَطْعَ مَا يَقَعُ مِنْ ذَلِكَ إِنْ وَقَعَ وَاحْسِمُوهُ.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾[1]، فَإِنَّكُمْ إِنْ فَعَلْتُمْ لَمْ تَحْمِلْكُمُ التَّقْوَى إِلَّا عَلَى التَّوَاصُلِ وَالِائْتِلَافِ، وَالْمُسَارَعَةِ إِلَى إِمَاطَةِ مَا يَفْرِطُ مِنْهُ، وَكَانَ عِنْدَ فِعْلِكُمْ ذَلِكَ وُصُولُ رَحْمَةِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ، وَاشْتِمَالُ رَأْفَتِهِ عَلَيْكُمْ حَقِيقًا بِأَنْ تَعْقِدُوا بِهِ رَجَاءَكُمْ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[2]

الْقَوْمُ: الرِّجَالُ خَاصَّةً، لِأَنَّهُمُ الْقُوَّامُ بِأُمُورِ النِّسَاءِ. قَالَ اللَّهُ –تَعَالَى–: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾[3].]النِّسَاءُ: 34] وَقَالَ –عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ–: "النِّسَاءُ لَحْمٌ عَلَى وَضَمٍ إِلَّا مَا ذُبَّ عَنْهُ"، وَالذَّابُّونَ هُمُ الرِّجَالُ، وَهُوَ في الْأَصْلِ جَمْعُ قَائِمٍ، كَصُوَّمٍ وَزُوَّرٍ: في جَمْعِ صَائِمٍ وَزَائِرٍ، أَوْ تَسْمِيَةٍ بِالْمَصْدَرِ.

عَنْ بَعْضِ الْعَرَبِ: إِذَا أَكَلْتَ طَعَامًا أَحْبَبْتَ نَوْمًا وَأَبْغَضْتَ قَوْمًا، أَيْ قِيَامًا، وَاخْتِصَاصُ الْقَوْمِ بِالرِّجَالِ: صَرِيحٌ في الْآيَةِ وَفى قَوْلِ زُهَيْرٍ:

أَقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أَمْ نِسَـــــــــــاءُ؟

وَأَمَّا قَوْلُهُمْ في قَوْمِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِ عَادٍ :هُمُ الذُّكُورُ وَالْإِنَاثُ، فَلَيْسَ لَفْظُ الْقَوْمِ بِمُتَعَاطٍ لِلْفَرِيقَيْنِ، وَلَكِنَّ قَصْدَ ذِكْرِ الذُّكُورِ وَتَرْكَ ذِكْرِ الْإِنَاثِ، لِأَنَّهُنَّ تَوَابِعٌ لِرِجَالِهِنَّ، وَتَنْكِيرُ

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

الْقَوْمِ وَالنِّسَاءِ يَحْتَمِلُ مَعْنَيَيْنِ: أَنْ يُرَادَ: لَا يَسْخَرُ بَعْضُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ مِنْ بَعْضٍ، وَأَنْ تَقْصِدَ إِفَادَةُ الشِّيَاعِ، وَأَنْ تَصِيرَ كُلُّ جَمَاعَةٍ مِنْهُمْ مَنْهِيَّةً عَنِ السُّخْرِيَةِ.

وَإِنَّمَا لَمْ يَقُلْ: رَجُلٌ مِنْ رَجُلٍ، وَلَا امْرَأَةٌ مِنَ امْرَأَةٍ عَلَى التَّوْحِيدِ، إِعْلَامًا بِإِقْدَامِ غَيْرِ وَاحِدٍ مِنْ رِجَالِهِمْ وَغَيْرِ وَاحِدَةٍ مِنْ نِسَائِهِمْ عَلَى السُّخْرِيَةِ، وَاسْتِفْظَاعًا لِلشَّأْنِ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ، وَلِأَنَّ مَشْهَدَ السَّاخِرِ لَا يَكَادُ يَخْلُو مِمَّنْ يَتَلَهَّى وَيَسْتَضْحِكُ عَلَى قَوْلِهِ، وَلَا يَأْتِي مَا عَلَيْهِ مِنَ النَّهْيِ وَالْإِنْكَارِ، فيكُونُ شَرِيكَ السَّاخِرِ وَتَلَوْهُ فِي تَحَمُّلِ الْوِزْرِ، وَكَذَلِكَ كُلُّ مَنْ يَطْرُقُ سَمْعَهُ فيسْتَطِيبُهُ وَيَضْحَكُ بِهِ، فيؤَدِّي ذَلِكَ –وَإِنْ أَوْجَدَهُ وَاحِدٌ– إِلَى تَكَثُّرِ السُّخْرَةِ وَانْقِلَابِ الْوَاحِدِ جَمَاعَةً وَقَوْمًا.

وَقَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ﴾[1] كَلَامٌ مُسْتَأْنَفٌ قَدْ وَرَدَ مَوْرِدَ جَوَابِ الْمُسْتَخْبِرِ عَنِ الْعِلَّةِ الْمُوجِبَةِ لَمَّا جَاءَ النَّهْيُ عَنْهُ، وَإِلَّا فَقَدْ كَانَ حَقُّهُ أَنْ يُوصَلَ بِمَا قَبْلَهُ بِالْفَاءِ.

وَالْمَعْنَى: وُجُوبُ أَنْ يَعْتَقِدَ كُلُّ أَحَدٍ أَنَّ الْمَسْخُورَ مِنْهُ رُبَّمَا كَانَ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرًا مِنَ السَّاخِرِ، لِأَنَّ النَّاسَ لَا يَطَّلِعُونَ إِلَّا عَلَى ظَوَاهِرِ الْأَحْوَالِ وَلَا عِلْمَ لَهُمْ بِالْخَفِيَاتِ.

وَإِنَّمَا الَّذِي يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ، خُلُوصُ الضَّمَائِرِ وَتَقْوَى الْقُلُوبِ، وَعِلْمُهُمْ مِنْ ذَلِكَ بِمَعْزِلٍ، فيَنْبَغِي أَنْ لَا يَجْتَرِئَ أَحَدٌ عَلَى الِاسْتِهْزَاءِ بِمَنْ تَقْتَحِمُهُ عَيْنُهُ إِذَا رَآهُ رَثَّ الْحَالِ، أَوْ ذَا عَاهَةٍ فِي بَدَنِهِ، أَوْ غَيْرَ لَبِيقٍ فِي مُحَادَثَتِهِ، فَلَعَلَّهُ أَخْلَصُ ضَمِيرًا وَأَتْقَى قَلْبًا مِمَّنْ هُوَ عَلَى ضِدِّ صِفَتِهِ، فيظْلِمُ نَفْسَهُ بِتَحْقِيرِ مَنْ وَقَّرَهُ اللَّهُ وَالِاسْتِهَانَةِ بِمَنْ عَظَّمَهُ اللَّهُ، وَلَقَدْ بَلَغَ بِالسَّلَفِ إِفْرَاطُ تَوَقِّيهِمْ وَتَصَوُّنِهِمْ.

مِنْ ذَلِكَ أَنْ قَالَ عُمَرُ بْنُ شُرَحْبِيلَ: لَوْ رَأَيْتُ رَجُلًا يَرْضَعُ عَنَزًا فَضَحِكْتُ مِنْهُ: خَشِيتُ أَنْ أَصْنَعَ مِثْلَ الَّذِي صَنَعَهُ.

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ: الْبَلَاءُ مُوَكَّلٌ بِالْقَوْلِ، لَوْ سَخِرْتَ مِنْ كَلْبٍ لَخَشِيتَ أَنْ أُحَوَّلَ كَلْبًا.

وَفِي قِرَاءَةِ عَبْدِ اللَّهِ: (عَسَوْا أَنْ يَكُونُوا) وَ (عَسَيْنَ أَنْ يَكُنَّ)، فَعَسَى عَلَى هَذِهِ الْقِرَاءَةِ هِيَ ذَاتُ الْخَبَرِ كَالَّتِي فِي قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ﴾[2]،]مُحَمَّدُ: 222]

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

وَعَلَى الْأُولَى الَّتِي لَا خَبَرَ لَهَا كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا﴾[1]]الْبَقَرَةُ: 2166].

وَاللَّمْزُ: الطَّعْنُ وَالضَّرْبُ بِاللِّسَانِ. وَقُرِئَ: (وَلَا تَلْمِزُوا) بِالضَّمِّ.

وَالْمَعْنَى: وَخُصُّوا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ أَنْفُسَكُمْ بِالِانْتِهَاءِ مِنْ عَيْبِهَا وَالطَّعْنِ فيها، وَلَا عَلَيْكُمْ أَنْ تُعِيبُوا غَيْرَكُمْ مِمَّنْ لَا يَدِينُ بِدِينِكُمْ وَلَا يَسِيرُ بِسِيرَتِكُمْ، فَفِي الْحَدِيثِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "اذْكُرُوا الْفَاجِرَ بِمَا فِيهِ كَيْ يَحْذَرَهُ النَّاسُ".

وَعَنِ الْحَسَنِ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– في ذِكْرِ الْحَجَّاجِ: أَخْرَجَ إِلَيَّ بَنَانًا قَصِيرَةً قَلَّمَا عَرِقَتْ فيها الْأَعِنَّةُ في سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ جَعَلَ يُطَبْطِبُ شُعَيْرَاتٍ لَهُ وَيَقُولُ: يَا أَبَا سَعِيدٍ يَا أَبَا سَعِيدٍ ، وَقَالَ لَمَّا مَاتَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ أَمَتُّهُ فَاقْطَعْ سُنَّتَهُ، فَإِنَّهُ أَتَانَا أُخَيْفِشَ أُعَيْمِشَ يَخْطُرُ في مِشْيَتِهِ وَيَصْعَدُ الْمِنْبَرَ حَتَّى تَفُوتَهُ الصَّلَاةُ، لَا مِنَ اللَّهِ يَتَّقِي وَلَا مِنَ النَّاسِ يَسْتَحِي، فَوْقَهُ اللَّهُ وَتَحْتَهُ مِائَةُ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ، لَا يَقُولُ لَهُ قَائِلٌ: الصَّلَاةُ أَيُّهَا الرَّجُلُ الصَّلَاةُ أَيُّهَا الرَّجُلُ، هَيْهَاتَ دُونَ ذَلِكَ السَّيْفِ وَالسَّوْطِ.

وَقِيلَ: مَعْنَاهُ لَا يَعِبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا، لِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ، فَمَتَى عَابَ الْمُؤْمِنُ الْمُؤْمِنَ فَكَأَنَّمَا عَابَ نَفْسَهُ.

وَقِيلَ: مَعْنَاهُ لَا تَفْعَلُوا مَا تَلْمِزُونَ بِهِ، لِأَنَّ مِنْ فَعَلَ مَا اسْتَحَقَّ بِهِ اللَّمْزَ فَقَدَ لَمَزَ نَفْسَهُ حَقِيقَةً.

وَالتَّنَابُزُ بِالْأَلْقَابِ: التَّدَاعِي بِهَا: تَفَاعَلَ مِنْ نَبَزَهُ، وَبَنُو فُلَانٍ يَتَنَابَزُونَ وَيَتَنَازَبُونَ وَيُقَالُ: النَّبْزُ وَالنَّزْبُ: لَقَبُ السُّوءِ وَالتَّلْقِيبُ الْمَنْهِيُّ عَنْهُ، وَهُوَ مَا يَتَدَاخَلُ الْمَدْعُوُّ بِهِ كَرَاهَةً، لِكَوْنِهِ تَقْصِيرًا بِهِ وَذَمًّا لَهُ وَشَيْنًا، فَأَمَّا مَا يُحِبُّهُ مِمَّا يُزَيِّنُهُ وَيُنَوِّهُ بِهِ فَلَا بَأْسَ بِهِ.

رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "مِنْ حَقِّ الْمُؤْمِنِ عَلَى أَخِيهِ أَنْ يُسَمِّيَهِ بِأَحَبِّ أَسْمَائِهِ إِلَيْهِ "وَلِهَذَا كَانَتِ التَّكْنِيَةُ مِنَ السُّنَّةِ وَالْأَدَبِ الْحَسَنِ.

قَالَ عُمَرُ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: أَشِيعُوا الْكُنَى فَإِنَّهَا مُنَبِّهَةٌ.

وَلَقَدْ لُقِّبَ أَبُو بَكْرٍ بِالْعَتِيقِ وَالصِّدِّيقِ، وَعُمَرُ بِالْفَارُوقِ، وَحَمْزَةُ بِأَسَدِ اللَّهِ، وَخَالِدُ بِسَيْفِ اللَّهِ، وَقَلَّ مِنَ الْمَشَاهِيرِ في الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ مَنْ لَيْسَ لَهُ لَقَبٌ، وَلَمْ تَزَلْ هَذِهِ الْأَلْقَابُ الْحَسَنَةُ في الْأُمَمِ كُلِّهَا مِنَ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ تَجْرِي في مُخَاطَبَاتِهِمْ وَمُكَاتَبَاتِهِمْ مِنْ غَيْرِ نَكِيرٍ.

---

[1] سورة ، الآية .

رُوِيَ الضَّحَاكِ أَنَّ قَوْمًا مِنْ بَنِي تَمِيمٍ اسْتَهْزَءُوا بِبِلَالٍ وَخَبَّابٍ وَعَمَّارٍ وَصُهَيْبٍ وَأَبِي ذَرٍّ وَسَالِمٍ مَوْلَى حُذَيْفَةَ، فَنَزَلَتْ.

وَعَنْ عَائِشَةَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا– أَنَّهَا كَانَتْ تَسْخَرُ مِنْ زَيْنَبَ بِنْتِ خُزَيْمَةَ الْهِلَالِيَّةِ وَكَانَتْ قَصِيرَةً.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ رُبِطَتْ حَقْوَيْهَا بِسَبْيَةٍ وَسَدَلَتْ طَرَفَهَا خَلْفَهَا وَكَانَتْ تَجُرُّهُ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ لِحَفْصَةَ: انْظُرِي مَا تَجُرُّ خَلْفَهَا كَأَنَّهُ لِسَانُ كَلْبٍ.

وَعَنْ أَنَسٍ: عَيَّرَتْ نِسَاءُ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أُمَّ سَلَمَةَ بِالْقِصْرِ.

وَعَنْ عِكْرِمَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ صَفِيَةَ بِنْتَ حُيَيٍّ أَتَتْ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فَقَالَتْ: إِنَّ النِّسَاءَ يُعَيِّرْنَنِي وَيَقُلْنَ يَا يَهُودِيَّةُ بِنْتَ يَهُودِيِّينَ، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "هَلَّا قُلْتِ: إِنَّ أَبِي هَارُونُ وَإِنَّ عَمِّي مُوسَى وَإِنَّ زَوْجِي مُحَمَّدُ".

رُوِيَ :أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي ثَابِتِ بْنِ قَيْسٍ وَكَانَ بِهِ وَقْرٌ، وَكَانُوا يُوَسِّعُونَ لَهُ فِي مَجْلِسِ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– لِيَسْمَعَ، فَأَتَى يَوْمًا وَهُوَ يَقُولُ: تُفْسِحُوا لِي، حَتَّى انْتَهَى إِلَى رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ–، فَقَالَ لِرَجُلٍ: تَنَحَّ، فَلَمْ يَفْعَلْ، فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ الرَّجُلُ: أَنَا فُلَانٌ، فَقَالَ: بَلْ أَنْتَ ابْنُ فُلَانَةَ، يُرِيدُ: أَمَا كَانَ يُعَيَّرُ بِهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَخَجِلَ الرَّجُلُ فَنَزَلَتْ، فَقَالَ ثَابِتٌ: لَا أَفْخَرُ عَلَى أَحَدٍ فِي الْحَسَبِ بَعْدَهَا أَبَدًا "الِاسْمُ" هَاهُنَا بِمَعْنَى الذِّكْرِ، مِنْ قَوْلِهِمْ: طَارَ اسْمُهُ فِي النَّاسِ بِالْكَرَمِ أَوْ بِاللُّؤْمِ، كَمَا يُقَالُ: طَارَ ثَنَاؤُهُ وَصِيتُهُ. وَحَقِيقَتُهُ: مَا سَمَا مِنْ ذِكْرِهِ وَارْتَفَعَ بَيْنَ النَّاسِ.

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِمْ: أَشَادَ بِذِكْرِهِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: بِئْسَ الذِّكْرُ الْمُرْتَفِعُ لِلْمُؤْمِنِينَ بِسَبَبِ ارْتِكَابِ هَذِهِ الْجَرَائِرِ أَنْ يُذَكَّرُوا بِالْفِسْقِ؟

وَفِي قَوْلِهِ: ﴿بَعْدَ الإِيمَانِ﴾[1] ثَلَاثَةُ أَوْجُهٍ:

– أَحَدُهَا اسْتِقْبَاحُ الْجَمْعِ بَيْنَ الْإِيمَانِ وَبَيْنَ الْفِسْقِ الَّذِي يَأْبَاهُ الْإِيمَانُ وَيَحْظُرُهُ، كَمَا تَقُولُ: بِئْسَ الشَّأْنُ بَعْدَ الْكِبْرَةِ الصَّبْوَةُ،

– وَالثَّانِي: أَنَّهُ كَانَ فِي شَتَائِمِهِمْ لِمَنْ أَسْلَمَ مِنَ الْيَهُودِ: يَا يَهُودِيُّ يَا فَاسِقُ، فَنُهُوا عَنْهُ، وَقِيلَ لَهُمْ: بِئْسَ الذِّكْرُ أَنْ تَذْكُرُوا الرَّجُلَ بِالْفِسْقِ وَالْيَهُودِيَّةِ بَعْدَ إِيمَانِهِ، وَالْجُمْلَةُ عَلَى هَذَا التَّفْسِيرِ مُتَعَلِّقَةٌ بِالنَّهْيِ عَنِ التَّنَابُزِ.

---

[1] سورة ، الآية .

– وَالثَّالِثُ: أَنْ يُجْعَلَ مِنْ فِسْقٍ غَيْرِ مُؤْمِنٍ، كَمَا تَقُولُ لِلْمُتَحَوِّلِ عَنِ التِّجَارَةِ إِلَى الْفِلَاحَةِ: بِئْسَتِ الْحِرْفَةُ الْفِلَاحَةُ بَعْدَ التِّجَارَةِ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾[1]

يُقَالُ: جَنَّبَهُ الشَّرَّ إِذَا أَبْعَدَهُ عَنْهُ، وَحَقِيقَتُهُ: جَعْلُهُ مِنْهُ فِي جَانِبٍ، فيعَدَّى إِلَى مَفْعُولَيْنِ. قَالَ اللَّهُ –عَزَّ وَجَلَّ–: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾[2]]إِبْرَاهِيمُ: 355]، ثُمَّ يُقَالُ فِي مُطَاوَعِهِ: اجْتَنِبِ الشَّرَّ فَتَنْقُصُ الْمُطَاوَعَةُ مَفْعُولًا.

وَالْمَأْمُورُ بِاجْتِنَابِهِ هُوَ بَعْضُ الظَّنِّ، وَذَلِكَ الْبَعْضُ مَوْصُوفٌ بِالْكَثْرَةِ: أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾[3]؟

فَإِنْ قُلْتَ: بَيِّنِ الْفَصْلَ بَيْنَ ﴿كَثِيرًا﴾[4]، حَيْثُ جَاءَ نَكِرَةً وَبَيْنَهُ لَوْ جَاءَ مَعْرِفَةً.

قُلْتُ: مَجِيئُهُ نَكِرَةً يُفِيدُ مَعْنَى الْبَعْضِيَّةِ، وَإِنَّ فِي الظُّنُونِ مَا يَجِبُ أَنْ يَجْتَنِبَ مِنْ غَيْرِ تَبْيِينٍ لِذَلِكَ وَلَا تَعْيِينٍ، لِئَلَّا يَجْتَرِئَ أَحَدٌ عَلَى ظَنٍّ إِلَّا بَعْدَ نَظَرٍ وَتَأَمُّلٍ، وَتَمْيِيزٍ بَيْنَ حَقِّهِ وَبَاطِلِهِ بِأَمَارَةٍ بَيِّنَةٍ، مَعَ اسْتِشْعَارٍ لِلتَّقْوَى وَالْحَذَرِ، وَلَوْ عُرِفَ لَكَانَ الْأَمْرُ بِاجْتِنَابِ الظَّنِّ مَنُوطًا بِمَا يَكْثُرُ مِنْ دُونِ مَا يَقِلُّ، وَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ كُلُّ ظَنٍّ مُتَّصِفٌ بِالْكَثْرَةِ مُجْتَنَبًا، وَمَا اتَّصَفَ مِنْهُ بِالْقِلَّةِ مُرَخَّصًا فِي تَظَنِّيهِ.

وَالَّذِي يُمَيِّزُ الظُّنُونَ الَّتِي يَجِبُ اجْتِنَابُهَا عَمَّا سِوَاهَا: أَنَّ كُلَّ مَا لَمْ تُعْرَفْ لَهُ أَمَارَةٌ صَحِيحَةٌ وَسَبَبٌ ظَاهِرٌ: كَانَ حَرَامًا وَاجِبَ الِاجْتِنَابِ، وَذَلِكَ إِذَا كَانَ الْمَظْنُونُ بِهِ مِمَّنْ شُوهِدَ مِنْهُ السَّتْرُ وَالصَّلَاحُ، وَأُونِسَتْ مِنْهُ الْأَمَانَةُ فِي الظَّاهِرِ، فَظَنُّ الْفَسَادِ وَالْخِيَانَةِ بِهِ مُحَرَّمٌ، بِخِلَافِ مَنِ اشْتَهَرَهُ النَّاسُ يَتَعَاطَى الرِّيَبَ وَالْمُجَاهَرَةَ بِالْخَبَائِثِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

عَنِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَرَّمَ مِنَ الْمُسْلِمِ دَمَهُ وَعِرْضَهُ وَأَنْ يَظُنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوْءِ".

وَعَنِ الْحَسَنِ: كُنَّا فِي زَمَانِ الظَّنِّ بِالنَّاسِ حَرَامٌ، وَأَنْتَ الْيَوْمَ فِي زَمَانٍ اعْمَلْ وَاسْكُتْ، وَظُنَّ بِالنَّاسِ مَا شِئْتَ. وَعَنْهُ: لَا حُرْمَةَ لِفَاجِرٍ. وَعَنْهُ: إِنَّ الْفَاسِقَ إِذَا أَظْهَرَ فِسْقَهُ وَهَتَكَ سِتْرَهُ هَتَكَهُ اللَّهُ، وَإِذَا اسْتَتَرَ لَمْ يُظْهِرِ اللَّهُ عَلَيْهِ لَعَلَّهُ أَنْ يَتُوبَ.

وَقَدْ رُوِيَ: مَنْ أَلْقَى جِلْبَابَ الْحَيَاءِ فَلَا غَيْبَةَ لَهُ. وَالْإِثْمُ: الذَّنْبُ الَّذِي يَسْتَحِقُّ صَاحِبُهُ الْعِقَابَ. وَمِنْهُ قِيلَ لِعُقُوبَتِهِ: الْأَثَامُ، فَعَالٌ مِنْهُ: كَالنَّكَالِ وَالْعَذَابِ وَالْوَبَالِ، قَالَ:

لَقَدْ فَعَلَتْ هَذِي النَّوَى بِيَ فَعْلَةً أَصَابَ النَّوَى قَبْلَ الْمَمَاتِ أَثَامُهَا

وَالْهَمْزَةُ فِيهِ عَنِ الْوَاوِ، كَأَنَّهُ يَثِمُ الْأَعْمَالَ: أَيْ يَكْسِرُهَا بِإِحْبَاطِهِ.

وَقُرِئَ: (وَلَا تَحَسَّسُوا) بِالْحَاءِ، وَالْمَعْنَيَانِ مُتَقَارِبَانِ. يُقَالُ: تَجَسَّسَ الْأَمْرَ إِذَا تَطَلَّبَهُ وَبَحَثَ عَنْهُ: تُفْعَلُ مِنَ الْجَسِّ، كَمَا أَنَّ التَّلَمُّسَ بِمَعْنَى التَّطَلُّبِ مِنَ اللَّمْسِ، لِمَا فِي اللَّمْسِ مِنَ الطَّلَبِ. وَقَدْ جَاءَ بِمَعْنَى الطَّلَبِ فِي قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ﴾[1]]الْجِنُّ: 88] وَالتَّحَسُّسُ: التَّعَرُّفُ مِنَ الْحِسِّ، وَلِتَقَارُبِهِمَا قِيلَ لِمَشَاعِرِ الْإِنْسَانِ: الْحَوَاسُّ بِالْحَاءِ وَالْجِيمِ، وَالْمُرَادُ النَّهْيُ عَنْ تَتَبُّعِ عَوْرَاتِ الْمُسْلِمِينَ وَمَعَايِبِهِمْ وَالِاسْتِكْشَافِ عَمَّا سَتَرُوهُ.

وَعَنْ مُجَاهِدٍ: خُذُوا مَا ظَهَرَ وَدَعُوا مَا سَتَرَهُ اللَّهُ.

وَعَنِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: أَنَّهُ خَطَبَ فَرَفَعَ صَوْتَهُ حَتَّى أَسْمَعَ الْعَوَاتِقَ فِي خُدُورِهِنَّ. وَقَالَ: "يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يَخْلُصِ الْإِيمَانُ إِلَى قَلْبِهِ، لَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنَّ مَنْ تَتَبَّعَ عَوْرَاتِ الْمُسْلِمِينَ تَتَبَّعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ حَتَّى يَفْضَحَهُ وَلَوْ فِي جَوْفِ بَيْتِهِ".

وَعَنْ زَيْدِ بْنِ وَهْبٍ: قُلْنَا لِابْنِ مَسْعُودٍ: هَلْ لَكَ فِي الْوَلِيدِ بْنِ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ تَقْطُرُ لِحْيَتُهُ خَمْرًا؟ فَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: إِنَّا قَدْ نُهِينَا عَنِ التَّجَسُّسِ، فَإِنْ ظَهَرَ لَنَا شَيْءٌ أَخَذْنَا بِهِ. (14855 مكرر) غَابَهُ وَاغْتَابَهُ: كَغَالَهُ وَاغْتَالَهُ. وَالْغَيْبَةُ مِنَ الِاغْتِيَابِ، كَالْغَيْلَةِ مِنَ الِاغْتِيَالِ: وَهِيَ ذِكْرُ السُّوءِ فِي الْغَيْبَةِ، سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– عَنِ الْغَيْبَةِ فَقَالَ: "أَنْ تَذْكُرَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ، فَإِنْ كَانَ فِيهِ فَقَدِ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهَتَّهُ".

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا–: الْغَيْبَةُ إِدَامُ كِلَابِ النَّاسِ.

---

[1] سورة ، الآية .

﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ﴾[1]: تَمْثِيلٌ وَتَصْوِيرٌ لِمَا يَنَالُهُ الْمُغْتَابُ مِنْ عِرْضِ الْمُغْتَابِ عَلَى أَفْظَعِ وَجْهٍ وَأَفْحَشِهِ.

وَفِيهِ مُبَالَغَاتٌ شَتَّى: مِنْهَا الِاسْتِفْهَامُ الَّذِي مَعْنَاهُ التَّقْرِيرُ. وَمِنْهَا جَعْلُ مَا هُوَ فِي الْغَايَةِ مِنَ الْكَرَاهَةِ مَوْصُولًا بِالْمَحَبَّةِ. وَمِنْهَا إِسْنَادُ الْفِعْلِ إِلَى أَحَدِكُمْ وَالْإِشْعَارُ بِأَنْ أَحَدًا مِنَ الْأَحَدَيْنِ لَا يُحِبُّ ذَلِكَ. وَمِنْهَا أَنْ لَمْ يَقْتَصِرْ عَلَى تَمْثِيلِ الِاغْتِيَابِ بِأَكْلِ لَحْمِ الْإِنْسَانِ، حَتَّى جُعِلَ الْإِنْسَانُ أَخًا. وَمِنْهَا أَنْ لَمْ يَقْتَصِرْ عَلَى أَكْلِ لَحْمِ الْأَخِ حَتَّى جُعِلَ مَيْتًا.

وَعَنْ قَتَادَةَ: كَمَا تَكْرَهُ إِنْ وُجِدَتْ جِيفَةٌ مُدَوَّدَةٌ أَنْ تَأْكُلَ مِنْهَا، كَذَلِكَ فَاكْرَهْ لَحْمَ أَخِيكَ وَهُوَ حَيٌّ.

وَانْتَصَبَ ﴿مَيْتًا﴾[2] عَلَى الْحَالِ مِنَ اللَّحْمِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَنْتَصِبَ عَنِ الْأَخِ. وَقُرِئَ: (مَيِّتًا) وَلِمَا قَرَّرَهُمْ -عَزَّ وَجَلَّ- بِأَنَّ أَحَدًا مِنْهُمْ لَا يُحِبُّ أَكْلَ جِيفَةِ أَخِيهِ، عَقَّبَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾[3]، مَعْنَاهُ: فَقَدْ كَرِهْتُمُوهُ وَاسْتَقَرَّ ذَلِكَ. وَفِيهِ مَعْنَى الشَّرْطِ، أَيْ: إِنْ صَحَّ هَذَا فَكَرِهْتُمُوهُ، وَهِيَ الْفَاءُ الْفَصِيحَةُ، أَيْ: فَتَحَقَّقَتْ -بِوُجُوبِ الْإِقْرَارِ عَلَيْكُمْ وَبِأَنَّكُمْ لَا تَقْدِرُونَ عَلَى دَفْعِهِ وَإِنْكَارِهِ، لِإِبَاءِ الْبَشَرِيَّةِ عَلَيْكُمْ أَنْ تَجْحَدُوا- كَرَاهَتَكُمْ لَهُ وَتُقَذُّرَكُمْ مِنْهُ، فَلْيَتَحَقَّقْ أَيْضًا أَنْ تَكْرَهُوا مَا هُوَ نَظِيرُهُ مِنَ الْغَيْبَةِ وَالطَّعْنِ فِي أَعْرَاضِ الْمُسْلِمِينَ.

وَقُرِئَ: (فَكَرِهْتُمُوهُ) أَيْ: جُبِلْتُمْ عَلَى كَرَاهَتِهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: هَلَا عَدَّى بِإِلَى كَمَا عَدَّى فِي قَوْلِهِ: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ﴾[4]، وَأَيُّهُمَا الْقِيَاسُ؟

قُلْتُ: الْقِيَاسُ تَعَدِّيهِ بِنَفْسِهِ، لِأَنَّهُ ذُو مَفْعُولٍ وَاحِدٍ قَبْلَ تَثْقِيلِ حَشْوِهِ، تَقُولُ: كَرِهْتُ الشَّيْءَ، فَإِذَا ثَقُلَ اسْتَدْعَى زِيَادَةَ مَفْعُولٍ.

وَأَمَّا تَعَدِّيهِ بِـ "إِلَى"، فَتَأَوُّلٌ وَإِجْرَاءٌ لِكُرْهِ مَجْرَى بُغْضٍ، لِأَنَّ "بُغْضَ" مَنْقُولٌ مِنْ بَغِضَ إِلَيْهِ الشَّيْءُ، فَهُوَ بَغِيضٌ إِلَيْهِ، كَقَوْلِكَ: حُبَّ إِلَيْهِ الشَّيْءُ فَهُوَ حَبِيبٌ إِلَيْهِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

وَالْمُبَالَغَةُ فِي التَّوَّابِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى كَثْرَةِ مَنْ يَتُوبُ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادِهِ، أَوْ لِأَنَّهُ مَا مِنْ ذَنْبٍ يَقْتَرِفُهُ الْمُقْتَرِفُ إِلَّا كَانَ مَعْفُوًّا عَنْهُ بِالتَّوْبَةِ، أَوْ لِأَنَّهُ بَلِيغٌ فِي قَبُولِ التَّوْبَةِ، مَنْزِلُ صَاحِبِهَا مَنْزِلَةُ مَنْ لَمْ يُذْنِبْ قَطُّ، لِسِعَةِ كَرَمِهِ.

وَالْمَعْنَى: وَاتَّقُوا اللَّهَ بِتَرْكِ مَا أُمِرْتُمْ بِاجْتِنَابِهِ وَالنَّدَمِ عَلَى مَا وُجِدَ مِنْكُمْ مِنْهُ، فَإِنَّكُمْ إِنِ اتَّقَيْتُمْ تَقَبَّلَ اللَّهُ تَوْبَتَكُمْ وَأَنْعَمَ عَلَيْكَ بِثَوَابِ الْمُتَّقِينَ التَّائِبِينَ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ سَلْمَانَ كَانَ يَخْدِمُ رَجُلَيْنِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَيُسَوِّي لَهُمَا طَعَامَهُمَا، فَنَامَ عَنْ شَأْنِهِ يَوْمًا، فَبَعَثَاهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– يَبْغِي لَهُمَا إِدَامًا، وَكَانَ أُسَامَةُ عَلَى طَعَامِ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، فَقَالَ: مَا عِنْدِي شَيْءٌ، فَأَخْبَرَهُمَا سَلْمَانُ بِذَلِكَ، فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَا: لَوْ بَعَثْنَاهُ إِلَى بِئْرِ سَمِيحَةَ لَغَارَ مَاؤُهَا، فَلَمَّا رَاحَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قَالَ لَهُمَا: مَالِي أَرَى خُضْرَةَ اللَّحْمِ فِي أَفْوَاهِكُمَا، فَقَالَا: مَا تَنَاوَلْنَا لَحْمًا فَقَالَ: إِنَّكُمَا قَدِ اغْتَبْتُمَا فَنَزَلَتْ.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[1]

﴿مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾[2]: مِنْ آدَمَ وَحَوَّاءَ.

وَقِيلَ: خَلَقْنَا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مِنْ أَبٍ وَأُمٍّ، فَمَا مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا وَهُوَ يُدْلِي بِمِثْلِ مَا يُدْلِي بِهِ الْآخَرُ سَوَاءٌ بِسَوَاءٍ، فَلَا وَجْهَ لِلتَّفَاخُرِ وَالتَّفَاضُلِ فِي النَّسَبِ.

وَالشَّعْبُ: الطَّبَقَةُ الْأُولَى مِنَ الطَّبَقَاتِ السِّتِّ الَّتِي عَلَيْهَا الْعَرَبُ، وَهِيَ: الشَّعْبُ، وَالْقَبِيلَةُ، وَالْعِمَارَةُ، وَالْبَطْنُ، وَالْفَخْذُ، وَالْفَصِيلَةُ، فَالشَّعْبُ يَجْمَعُ الْقَبَائِلَ، وَالْقَبِيلَةُ تَجْمَعُ الْعَمَائِرَ، وَالْعِمَارَةُ تَجْمَعُ الْبُطُونَ، وَالْبَطْنُ تَجْمَعُ الْأَفْخَاذَ، وَالْفَخْذُ تَجْمَعُ الْفَصَائِلَ: خُزَيْمَةُ شِعْبٌ، وَكِنَانَةُ قَبِيلَةٌ، وَقُرَيْشٌ عِمَارَةٌ، وَقُصَيٌّ بَطْنٌ، وَهَاشِمٌ فَخْذٌ، وَالْعَبَّاسُ فَصِيلَةٌ، وَسُمِّيَتِ الشُّعُوبُ، لِأَنَّ الْقَبَائِلَ تَشَعَّبَتْ مِنْهَا.

وَقُرِئَ: (لِتَتَعَارَفُوا) وَ(لِتَّعَارَفُوا) بِالْإِدْغَامِ. وَ(لِتَعْرِفُوا)، أَيْ لِتَعْلَمُوا كَيْفَ تَتَنَاسَبُونَ. وَ(لِتَتَعَرَّفُوا).

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

وَالْمَعْنَى: أَنَّ الْحِكْمَةَ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا رَتَّبَكُمْ عَلَى شُعُوبٍ وَقَبَائِلَ هِيَ أَنْ يَعْرِفَ بَعْضُكُمْ نَسَبَ بَعْضٍ. فَلَا يُعْتَزَى إِلَى غَيْرِ آبَائِهِ، لَا أَنْ تَتَفَاخَرُوا بِالْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ، وَتَدْعُوا التَّفَاضُلَ فِي الْأَنْسَابِ.

ثُمَّ بَيَّنَ الْخَصْلَةَ الَّتِي بِهَا يُفَضِّلُ الْإِنْسَانُ غَيْرَهُ وَيَكْتَسِبُ الشَّرَفَ وَالْكَرَمَ عِنْدَ اللَّهِ –تَعَالَى–، فَقَالَ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[1]، وَقُرِئَ: (أَنَّ) بِالْفَتْحِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: لِمَ لَا يَتَفَاخَرُ بِالْأَنْسَابِ؟ فَقِيلَ: لِأَنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ لَا أَنْسَبُكُمْ.

وَعَنِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: أَنَّهُ طَافَ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: "الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَتَكَبُّرَهَا، يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا النَّاسُ رَجُلَانِ: مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ كَرِيمٌ عَلَى اللَّهِ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيِّنٌ عَلَى اللَّهِ" ثُمَّ قَرَأَ الْآيَةَ.

وَعَنْهُ –عَلَيْهِ السَّلَامُ–: "مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَكْرَمَ النَّاسِ فَلْيَتَّقِ اللَّهَ".

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: كَرَمُ الدُّنْيَا الْغِنَى، وَكَرَمُ الْآخِرَةِ التَّقْوَى.

وَعَنْ يَزِيدَ بْنِ شَجَرَةَ: مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سُوقِ الْمَدِينَةِ فَرَأَى غُلَامًا أَسْوَدَ يَقُولُ: مَنِ اشْتَرَانِي فَعَلَى شَرْطٍ لَا يَمْنَعُنِي عَنِ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ–، فَاشْتَرَاهُ رَجُلٌ فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ– يَرَاهُ عِنْدَ كُلِّ صَلَاةٍ، فَفَقَدَهُ يَوْمًا فَسَأَلَ عَنْهُ صَاحِبُهُ، فَقَالَ: مَحْمُومٌ، فَعَادَهُ ثُمَّ سَأَلَ عَنْهُ بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، فَقَالَ: هُوَ لَمَّا بِهِ، فَجَاءَهُ وَهُوَ فِي دِمَائِهِ. فَتُوَلَّى غَسْلَهُ وَدَفْنَهُ، فَدَخَلَ عَلَى الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ أَمْرٌ عَظِيمٌ، فَنَزَلَتْ.

﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[2]

الْإِيمَانُ: هُوَ التَّصْدِيقُ مَعَ الثِّقَةِ وَطُمَأْنِينَةُ النَّفْسِ. وَالْإِسْلَامُ: الدُّخُولُ فِي السِّلْمِ. وَالْخُرُوجُ مِنْ أَنْ يَكُونَ حَرْبًا لِلْمُؤْمِنِينَ بِإِظْهَارِ الشَّهَادَتَيْنِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾[1]، فَاعْلَمْ أَنَّ مَا يَكُونُ مِنَ الْإِقْرَارِ بِاللِّسَانِ مِنْ غَيْرِ مُوَاطَأَةِ الْقَلْبِ فَهُوَ إِسْلَامٌ، وَمَا وَاطَأَ فِيهِ الْقَلْبُ اللِّسَانَ، فَهُوَ إِيمَانٌ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا وَجْهُ قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾[2]، وَالَّذِي يَقْتَضِيهِ نَظْمُ الْكَلَامِ أَنْ يُقَالَ: قُلْ لَا تَقُولُوا آمَنَّا، وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا، أَوْ قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ أَسْلَمْتُمْ؟

قُلْتُ: أَفَادَ هَذَا النَّظْمُ تَكْذِيبَ دَعْوَاهُمْ أَوَّلًا، وَدَفْعَ مَا انْتَحَلُوهُ، فَقِيلَ: قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا. [3]وَرُوعِيَ فِي هَذَا النَّوْعِ مِنَ التَّكْذِيبِ أَدَبٌ حَسَنٌ حِينَ لَمْ يُصَرِّحْ بِلَفْظِهِ، فَلَمْ يَقُلْ: كَذَبْتُمْ، وَوَضَعَ ﴿لَمْ تُؤْمِنُوا﴾[4] الَّذِي هُوَ نَفْي مَا ادَّعَوْا إِثْبَاتَهُ مَوْضِعَهُ، ثُمَّ نَبَّهَ عَلَى مَا فَعَلَ مِنْ وَضْعِهِ مَوْضِعَ كَذَّبْتُمْ فِي قَوْلِهِ فِي صِفَةِ الْمُخْلِصِينَ ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾[5]]الْحُجُرَاتُ: 155] تَعْرِيضًا بِأَنَّ هَؤُلَاءِ هُمُ الْكَاذِبُونَ، وَرَبَّ تَعْرِيضٌ لَا يُقَاوِمُهُ التَّصْرِيحُ، وَاسْتَغْنَى بِالْجُمْلَةِ الَّتِي هِيَ ﴿لَمْ تُؤْمِنُوا﴾ عَنْ أَنْ يُقَالَ: لَا تَقُولُوا آمَنَّا، لِاسْتِهْجَانِ أَنْ يُخَاطَبُوا بِلَفْظٍ مُؤَدَّاهُ النَّهْيُ عَنِ الْقَوْلِ بِالْإِيمَانِ، ثُمَّ وَصَلَتْ بِهَا الْجُمْلَةُ الْمُصَدَّرَةُ بِكَلِمَةِ الِاسْتِدْرَاكِ مَحْمُولَةً عَلَى الْمَعْنَى، وَلَمْ يَقُلْ: وَلَكِنْ أَسْلَمْتُمْ، لِيَكُونَ خَارِجًا مَخْرَجَ الزَّعْمِ وَالدَّعْوَى، كَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ: ﴿آمَنَّا﴾[6] كَذَلِكَ، وَلَوْ قِيلَ: وَلَكِنْ أَسْلَمْتُمْ، لَكَانَ خُرُوجُهُ فِي مَعْرِضِ التَّسْلِيمِ لَهُمْ وَالِاعْتِدَادِ بِقَوْلِهِمْ، وَهُوَ غَيْرُ مُعْتَدٍّ بِهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: قَوْلُهُ: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾[7] بَعْدَ قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا﴾[8] يُشْبِهُ التَّكْرِيرَ مِنْ غَيْرِ اسْتِقْلَالٍ بِفَائِدَةٍ مُتَجَدِّدَةٍ.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .
[8] سورة ، الآية .

قُلْتُ: لَيْسَ كَذَلِكَ، فَإِنَّ فَائِدَةَ قَوْلِهِ: ﴿لَمْ تُؤْمِنُوا﴾[1] هُوَ تَكْذِيبُ دَعْوَاهُمْ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾[2] تَوْقِيتٌ لِمَا أُمِرُوا بِهِ أَنْ يَقُولُوهُ، كَأَنَّهُ قِيلَ لَهُمْ: ﴿وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾[3] حِينَ لَمْ تَثْبُتْ مُوَاطَأَةُ قُلُوبِكُمْ لِأَلْسِنَتِكُمْ، لِأَنَّهُ كَلَامٌ وَاقِعٌ مَوْقِعَ الْحَالِ مِنَ الضَّمِيرِ فِي ﴿قُولُواْ﴾[4] وَمَا فِي ﴿لَمَّا﴾[5] مِنْ مَعْنَى التَّوَقُّعِ: دَالٌّ عَلَى أَنَّ هَؤُلَاءِ قَدْ آمَنُوا فِيمَا بَعْدُ.

﴿لا يَلِتْكُمْ﴾[6]: لَا يَنْقُصُكُمْ وَلَا يَظْلِمُكُمْ. يُقَالُ: أَلَتَهُ السُّلْطَانُ حَقَّهُ أَشَدَّ الْأَلْتِ، وَهِيَ لُغَةُ غَطْفَانَ. وَلُغَةُ أَسَدٍ وَأَهْلِ الْحِجَازِ :لَاتَهُ لِيتًا.

وَحَكَى الْأَصْمَعِيُّ عَنْ أُمِّ هِشَامٍ السَّلُولِيَّةِ أَنَّهَا قَالَتِ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا يُفَاتُ وَلَا يُلَاتُ، وَلَا تَصِمُهُ الْأَصْوَاتُ. وَقُرِئَ بِاللُّغَتَيْنِ: (لَا يَلِتْكُمْ) وَلَا يَأْلِتْكُمْ. وَنَحْوُهُ فِي الْمَعْنَى: ﴿فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾[7].

وَمَعْنَى طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ: أَنْ يَتُوبُوا عَمَّا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ النِّفَاقِ وَيَعْقِدُوا قُلُوبَهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ وَيَعْمَلُوا بِمُقْتَضَيَاتِهِ، فَإِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ تَقَبَّلَ اللَّهُ تَوْبَتَهُمْ، وَوَهَبَ لَهُمْ مَغْفِرَتَهُ. وَأَنْعَمَ عَلَيْهِمْ بِجَزِيلِ ثَوَابِهِ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا– أَنَّ نَفَرًا مِنْ بَنِي أَسَدٍ قَدِمُوا الْمَدِينَةَ فِي سَنَةٍ جَدْبَةٍ، فَأَظْهَرُوا الشَّهَادَةَ، وَأَفْسَدُوا طُرُقَ الْمَدِينَةِ بِالْعُذُرَاتِ، وَأَغْلَوْا أَسْعَارَهَا، وَهُمْ يَغْدُونَ وَيَرُوحُونَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَيَقُولُونَ: أَتَتْكَ الْعَرَبُ بِأَنْفُسِهَا عَلَى ظُهُورِ رَوَاحِلِهَا، وَجِئْنَاكَ بِالْأَثْقَالِ وَالذَّرَارِي، يُرِيدُ الصَّدَقَةَ وَيُمَنُّونَ عَلَيْهِ، فَنَزَلَتْ.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾[8]

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة الْأَنْبِيَاءُ، الآية 47.
[8] سورة ، الآية .

ارْتَابَ: مُطَاوِعٌ رَابَهُ إِذَا أَوْقَعَهُ فِي الشَّكِّ مَعَ التُّهْمَةِ.

وَالْمَعْنَى: أَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ لَمْ يَقَعْ فِي نُفُوسِهِمْ شَكٌّ فِيمَا آمَنُوا بِهِ، وَلَا اتِّهَامٌ لِمَنْ صَدَّقُوهُ وَاعْتَرَفُوا بِأَنَّ الْحَقَّ مِنْهُ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى ثُمَّ هَاهُنَا وَهِيَ التَّرَاخِي وَعَدَمُ الِارْتِيَابِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مُقَارِنًا لِلْإِيمَانِ، لِأَنَّهُ وَصْفٌ فِيهِ، لِمَا بَيَّنْتَ مِنْ إِفَادَةِ الْإِيمَانِ مَعْنَى الثِّقَةِ وَالطُّمَأْنِينَةِ الَّتِي حَقِيقَتُهَا التَّيَقُّنُ وَانْتِفَاءُ الرَّيْبِ؟

قُلْتُ: الْجَوَابُ عَلَى طَرِيقَيْنِ:

– أَحَدُهُمَا أَنَّ مَنْ وُجِدَ مِنْهُ الْإِيمَانُ رُبَّمَا اعْتَرَضَهُ الشَّيْطَانُ أَوْ بَعْضُ الْمُضِلِّينَ بَعْدَ ثَلْجِ الصَّدْرِ فَشَكَّكَهُ وَقَذَفَ فِي قَلْبِهِ مَا يَثْلِمُ يَقِينَهُ، أَوْ نَظَرَ هُوَ نَظَرًا غَيْرَ سَدِيدٍ وَيَسْقُطُ بِهِ عَلَى الشَّكِّ ثُمَّ يَسْتَمِرُّ عَلَى ذَلِكَ رَاكِبًا رَأْسَهُ لَا يَطْلُبُ لَهُ مَخْرَجًا، فَوَصَفَ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا بِالْبُعْدِ عَنْ هَذِهِ الْمُوبِقَاتِ.

وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾[1]]فُصِّلَتْ: 300]

– وَالثَّانِي: أَنَّ الْإِيقَانَ وَزَوَالَ الرَّيْبِ لَمَّا كَانَ مُلَاكُ الْإِيمَانِ أَفْرَدَ بِالذِّكْرِ بَعْدَ تَقَدُّمِ الْإِيمَانِ، تَنْبِيهًا عَلَى مَكَانِهِ، وَعَطَفَ عَلَى الْإِيمَانِ بِكَلِمَةِ التَّرَاخِي إِشْعَارًا بِاسْتِقْرَارِهِ فِي الْأَزْمِنَةِ الْمُتَرَاخِيَةِ الْمُتَطَاوِلَةِ غَضًّا جَدِيدًا.

﴿وَجَاهَدُوا﴾[2]: يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمُجَاهِدُ مَنْوِيًّا وَهُوَ الْعَدُوُّ الْمُحَارِبُ أَوِ الشَّيْطَانُ أَوِ الْهَوَى، وَأَنْ يَكُونَ جَاهِدْ مُبَالَغَةً فِي جَهِدَ.

وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ بِالْمُجَاهَدَةِ بِالنَّفْسِ: الْغَزْوُ، وَأَنْ يَتَنَاوَلَ الْعِبَادَاتِ بِأَجْمَعِهَا، وَبِالْمُجَاهَدَةِ بِالْمَالِ: نَحْوُ مَا صَنَعَ عُثْمَانُ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– فِي جَيْشِ الْعُسْرَةِ، وَأَنْ يَتَنَاوَلَ الزَّكَوَاتِ وَكُلَّ مَا يَتَعَلَّقُ بِالْمَالِ مِنْ أَعْمَالِ الْبِرِّ الَّتِي يَتَحَامَلُ فِيهَا الرَّجُلُ عَلَى مَالِهِ لِوَجْهِ اللَّهِ –تَعَالَى–: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾[3] الَّذِينَ صَدَقُوا فِي قَوْلِهِمْ آمَنَّا، وَلَمْ يَكْذِبُوا كَمَا كَذَبَ أَعْرَابُ بَنِي أَسَدٍ، أَوْ هُمُ الَّذِينَ إِيمَانُهُمْ إِيمَانُ صِدْقٍ وَإِيمَانُ حَقٍّ وَجَدٍّ وَثَبَاتٍ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[1]

يُقَالُ: مَا عَلِمْتُ بِقُدُومِكَ، أَيْ: مَا شَعُرْتُ بِهِ وَلَا أَحَطْتُ بِهِ.

وَمِنْهُ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾[2]، وَفِيهِ تَجْهِيلٌ لَهُمْ.

﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[3]

يُقَالُ: مَنَّ عَلَيْهِ بِيَدٍ أَسْدَاهَا إِلَيْهِ، كَقَوْلِكَ: أَنْعَمَ عَلَيْهِ وَأَفْضَلَ عَلَيْهِ.

وَالْمِنَّةُ: النِّعْمَةُ الَّتِي لَا يَسْتَثِيبُ مُسْدِيهَا مَنْ يُزِلْهَا إِلَيْهِ، اشْتِقَاقُهَا مِنَ الْمَنِّ الَّذِي هُوَ الْقَطْعُ، لِأَنَّهُ إِنَّمَا يُسْدِيهَا إِلَيْهِ لِيَقْطَعَ بِهَا حَاجَتَهُ لَا غَيْرُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَعْمَدَ لِطَلَبِ مَثُوبَةٍ. ثُمَّ يُقَالُ: مَنَّ عَلَيْهِ صَنْعُهُ، إِذَا اعْتَدَّهُ عَلَيْهِ مِنَّةً وَإِنْعَامًا.

وَسِيَاقُ هَذِهِ الْآيَةِ فِيهِ لُطْفٌ وَرَشَاقَةٌ، وَذَلِكَ أَنَّ الْكَائِنَ مِنَ الْأَعَارِيبِ قَدْ سَمَّاهُ اللَّهُ إِسْلَامًا، وَنَفَى أَنْ يَكُونَ كَمَا زَعَمُوا إِيمَانًا، فَلَمَّا مَنُّوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– مَا كَانَ مِنْهُمْ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِرَسُولِهِ –عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ–: إِنَّ هَؤُلَاءِ يَعْتَدُّونَ عَلَيْكَ بِمَا لَيْسَ جَدِيرًا بِالِاعْتِدَادِ بِهِ مَنْ حَدَّثَهُمُ الَّذِي حَقَّ تَسْمِيَتُهُ أَنْ يُقَالَ لَهُ إِسْلَامٌ. فَقُلْ لَهُمْ: لَا تَعْتَدُّوا عَلَى إِسْلَامِكُمْ، أَيْ حَدَثَكُمُ الْمُسَمَّى إِسْلَامًا عِنْدِي لَا إِيمَانًا.

ثُمَّ قَالَ: بَلِ اللَّهُ يَعْتَدُّ عَلَيْكُمْ أَنْ أَمَدَّكُمْ بِتَوْفِيقِهِ حَيْثُ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ عَلَى مَا زَعَمْتُمْ وَادَّعَيْتُمْ أَنَّكُمْ أُرْشِدْتُمْ إِلَيْهِ وَوُفِّقْتُمْ لَهُ إِنْ صَحَّ زَعْمُكُمْ وَصَدَقَتْ دَعْوَاكُمْ، إِلَّا أَنَّكُمْ تَزْعُمُونَ وَتَدَّعُونَ مَا اللَّهُ عَلِيمٌ بِخِلَافِهِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

وَفى إِضَافَةِ الْإِسْلَامِ إِلَيْهِمْ وَإِيرَادِ الْإِيمَانِ غَيْرِ مُضَافٍ: مَا لَا يَخْفى عَلَى الْمُتَأَمِّلِ، وَجَوَابُ الشَّرْطِ مَحْذُوفٌ لِدَلَالَةِ مَا قَبْلَهُ عَلَيْهِ، تَقْدِيرُهُ: إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ في ادِّعَائِكُمُ الْإِيمَانَ، فَلِلَّهِ الْمِنَّةُ عَلَيْكُمْ.

وَقُرِئَ: (إِنْ هَدَاكُمْ) بِكَسْرِ الْهَمْزَةِ.

وَفى قِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: (إِذْ هَدَاكُمْ). وَقُرِئَ: (تَعْلَمُونَ) بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ، وَهَذَا بَيَانٌ لِكَوْنِهِمْ غَيْرَ صَادِقِينَ في دَعْوَاهُمْ، يَعْنِي أَنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَعْلَمُ كُلَّ مُسْتَتِرٍ في الْعَالَمِ وَيُبْصِرُ كُلَّ عَمَلٍ تَعْمَلُونَهُ في سِرِّكُمْ وَعَلَانِيَتِكُمْ، لَا يَخْفى عَلَيْهِ مِنْهُ شَيْءٌ، فَكَيْفَ يَخْفى عَلَيْهِ مَا في ضَمَائِرِكُمْ وَلَا يَظْهَرُ عَلَى صِدْقِكُمْ وَكَذِبِكُمْ، وَذَلِكَ أَنَّ خَالَهُ مَعَ كُلِّ مَعْلُومٍ وَاحِدَةٌ لَا تَخْتَلِفُ؟!

عَنْ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْحُجُرَاتِ أُعْطِي مِنَ الْأَجْرِ بِعَدَدِ مَنْ أَطَاعَ اللَّهَ وَعَصَاهُ".

مح ويا ـ لُك اب

مح وإا ـ لُك اب

كتاب تفسير الكشّاف
الجزء السّادس عشر 19 – 52

محتويات الكتاب 61 – 64

النّاشر: شركة كيرانيس للطّباعة والنّشر والتّوزيع
العنوان: إقامة الزّيتونة – III/2 – المنار 2 – تونس – الجمهوريّة التّونسيّة
الهاتف: 71886914 216+
الفاكس: 71886872 216+
العنوان الالكتروني: JomaaAssaad@yahoo.fr
معرّف النّاشر: 02-9938
عدد الطّبعة: الأولى
ت د م ك: 978-9938-02-070-6

© جميع الحقوق محفوظة لشركة كيرانيس للطّباعة والنّشر والتّوزيع